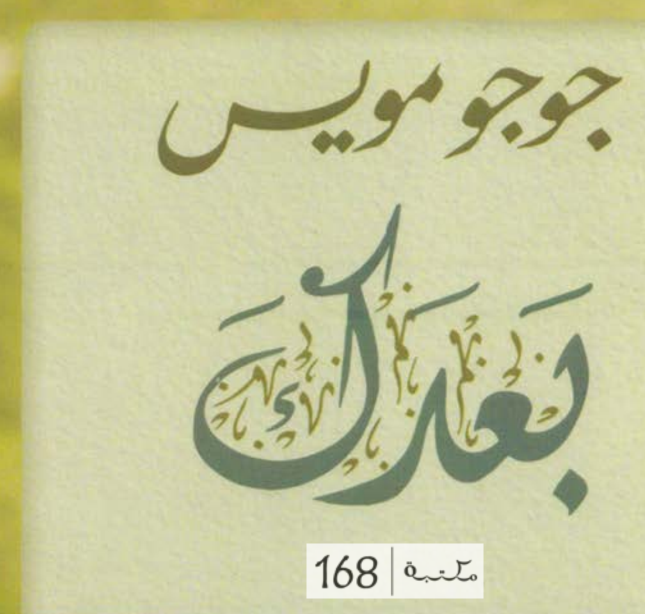
After You الجزء الثاني من Me Before You



بعدك

جوجو مويس





ترجمة : نهى بهمن

جوجو مويس

بعدك

الكتاب: بعدك (رواية)

تأليف: جوجو مويس

ترجمة: نهى بهمن

عدد الصفحات: 464 صفحة

الترقيم الدولي: 1-08-941-9938-978

رقم الناشر: 17/386-114

الطبعة الأولى: 2018

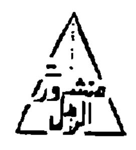
جوجو مويس

بعدك

رواية

ترجمة

نهى بهمن



إلى جدتي، بيتي ماكي

الفصل الأول

جلس الرجل الضخم في آخر الحانة يتصبَّب عرقًا، مطأطئًا رأسه فوق كأس الويسكي مضاعَف الجرعة، إلا أنه كان يستدير كل بضع دقائق لينظر خلفه باتجاه الباب، فتلمع قطرات العرق المتفصِّدة من جبهته تحت الأضواء في سقف الحانة. أطلق زفيرًا حادًا متظاهرًا بأنه يتنهَّد، قبل أن يعود إلى شرابه ثانية.

«مرحبًا، المعذرة؟».

نظرتُ إليه وأنا ألمِّع الكؤوس.

«هل يمكنني الحصول على كأس آخرى؟».

وددتُ أن أخبره أنها ليست فكرة جيدة، وأن ذلك لن يساعده في شيء، بل ربما يكون قد تجاوز الحد المسموح به من الشراب بالفعل. ولكنه رجل ضخم الجثة، ولا تزال هنالك خمس عشرة دقيقة متبقية قبل موعد إغلاق الحانة، وليس لديَّ سبب لرفض طلبه، وفقًا لتعليمات الشركة، لذا ذهبت صوْبه، وأخذت كأسه ورفعتها إلى مستوى البصر. أومأ برأسه مشيرًا إلى الزجاجة التي أصبّ الشراب منها قبل أن يقول «جرعة مضاعفة»، ثم نزل بكف يده المكتنز ماسحًا وجهه اللامع المبتل.

«بذلك يصير الحساب سبعة وعشرين جنيهًا، من فضلك».

إنها الآن الحادية عشرة إلا الربع من ليلة يوم الثلاثاء، وقد خفَّت الحركة مع قدوم الليل في «شامروك آند كلوفر»، الحانة الأيرلندية الطابع في مطار

شرق المدينة، وهي أيرلندية بقدر ما كان المهاتما غاندي أيرلنديًا!! يغلق البار بعد إقلاع آخر طائرة بعشر دقائق، ولم يتبقَّ في المكان سواي وشاب ممتلئ القوام أمامه اللاب توب خاصته، وسيدتين تثرثران على الطاولة رقم اثنين، والرجل الذي يحتسي جرعته المضاعفة من ويسكي جيمسون منتظرًا إما رحلة رقم SC107 المتجهة إلى ستوكهولم أو الرحلة رقم DB224 المتجهة إلى ميونخ، فقد تم تأجيل إقلاع الأخيرة أربعين دقيقة عن موعدها.

أنا هنا منذ الظهيرة، عندما أصيبت كارلي بألم في المعدة ورجعت إلى المنزل. لا مانع عندي. في الواقع لا مانع مطلقًا من السهر هنا لوقت متأخر من الليل. ذهبت لجمْع الكؤوس وأنا أدندن مقطوعة، المزامير الكلتية لجزيرة الزمرد - الجزء الثالث، عن طاولة السيدتين المحدِّقتين باهتمام في مقطع فيديو على الهاتف، تضحكان منتشيتين تحت تأثير الشراب.

قالت السيدة الشقراء حين وصلتُ إلى الطاولة لالتقاط الكأس التي أمامها: «إنها حفيدتي، وعمرها خمسة أيام».

قلتُ مبتسمة «جميلة». كل الصغار يبدون مثل كعكات الزبيب بالنسبة لي.

«إنها تعيش في السويد، لم أذهب إلى هناك من قبل، ولكن يجدر بي الذهاب لرؤية حفيدتي الأولى، أليس كذلك؟».

«إننا نحتسي الكحول احتفالًا بقدوم المولود»، ثم انفجرتا ضاحكتين ثانية: «هل تودِّين الانضمام إلينا في هذا النخب؟ هيا استريحي قليلًا، لن نستطيع إنهاء تلك الزجاجة في الوقت المناسب».

«أووبس! ها هو الوقت قد حان، وعلينا الذهاب، هيا يا دور». قامتا بتجميع أغراضهما عقب انتباههما إلى إحدى الشاشات المعلِنة لمواعيد الطائرات، وربما لم يلاحظ سواي ترنّحهما الطفيف حين سارتا صوْب رجال الأمن. وضعتُ كأسيهما على البار، ونظرت عبر المكان باحثة عن شيء آخر ربما يكون في حاجة إلى التنظيف.

«ألم يغركِ الأمر مطلقًا؟» قالت لي السيدة الأصغر سنًا وقد عادت لأخذ وشاحها الذي نسيته.

«المعذرة؟».

«ألم يغركِ مطلقًا أن تسيري إلى هناك بعد انتهاء نوبة عملك وتقفزي في إحدى الطائرات. لو كنتُ مكانكِ لفعلت». ثم ضحكت ثانية وأضافت: «لفعلتُ ذلك في كل يوم لعين».

ابتسمتُ لها، ابتسامة من النوع الاحترافي التي قد تحمل لناظرها الكثير من المعاني المحتملة، ثم استدرتُ باتجاه البار.

بدأت المحلات الصغيرة ومنافذ البيع داخل المطار من حولي في غلق أبوابها لحلول الليل، وأُسدلت الأبواب المعدنية على حقائب اليد باهظة الثمن وكراتين هدايا اللحظة الأخيرة المعلّبة. أومضت الأضواء عند بوابات رقم ثلاثة، وخمسة، وإحدى عشرة، آخر بوابات المسافرين الذين شقّوا طريقهم عبرها نحو سماء الليل. دفعت فيوليت، عاملة النظافة الكونغوية، عربتها تجاهي، متمايلة في مشيتها قليلًا، مصدرة صريرًا بحذائها المطاطي فوق الأرضية الرخامية.

«مساء الخير عزيزتي».

«مساء الخير فيوليت».

«ليس عليكِ البقاء هنا إلى وقت متأخّر حبيبتي. ينبغي أن تكوني في المنزل برفقة أحبّتك».

تُردِّد فيوليت على مسامعي العبارة نفسها كل ليلة، وأجيبها في كل مرة بالرد نفسه: «لا يزال الوقت مبكّرًا». ثم تومئ نحوي تحيِّيني بإيماءة ويبدو عليها الرضا وتستمر في طريقها.

وها هما قد رحلا، كلا من الشاب الممتلئ القوام صاحب اللاب توب، ومحتسي الويسكي المتصبّب عرقًا. فرغت من إعادة ترتيب الكؤوس، وقمت بمراجعة الحساب مرتين حتى تأكدت من مطابقة المبلغ في

الدرج مع شريط الحسابات. قمت بتدوين كل شيء في دفتر الحسابات، تفحَّصت بيان الواردات إلى الحانة، ودوَّنت كذلك ما نحتاج إلى طلبه. كان ذلك حين لاحظت أن معطف الرجل الضخم لا يزال معلَّقًا على مقعده أمام البار. ذهبت ونظرت إلى الشاشة، ووجدت أن ركاب الرحلة إلى ميونخ لا بد أن يكونوا في طريقهم للصعود على متن الطائرة الآن، هذا إذا وجدتُ لديَّ رغبة في اللحاق به سريعًا لإعطائه معطفه. ألقيت نظرة ثانية، ثم توجَّهت إلى دورة مياه الرجال.

«مرحبًا، هل من أحد هنا؟».

بدأ الصوت المجيب مخنوقًا، ويحمل قدرًا من الهلع. دفعت الباب لأجد الرجل محتسي الويسكي وقد انحنى على الحوض ليغسل وجهه. بدت بشرته شاحبة: «هل ينادون على طائرتي؟».

«إنهم في طريقهم إلى الصعود الآن، ربما لا تزال لديك بضع دقائق أخرى».

عزمت على المغادرة وتركه، ولكن شيئًا ما أوقفني. رأيته يحدِّق بي، وعينيه تبدوان كزرَّين صغيرين يحملان قدرًا هائلًا من القلق. «لا يمكنني القيام بذلك»، ثم جذب منديلًا ليجفف وجهه، وأردف: «لا يمكنني الصعود إلى الطائرة».

انتظرتُ دون حراك.

«عليَّ السفر إلى هناك للقاء مديري الجديد، ولم أمتلك ما يكفي من الشجاعة لإخباره بأنني أخاف الطيران». وهزَّ رأسه قبل أن يضيف: « أنا لا أخاف الطيران فقط، بل أرتعب منه».

تركت الباب ينغلق خلفي: «ما وظيفتك الجديدة؟».

رمش بعينيه ثم قال: «أوه... في قطع غيار السيارات. أنا المدير الإقليمي، المسؤول عن تصنيع قطع غيار الدعامات... بشركة هانت موتورز».

قلت له: «تبدو وظيفة مرموقة، لديك خبرة... دعامات».

ازدرد ريقه بصعوبه: «إنني أعمل في هذا المجال منذ وقت طويل، لهذا السبب لا أرغب في الموت داخل كرة من اللهب. لا أرغب حقًا في الموت داخل كرة من اللهب تطير في الفضاء».

شعرتُ برغبة في إخباره أن كرة اللهب لن تطير حينها في الهواء، بل ستسقط سريعًا كالسهم باتجاه اليابسة، ولكنني شككت في أن ذلك سيساعده في شيء. قام بغسل وجهه ثانية وناولته منديلًا.

أطلق زفيرًا مرتعدًا، وانتصب واقفًا محاولًا جمع شتات نفسه، وقال: «شكرًا لكِ، أراهن أنكِ لم تقابلي رجلًا بالغًا من قبل يتصرف كالحمقى مثلي، أليس كذلك؟».

«بل أقابل نحو أربعة يوميًّا».

اتسعت عيناه الضيقتان.

«أجد ما لا يقل عن أربعة أشخاص يوميًا يخرجون من حمّام الرجال وقد بدت عليهم آثار الشعور بالخوف من الطيران».

رَمش بعينيه.

«وسوف أقول لك ما أقوله لكل شخص: لم يشهد هذا المطار سقوط أي طائرة انطلقت منه من قبل».

انتصب عنقه في ياقة قميصه قبل أن يقول: «أحقًا هذا؟».

«ولا طائرة».

«ألم يحدث حتى... تحطمٌ بسيط لواحدة من الطائرات على مدرج المطار؟».

هززت كتفي: «في الواقع إن الأمر هنا مملّ حقًا، يستقلّ الناس طائراتهم، ويصلون إلى وجهاتهم، ثم يعودون أدراجهم بعد بضعة أيام، هذا كلِ ما في الأمر».

اتكأتُ على الباب لتركه مفتوحًا، فرائحة المراحيض في المساء لا

تُحتمل: «وعلى أي حال، يمكن أن يحدث لك ما هو أسوأ من تحطم طائرة بكثير في أي مكان آخر».

قال ناظرًا نحوي: «حسنًا أعتقدُ أنكِ محقَّة. هل قلتِ أربعة أشخاص في كل يوم؟».

«وفي بعض الأحيان أكثر من ذلك. والآن عليَّ أن أعود أدراجي إذا لم يكن لديك مانع، فليس مناسبًا أن يشاهدني الناس وأنا أغادر حمام الرجال وقد أطلتُ المكوث».

ابتسم. وتمكَّنت من تخيُّله لدقيقة لو التقيته في ظروف أخرى، فوجدته رجلًا متقد الحماسة بطبعه، مبتهجًا، بارعًا في عمله حيث يصنع قطع غيار السيارات: «أتعْلم، أسمعهم الآن ينادون على رحلتك».

«هل تعتقدين أنني سأكون بخير؟».

«ستكون بخير، إنها خطوط طيران غاية في الأمان، ستستغرق الرحلة ساعتين فقط بعيدًا عن حياتك المعتادة. انظر... لقد هبطت الرحلة SK491 منذ خمس دقائق. وبينما تغادر عبر بوابتك سترى المضيفين والمضيفات قادمين في طريقهم إلى منازلهم يتحدَّثون معًا ويضحكون. إن ركوب مثل تلك الطائرات بالنسبة لهم أشبه باستقلال حافلات. بعضهم يستقل الطائرة مرتين، أو ثلاثًا، أو حتى أربع مرات يوميًا. وهؤلاء القوم ليسوا بالحمقى، فلو لم تكن تلك الرحلات آمنة لما أقبلوا عليها، أليس كذلك؟».

ردَّد قائلًا: «الأمر بالنسبة لهم أشبه باستقلال حافلات».

«بل قد يكون أكثر أمانًا من الحافلات بكثير».

«حسنًا، هذا صحيح بالطبع»، ثم رفع حاجبيه قبل أن يردف: «كما أن هناك الكثير من الحمقى يقودون الحافلات على الطريق في كل يوم».

أومأت مصدِّقةً على كلامه.

وهمَّ بضبط ربطة عنقه وهو يقول: «كما أن الوظيفة مرموقة حقًا».

«من العار أن تفوِّت فرصة كهذه، من أجل مسألة بسيطة. سوف تعتاد على الأمر بمجرد صعودك إلى هناك».

«ربما سأفعل. شكرًا لك يا...».

«لويزا».

«شكرًا لكِ يا لويزا. أنتِ فتاة طيبة». ثم نظر نحوي مخمِّنًا: «لا أعتقد... أنكِ... ستودِّين الذهاب لاحتساء شيء ما برفقتي في يوم من الأيام؟».

فقلت: «أعتقد أنني أسمعهم ينادون على طائرتك يا سيدي»، ثم وسّعت فتحة الباب سامحةً له بالمرور.

أومأ محاولًا إخفاء شعوره بالحرَج، وربَّت فوق جيوبه ليطمئن على ما فيها، ثم قال: «بالطبع، حسنًا يجدر بي الذهاب الآن».

«استمتع بتلك الدعامات».

اكتشفت بعد دقيقتين من مغادرته أنه تقيَّأ في كل مكان من المقصورة رقم ثلاثة في الحانة.

وصلت إلى المنزل في الواحدة والربع، ودلفت إلى شقتي التي يخيِّم عليها الصمت. ارتديت سروال البيجامة وفوقه سترة رياضية ثقيلة لها قلنسوة، فتحتُ الثلاجة وجلبتُ واحدة من زجاجات النبيذ الأبيض وصببت كأسًا. كان مذاقًا لاذعًا أكثر من المعتاد. تفحَّصت الملصق فوق الزجاجة، وأدركت أنني قمت بفتح الزجاجة في الليلة السابقة، ثم نسيت إحكام غلقها ثانية، قرَّرت ألّا أشغل نفسي بالأمر كثيرًا، فمثل تلك الأمور لا تستحق العناء. ولم ألبث أن ألقيتُ بنفسي على كرسي والكأس في يدي.

ألقيتُ نظرة على البطاقتين المستقرَّتين فوق رفّ الموقد، إحداهما مرسلة من والديّ لتهنئتي بعيد ميلادي، وبدت عبارة «أطيب الأمنيات» التي كتبتها أمي نافذة كجرح عميق. أما البطاقة الثانية، فكانت من شقيقتي التي اقترحت أن تأتي هي وتوم في عطلة نهاية الأسبوع، وقد مضى على

تلك البطاقة الآن ستة أشهر بالتمام والكمال. ورسالتان صوتيتان على هاتفي، إحداهما من طبيب أسناني، والأخرى...

«مرحبا لويزا، أنا جارد. التقينا في ديرتي داك؟ حسناً لقد مارسنا الجنس معًا (صوت ضحكة مكتومة حرجة) لقد كان الأمر...كما تعلمين... ممتعًا...لقد استمتعت معكِ. هل يمكننا إعادة التجربة ثانية؟ لديكِ رقمي».

حين فرغت الزجاجة، فكرتُ في الذهاب لشراء واحدة أخرى، لكنني لا أرغب في الخروج ثانية. ولا أرغب أن أسمع مزاح سمير الذي يعمل في متجر البقال المفتوح طوال اليوم، بشأن شرائي المتزايد لزجاجات نبيذ «بينو جورجيو». لا أرغب في التحدُّث إلى أي شخص. شعرت فجأة بإنهاك شديد، ولكنه ذلك النوع من الإرهاق الذي يصحبه طنين في الرأس لن أتمكن معه من النوم إذا ما ذهبت إلى الفراش. فكَّرت في جارد وكيف كان يقلِّم أظافره على نحوٍ يمنحها شكلًا غريبًا. هل شكل أظافره الغريب هو ما يزعجني بشأنه؟ حملقت في جدران غرفة المعيشة العارية، وأدركتُ أنني في حاجة إلى الهواء. أنا في حاجة إلى الهواء حقًا. فتحتُ نافذة الردهة وصعدتُ عبر سلّم الطوارئ حتى وصلتُ إلى سطح المبنى.

حين قدِمتُ إلى هنا للمرة الأولى لأتفقَّد المكان، أراني السمسار كيف قام المستأجرون السابقون بإنشاء حديقة فوق سطح المبنى على شكل حلقة مليئة بأصص زهور ونباتات ومقعد صغير لطيف. قال لي: «في واقع الأمر، السطح ليس تابعًا لكِ بشكل رسمي، إلا أن شقتك هي الشقة الوحيدة التي لديها مدخل مباشر إليه. أرى أنه مكان لطيف للغاية. ويمكنك إقامة حفلات الشواء فيه!». حدَّقتُ فيه متسائلة، هل أبدو له حقًا كشخص يقيم حفلات شواء.

ها هي النباتات قد ذبلت منذ فترة طويلة وماتت. يبدو أنني لا أجيد الاهتمام بالأشياء. والآن أقف على سطح المنزل محدِّقة في ظلام لندن الذي تتخلَّله الأضواء في الأسفل. وهناك ملايين البشر يعيشون حولي،

يتنفسون، ويأكلون، ويتجادلون. ملايين البشر الذين تنفصل حياتهم عن حياتي تمامًا. يا له من نوع غريب من السلام.

سطعت أضواء مصابيح الصوديوم متلألئة في صفحة سماء الليل، بينما خفتت أصوات المدينة المتناثرة في الهواء الداكن، فلم يتبقَّ من صخبها سوى أصوات محركات السيارات المتسارعة، ودوي الأبواب التي تغلق، وعبر عدة أميال تناهى إلى مسامعي من جهة الجنوب صوت شرس لطائرة مروحية تابعة للشرطة تحلِّق من بعيد، وينطلق منها شعاع نور يمسح الظلام، باحثًا عن وغد هارب في إحدى الحدائق العامة. ويدوِّي صوت سيارة الإسعاف من مكان ما. في الواقع إن صوت سيارات الإسعاف وصفارات الإنذار لا ينقطع هنا. «لن تحتاجي إلى وقت طويل هنا لتشعري أنكِ في موطنكِ»، كانت تلك هي العبارة التي قالها لي السمسار عندما استأجرت المكان، وضحكتُ لدى سماعها. لم تكن هذه المدينة سوى مصدر لشعوري بالاغتراب كعادتها، ولكنني هذه الأيام أشعر بالاغتراب أينما حللت.

تردَّدت، ثم خطوْت خطوة فوق الدرابزين، رافعة ذراعيَّ في الهواء ليكسبا خطواتي المترنحة بفعل الشراب قدرًا من التوازن. أتهادَى في السير على حافة الدرابزين الخرساني قدمًا أمام الأخرى، أشعر بالوخز في شعر ذراعيَّ المفرودتين بفعل النسيم البارد. حين انتقلت للسكن هنا للمرة الأولى، وحين كانت مشاعري تعصف بي، كنت أشجِّع نفسي في بعض الأحيان بالسير فوق درابزين البناية من بدايته حتى نهايته. ولدى وصولي إلى نهايته كنت أطلق ضحكاتي في الهواء. هل تراني؟ أنا هنا أما زلت حية - على الحافّة تمامًا. ها أنا أفعل ما طلبت مني!

غدت تلك عادتي السرية، أنا وخط أفق المدينة، الراحة المنبعثة من ظلام الليل، وكوني مجهولة الاسم وغير معروفة الهوية لأحدٍ هنا. رفعتُ رأسي، أستشعر نسيم الليل، تدغدغ أذني ضحكات تعالت من الأسفل

يصحبها صوت مكتوم لزجاجات تنكسر. أسمع صوت المرور الممتد زاحفًا حتى المدينة، وأرى الخط الأحمر اللامتهي للأضواء المنبعثة من مؤخِّرة السيارات، كما لو كانت تنزف في خط طويل ممتد. يتَّسم الوقت بين الثالثة والخامسة صباحًا بالهدوء النسبي، حيث ينهار السكارى فوق أسرّتهم، ويزيح الطهاة قبعاتهم العالية البيضاء من فوق رؤوسهم، وتغلق الحانات أبوابها. لا يعكِّر سكون تلك الساعات سوى صوت الشاحنات التي تتحرك ليلًا، التي تمر بشكل متقطِّع، والصوت المنبعث من المخبز اليهودي الذي يفتح أبوابه عبر الشارع، والحركة الناعمة للعاملين في توصيل الصحف الصباحية. صرت أعرف كل الحركات البسيطة للمدينة، لأنني لم أعد أنام.

في مكان ما في الأسفل تتجمَّع حشود من محبي موسيقى الجاز وغير ذلك من الأنشطة المختلفة. يعج بهم مبنى «وايت هورس» الذي ينغلق عليهم لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة. وهناك اثنان يتجادلان في الخارج. وعبر المدينة يستقبل المستشفى الحكومي شتات المرضى والجرحى ويداوي جروح سحجات من اصطدموا ببعضهم بعضًا في اليوم السابق. أما هنا في الأعلى فلا يوجد سوى الهواء، والظلام، ورحلة شحن شركة فيديكس من مطار لندن هيثرو إلى بكين، وعدد لا حصر له من المسافرين، مثل السيد محتسي الويسكي، متجهين إلى بقعة من بقاع الأرض.

«ثمانية عشر شهرًا. ثمانية عشر شهرًا كاملة؟ متى سيصبح الوقت كافيًا إذن لينتهي ذلك؟». قلتُ محدِّثة الظلام بغضب عارم تتأجَّج نيرانه داخلي ثانية. تقدَّمت خطوتين أخريين، محدِّقة إلى أسفل نحو قدميّ. «لا أشعر أن تلك هي الحياة، لا أشعر أنها أي شيء على الإطلاق».

خطوتان أخريان. وخطوتان إضافيتان. سوف أذهب إلى أبعد زاوية ممكنة هذه الليلة.

«أنت لم تمنحني حياة لعينة، أليس كذلك؟ ليس حقًا. لقد قمت بتحطيم حياتي القديمة، حطَّمتها إلى شظايا صغيرة. ماذا عساي أفعل بما

تبقى منها؟ متى سأشعر بها»، فردتُ ذراعيّ أكثر لأستشعر الهواء المنعش يلامس بشرتي، وأدركتُ أنني أبكي ثانية. همستُ: «تبًا لك يا ويل، لمَ رحلت وتركتني وحيدة».

تملَّكتني مشاعر الحزن والأسى، وبدت أشبه بموجة مَدٍّ عنيف غمرتني وابتلعتني عن آخري داخلها. وبينما كنت على وشك الاستسلام للغرق، جاءني صوت من الظلام: «لا تقفي هناك».

استدرت نصف استدارة لألمح انعكاس ضوء على وجه شاحب يقف عند سلم الطوارئ، بعينين داكنتين تتسعان عن آخرهما. انزلقت قدمي من فوق حافة الدرابزين من هول الصدمة، ليميل وزن جسدي في الاتجاه الخاطئ، وينتفض قلبي، قبل أن يلحقه جسدي في جزء من الثانية. ثم بدا الأمر أشبه بالكابوس، أصبحت بلا وزن أسقط في الهواء وساقايَ تضطربان فوق رأسي، بينما أسمع صوت ارتطام ربما يكون صوت ارتطامي أنا –

كرانش

واستحال كل شيء أسود اللون.

الفصل الثاني

«ما اسمك يا عزيزتي؟».

أشعر بشيء صلبٍ حول عنقي. ويد تربِّت على رأسي بلطفٍ ونعومة.

ما زلتُ على قيد الحياة، وهذا مدهش حقًا.

«ها أنتِ ذي، افتحي عينيك، انظري إليَّ الآن، انظري إليَّ. هل يمكنكِ إخباري باسمك؟».

وددت فتح فمي والتحدث، ولكن صوتي بدا مكتومًا وغير واضح. يبدو أنني عضضت لساني، أستشعر دفء الدم ومذاقه في فمي. أنا غير قادرة على الحركة.

«سوف نضعك على لوح لننقلكِ، اتفقنا؟ ربما تشعرين بالانزعاج لدقيقة، ولكنني سأعطيك حقنة مورفين لتخفيف حدة الألم». بدا صوت الرجل هادئًا وطبيعيًا، على نحو يشي بأن انبطاح شخص مكسور العظام أمامه على هذا النحو أمر طبيعي للغاية في هذا العالم. أرغب في الضحك، وأرغب في إخباره كم هو سخيف وجودي هنا. ولكن يبدو أن لا شيء يسير كما قُدِّر له.

اختفى وجه الرجل من المشهد، لتظهر سيدة ترتدي سترة نيون وتعقص شعرها المموَّج الداكن إلى الخلف على هيئة ذيل حصان، وتنحني بجسدها نحوي مصوِّبة ضوء مصباح صغير في عيني مباشرة، محدِّقة فيَّ بالنظرة نفسها الخاوية من أي اهتمام، كما لو كنتُ مجرد عيّنة ملقاة أمامها لا إنسان من لحم ودم.

«هل نحن في حاجة إلى وضعها في كيس طبيّ؟».

أردتُ التحدث ولكن الألم الشديد الذي شعرت به في ساقي حال دون ذلك، «يا إلهي»! أشك أن أحدًا سواي سمعني وأنا أقولها.

«لديها كسور متعددة. حدقتا العين طبيعيتان وتستجيبان للضوء. ضغط الدم تسعون على ستين. إنها محظوظة لارتطامها بتلك المظلة، لا أدري ما كان سيؤول إليه الحال لو أنها ارتطمت بكرسي الشرفة. لست مطمئنة لذلك الجرح». شعرت بهواء بارد عند حجابي الحاجز، ولمسة خفيفة من أصابع دافئة، «هل يُحتمل إصابتها بنزيف داخلي؟».

«هل نحن في حاجة إلى فريق طبي آخر؟».

«أيمكنك التراجع للخلف يا سيدي رجاءً؟ إلى الخلف؟».

وسمعت صوتًا لرجل آخر يقول: «خرجت إلى شرفتي لتدخين سيجارة، فوجدتها تهبط فوق شرفتي اللعينة، بل كادت أن تسقط فوق رأسي مباشرة».

«إنه يوم حظك إذن كونها لم تفعلِ ذلك».

«كانت صدمة عمري. إننا لا نتوقّع هبوط أشخاص فوق رؤوسنا من السماء على هذا النحو، انظر ما أصاب مقعدي. لقد ابتعته بثمانمائة جنيه من متجر كونران... هل تعتقد أن باستطاعتي الحصول على تعويض عنه؟».

سادت لحظة صمت قبل أن أسمع الآخر يقول: «يمكنك أن تفعل ما تشاء يا سيدي، هل أخبرك بشيء؟ يمكنك مطالبتها بدفع تكلفة تنظيف دمائها التي لطّخت شرفتك؟ ما رأيك؟».

انسلّت عينا الرجل الأول نحو زميله. وأخذت المشاهد تدور في رأسي حين زلّت قدمي وتمايلتُ بجسدي، هل سقطت حقًا من فوق سطح البناية؟ شعرت ببرودة شديدة تسري في وجهي، أدركت بعد فترة أنني أرتعد بشدة.

« سام، إنها تدخل في حالة من الصدمة».

فُتحت أبواب سيارة إسعاف في مكان ما إلى جواري وشعرت باللوح يرتفع أسفل جسدي ويتحرك، ثم لم يعُد هناك شيء سوى الشعور بالألم، الألم، الألم، حتى استحال كل شيء إلى ظلام دامس.

دوَّى صوت سيارة الإسعاف مصحوبًا بدوامة من الضوء الأزرق. صوت سيارات الإسعاف لا ينقطع في لندن. انطلقت السيارة، تتحرَّك بداخلها وتتقافز ذهابًا وإيابًا أحذية طبية ملونة، معلنة عن استقبال الوافد الجديد غير المتوقَّع لإسعافه. ورأيت ذلك الرجل الذي يرتدي زيًا أخضر اللون، كان ينقر شيئًا ما على هاتفه، قبل أن يعود لضبط قطرات المحلول الطبي المعلَّق فوق رأسي. خفَّت حدة الألم... هل هذا تأثير المورفين؟ لكنني كلما أعود إلى الوعي تصيبني حالة من الهلع، أشعر كأن وسادة هوائية تنفتح ببطء في داخلي، وتعوقني عن القيام بأي حركة ممكنة. أوه، كلا، أوه، كلا.

«مابودن فا؟»

هكذا خرجت الحروف من فمي، فلم يسمعها الرجل الذي كان يستند بذراعه على مقصورة السائق إلا بعد ترديدي لها مرتين. استدار واقترب من وجهي حتى يتسنَّى له سماعي، وبدت رائحته مثل رائحة الليمون ولم يحلق ذقنه جيدًا: «هل أنتِ بخير؟».

«ماب-»

اقترب الرجل مني أكثر: «آسف، من الصعب سماع ما تقولين مع دوي صوت سيارة الإسعاف، سوف نصل المستشفى قريبًا». وضع يده فوق يدي، فشعرت بها دافئة ومطمئنة. أصابني هلع مفاجئ من فكرة تخلِّيه عني، «اصمدي قليلًا. دونا، متى نصل إلى المستشفى؟».

أردت التحدث ولكنني لم أكن قادرة، شعرت وكأن لساني يملأ فمي، وأن أفكاري مشوَّشة، ومتلاحقة دون رحمة. هل حرَّكت ذراعي حين قاموا برفعي؟ قمت بتحريك يدي اليمنى، أليس كذلك؟

«هل أصبتُ بالولل؟» خرج الكلام من فمي على هذا النحو همسًا.

قرَّب أذنه من فمي: «ماذا؟».

«الولل؟ هل أصبتُ بالولل؟».

«أتعنين الشلل؟» تردَّد الرجل، التقت عيناه بعيني، ثم اتجه بعينيه صوب قدمي وقال: «هل يمكنك تحريك أصابع قدمك؟».

أحاول تذكر كيف يمكنني تحريك أصابع قدمي، بدا لي أن الأمر يتطلب قدرًا مضاعفًا من التركيز الذي اعتدت عليه. قام الرجل بلمس أصابعي برفق، كما لو كان يذكّرني بمكانها. «حاولي ثانية، ها أنت ذي».

انطلق ألم مبرح في قدمي، وانطلق معه صوت بكاء ونحيب، بكائي ونحيبي. «أنتِ بخير، إن هذا الألم علامة جيدة. لا يمكنني التأكيد على ذلك بشكل قاطع، لكنني لا أعتقد أن لديك إصابة في العمود الفقري. لقد كسرتِ وركك، وهناك كسور أخرى متفرّقة في جسدك».

نظر إلى عيني مباشرة فوجدت عينيه طيِّبتين. يبدو أنه يتفهَّم حاجتي إلى مزيد من الاطمئنان. أشعر بيده قريبة من يدي، لم أكن أبدا في حاجة إلى يد تلمسني كما هو حالي الآن.

«أنا على يقين من أنكِ لم تصابي بالشلل».

«أوه، شكوى يا إلهي». بدا صوتي وكأنه صادر من مكان بعيد، اغرورقت عيناي بالدموع، «أرجوك، لا تتركني»

اقترب بوجهه مني أكثر «لن أتركك». أردت الحديث ولكن وجهه تشوَّش ثانية وغبتُ عن الوعي.

أخبروني بعد ذلك أنني سقطتُ من علوّ طابقين فقط من الطوابق الخمسة المكوِّنة للمبنى، حيث اخترقتُ في طريقي للهبوط المظلة المصنوعة من قماش الكانفا، وسقطت على الوسائد المصنوعة من القماش المضاد للماء والشمس بشرفة السيد أنطوني جاردينير، المحامي المتخصِّص في مجال حقوق النشر، وجاري الذي لم ألتقه من قبل. انكسرت عظمة

وركي إلى نصفين وانكسر ضلعان من ضلوعي، وكذلك عظمة الترقوة. وانكسر إصبعان من يدي اليسرى، ومشط قدمي الذي برز من الجلد متسببًا في إصابة واحدة من طالبات الطب المتدربات بالإغماء لدى رؤيته. كانت نتيجة أشعة إكس مروِّعة.

ما زلت أسمع صوت المسعف الذي قام بإسعافي وهو يقول: ليس في مقدورك التنبؤ بما يمكن أن يحدث لك حين تسقط من ارتفاع شاهق. من الواضح أنني محظوظة للغاية. يخبرونني كم أنا محظوظة وينتظرون أن أستجيب لابتساماتهم، ربما يتوقَّعون أن أرد على ابتساماتهم بابتسامة أخرى عريضة أو أن أنهض للرقص قليلًا احتفالًا بحظيٍّ السعيد. لكنني لم أشعر أنني محظوظة، أنا في الواقع لا أشعر بأي شيء على الإطلاق. أنام وأصحو، وفي بعض الأحيان أشعر بأن الضوء الذي فوق رأسي ضوء غرفة عمليات، ثم يسود الهدوء والصمت ثانية. ويظهر وجه ممرضة، وتترامى إلى سمعي عبارات متقطِّعة غير مترابطة.

هل رأيت الفوضى التي تسببت فيها السيدة العجوز في الغرفة رقم 4؟ يا لها من نهاية نوبة عمل!

تودِّين العمل في مستشفى برينسيس إليزابيس، أليس كذلك؟ يمكنك أن تخبريهم كيف تديرين غرفة الطوارئ؛ ها ها ها..

يمكنك أن تستريحي الآن يا لويزا، سوف نهتم بكل شيء، استريحي فقط.

يجعلني المورفين أشعر بالنعاس. وحين قاموا بتزويد الجرعة غبت عن الوعي.

فتحتُ عينيَّ لأجد أمي جالسة عند الجهه المقابلة من الفراش.

«لقد استفاقت يا برنارد، لقد استفاقت، هل علينا استدعاء الممرضة؟».

لقد غيَّرت لون شعرها، هذا ما جال بخاطري لأول وهلة. ثم تلتها فكرة: أوه إنها أمي، أمي التي لم تعد تحدِّثني، ها هي إلى جواري.

«أوه حمدا لله، حمدا لله على سلامتك»، أمسكت أمي بالصليب الذي حول عنقها. يذكِّرني ذلك الصليب بشخص ما، ولكنني لا أستطيع تذكره. مالت نحوي ولمست وجنتي بلطف. لسبب ما جعل ذلك عيني تفيضان بالدموع. انحنت عليَّ كما لو كانت تحميني بجسدها من أي ضررٍ جديدٍ ثم قالت: «أوه يا صغيرتي». بدا عطرها مألوفًا لي كما لو كان عطري. جفَّفت دموعي بمنديل ورقيّ وهي تقول: «أوه يا لُو، لقد ذُعرت حين تلقَّيت اتصالهم، هل تشعرين بالألم؟ هل تحتاجين إلى أي شيء؟ هل أنتِ مرتاحة؟ ماذا يمكنني أن أفعل لكِ؟».

تحدَّثت بسرعة حتى إنني لم أتمكن من الإجابة.

«لقد أتينا إلى هنا بمجرد سماعنا الخبر.ترينا تتولى رعاية جدك. بالمناسبة، هو يرسل لك تحياته. لا يزال يصدر الضجيج نفسه الذي تعرفينه، لكننا اعتدنا الأمر ونفهم ما يريد قوله. أوه يا حبيبتي، ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة المزرية؟ بمَ كنت تفكرين حينها؟».

واضح أنها لم تكن تنتظر أيّ إجابات وكل ما كان عليَّ فعله هو التمدد هنا في مكاني.

مسحت أمي دموعها، ومسحت الدموع التي سالت من عينيَّ كذلك. «ما زلتِ ابنتي يا لُو... ولا يمكنني تحمُّل أن يصيبك مكروه ولم نكن... أنتِ تعلمين».

«كنلنـــــــــ» حاولت التحدث ولكن الصوت الذي خرج من فمي بدا سخيفًا وكأنني سكرانة، «لم (أنغب) مطلقًا أن-».

«أعلم ذلك ولكنك صعَّبت الأمر عليَّ للغاية يا لُو. لم يكن باستطاعتي...».

قال لها أبي وهو يربِّت على كتفها: «ليس الآن يا حبيبتي؟».

شخصت أمي ببصرها، ثم أمسكت بيدي قائلة: «حين تلقَّيت المكالمة.. أوه، لقد ظننت أنكِ...». ثم انخرطت في البكاء ثانية وضغطت بمنديلها على شفتيها، «يا إلهي... حمدًا لله أنك بخير، إنها بخير يا برنارد».

«بالطبع إنها بخير، تلك الفتاة مصنوعة من المطاط، أليس كذلك؟».

مال أبي نحوي. كان آخر حديث دار بيني وبينه منذ شهرين عبر الهاتف، أما آخر لقاء لنا فقد مضى عليه عام ونصف العام منذ أن غادرت مدينتي. لم يتغير شكله كثيرًا ولكن بدا عليه الإرهاق والإنهاك الشديدان.

«أنا آشفة» لم أفكر في أي شيء أقوله حينها سوى الاعتذار.

«لا تكوني حمقاء، إننا سعداء لكونك بخير، على الرغم من أنك تبدين كمن خاض ست جولات ملاكمة مع مايك تايسون. هل نظرتِ إلى نفسك في المرآة منذ قدومكِ إلى هنا؟».

هززتُ رأسي نافية.

«أعتقد... هناك شيء آخر لم أخبركِ به. أتتذكرين تيري نيكولاس وهو يتحسَّس شاربه الكث في المتجر؟ حسنًا، أزيلي الشارب وستجدين أنك تشبهينه، صدقيني». ثم حدَّق في وجهي عن قرب، وأضاف «وبما أنكِ قد ذكَّرتني به».

«برنارد».

«حسنا سوف أجلب لك بعض ملاقط الشعر غدًا. على أي حال في المرة المقبلة التي تقررين فيها الحصول على دروس في الطيران، دعينا نتوجَّه إلى مهبط طائرات، اتفقنا؟ فالقفز من فوق بناية وفتح ذراعيك في الهواء لن يساعداك على الطيران أبدًا».

حاولت أن أبتسم.

مالا بجسدَيهما نحوي، وبدا على وجهَيْهما ما يحملانه من توتر وقلق. إنهما والدايَ ولم يتغيرا.

«لقد أصبحَتْ نحيفة يا برنارد، ألا ترى كم أصبحتْ نحيفة؟».

اقترب أبي مني أكثر فرأيتُ الدموع تحتبس في عينيه وابتسامته ترتجف ويقاوم البكاء: «أجل... إنها تبدو جميلة... أنتِ رائعة الجمال يا حبيبتي». واعتصر راحة يدي بيده ثم رفعها ليقبِّلها. لم يُقدم أبي على فعل كهذا معي طيلة حياتي.

أدركت حينها كم كانا يخشيان عليَّ من الموت، فاختنق صدري بعبرات مكتومة. وأغلقتُ عيني على الدموع الدافئة التي ذرفتها، لأشعر براحته الضخمة الخشنة الدافئة حول راحتي.

«إننا هنا يا حبيبتي. أنتِ بخير وكل شيء سيكون على ما يرام».

استمر والداي في قطع رحلة الخمسين ميلًا ذهابًا وإيابًا من منزلهما إلى المستشفى كل يوم لمدة أسبوعين. كانا يستقلان القطار في الصباح الباكر ثم يعودان في نهاية اليوم، ثم استمرا في فعل ذلك كل بضعة أيام. حصل أبي على إذن خاص من العمل ليتمكن من زيارتي مع أمي، لأنه ما كان ليترك أمي تأتي إلى لندن بمفردها، فلندن -على حد تعبيره- تضم كل أنماط وأشكال البشر. ترددت تلك العبارة أكثر من مرة، مصحوبةً دومًا بنظرة ماكرة من خلفها على نحو جعلني أشعر كما لو كانت تحمل خنجرًا خفيًا. أما تيرنا فظلَّت هناك لترعى جدنا، وقد قالت أمي ذلك على نحو يشي بأن مهمة تيرنا هناك لا تروق لها.

كانت أمي تحضر لنا معها طعامًا معَدًّا في المنزل. لقد فعلت ذلك منذ أن حدَّقنا في غذائي الذي، على الرغم من تفحصنا له لمدة خمس دقائق كاملة، لم نستطع معرفة ما هو تمامًا. «إنهم يحضرونه لها على صينية بلاستيكية يا برنارد، كما لو كانت سجينة». قامت أمي بتقليبه في حزن بشوكة وشمّت رائحته في غير رضا. ومنذ ذلك اليوم تجلب لي معها ما لذَّ وطاب من الساندويتشات التي تحمل قطعًا محترمة الحجم من شرائح اللحم والجبن في عيش أبيض منفوخ، وحساء مصنوع في المنزل معبّأ داخل قنينات. وكانت تطعمني مثل الصغار قائلة: «ذلك هو الطعام الذي يمكنك التعرف عليه يا حبيبتي». مع الوقت، وببطء، عاد لساني إلى حجمه الطبيعي. من الواضح أنني عضضته عند ارتطامي، وقد أخبروني أن هذا أمر طبيعي في مثل هذا النوع من الحوادث.

لا تزال تنتظري عمليتان جراحيتان. واحدة في عظمة الفخذ لتركيب

المسامير، وأخرى في قدمي اليسرى وذراعي الأيسر لربط المفاصل. سألني كيث -أحد العاملين في المستشفى- عما إذا كان في مقدوره التوقيع على جبائر الجبس المتفرقة حول جسدي وكتابة شيء عليها - من الواضح أن ترك الجبائر عذراء هكذا من دون أي كتابات عليها فأل سيئ - وكتب بحماسة تعليقًا بذيئًا وفاحشًا لدرجة أن الممرضتين -إيفيلين وفيليبينا- قامتا بوضع لاصقة عليها قبل مرور الاستشاري. وحين كان كيث يقوم بتوصيلي إلى غرفة الأشعة، كان يحكي لي عن النميمة والشائعات التي تدور في المستشفى. كان يمكنني التنبؤ - من دون أن يحكي لي- بقصص المرضى الذين يموتون ببطء ومعاناة، وغيرها من القصص التي لا تنتهي، ولكن يبدو أن تلك الحكايات كانت تشعره بالسعادة. وكنت أتساءل في بعض الأحيان ترى ماذا يحكي كيث للناس عني. أنا الفتاة التي سقطت من فوق بناية من خمسة طوابق ولم تلقَ حتفها، وهذا يجعلني في المستشفى فوق مستوى النميمة من النوع الذي يدور حول المريض الذي يعاني من إمساك شديد في الجناح رقم سي، أو الحمقاء «بينت» التي قامت بقطع إصبع إبهامها بمقص التقليم.

كم هو مدهش أن تعتاد بسرعة على نظام جديد. أصحو من نومي، لأتلقَّى الإسعافات من عدد من الأشخاص صار في مقدوري الآن التعرف إليهم. أحاول قول الكلمات الصحيحة للاستشاريين المسؤولين عن علاجي، وأنتظر قدوم أبي وأمي، اللذين استمرا في شَغْل نفسَيْهما بالمهام الصغيرة في حجرتي، وأصبحا مألوفين للأطباء على نحو غير معهود. فيما استمر أبي في الاعتذار للطبيب عن عدم قدرتي على الارتداد عند ارتطامي، حتى تركله أمي بقوة في كاحله ليصمت.

وبعد انتهاء جولات مرور الأطباء، عادة ما تتمشَّى أمي في المحلات والمتاجر في الأسفل لتعود وتحدِّثنا، متعجِّبة وبصوت خفيض، عن عدد منافذ بيع الأطعمة السريعة هنا: «لقد رأيت الرجل ذا الساق الواحدة في قسم القلب يا برنارد حاشرًا وجهه في ساندويتش البرجر والبطاطس على نحو لن تصدقه».

أما أبي فيجلس عند طرف سريري يقرأ الجريدة المحلية. وقد ظل في الأسابيع الأولى من قدومه يبحث عن أي تقارير صحفية تشير إلى حادثتي. حاولت أن أخبره أن أشنع جرائم القتل في هذا الجزء من المدينة قد لا تُذكر سوى في الصحف، ولكن كيف عساه أن يقتنع إذا كانت العناوين التي تصدَّرت الصحف في ستورتفولد في الأسابيع السابقة من نوع: «ترك عربات تروللي السوبر ماركت في أماكن خاطئة من موقف السيارات»، وفي الأسبوع السابق كانت أهم العناوين حول: «حزن الطلاب بسبب حالة بحيرة البط».

في يوم الجمعة، عقب آخر جراحة أجريت في عظمة الفخذ، جلبت لي أمي معها روبًا أكبر من مقاسي بدرجة، وحقيبة ورقية بنية ضخمة من ساندويتشات البيض. ولم أكن في حاجة للسؤال عمّا تحتويه بعد أن انتشرت رائحتها النفّاذة في أرجاء الغرفة. رفع أبي يده أمام أنفه وقال وهو يفتح الباب ويغلقه «سوف تلومني الممرضات على تلك الرائحة يا جوسي».

«البيض سوف يقوّي جسدها النحيل الواهن، أنت تحديدًا ليس لديك الحق أن تتكلم عن الروائح، فقد ظللت تلقي باللوم على الكلب مدّعيًا أنه السبب في روائحك البشعة حتى بعد موته بعامين».

«أحاول الحفاظ على ذكرياتنا الرومانسية يا حبيبتي».

أخفضت أمي صوتها وهي تقول: «قالت لي ترينا إن صديقها الأخير وضع البطانية فوق رأسه عندما أطلق ريحًا. تخيَّل!».

استدار أبي نحوي ضاحكًا: «حين أطلقُ ريحًا تهرب أمك من المنطقة كلها!».

وعلى الرغم من تعالي صوت ضحكاتنا، فإنني شعرت بالتوتر يعمّ أرجاء الغرفة. إنه ذلك الإحساس الذي يمكنك استشعاره حين ينحصر عالمك بين أربعة جدران لا تبرحها لفترة طويلة. ربما كان سبب التوتر

طريقة الأطباء وهم يشيحون بوجوههم بعض الشيء أثناء فحص الأشعة الطبية، أو تهامس الممرضات واضعات أيديهن على أفواههن وهن يتحدَّثن عن شخص وافته المنية للتوّ في غرفة مجاورة.

قلت: «ماذا؟ ما الأمر؟».

نظرا إلى بعضهما نظرات غامضة.

جلست أمي عند طرف السرير وقالت: «حسنًا... إن الأطباء قالوا... إن طريقة سقوطك من على المبنى... غير واضحة».

التقطتُ إحدى ساندويتشات البيض بيدي اليسرى التي صار بإمكاني استعمالها الآن. «أوه، لقد تشتَّت ذهني بينما كنت أسير على سطح البناية».

ثم قمت بمضغ طعامي لدقيقة.

«أليس هناك احتمال أنكِ سرتِ أثناء النوم حينها حبيبتي؟».

«أبي، إنني لم يحصل أن سرتُ أثناء نومي قط، طيلة حياتي».

«بلى فعلت ذلك حين كنت في الثالثة عشر من عمرك، سرت وأنت نائمة ونزلت إلى الطابق السفلي والتهمت نصف كعكة عيد ميلاد ترينا».

«مم، ولكنني لم أكن نائمة حينها».

«كما أن نسبة الكحول في دمك كانت مرتفعة للغاية. قالوا إنكِ كنت ثملة من فرط الشرب».

«مررت بليلة عصيبة يومها في العمل، وشربت كأسًا أو اثنتين، وصعدت إلى السطح لاستنشاق بعض الهواء، ثم تشتت ذهني وتعثَّرت قدمي بسبب صوت سمعته».

«هل سمعتِ أصواتًا؟».

«كنت أقف على حافة البناية أنظر إلى المدينة، وأنا أفعل ذلك في بعض الأحيان، ثم أتى صوت تلك الفتاة من خلفي فأصابتني الصدمة وزُلَّت قدمي.

«صوت فتاة؟».

«في الواقع لم أسمع سوى صوتها».

مال أبي بجسده نحوي: «هل أنتِ واثقة من أنه صوت فتاة حقيقية، وليس صوتًا من مخيلتك؟».

«إن ساقي هي التي تحطَّمت يا أبي وليس رأسي».

قالت أمي وهي تلمس ذراع أبي: «لقد ذكروا أن من استدعت الإسعاف كانت فتاة».

«إذن أنت تؤكدين يا حبيبتي أن ما وقع مجرَّد حادث».

توقَّفت عن تناول الطعام. وأشاح والداي بنظريهما شاعرَين بالذنب.

«ماذا؟ هل تعتقدان أنني قفزت من أعلى البناية؟».

قال أبي وهو يحك رأسه: «إننا لا نقول شيئًا، إن الأمور قد ساءت وحسب منذ... ولم نرك منذ فترة طويلة... وقد أدهشنا سماع خبر سيرك على سطح بناية في ساعات متأخِّرة من الليل، خاصة أنكِ تخشين المرتفعات».

«أبي لقد كنت مخطوبة لرجل يظن أنه من الطبيعي حساب السعرات الحرارية أثناء نومه. يا إلهي، ألهذا كنتما تعاملانني بهذا اللطف؟ اعتقدتما أنني حاولت قتل نفسي؟».

«إنه فقط.. كان يطرح علينا جميع أنواع الأسئلة..».

«من الذي كان يسأل؟ وعن ماذا؟».

«الطبيب النفسي. لقد أرادوا أن يطمئنوا على أن كل شيء بخير يا حبيبتي. إننا نعلم كيف سارت الأمور منذ..».

«طبيب نفسي؟».

«لقد وضعوا اسمك على قائمة الانتظار حتى يقوم أحد الأطباء بالتحدث إليك. وقد خضنا في حديث طويل مع الأطباء ونصحونا أن تأتي معنا إلى البيت حتى تتعافي، فلن يمكنك البقاء بمفردك في شقتك تلك... إنها..».

«هل ذهبتما إلى شقتي؟».

«حسنًا، كان علينا إحضار أغراضك».

سادت لحظة صمت تخيلتهما فيها وهما يقفان عند باب شقتي، وتعبيرات وجه أمي وهي تتفحَّص غطاء سريري غير المغسول، وزجاجات النبيذ الفارغة المصفوفة فوق رف الموقد، ونصف قطعة من حلوى الفاكهة والبندق المجفَّف وحدها في رفّ ثلاجتي. تخيلتهما وهما يهزَّان رأسيهما في أسى، ناظرَيْن إلى بعضهما بعضًا. هل أنت متأكد من أننا في المكان الصحيح يا برنارد؟

«أنتِ في حاجة الآن للوجود مع عائلتك حتى تقفي على قدميك ثانية».

أردت أن أخبرهما أنني سأكون بخير في شقتي، بصرف النظر عما يظنانه. وأنني أود الذهاب إلى عملي والعودة بعد الانتهاء منه إلى منزلي من دون أن أشغل بالي، حتى يحين موعد نوبتي التالية. وددت أن أخبرهما أنني لا أرغب في العودة إلى ستورت فولد، ولا أن أغدو مرة أخرى تلك الفتاة التي كنتها. لا أرغب في الشعور بذلك الحِمل الذي ينهك قواي من نظرات أمي التي تحاول فيها أن تخفي عدم رضاها عمَّا آل إليه حالي، ومن تفاؤل أبي المبالغ فيه وترديده الدائم أن كل شيء سيكون على مايرام، وكل شيء سيغدو بخير حال، وكأن كثرة ترديده لتلك العبارات تكفي لجعل كل شيء على ما يرام بالفعل. أود أن أخبرهما أنني لا أرغب في المرور من أمام منزل ويل كل يوم، حتى لا أفكر في ما كنت جزءًا منه، ورغم انفصاله عني، سوف يظل دائمًا هناك».

ولكنني لم أقل أيًا من ذلك، لأنني شعرت فجأة بالإنهاك، وشعرت أن كل شيء مؤلم، وأنني غير قادرة على الدخول في أي معارك بعد الآن.

بعد أسبوعين اصطحبني أبي في شاحنة عمله إلى المنزل، لم يكن هناك متسع فيها سوى لشخصين فقط في المقعد الأمامي، لذا لم تأتِ أمي معه وظلت في المنزل حتى تقوم بترتيبه، وكنت أشعر بتقلُّص في معدتي كلما ازدادت سرعتنا على الطريق السريع.

بدت لي شوارع بلدتنا وطرقاتها غريبة. أنظر إليها الآن نظرة جديدة، بعين مختلفة، وألاحظ كم تبدو الأشياء في عيني الآن صغيرة، ومرهقة، وساذجة. أدرك الآن كيف بدت بلدتنا في عين ويل حين قدم إليها عقب إصابته، ثم طردت الفكرة من رأسي. وعندما وصلنا إلى أول شارعنا وجدتني أغطس بجسدي قليلًا في المقعد. لم أرغب في الدخول في أحاديث مهذبة مع الجيران أشرح خلالها ما حدث لي. لا أرغب في أن يحكموا عليَّ وعلى أفعالي.

«هل أنتِ بخير؟»، سألني أبي كما لو كان يخمِّن بعض ما يدور في رأسي.

«أنا بخير».

قال مربتًا بيده على كتفي: «ها هي فتاتي الطيبة».

وبالفعل، كانت أمي تقف هناك على باب المنزل حين وصلنا، وأظن أنها كانت تنتظرنا في الشرفة قبلها بنصف ساعة على الأقل. وضع أبي إحدى حقائبي عند درج المنزل، ثم عاد لمساعدتي في الخروج من السيارة وهو يحمل حقيبتي الأخرى على كتفه.

وضعت عكازي بحرص على الرصيف. كنت أسمع صوت فتح الستائر بقوة في إحدى النوافذ خلفي، بينما أخطو خطواتي رويدًا. يمكنني سماعهم يتهامسون انظري من هنا؟ ترى ماذا فعلت بنفسها؟

أفسح لي أبي لأتقدمه، وأخذ يراقب قدميَّ وخطواتي بحرص، كما لو كنت سأنطلق بهما خارج المسار، وأذهب إلى حيث لا يرغب. «أأنتِ بخير؟ لا تسرعي».

رأيت جدِّي يحوم خلف أمي في الردهة مرتديًا كنزته الزرقاء. لم يتغيَّر شيء. لا يزال ورق الحائط كما هو، السجادة التي تغطي أرضية الردهة كما هي، ولا تزال الخطوط في الجزء الممزَّق منها ظاهرة في الموضع نفسه الذي لا بد أن أمي قامت بتنظيفه هذا الصباح باستخدام المكنسة

الكهربية. لا يزال معطفي الأزرق معلقًا على الشمّاعة. سنة ونصف السنة مرَّت وكأنها عقد من الزمن.

«تمهَّلي حبيبتي، إنها تسير بسرعة يا برنارد».

«إنها تتحرَّك بالكاد يا مو فرح[1]، إذا ما سارت على نحو أبطأ من ذلك سنكون كمن يمشي على سطح القمر».

«انتبهي لدرجات السلم هذه. هل ستستمر في الوقوف خلفها يا برنارد، وهي تصعد تلك الدرجات؟ أتدري ما يمكن أن يحدث لو سقطت إل الخلف؟».

قلت وأنا أصرّ على أسناني: «أعلم مكان درجات السلم يا أمي، لقد عشت هنا ستة وعشرين عامًا كاملة».

«احذر، لا يمكنها الحفاظ على توازنها عند هذه الحافة يا برنارد، لا أظنك ترغب أن تحطم ساقها الأخرى؟».

فكرت: يا إلهي، هل كان هذا ما تكابده يا ويل في كل يوم؟

ظهرت شقيقتي عند المدخل وتقدَّمت نحو أمي: «أوه يا أمي توقَّفي عن ذلك حبيبتي، إنكِ تجعلين الأمر أشبه بعرض سيرك. تعالي يا صاحبة القدم الواحدة».

نزلت ترينا بكتفها تحت ذراعي واستدارت استدارة خفيفة نحو نافذة الجيران، وحدَّقت فيهم رافعة حاجبيها كما لو كانت تقول لهم هل أعجبكم هذا؟! وسمعتُ بعد ذلك صوت إغلاق ستائرهم.

«يا لهم من حفنة من الأوغاد. أسرعي، فقد وعدت توماس أن يرى ندوبك قبل اصطحابه إلى نادي الشباب. يا إلهي، كم خسرتِ من الوزن؟ لا بد وأن نهديك أصبحا مثل حبَّتين صغيرتين من اليوسفي داخل زوجين من الجوارب».

---

(1) سير محمد فرح، عداء بريطاني شهير.

كان من الصعب أن أضحك وأسير في الوقت ذاته. رأيتُ توماس يركض نحوي لاحتضاني فكان عليَّ التوقُّف ووضع يدي على الحائط حتى أحافظ على توازني عندما التقينا محتضنين بعضنا. سألني: «هل قاموا حقًا بتفكيك جسدك لتجميعك ثانية؟». كان رأسه يصل الآن إلى صدري، ورأيتُ أنه قد فقد أسنانه الأربع الأمامية.

«يقول جدك إنهم ربما قاموا بتجميعك على نحو خاطئ، وأننا حينها لن نتمكَّن من التعرف إليك ثانية».

«برناردا!».

«كنت أمزح فقط».

أتى صوت جدي سميكًا ومترددًا: «لويزا!» تقدَّم نحوي في مشيته غير المتوازنة وقام بعناقي فبادلته العناق. ابتعد وأمسك ذراعيَّ الواهنتين بكلتا يديه العجوزتين بحزم مدهش. كان عابسًا، ويتصنَّع الغضب.

قالت أمي: «أعلم يا أبي... لكنها في البيت الآن».

قال أبي: «سوف تعودين لغرفتك القديمة، للأسف قمنا بتغيير ديكوراتها ببعض ملصقات كارتون ترانسفورمرز[1] على الجدران من أجل توم. أعتقد أنك لن تمانعي وجود شخصية أتوتوبوت أو برداكون على جدرانها، أليس كذلك؟».

قال توماس: «إن لديَّ ديدانًا في مؤخرتي، وقد قالت لي ماما ألّا أتحدث في ذلك الأمر خارج المنزل، وألّا أدخل أصابعي في...»

هنا تدخَّلت أمي قائلة: «أوه يا إلهي!».

«مرحبًا بعودتك يا لو»، قالها أبي ملقيًا بحقيبتي مباشرة على قدمي.

---

(1) مسلسل وفيلم كرتوني للأطفال، شخصياته كائنات فضائية تريد السيطرة على كوكب الأرض.

الفصل الثالث

أتذكَّر كيف كان حالي خلال الأشهر التسعة التالية لوفاة ويل، كنتُ ذاهلة. توجَّهت مباشرة إلى باريس ولم أعد إلى بيت أسرتي ثانية، بقيت هناك مشدوهة بنسيم الحرية، مستشعرة بكل جوارحي النزعة الجديدة التي أثارها ويل في عقلي وروحي. حصلت على وظيفة في حانة يؤمّها المغتربون الذين لم يجدوا غضاضة في التعامل مع لغتي الفرنسية البشعة، التي تحسَّنت بمرور الوقت. استأجرتُ غرفة هي عبارة عن علية صغيرة في الطابق السادس عشر فوق مطعم يقدِّم مأكولات شرق أوسطية، كنت أستلقي مستيقظة أستمع إلى صوت السكارى الساهرين حتى وقت متأخر، وطلبات الزبائن الوافدين في وقت مبكر، كل يوم أحسّ كأنني أعيش حياة شخص آخر.

شعرتُ في الشهور الأولى كمن فقد طبقة من جلده، فازدادت حساسيتي لكل ما حولي. كنت أستيقظ وأنا أضحك أو أبكي. أنظر إلى كل شيء بعين جديدة، وكأن غشاوة قد أزيحت عن عيني. تذوَّقت مأكولات جديدة، سرت في شوارع غريبة، تحدَّثت بلغات ولهجات لم أعهدها. شعرت في بعض الأحيان كأن شبحه يطاردني، كأنني أرى كل شيء من خلال عينيه، وأسمع صوته يهمس في أذنيّ.

ما رأيك في ذلك إذن يا كلارك؟

قلت لك إنك ستحبينه.

هيا تناوليه! جرّبيه! هيا لا ترددي!

ما أقسى هذا الشعور بالضياع الذي تملَّكني من دون روتيني اليومي معه. استغرقت أسابيع لأشعر بفائدة يدي بعد أن توقَّفتُ عن روتينهما المعتاد مع جسده: قميصه الناعم الذي كنت أقفل أزراره، يداه الدافئتان الهامدتان المستسلمتان في يدَيّ وأنا أغسلهما، خصلات شعره التي ما زلت أستشعر ملمسها الحريريّ بين أصابعي. لكم أفتقد صوته، صوت ضحكته النادرة الحاد المفاجئ، ملمس شفتيه على أصابعي، شكل جفنيّه المتكاسلَين وهو على وشك الاستسلام للنوم. لا تزال أمي مذعورة من الحال الذي صرتُ عليه حتى قالت لي إنها على الرغم من حبها لي، هي غير قادرة على التوفيق بين لويزا الجديدة وبين فتاتها التي ربَّتها. وهكذا مع خسارتي لأسرتي، وفقداني للرجل الذي أحببته، تقطّعت كل الخيوط التي كانت تربطني بذاتي التي ألفتها في الماضي. ببساطة، شعرت كما لو كنت أطوف هائمة على وجهي في أفق جديد مجهول من دون أي رابط.

وهكذا أسلمت نفسي لحياة جديدة، وقمت بتكوين صداقات عابرة مع مسافرين آخرين: مع طلاب إنجليز يقضون عطلة ما قبل الالتحاق بالجامعة، ومع أمريكيين يقتفون أثر أبطال خلَّدتهم الملاحم الأدبية، وكلهم يقين أنهم لن يعودوا مطلقًا إلى ولايات الغرب الأوسط المملة، ومع شبان أثرياء ممن يعملون في البنوك، ومع سائحين يقضون عطلات لمدة يوم واحد، أطقم متبدِّلة من أناس يدخلون حياتي ويخرجون منها ماضين في حال سبيلهم، كنت أبتسم، وأتحدَّث، وأعمل، معتبرة أنني أفعل ما أراد لي ويل فعله. وكان ذلك على الأقل يشعرني بقدرٍ من الراحة.

أرخى الشتاء قبضته عن باريس، وحل الربيع بهيًا جميلًا، إلا أني استيقظت في صباح أحد الأيام لأكتشف أنني لم أعد مغرمة بتلك المدينة، أو على الأقل، أنني لست باريسية بما يكفي للبقاء مدة أطول فيها. باتت

قصص المغتربين متشابهة، ولا تحمل في جعبتها أي دهشة، وبدا لي الباريسيون غير ودودين، أو على الأقل، لاحظت لمرات عدة خلال اليوم وبأشكال لا حصر لها، كيف أنني لن أتكيف مع هذا المكان مطلقًا. إن المدينة مغرية، كعهدها، لكنني شعرتُ كما لو كنت قد قمتُ بشراء واحد من الفساتين الأنيقة البراقة وأنا في عجالة من أمري لكنه لم يعد يستهويني ولم يعد يناسبني. وهكذا مضيت في سبيلي مسافرة وهائمة على وجهي بين ربوع أوربا.

مر شهران شعرت خلالهما بالغربة الشديدة. كنت وحيدة معظم الوقت، ولكم كرهت وحدتي تلك، وكرهت عدم معرفتي بالمكان الذي سأبيت فيه كل ليلة، كنت في حالة من القلق الدائم بشأن مواعيد القطارات ونوع العملة، ووجدت صعوبة في تكوين صداقات نظرًا لعدم ثقتي في أي شخص أقابله. وما الذي يمكنني قوْله عن نفسي؟ لا يمكنني إخبارهم سوى بأكثر تفاصيلي سطحية، فأموري المهمة والمثيرة للاهتمام غير قابلة للتبادل مع الغرباء. وهكذا، ومن دون وجود من أتحدث إليه ويؤنس وحدتي، تحول أي مكان أو مَعْلَم أزوره - سواء كان نافورة تريفي في روما أم جدول ماء في أمستردام - إلى مكان يفتقر إلى الدهشة والإمتاع. وعندما أمضيتُ أسبوعًا على أحد الشواطئ في اليونان، ذكرني بالشاطئ الذي ذهبت إليه أنا وويل منذ زمن ليس ببعيد، وفي النهاية، وبعد مرور أسبوع من صد رجال ذوي بشرة برونزية اللون بدوا كأن اسمهم جميعًا ديمتري، ومحاولة إقناع نفسي بأنني أمضي وقتًا لطيفًا، استسلمتُ وعدت أدراجي إلى باريس، غالبًا لأنني شعرت للمرة الأولى أنه ليس لديَّ مكان آخر أتوجَّه إليه.

لمدة أسبوعين، كنت أنام على أريكة تملكها زميلتي في الحانة التي كنت أعمل فيها، حتى أقرر خطوتي القادمة. تذكَّرت حديثي مع ويل حول أحلامي المهنية، وقمت بمراسلة العديد من الكليات للحصول على كورسات عن الأزياء، ولكن نظرًا لافتقار سيرتي الذاتية لأي تاريخ يتعلق

بالأزياء، رفضوا طلبي بأدب. وعندما حصلت على كورس كان ذلك عقب وفاة ويل مباشرة، فلم أتمكن من تأجيل موعد التحاقي بالكورس، فأُعطِيَ مكاني لشخص آخر. وقال لي المسؤول إن بإمكاني تقديم طلب للالتحاق في العام المقبل، ولكنها كانت نبرة من يعرف أنني لن أقْدِم على ذلك ثانية.

قمت بالبحث عن وظائف على الإنترنت لأكتشف أنه على الرغم من كل تلك الأمور التي اختبرتها ما زلتُ غير مؤهَّلة للحصول على أي من الوظائف التي أثارت اهتمامي. وبالمصادفة البحتة، وبينما كنتُ مستغرقة في التفكير في ما يمكنني فعله بعد ذلك، تلقيتُ اتصالًا من مايكل لاولر -محامي ويل- مشيرًا إلى أن الوقت قد حان لفعل شيء بالأموال التي تركها لي ويل. وفي الواقع كان ذلك حجة للقيام بالخطوة التي احتجتها. وقد ساعدني على التفاوض في سعر شقة تضم غرفتَيْ نوم وتقع على أطراف ضاحية أسكوير مايل، وقد اشتريتها لأنها ذكَّرتني بحديث ويل ذات مرة عن حانة النبيذ القريبة منها، الأمر الذي جعلني أشعر أنني على مقربة أكثر منه؛ وبعد شرائها لم يتبقَّ الكثير من المال لفرشها. بعد مرور ستة أسابيع عدت إلى انجلترا وحصلت على وظيفة في شامروك وكلوفر، ومارست الجنس مع رجل يُدعى فيل لن أراه مرة ثانية أبدًا، وانتظرت حتى أستشعر ما إذا كانت الحياة قد بدأت بالفعل.

ومرت تسعة أشهر وأنا ما زلت أنتظر.

***

لم أبرح المنزل في الأسبوع الأول إلا في أضيق الحدود.كنت أحس بالآلام والأوجاع في كل أنحاء جسمي، فكان من الأسهل أن أتمدَّد في فراشي وأحصل على قسط وفير من النوم، خاصة وأنا منهكة بفعل المسكِّنات القوية التي أتناولها، محدِّثة نفسي أن لا شيء يهم الآن أكثر من منح جسدي الفرصة للتعافي.

وعلى غير ما توقَّعت، وجدت أن عودتي إلى منزل عائلتي الصغير

مرة أخرى هو ما كنت أحتاجه حقًا، لقد تمكَّنت للمرة الأولى من النوم لأربع ساعات متواصلة منذ مغادرتي، كما أن مساحة غرفتي الضيقة قد مكنتني من الوصول إلى جدار أستند إليه بسهولة دون الحاجة إلى مساعدة أحدهم. استمرت أمي في تغذيتي وإطعامي، وجالسني جدي (أما ترينا فقد عادت إلى الجامعة، آخذة توم معها). تابعتُ التليفزيون كثيرًا على مدار اليوم متعجِّبة من كَمّ ما يعرضه من إعلانات لا حصر لها عن شركات الإقراض، وكراسي الدرج المتحرِّكة للمسنين والمرضى، وما يعج به من أخبار عن نجوم صاعدين لم أتعرَّف إلى معظمهم بسبب الفترة التي قضيتها خارج البلاد. بدا الأمر أشبه وكأني داخل شرنقة، شرنقة تحتوي على فيل ضخم يجلس القرفصاء الآن في أحد الأركان.

لم نتطرَّق في المنزل لأي مواضيع ولم ننخرط في أحاديث تعكِّر صفو هذا التوازن اللطيف. كنت أشاهد أي برامج يتقيؤها التليفزيون عن المشاهير لأجد مادة أتناولها في حديثنا على طاولة الطعام، «حسنًا، ماذا عن أخبار شاينا ويست الآن؟». وسرعان ما كان أبي وأمي يتجاذبان أطراف الحديث بامتنان، مشيرين إلى كثرة علاقاتها الغرامية، أو قصة شعرها اللطيفة، أو أنها فتاة مستهترة. كنا نتناول مواضيع مثل بيع محتويات العلية العتيقة بأفضل الأسعار («دائمًا تساءلت ما قيمة صندوق الزرع الفيكتوري الطراز الموروث عن أمك... إن هو إلا شيء قديم قبيح المنظر») والمنازل المثالية في البلدة («ما كنت لأغسل كلبًا في هذا الحمام») لم أكن أشغل بالي بشيء سوى مواعيد تناول الطعام، أو التحدي الذي أواجهه لارتداء ملابسي، أو غسل أسناني أو القيام بأي مهمة توكلها لي أمي («سوف أخرج حبيبتي، وإذا كان في مقدورك فرز ملابسك المتَّسخة، فسوف أغسلها مع ملابسي الملونة»).

إلا أن فضول العالم الخارجي لم يتركني لحالي، ولم أكن بمنأى عن محاولات التطفُّل المستمرة. فقد سمعت إحدى جاراتي تسأل أمي بينما كانت تنشر الملابس: «هل عادت لو إلى المنزل إذن؟»، وكانت أمي ترد

بفظاظة غير معهودة بكلمة أجل. كنت أتجنَّب الوجود في الغرف التي تطل على القلعة، وإن كنت قد عرفت أنها لا تزال قابعة هناك ويعيش فيها أناس تربطهم صلة بويل، وكنت أتساءل من حين لآخر عن أحوالهم الآن؛ فبينما كنت في باريس تلقيت خطابًا رسميًا من السيدة ترينر تشكرني فيه على كل ما فعلته مع ابنها. «إني لعلى يقين من أنكِ قدّمتِ كل ما في وسعكِ». لقد تحوَّلت هذه الأسرة من أهم شيء في حياتي إلى ذكرى ضبابية لا أسمح لنفسي بالتفكير فيها. وفي كل ليلة مع هدوء شارعنا، كنت أشعر بحضور طاغٍ لآل ترينر يوبِّخني.

لم أكتشف عزوف أمي وأبي عن الذهاب إلى النادي الاجتماعي إلا بعد مرور أسبوعين على عودتي، فسألتهما بينما نجلس على طاولة الطعام في الأسبوع الثالث: «أليس اليوم هو الثلاثاء؟ ألا يجب عليكما الذهاب الآن؟».

تبادل أبي وأمي النظرات قبل أن يقول أبي ماضغًا قطعة من اللحم: «أوه كلا نحن بخير هنا».

قلت لهما: «أنا بخير بمفردي، وفي حال أفضل الآن، كما أني سعيدة للغاية بمشاهدة التليفزيون». وشعرت في قرارة نفسي بالحنين إلى الجلوس بمفردي في الغرفة دون مراقبة أحدهم لي، فمنذ قدومي إلى هنا لم أُترك بمفردي لأكثر من نصف ساعة متواصلة. «حقًا، اذهبا واستمتعا بوقتكما، ولا تقلقا بشأني».

قالت أمي وهي تتناول شريحة من البطاطس: «إننا... إننا لم نعد نذهب إلى النادي».

ثم أردف أبي قائلًا: «الناس... لا يتوقَّفون عن القيل والقال، والتساؤل عمَّا جرى معنا، فرأينا أنه من الأسهل الابتعاد عن الأمر برمّته وعدم الذهاب». بعد هذه العبارة خيَّم الصمت على المكان لستِّ دقائق كاملة.

وكان هناك أيضا ما يذكرني بالحياة التي تركتها خلفي، ذكريات ترتدي سراويل رياضية ضيقة تتمتع بخاصية طرد العرق.

في صباح اليوم الرابع على التوالي، مرَّ باتريك أمام بيتنا وهو يمارس رياضة الركض، بدا أن مروره لم يكن مصادفة أبدًا. كنت قد سمعت صوته في اليوم الأول من قدومي وتلصَّصت عبر نافذة غرفتي، فرأيته يقفز في المكان مرتفعًا بركبتيه وهو يتحدَّث إلى فتاه شقراء تعقص شعرها للخلف، وترتدي رداءً رياضيًا من الليكرا أزرق اللون ضيقًا للغاية، يعتصرها لدرجة يمكنني معها تخمين ما تناولته على الإفطار. وقد بديا إلى جوار بعضهما كما لو كانا لاعبين أولمبيين ضلا طريقهما.

ابتعدتُ عن النافذة خشية أن يراني باتريك إذا ما رفع عينيه لأعلى، وفي غضون دقيقة، مضيا في طريقهما راكضَيْن جنبًا إلى جنب، بظهريهما المنتصبين، وعضلات أرجلهما بارزة، كما لو كانا حصانين فيروزيين لامعين يجرَّان عربة.

وبعد يومين، بينما كنت أرتدي ملابسي، سمعت صوتيْهما في الأسفل، كان باتريك يتحدَّث بصوت مرتفع عن نظام كارب لودنج الغذائي، ولكن هذه المرة -رمقت الفتاة- منزلي بنظرة متشكِّكة، كما لو كانت تتساءل عن سبب توقفهما في الموضع نفسه مرتين.

في المرة الثالثة كنت مع جدّي في الغرفة الأمامية حين وصلا، وقال باتريك بصوت مرتفع: «علينا التدرب على القفزات العالية، قومي بالركض حتى عمود الإنارة الثالث وعودي ثانية وسوف أحسب توقيت سرعتك... هيا انطلقي!».

حرَّك جدي عينيه بطريقة ذات مغزى.

«هل يفعل ذلك منذ عودتي إلى هنا؟».

حرَّك جدي عينيه للخلف، علامة على انزعاجه.

راقبت المشهد من خلف الستائر المنسدلة، فرأيت باتريك واقفًا وعينيه مثبتتين على ساعة التوقيف خاصته، كنت أراه بوضوح من مكاني مرتديًا سترة رياضية سوداء ذات سحَّاب أمامي عند الرقبة، وسراويل قصيرة من الليكرا،

واقفًا على بعد أمتار قليلة من نافذتي، ما مكنني من التحديق فيه، مندهشة من أن ذلك كان الشخص الذي كنت على يقين من أنني أحبه يومًا ما.

قال صائحًا، رافعًا عينيه عن ساعته: «هيا استمرِّي». ومثل الكلب المطيع، قامت الفتاة بلمس عمود الإنارة وانطلقت عائدة أدراجها إليه، «اثنتان وأربعون ثانية وثمانية وثلاثون من مائة من الثانية». قالها لها مستحسنًا بينما كانت تلهث ثم أردف: «وأراهن أن في مقدورك تحقيق رقم أفضل من هذا».

«إنه يفعل ذلك للفت انتباهك». قالتها أمي بينما دلفت إلى الغرفة حاملة كوبين في يدها.

«كأن الأمر يثير فضولي بالفعل».

«لقد سألتني أمه في السوبر ماركت عنكِ وأكدتُ لها عودتكِ». وأضافت: «لا تنظري إليَّ على هذا النحو، لم يكن باستطاعتي الكذب عليها». ثم أومأت برأسها تجاه النافذة: «إن تلك الفتاة بالأسفل خضعت لعملية تكبير ثدي، وظل ثدياها مثار حديث ستورت فولد. ألا ترين أن في مقدورك وضع فنجانين من الشاي فوقيهما بكل سهولة». ثم وقفت خلفي وقالت: «هل تعرفين أنهما قد أعلنا خطوبتهما؟».

انتظَرتُ أن أشعر بهوْل المفاجأة ولكن شيئًا لم يحدث: «إنهما مناسبان لبعضهما بعضًا».

وقفت أمي هناك لدقيقة تراقبه: «ليس بالرجل السيئ يا لو، ولكنكِ أنتِ تغيَّرتِ». وناولتني كوبي ثم انصرفت.

في الصباح، وبعد أن توقف أخيرًا عن القيام بتمارين الضغط على الرصيف المقابل لمنزلنا، قمت بفتح الباب الأمامي للمنزل ووقفت خارجًا، عاقدة ذراعيَّ أمام صدري، مراقبة إياه حتى نظر إليَّ. قلت: «لا أنصحك بالوقوف هناك كثيرا، فهذا هو موضع اللعب المفضل لكلب الجيران».

«لو!» قالها كما لو كنت آخر شخص يتوقَّع رؤيته خارجًا من منزلي الذي دأب على زيارته عدة مرات في الأسبوع خلال فترة ارتباطنا التي طالت لسبع سنوات: «حسنًا... لم أتوقَّع عودتك ورؤيتك هنا ثانية، ظننت أنكِ قد ذهبت لغزو العالم الواسع!».

نظرت خطيبته، التي كانت تمارس تمارين الضغط إلى جواره، إلى الأعلى، ثم نظرت باتجاه الرصيف ثانية. وربما يكون ذلك صنيعة مخيلتي لكنني رأيت أردافها وقد ازدادت انكماشًا، وهي تصعد وتهبط بعصبية. أعلى وأسفل؛ مما أصابني بشيء من القلق على نهديها الجديدين.

قفز واقفًا على قدميه: «هذه كارولين خطيبتي». ولم ينزل عينه عن وجهي ربما منتظرًا أي ردة فعل، «إننا نتدرَّب من أجل بطولة أيرونمان التالية. وقد شاركنا بالفعل معًا في بطولتين سابقتين».

فقلت: «كم هذا رومانسي».

«حسنًا، أرى أنا وكارولين أنه من الرائع قيامنا بالأمور معًا».

«أوه.. أرى ذلك، هذا علاوة على الزي الليكرا الفيروزي الذي تتشاركانه!».

«أجل إنه لون الفريق».

سادت لحظة صمت قصيرة، قطعتُها بعبارة: «مرحى يا فريق».

وثَبت كارولين على قدمها وبدأت في تمديد عضلات فخذها، طاوية ساقها خلفها تمامًا مثلما يفعل طائر اللقلق. أومأت تجاهي بأقل كياسة ممكنة يمكنها أن تتصرف من خلالها.

قال لي: «لقد خسرتِ الكثير من الوزن».

«أوه.. أجل، إن اتباع حمية (المحلول الملحي) يمكن أن يفعل ذلك بك أنت أيضًا».

فأجاب محرِّكًا رأسه في أسى: «لكنني سمعت أنكِ تعرضتِ لحادث».

«نعم، ما أسرع تناقل الأخبار».

قال وهو ينظر نحو الطريق: «على كل حال أنا سعيد لكونكِ بخير، لا بد أن العام الماضي كان قاسيًا عليكِ، بعد الذي حدث، كما تعلمين».

حاولت التحكم في إيقاع أنفاسي. ورفضت كارولين بحزمٍ النظر نحوي مستمرة في تمارين التمدد التي تقوم بها. «على أي حال، تهانينا على الزواج».

تفحَّص زوجته المستقبلية بفخر، مغرَمًا بساقيها الوتريتين المشدودتين. ثم قال: «حسنًا، كما يقولون، مَنْ تأنّى نال ما تمنّى». ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة صفراء كانت القاضية.

«أنا على ثقة بأنك فعلت ذلك، وأعتقد أنك حصلت على ما يكفي من المال منهم من أجل مصاريف حفل زفافك، لم يدفعوا لك القليل، أليس كذلك؟».

نظر كلاهما نحوي.

«ماذا عن بيْعك لقصتي إلى الصحف؟ كم دفعوا لك يا باتريك؟ بضعة آلاف؟ لم تستطِع ترينا معرفة المبلغ بالتحديد، إلا أن وفاة ويل -كما أرى- قد مكَّنتك من شراء زوجين متماثلين من الليكرا الفيروزي اللون على الأقل، أليس كذلك؟».

ومن النظرة التي رمقته بها كارولين أدركتُ أنه لم يخبرها بعد بهذه التفصيلة الصغيرة من تفاصيل حياته قبل أن يتعرّف إليها.

حملق نحوي ووجنتاه محمرّتان بشدة: «ليست لي علاقة بهذا!».

«بالطبع لا. سعدت لرؤيتك يا باتريك على أي حال، وأتمنى لك حظًا سعيدًا في زواجك. وإنني واثقة يا كارولين من أنك الزوجة المثالية المناسبة له!»، ثم استدرتُ وسرت ببطء عائدة إلى الداخل مغلقة الباب خلفي، وأسندت ظهري عليه، شاعرة بدقات قلبي تتسارع، حتى تأكدتُ أنهما انصرفا أخيرًا.

قال جدي بينما دلفت أعرج إلى حجرة المعيشة: «أحمق». ثم قال ناظرًا نحو الشرفة باستخفاف: «يا له من أحمق» وأخذ يضحك.

نظرت إليه، ووجدتني بشكل غير متوقع، أدخل في نوبة من الضحك لم أحظَ بها منذ وقت طويل.

«هل قرَّرت إذن ما تنوين القيام به حين تتحسَّنين؟».

كنت متمدِّدة على فراشي، أتحدَّث مع ترينا على الهاتف وهي في الجامعة، بينما تنتظر خروج توماس من نادي كرة القدم. وأحدِّق في سقف غرفتي الذي ازدحم بملصقات الشخصيات الكرتونية، التي يبدو أنه ليس في مقدور أحدهم إزالتها من دون خلع نصف السقف معها. وأجبتها: «ليس حقًا».

«عليك القيام بشيء ما، لن تجلسي على مؤخرتك هكذا إلى الأبد».

«لن أجلس على مؤخرتي، علاوة على أن وركي لا يزال يؤلمني ونصحني الطبيب بالاستلقاء لا الجلوس».

« بابا وماما يتساءلان عما ستقومين به، فليست هنالك وظائف في ستورتفولد».

«أعلم ذلك».

«ولكن يبدو أن لا شيء يثير اهتمامك».

«ترينا لقد سقطت أخيرًا من فوق سطح إحدى البنايات، وأنا الآن أتعافى».

«وقبل ذلك كنت تجوبين مسافرة هنا وهناك، ثم عملت في إحدى الحانات حتى تعرفي ما ترغبين في القيام به حقًا. عليك ترتيب أفكارك، وإذا كنت لن تعودي إلى الدراسة ثانية عليك تحديد ما ستقومين به حقًا في حياتك».ثم أردفت: «أعني على أي حال، إذا ما اتخذت قرارًا بالبقاء في ستورتفولد، ستكونين بحاجة إلى عرض تلك الشقة للإيجار، إن بابا وماما لن يمكنهما الاستمرار في دعمكِ».

«الغريب أن من تقول لي هذا الكلام هي المرأة التي ظلَّت تتلقَّى الدعم من بنك بابا وماما طيلة الأعوام الثمانية الماضية».

«أنا ما زلت أدرس، وهذا يختلف عن موقفك. على أي حال لقد

طالعت بياناتك البنكية أثناء إقامتك في المستشفى، وبعد سداد جميع فواتير، وجدت أنه يتبقّى لديك ألف وخمسمائة جنيه، بما في ذلك الإجازة المرضية مدفوعة الأجر. وبالمناسبة، لمن كانت المكالمات الدولية التي كنت تجرينها بحق السماء؟ لقد كلفتك ثروة».

«ليس هذا من شأنك».

«حسنًا، لقد وضعتُ لك قائمة بالسماسرة في تلك المنطقة الذين يقومون بعمليات التأجير. ثم فكرتُ أن بمقدورنا إلقاء نظرة على طلبات التقديم للالتحاق بالجامعة، فربما اعتذر أحدهم عن الكلية التي تودين الالتحاق بها».

«ترينا، أنتِ ترهقينني».

«لا فائدة من التشتّت، سوف تشعرين بالتحسن حين تركّزين على شيء ما».

وعلى الرغم من انزعاجي من حديثنا، فإنه كان هناك ما يطمئن بشأن ما قالته لي شقيقتي، وهو أن لا أحد سواها تجرّأ على التحدث معي على ذلك النحو، إن أبويّ في واقع الأمر كانا يعاملانني كما لو كنت ما زلت طفلة، إنهما يشعران في أعماقهما بما يعتمل في قلبي ويؤمنان بأن هناك ما يسوء حقًا في داخلي، وأنني لا بد أن أعامَل معاملة الأطفال. اعتادت أمي وضع ملابسي النظيفة بعد القيام بطيِّها عند حافة فراشي، وكانت تطهو لي ثلاث وجبات يوميًا، وحين كنت أكتشفها وهي تحدِّق فيَّ، كانت تبتسم لي نصف ابتسامة تحمل في طياتها كل الكلام المسكوت عنه بيننا. أما أبي فكان يصطحبني في مواعيد زيارة طبيبي، ويجلس إلى جواري على الأريكة لمشاهدة التليفزيون، ولم يكن يكفّ عن إضحاكي والسخرية مني. ترينا هي الوحيدة التي عاملتني على هذا النحو.

«تعلمين ما أود قوله يا لويزا، أليس كذلك؟».

أجفلت عائدة من أفكاري التي استغرقت فيها وتقلَّبت على جانبي مجيبة إياها: «أعلم، ولا أعلم».

«حسنا، أنت تعرفين ما كان سيقوله لكِ ويل الآن. لقد عقدتِ معه اتفاقًا، ولا يمكنك إلغاءه».

«حسنًا، كفاكِ يا ترينا، لقد انتهينا من هذا النقاش».

«لا بأس، إن توم على وشك الخروج من غرفة تغيير الملابس، أراكِ يوم الجمعة!»، قالتها منهية الحوار ببساطة، كما لو كان ما نتناقش فيه أمرًا هيِّنًا كالموسيقى، أو كيفية قضائها لعطلتها الأسبوعية، أو كما لو كنا نتحدَّث عن أحد المسلسلات التليفزيونية الطويلة.

أنهت المكالمة وتركتني محدِّقة في السقف.

لقد عقدتِ اتفاقًا.

أجل، ولكن لتنظري إلى ما آل إليه اتفاقي هذا.

تمكنتُ في الأسابيع التالية عقب عودتي إلى المنزل، وبعد كل الشكوى التي بثتها ترينا فيَّ، من تحقيق بعض التقدُّم الملحوظ. توقَّفت عن الاستعانة بالعصا، التي كانت تجعلني أبدو في الثمانية والتسعين من العمر، فلم أستخدمها في معظم الأماكن التي توجَّهت إليها منذ عودتي إلى منزلنا الصغير. وكنت أصطحب جدي في الصباح كثيرًا للتمشية في المتنزة، كما طلبت مني ماما. لقد نصحه الأطباء بالقيام بتمارين رياضية يوميًا، ولكن، حين تتبَّعته أمي ذات يوم وجدت أنه ذهب إلى المتجر المجاور وابتاع كيسًا كبيرا من مقرمشات الخنزير[1]، وتناولها وهو في طريق عودته إلى المنزل سائرًا ببطء.

وهكذا، أصبحتُ رفيقته في تمشية الصباح، يتعكَّز كل منَّا على الآخر ولا يعرف كلانا وجهةً أين يجب أن نتجه.

اقترحت أمي علينا كثيرًا أن نتمشَّى وصولًا إلى القلعة: «فقط لتغيير

---

(1) pork scratchings مقرمشات مصنوعة من قطع صغيرة من جلد الخنزير المقلي.

المشهد المعتاد»، لكنني كنت أتجاهلها، وكان جدي بمجرد سماعنا لصوت البوابة تغلق خلفنا يومئ برأسه بحزم باتجاه المتنزه، فاعلًا ذلك ليس لأن الطريق إلى المتنزه كان أقصر أو لكونه الأقرب إلى متجر المراهنات فحسب، لكنني أعتقد أن جدي يعلم بعدم رغبتي في العودة إلى هناك، كان يعلم أنني لم أكن مستعدة لذلك، ولا أعرف إن كنت سأصبح قادرة على فعل ذلك حقًا يومًا ما.

درنا مرتين بتمهُّل حول بحيرة البط، وجلسنا على أحد المقاعد هناك مستمتعين بالطقس الربيعي المشمس، ومراقبة الأطفال الصغار وآبائهم وهم يلقون بالطعام للبط السمين الذي يسبح في البحيرة، ونشاهد المراهقين وهم يدخنون السجائر متشاركين معًا. مشينا إلى متجر بوكي للمراهنات حتى يتمكن جدي من خسارة ثلاثة أرطال من وزنه في كل مرة يذهب فيها للمراهنة على حصان يدعى واج ذا دوج. وبينما كان يلقي بورقة رهانه في السلة المخصَّصة، أخبرته أنني سوف أشتري له دونات المربَّى من المتجر.

وقال بينما نقف عند قسم المخبوزات: «منخفض السعات».

تجهَّمت مستفهمة.

فردد ثانية: «منخفض السعات» مشيرًا نحو حلوى الدونات ضاحكًا.

«أوه، أجل سوف أخبر أمي أن حلوى الدونات تلك منخفضة السعرات».

أخبرتني أمي أن العقاقير الجديدة التي يتناولها جدي جعلته كثير الضحك بلا سبب واضح، مثل الصغار، ولكن الضحك بلا سبب أفضل بكثير من أمور أخرى سيئة يمكن أن تحدث لك.

وكان جدي لا يزال يضحك على نكتته، وكنا نقف في الصف استعدادًا لدفع الحساب. أما أنا فأخفضت رأسي بينما كنت أبحث عن فكَّة في جيبي، مستغرقة في التفكير ما إذا كنت سأساعد أبي في تنظيف الحديقة

نهاية هذا الأسبوع أم لا. لذا استغرق مني الأمر دقيقة لسماع التهامس الذي كان خلفي مباشرة.

«إنه الشعور بالذنب. يقولون إنها حاولت القفز من فوق إحدى البنايات».

«حسنًا لو كنت مكانها لأقدمت على الفعل نفسه، أليس كذلك؟ أعرف أنني ما كنت لأطيق نفسي».

«أستغرب من قدرتها على الظهور هنا».

وقفت متجمِّدة في مكاني.

«أتعرفين أن المسكينة جوسي كلارك لا تزال تشعر بالخزي، وتذهب إلى جلسات الاعتراف في الكنيسة كل أسبوع، ولكن لا لوم حقًا على تلك السيدة الطيبة النقية تمامًا كالثوب الأبيض».

كان جدي يشير إلى الدونات بينما يقول لفتاة الصندوق: «منخفض السعات».

ابتسمت الفتاة في تأدُّب وقالت: «هذا ثمنه ثمانية وستون بنسًا من فضلك».

«لم تعد عائلة ترينر كما كانت كسابق عهدها».

«صحيح، إن ما حدث قد دمَّرها، أليس كذلك؟»

«الحساب ثمانية وستون بنسًا من فضلك».

استغرق الأمر بضع ثوانٍ حتى أدرك أن فتاة الصندوق كانت تنظر إليَّ منتظرة الحصول على حسابها. قبضت على حفنة من العملات المعدنية وأخرجتها من جيبي وتخبَّطت أصابعي بينما كنت أعدّها.

«هل تعتقدين أن جوسي تجرؤ على تركها تخرج مع جدها بمفردهما هكذا من دون رقيب؟»

«أتظنين أنها..».

«حسنًا، لا يمكن لأحد التنبؤ بما يمكن أن يحدث، لقد فعلت ذلك مرة من قبل..».

شعرت بوجنتيَّ تشتعلان احمرارًا، وتبعثرت العملات من يدي على الطاولة، بينما ظل جدي يردد على فتاة الصندوق المندهشة: «منخفض السعات، منخفض السعات» منتظرًا إياها أن تفهم نكتته وتضحك عليها. جذبْتُه من كمه قائلة: «هيا يا جدي علينا الذهاب».

قال مصرًا: «منخفض السعات».

قالت الفتاة مبتسمة بلطف: «أجل».

«من فضلك يا جدي، هيا». شعرت بحرارةٍ تسري في أوصالي وانتابني دوار، وكأنني على وشك أن أسقط مغشيًا عليَّ. ربما كانوا لا يزالون يتحدثون عني، ولكن أذنيَّ أصابهما طنين فلم أعد قادرةً على سماعهما.

لوَّح جدي قائلًا: «مع السلامة».

فأجابته الفتاة: «مع السلامة».

وحين خرجنا إلى ضوء الشمس سمعته يقول: «إنها لطيفة». ثم نظر نحوي: «لمَ تبكين؟».

تلك هي إذن عاقبة التورط في حدث كارثي يمثل نقطة تحوُّل. إنها نقطة التحول الكارثية التي عليك التعامل مع كل ما تحمله في طياتها من ذكريات تطاردك، وليال بلا نوم، وتفكير لا ينقطع في كل الأحداث التي مررت بها، متسائلًا عما إذا كنت تصرفت على نحوٍ سليم، وعما إذا كان في مقدورك تغيير مجريات الأمور، وما إذا كنت قد قلت حينها ما كان ينبغي عليك قوْله، ولو عاد بك الزمن هل كنت ستغير أي شيء ولو بشكل بسيط.

أخبرتني أمي في ما مضى أن وجودي مع ويل حتى النهاية، سوف يغيّرني لما تبقى من حياتي، واعتقدت حينها أنها تعني مجرد التغير النفسي. اعتقدت أنها تقصد ذلك الشعور بالذنب الذي عليَّ أن أعرف كيف أتجاوزه، وذلك الحزن الذي يجب أن أتغلب عليه، وما سوف يصيبني من أرق، وشعور بالانزعاج، وما سيتابني من نوبات عنيفة من

الغضب، وحواراتي الداخلية التي لن تنقطع مع شخص لم يعد موجوداً حقًا. ولكني أرى الآن أن الأمر لا يتعلق بي في مرحلة عمرية محددة من حياتي، بل هي حالة مستمرة سوف تحيلني إلى شخص جديد لا يشبهني إلى الأبد. وحتى لو تمكنت من مسح الأمر برمَّته من ذاكرتي، فسوف تظل بصمته عالقة في قلبي ووجداني ولن أتمكن من جعل نفسي بمنأى عن موت ويل. سوف يظل اسمي مرتبطا باسمه مادام أن هناك صحفًا وشاشات. لن يتوقف الناس عن إصدار أحكامهم عليَّ، وفقًا لمعلومات مغلوطة استقوْها من فضولهم - أو قد يحكمون عليَّ في بعض الأحيان من دون أي معرفة مسبقة عني على الإطلاق- ولن أستطيع القيام بأي شيء حيال ذلك.

قمت بقص شعري لينسدل على وجنتيّ. غيّرت طريقة ملبسي وحزمت كل ملابسي التي كانت تميزني ووضعتها في الطرف الأقصى من خزانتي. اتبعت أسلوب ترينا في الملبس، فارتديت الجينز والتيشرتات العادية. والآن حين أقرأ ما يُكتب في الصحف عن موظف البنك الذي اختلس ثروة، أو الأم التي قتلت طفلها، أو الطفل الذي اختفى، لا أجد نفسي أرتعد برعب كما اعتدتُ سابقًا، ولكنني أصبحت أتساءل عن القصة الحقيقية الخفية التي تكمن خلف الخبر. شعرت أن ما يربطني بهم علاقة تتسم بالغرابة، فأنا الآن ملوَّثة. والعالم من حولي بأسره يعلم ذلك. والأسوأ، أنني بدأت أشعر بذلك أنا أيضًا.

أخفيتُ ما تبقَّى من شعري الداكن بقبعة صغيرة، ووضعت نظارتي الشمسية، متوجِّهة إلى المكتبة، باذلة قصارى جهدي لإخفاء العرَج الذي في قدمي، حتى لو تسبَّب لي ذلك في قدر من الألم.

سرت في طريقي متجاوزة مجموعة الأطفال التي تغنِّي في الركن المخصَّص لها، والمجموعة الأخرى الصامتة من هواة علم الأنساب الذين يحاولون بحماسة إثبات نسبهم إلى الملك ريتشارد الثالث، وجلست في

الركن الخاص الذي يحتوي على الصحف المحلية. ولم يكن من الصعب العثور على صحف شهر أغسطس من عام 2009. أخذت نفَسًا عميقًا، ثم شرعت في تصفّحها سريعًا قارئة العناوين.

شاب من البلدة ينهي حياته في إحدى العيادات بسويسرا

آل ترينر يطلبون قدرًا من الخصوصية في أوقاتهم العصيبة

أقدم ستيفين ترينر الشاب البالغ من العمر 35 عامًا، والوصي على قلعة ستورتفولد، على الانتحار منهيًا حياته في ديجنيتزاز، المركز المثير للجدل المتخصِّص في الانتحار بمساعدة الغير في سويسرا. ومن الجدير بالذكر أن السيد ترينر قد أصيب بالشلل التام بعد تعرضه لحادث سير عام 2007، هذا وقد سافر إلى تلك العيادة بسويسرا بصحبة أسرته ولويزا كلارك، القائمة على رعايته، البالغة من العمر 27 عاما، والمقيمة في ستورتفولد هي الأخرى. وتقوم الشرطة الآن بالتحقيق في ملابسات الحادث والظروف المحيطة بحالة الوفاة، هذا وتؤكد المصادر على عدم استبعاد تحويل الأمر إلى النيابة العامة.

رفض كل من برنارد وجوزفين، والدي لويزا كلارك، التعليق على الأمر.

أما كاميليا ترينر، التي تشغل منصب قاضية صلح، فقد تنحَّت عن منصبها عقب إقدام ابنها على الانتحار، وقد أكد أحد المصادر المحلية أن منصبها كقاضية لم يعد يتناسب مع ما أقدمت عليه العائلة.

ثم رأيت بعد انتهاء الخبر وجه ويل مطلًا عليَّ في صورة مرفقة بالخبر، بابتسامته المتهكِّمة، ونظرته الثاقبة، فانقطعت أنفاسي.

هذا وقد أدى موت السيد ترينر إلى إنهاء عمله الناجح في المدينة، حيث كان المالك المتحكِّم في أصوله ومديره الناجح. وقد تجمع زملاؤه بالأمس لتأبين الرجل الذي وصفوه بأنه...

سارعت بطيِّ الجريدة، وحين تأكدت من تحكمي في انفعالات وجهي، وعدم كشفه لمدى تأثري بما قرأت، نظرت إلى الأعلى، فوجدت المكتبة

تتهامس بأمور زبائنها المعتادة. فالأطفال مستمرين في غنائهم بأصواتهم الفوضوية غير المتناسقة، وتصفِّق لهم أمهاتهم في إعجاب. وتتناقش أمينة المكتبة مع زميلة لها حول أفضل طريقة لصنع الكاري التايلاندية، أما الرجل الجالس بجواري فكان يحرك إصبعه إلى الأسفل عبر قائمة انتخابية قديمة متمتمًا: «فيشر، فيتزجوين، فيتسويليام..».

لم أحقِّق أي إنجاز. مرَّ أكثر من ثمانية عشر شهرًا لم أحقِّق فيها سوى بيع الخمور في حانتين ببلدين مختلفين، وها أنا أشعر بالأسى على نفسي. والآن وبعد أربعة أسابيع من عودتي إلى المدينة التي نشأت فيها، أشعر، وكأن ستورتفولد تعتصرني وتبتلعني فيها، محاولة طمأنتي بأنني سأكون على ما يرام هناك. وأن الأمور ستسير بشكل أفضل. من المؤكد أنني لن أحظى بمغامرات عظيمة هناك، وسوف أشعر بعدم الارتياح حتى يتكيف الناس مع أمر عودتي مجددًا، ولكن ألا يستحق الشعور بالحب والأمان في حضن العائلة ذلك العناء؟

نظرتُ نحو كومة الصحف على الطاولة أمامي وقرأت أحدث عناوينها الرئيسية:

صف طويل أمام مكتب البريد يحتل المكان المخصص لإيقاف سيارات ذوي الاحتياجات الخاصة.

ثم تذكرتُ أبي وهو يجلس على حافة فراشي في المستشفى يبحث من دون جدوى عن خبر أو تقرير حول حادثتي غير المعتادة.

لقد خذلتك يا ويل، خذلتك بكل طريقة ممكنة.

حين وصلت إلى المنزل كان بمستطاعي سماع أصوات الصياح والصراخ الصادرة منه من أول الشارع. وبمجرد أن فتحت الباب سد أذني صوت نحيب توماس الصادر من أحد أركان غرفة المعيشة، بينما كانت شقيقتي تعنِّفه ملوِّحة بإصبعها في وجهه. ووجدت أمي منحنية فوق جدي وفي يدها وعاء غسيل ممتلئ بالمياه ولوفة إسفنجية خشنة، بينما يحاول هو إبعاد يدها بلطف.

«ما الذي يحدث هنا؟».

تحرَّكت أمي جانبًا كاشفة عن وجه جدي فتمكنت من رؤيته بوضوح، حاجباه أسودان سميكان، وشاربه أسود كث غير مستوٍ.

قالت أمي: «إنه قلم حبر لا يُمحى، من الآن فصاعدًا لا تتركوا جدكم ينام في الغرفة بمفرده مع توماس».

قالت ترينا صارخة في وجهه: «عليك التوقف عن الرسم على الأشياء، ارسم على الورق فقط، اتفقنا؟ ليس على الجدران، ولا على الوجوه، ولا على كلب السيد رينولد، وليس على سروالي».

«كنت أكتب أيام الأسبوع على سروالك!».

صاحت: «أنا لست في حاجة إلى سروال مكتوب عليه أيام الأسبوع، ولو كنت أحتاج ذلك لكتبت يوم الأربعاء عليه بتهجئة صحيحة!».

قالت أمي راجعة إلى الخلف لتبين ما إذا كان مجهودها أثمر عن أي تأثير في وجه جدِّي: «لا تعنِّفيه يا ترينا، كان يمكن أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك».

وما إن انتهت من عبارتها، حتى تنامى إلى مسامعنا صوت خطوات أبي التي تبدو في بيتنا الصغير تحديدًا أشبه بصوت الرعد، ودلف بسرعة إلى الغرفة الأمامية وكتفيه منسدلان في إحباط وشعره مشعث في أحد جانبي رأسه فقط: «ألا يمكن لرجل مثلي هنا أن يحظى بنوم هانئ في بيته يوم عطلته؟ إن هذا البيت أشبه بمستشفى المجانين».

توقفنا جميعًا كأنّ على رؤوسنا الطير محدِّقين فيه.

«ماذا؟ ما الذي قلته لتنظروا إليّ هكذا؟».

«برنارد...».

«آه، هيا، إن ابنتي لو العزيزة تعلم أنني لا أعنيها بذلك...».

وضعت أمي يدها فوق وجهها قائلة: «أوه يا إلهي!».

وبدأت شقيقتي في دفع توماس خارج الغرفة.

«أيها الولد، من الأفضل أن تخرج من هنا في الحال، أقسم لك على أن جدك لو أمسك بك...».

عقد أبي حاجبيه: «ماذا؟ ما الذي يحدث هنا؟».

أطلق جدي ضحكة عالية، مشيرًا بإصبعه المرتجف إلى أبي.

لقد قام توماس بتلوين وجه أبي كله باللون الأزرق وبدت عيناه في وجهه أشبه بثمرتين من الحركنش المثبَّتتين على بحر من الأزرق الداكن.

«ماذا؟».

جاء صوت توماس بينما يختفي من الحجرة وهو ينتحب معترضًا على إخراجه منها: «لقد كنا نشاهد فيلم أفاتار، وقال إنه لا يمانع أن يتحوَّل إلى أفاتار!».

اتسعت عينا أبي، وحدَّق في المرآة الموضوعة فوق المدفأة.

مرت لحظة صمت قصيرة قبل أن يصيح أبي: «أوه، يا إلهي، اللعنة!».

«برنارد لا تبدأ في السباب وصبّ اللعنات».

«لقد حوَّل وجهي إلى الأزرق اللعين يا جوسي، وتطلبين مني ألّا أبدأ في السباب واللعنات، بل من حقي أن أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. توماااااااس هل هذا قلم حبر لا يُمحى؟».

قالت شقيقتي وهي تغلق باب الحديقة خلفها، بينما لا يزال صوت نحيب توماس مسموعًا خلفه بوضوح: «سوف نجد طريقة لإزالته يا أبي».

«ينبغي عليَّ الإشراف على عملية بناء السياج الجديد حول القلعة غدًا، سوف ألتقي بالمقاولين القادمين إلى الموقع، كيف سأتمكن من التعامل معهم بحق الجحيم وأنا أزرق اللون هكذا؟ بصق أبي على راحة يده وأخذ في حك وجهه محاولًا إزالة الحبر، ولكن ما ظهر كان لونًا باهتًا خفيفًا يلطِّخ راحته: «لا يمكن إزالة اللون اللعين يا جوسي، إنه لا يمْحي!».

حوَّلت ماما انتباهها من جدي إلى بابا وفي يدها الإسفنجة الخشنة قائلة: «ابقَ ثابتًا يا برنارد وسوف أفعل ما في وسعي».

هرعت ترينا إلى حقيبة حاسوبها المحمول: «سوف أبحث عن حل على الإنترنت، فلا بد أن هناك شيئًا يزيل هذا اللون، مزيل معجون أسنان، أو طلاء أظافر أو مبيِّض من نوع ما...»

«لن تضعي مبيِّضًا على وجهي اللعين!». صاح أبي غاضبًا، بينما جلس جدي بشارب القراصنة الجديد الذي نبت على وجهه ضاحكًا كعادته في ركن الغرفة.

مررت بجوارهم.

كانت أمي ممسكة بوجه أبي في يدها اليسرى وهي تقوم بحكه، واستدارت نحوي، كما لو كانت لم ترني إلا لتوِّها: «لو، لقد انشغلت عن السؤال عنكِ حبيبتي، هل أنتِ بخير؟ هل استمتعتِ بالتمشية في الخارج؟». وتوقَّف كلٌ منهم عما يفعله ليبتسم ابتسامة ذات مغزى نحوي، ابتسامة من النوع الذي يقول كل شيء سيكون على ما يرام يا لو، لا داعي للقلق. ولكم كرهت تلك الابتسامة.

قلت: «بخير». وكانت تلك الإجابة التي يوَدّون جميعًا سماعها.

ثم استدارت أمي نحو أبي مستأنفة عملها على وجهه.

«هذا عظيم، عظيم للغاية، أليس كذلك يا برنارد؟».

«أجل، إنها أخبار رائعة».

«إذا أخرجتِ لي ملابسكِ المتسخة يا حبيبتي سوف أضعها في الغسالة مع ملابس والدك في وقت لاحق».

أجبت: «في واقع الأمر، لا تشغلي نفسك بهذا، لقد كنت أفكر، في أن الوقت قد حان للعودة إلى شقّتي ثانية».

لم ينطق أحدهم بشيء، وحدَّقت أمي في أبي، وأطلق جدي ضحكة أخرى قبل أن يضع يده فوق فمه.

قال أبي بثقة رجل في منتصف العمر، ملوَّن بلون التوت: «حسنًا يا لويزا، ولكنك إذا عدت إلى تلك الشقة ثانية فسوف تعودين بشرط واحد..».

الفصل الرابع

«اسمي ناتاشا، فقدت زوجي بعد إصابته بالسرطان منذ ثلاثة أعوام».

في ليلة رطبة لأحد أيام الإثنين، جلس أفراد مجموعة الدعم النفسي في حلقة من الكراسي المكتبية برتقالية اللون داخل إحدى قاعات كنيسة بينتيكوستال، إلى جوار مارك، قائد المجموعة، الرجل طويل القامة ذي الشارب، الذي ينضح وجوده بحالة منهكة من الحزن، وإلى جواره مقعد واحد خاوٍ.

«أدعى فريد، توفيت زوجتي جيلي في سبتمبر الماضي وكانت في السابعة والأربعين من العمر».

«اسمي سونيل، توفي شقيقي التوأم إثر إصابته باللوكيميا منذ عامين».

«اسمي ويليام، وتوفي أبي منذ ستة أشهر. في واقع الأمر، قد يبدو ذلك سخيفًا بعض الشيء، ولكني بصراحة لم أكن على وفاق مع أبي حين كان لا يزال على قيد الحياة، ودائما ما أسأل نفسي عن سبب وجودي هنا».

كانت هناك رائحة حزن غريبة تفوح من المكان. أشمها في قاعات الكنيسة الرطبة غير جيدة التهوية، وفي أكياس الشاي رديئة النوع التي يقدمونها. فاحت في المكان رائحة وجبات الطعام، ورائحة دخان السجائر التي كان يستعين بها البعض لمقاومة البرد القارس. انتشرت رائحة مثبِّت الشعر، ورائحة العرق، ورائحة تلك الانتصارات الصغيرة على مستنقع راكدِ المياه من اليأس. وتلك الرائحة وحدها أخبرتني أنني لا أنتمي إلى هذا المكان، مهما كان ما وعدتُ به أبي.

كان وجودي في هذا المكان يشعرني أنني مزيَّفة، علاوة على أنهم جميعا بدوْا في حالة حزن.

تحرَّكت متململة في مقعدي. ولاحظ مارك ذلك، فنظر إليَّ مبتسمًا ابتسامة مطمئنة وكأنه يحاول أن يقول لي: نعلم بما تشعرين، لقد مررنا بذلك سابقًا.

فأجبت صامتة: أراهن على أنكم لم تفعلوا.

«آسف، آسف على تأخري» انفتح الباب مع لفحة من الهواء الدافئ، وسرعان ما احتل المقعد الشاغر مراهق بشعر طويل أشعث، وجلس ضامًّا أطرافه بشدة كما لو كان يشعر أنها أطول من المساحة المخصَّصة له.

«جاك، لقد تغيَّبت المرة السابقة، هل أنت بخير؟».

«آسف، كان أبي يواجه بعض المشاكل في عمله ولم يستطِع إحضاري إلى هنا».

«لا بأس، من الجيد أنك أتيت اليوم، أنت تعرف أين توجد المشروبات».

أخذ الفتى في التحديق في أرجاء الغرفة وبدا عليه القليل من التردد حين وقعت عيناه على تنّورتي اللامعة الخضراء. وضعت حقيبتي على حِجري في محاولة مني لإخفائها، فأشاح بعينيه بعيدًا.

«مرحبًا، أنا دافني، وقد انتحر زوجي، ولا أظن أن سبب انتحاره هو نحيبي المتواصل!». كشفت نصف الابتسامة التي ارتسمت على وجه السيدة عن ألم دفين، ربَّتت بحرص على شعرها المصفوف وحدَّقت بنظرة غريبة تجاه ركبتيها قبل أن تردف: «لقد كنا سعيدَيْن، كنا سعيدَين حقًّا».

قال الصبي وقد وضع يديه تحت فخذيه: «اسمي جاك، وتوفيت أمي منذ عامين، بدأت في القدوم إلى هنا منذ العام الماضي، نظرًا لأن أبي لا يستطيع التعامل مع الأمر، وأنا في حاجة إلى شخص أتحدث إليه».

سأله مارك: «كيف كان حال والدك هذا الأسبوع يا جاك؟».

«ليس بالسيئ، لقد جلب معه امرأة إلى المنزل الجمعة الماضية، ويعد

أن انتهيا من الأمر لم يجلس باكيًا على الأريكة كما كان يفعل من قبل، يمكنني أن أعد ذلك تحسنًا للوضع».

قال مارك موجهًا حديثه لي: «إن والد جاك يتعامل مع حزنه بطريقته الخاصة».

قال جاك: «إنه يدخل في علاقات جنسية... معظم الوقت».

قال فريد بأسى: «يا ليتني كنت أصغر سنًا». كان يرتدي قميصًا ذا ياقة عالية وربطة عنق. يبدو أنه من الأشخاص الذين يعتبرون أن ملبسهم لا يكتمل من دون ربطة العنق.

قالت سيدة جالسة في الزاوية: «لقد اصطاد ابن عمتي رجلًا امرأة من جنازة عمتي»، لا أذكر اسمها تحديدًا ولكنني أظن أنه لياني، هي امرأة ضئيلة مستديرة ذات شعر بني داكن مثل لون الشكولاتة.

«هل فعل ذلك حقًا في جنازتها؟».

«لقد توجَّها معًا إلى فندق ترافيلودج عقب انتهاء المراسم، من الواضح أنه كان يعاني من مشاعر مبالغ فيها!».

أنا في المكان الخاطئ، لا أشك في ذلك، أرى تلك الحقيقة الآن بوضوح، قمت بجمع أغراضي خلسة متسائلة هل يجب عليَّ أن أعلن أنني سأغادر، أم عليَّ أن أركض خارجة من المكان ببساطة.

تطلَّع مارك نحوي في ترقّب!كما لو كان يقول لي هيا ابدئي الحديث.

حدَّقت مشدوهة نحوه، فرفع حاجبيه.

«أوه، أنا؟ لقد كنت راحلة لتوّي... أعتقد أنني... أعني أعتقد أنني..».

«يرغب الجميع في مغادرة الجلسة في أول يوم لهم هنا يا عزيزتي».

«لقد أردت المغادرة في مرَّتي الثانية والثالثة أيضًا».

«هذا بسبب البسكويت، دائمًا أخبر مارك أننا بحاجة إلى شراء نوع أفضل».

«يمكنك أن تحكي لنا بشكل عام عن المشكلة إذا أردتِ، لا تقلقي فأنتِ بين أصدقائك».

كانوا في انتظاري، فاعتدلت في جلستي على مقعدي: «أممم، حسنًا اسمي لويزا وقد توفي الرجل الذي أحببته وهو في الخامسة والثلاثين من عمره».

حركوا رؤوسهم في أسى.

«مات في سن صغيرة! متى حدث ذلك يا لويزا؟».

«منذ عشرين شهرًا وأسبوعًا ويومين».

قالت ناتاشا موجّهة حديثها نحوي وقد انفرجت أساريرها عن ابتسامة: «أما أنا فقد فقدت زوجي من ثلاث سنوات، وأسبوعين، ويومين».

تعالت بعض الهمهمات المواسية. ومدَّت دافني الجالسة إلى جواري يدها مربِّتة على ساقي.

«لقد خضنا في هذه الغرفة الكثير من المناقشات حول صعوبات مواجهه فقْد عزيز في سن مبكرة. كم أمضيتما معًا من الوقت؟».

«كنا... حسنًا... أقل من ستة أشهر».

بدت علامات الاندهاش على بعض الوجوه.

وتنامى إلى مسامعي صوت يقول: «ولكن تلك... تلك فترة قصيرة للغاية».

قال مارك بلطف: «أنا على ثقة من أن ألم لويزا جرّاء هذا الفقد لم ينتهِ بعد، ولكن كيف رحل يا لويزا؟».

«رحل إلى أين؟».

قال فريد مساعدًا: «يعني كيف كانت وفاته؟».

«أوه، لقد انتحر».

«لا بد أن تلك كانت بمثابة صدمة كبيرة».

«كلا في الواقع. لقد كنت أعلم بتخطيطه للأمر».

سادت حالة من الصمت الغامض في الغرفة، صمت يكتنف حالة الترقّب التي تعقب كشْفك لسرٍّ جديد عن قصة موت الشخص الذي أحببته ولا يعرفونه.

أخذت نفَسًا عميقًا: «كان يرغب في القيام بذلك قبل أن ألتقي به. حاولتُ أن أقنعه بالعدول عن الفكرة ولكنني لم أستطِع، فوافقته عليها لأنني أحببته، وبدت لي الفكرة منطقية حينها، ولكنها الآن فقدت الكثير من منطقها بالنسبة لي، وهذا هو سبب وجودي بينكم هنا الآن».

قالت دافني: «لا أجد أي منطق في الموت على الإطلاق».

ردت ناتاشا: «إلا لو كنت معتنقًا للديانة البوذية، فللموت منطق آخر، أحاول التفكير في منطق الديانة البوذية ولكنني أخشى أن يعود أولاف إلى الحياة ثانية على هيئة فأر فأقوم بتسميمه». ثم أردفت متنهدة: «عليَّ أن أترك الكثير من السم على الأرض، فالبناية التي أعيش فيها تتعرض لغزو الفئران الغاشم».

قال سونيل: «لن تتمكني من التخلص منها يا ناتاشا، إنها أشبه بالبراغيث، ففي مقابل كل فأر ترينه، هناك مئات الفئران المختبئة».

قالت دافني: «ربما عليك التفكير في ما تقومين به عزيزتي، فقد تكون هناك المئات من زوجك أولاف حولك ولا تشعرين، وقد يكون زوجي آلان بينهم، وقد تسمِّمي كليهما».

قال فريد: «حسنا لو كان زوجك بوذيًا، لعاد إلى الحياة في صورة أخرى غير الفأر، أليس كذلك؟».

«ولكن ماذا لو عاد في صورة ذبابة أو شيء مشابه فتقتله ناتاشا أيضًا؟».

قال ويليام متقزِّزًا: «سوف أكره حقًا العودة إلى الحياة على هيئة ذبابة، إنها كائن مقزز».

فردت ناتاشا: «أنا لست سفَّاحة، أنتم تتحدثون كما لو كنت أقدم على قتل جميع الأزواج في هيئاتهم وأجسادهم الجديدة».

«حسنًا، إن ذلك الفأر حتى لو لم يكن أولاف فربما يكون زوج شخص آخر».

قال مارك وهو يحك صدغه: «حسنًا أعتقد أننا خرجنا عن موضوع

جلستنا هنا يا رفاق. لويزا، كم سنقدِّر شجاعتك إذا ما أخبرتنا قليلًا عن قصتك، لماذا لا تخبرينا عن اسمه، وقصة لقائك به؟ أنت داخل دائرة الثقة هنا، ولقد أقسمنا جميعًا على ألّا تخرج قصصنا خارج حدود تلك الجدران».

وعند هذه النقطة بدا لي، وكأنني قد لمحتُ عيني جاك تنظران نحو دافني، ثم تنظران إليَّ قبل أن يهز رأسه خلسة.

«لقد قابلته في العمل، واسمه بيل».

على الرغم من الوعد الذي قطعته على نفسي مع أبي، لم يكن في نيتي الاستمرار في حضور جلسات مجموعة الدعم النفسي، فإن عودتي إلى العمل كانت مروِّعة للحد الذي أعجزني عن تحمل العودة إلى شقة خالية في نهاية اليوم.

«لقد عدتِ ثانية!»، قالتها كارلي وهي تضع فنجان القهوة على البار، وتأخذ النقود من رجل الأعمال الجالس أمامها، ثم عانقتني بينما تضع فئات العملات بخفَّة في مواضعها داخل درج النقدية،كل ذلك بحركة واحدة انسيابية، «ماذا حدث لكِ بحق السماء؟ لقد أخبرنا تيم عن تعرضك لحادث من دون أي تفاصيل ثم غادر، لذا اعتقدتُ أنكِ لن تعودي ثانية».

قلتُ محدِّقة فيها: «إنها قصة طويلة... ما هذا الزي الذي ترتدينه؟».

إنها التاسعة من صباح يوم الإثنين، كانت ساحة المطار تعجُّ بالكثير والكثير من الرجال الذين يقومون بشحن حواسيبهم المحمولة، أو يحدِّقون في هواتف الآي فون خاصتهم، أو يتصفَّحون جريدة السيتي بيدجز، أو يتداولون أخبار البورصة من خلال سماعات هواتفهم. وقعت عين كارلي على شخص يقف عند الجهة الأخرى من صندوق النقدية قبل أن تقول: «أجل، لقد تغيَّرت الأمور هنا كثيرًا منذ ذهابك».

استدرتُ لأجد واحدًا من رجال الأعمال يقف على الجهة الخطأ غير

المخصَّصة للزبائن من البار، حدَّقت في وجهه باستغراب، ثم وضعت حقيبتي جانبًا قائلة: «إذا تفضَّلت بالانتظار هناك، سأقوم بخدمتك..».

قال: «لا بد أنكِ لويزا»، وقام بمصافحتي مصافحة رسمية جافة، «أعرِّفك بنفسي، أنا المدير الجديد ريتشارد بيرسيفال». نظرت إلى شعره المصفَّف بعناية إلى الوراء، وبذلته، وقميصه ذي اللون الأزرق الفاتح، وتساءلت أي نوع من الحانات قام بإدارته حقًا.

«سعدت بلقائك».

«أنت الفتاة المتغيِّبة منذ أشهر إذن».

«حسنًا، أجل أنا هي».

سار ببطء متفحِّصًا كل زجاجة موضوعة على الأرفف: «أود فقط أن أخبركِ أنني لستُ من هواة الأشخاص الذين يحصلون على إجازات مرضية لا نهاية لها».

انتصب عنقي ستيمترات قليلة إلى الخلف.

«أود فقط لفت انتباهك يا لويزا أنني لست من نوع المدراء الذين يغضّون الطرف عن مثل هذه الأمور، أعلم أن العديد من الشركات تعتبر مثل هذه الإجازات شكلًا من أشكال تعويضات العاملين. ولكن ليس في الشركات التي أعمل بها».

«صدقني لم أفكر مطلقًا في أن تسعة أسابيع من التغيّب شكل من أشكال التعويضات».

تفحّص الجانب السفلي من الصنبور، وقام بحكه بسبابته.

أخذتُ نفَسًا عميقًا قبل أن أقول: «لقد سقطت من أعلى بناية، ربما يمكنك أن ترى آثار العمليات الجراحية التي خضعت لها إن أردت، حتى تطمئن أنني لن أرغب في تعرّضي لذلك ثانية».

حدَّق بي ثم قال: «ليس هناك داعٍ لتهكمكِ، أنا لا أقول إنك ترغبين في التعرض لحادث آخر، ولكن إجازاتكِ المرضية تفوق الحد الطبيعي

لشخصٍ عمل لصالح هذه الشركة لوقت قصير نسبيًا. هذا ما أردتُ قوله، وأعتقد أنه مفهوم».

كان يرتدي أزرار أكمام منقوشًا عليها سيارات سباق.

«مفهوم يا سيد بيرسيفال، وسوف أبذل قصارى جهدي في المرة المقبلة لتجنب مثل تلك الحوادث المريعة».

«إنكِ في حاجة إلى زي، امنحيني خمس دقائق وسوف أجلب لك واحدًا من المخزن، ما هو مقاسك؟ اثني عشر؟ أربعة عشر؟».

قلت محدِّقة به: «مقاسي عشرة».

رفع حاجبًا، فبادلته رفع حاجبي. وبينما سار باتجاه مكتبه، نظرت كارلي باتجاهه مبتسمة من خلف ماكينة صنع القهوة وتمتمت بجانب فمها: «أخرقٌ شديد الحماقة».

ولم تكن كارلي مخطئة في وصفها له، فمنذ اللحظة التي عدت فيها إلى العمل شعرت كما لو كان ريتشارد بيرسيفال كابوسًا يجثم على صدري، كان يعدُّ عليَّ خطواتي، ويتفحَّص كل ركن في الحانة بحثًا عن فتات الفول السوداني، ويتردَّد باستمرار على المراحيض للتأكد من نظافتها، وكان لا يسمح لنا بالمغادرة قبل التأكد من أن كل بنس في صندوق النقدية مطابق لفواتير الحساب.

بوجوده، لم يعد لديَّ متسع من الوقت للحديث مع الزبائن، أو للنظر إلى اللوحات المعلنة عن موعد إقلاع الرحلات، أو توصيل جوازات السفر المفقودة، أو التأمل في الطائرات التي كان في مقدورنا رؤيتها عبر النافذة الزجاجية العملاقة. لم يكن لديَّ حتى متسع من الوقت لدندنة مقطوعة مزامير بان الكلتية، الجزء الثالث. وكنا إذا ما تركنا زبونًا من دون أن نقدم له الخدمة، لمدة عشر ثوانٍ فقط، يظهر ريتشارد مهرولًا من مكتبه، ويعتذر له مرارًا وتكرارًا بصوت مرتفع عن إهماله لهذا الوقت الطويل.كنت أنا وكارلي، على الرغم من انشغالنا مع الزبائن، نتبادل نظرات سرية تحمل ما في داخلنا من امتعاض وازدراء.

كان يقضي نصف الوقت في مقابلة مندوبي المبيعات، ويقضي النصف الآخر على الهاتف متحدِّثًا مع مسؤولي المكتب الرئيسي، يثرثر عن كرة القدم ومتوسط ما ينفقه الزبائن من مال.كان يطلب منا أن نحث الزبائن ونشجِّعهم على شراء وطلب المزيد مما تقدمه حانتنا، وإذا ما نسيَ أحدنا ذلك يلقى نصيبه من التوبيخ. ولكم أرهقنا كل ذلك نفسيًا.

وفوق كل ذلك كان هناك الزي الرسمي للمكان!!

أتت كارلي إلى حمَّام السيدات بينما كنت أنتهي من ارتداء ملابسي ووقفت إلى جواري في المرآة، قائلة: «إننا نبدو في هذا الزي كزوج من الحمقى».

لقد قام أحد عباقرة التسويق من شاغلي المناصب الإدارية العليا في الشركة، والذي لم يرُقْ له القميص الأبيض مع التنورة السوداء كزي للمكان، باتخاذ قرار يقضي باستبداله بزي آخر يتناسب مع مناخ سلسلة حانات شامروك وكلوفر الأيرلندي، بحيث يكون زيًا أيرلنديًا حقيقيًا. وقد تراءى لهذا العبقري في تلك اللحظة من بين كل الأزياء التي تزخر بها دبلن، أن فتياتٍ مثلنا كي يعكسن الطابع الأيرلندي للمكان عليهن ارتداء مريلة كثيرة التطريز، وجوارب ترتفع حتى الركبة، وحذاء رقص ذي شرائط تربط لأعلى، على أن يكون كل ذلك باللون الأخضر الزمرّدي اللامع. أما عن الشعر، فكنا نرتدي باروكات على شكل جدائل منسدلة.

قالت كارلي وهي تشعل سيجارة، بعد أن تسلَّقت الحوض لتبطل إنذار الحريق في السقف: «يا إلهي لو رآني حبيبي في هذا الزي، لألقى بي في أول مقلب للنفايات».

قلت لها وأنا أجذب تنُّورتي القصيرة إلى أسفل ناظرة إلى ولّاعة كارلي وأنا أفكر كم أبدو مثيرة في هذا الزي: «ولكن كيف يبدو زي الرجال إذن؟».

«انظري إلى الخارج، لا يوجد هناك سوى ريتشارد، وعليه أن يرتدي القميص ذا الشعار الأخضر».

«هذا هو زيُّهم فحسب؟ لا أحذية سخيفة؟ لا قبّعات شيطانية؟».

« يا لها من مفاجأة! الفتيات وحدهن من سيكون عليهن الظهور بمظهر بطلات أفلام البورنو هنا».

«إنني، في هذه الباروكة، أبدو مثل دوللي بارتون في بداياتها الفنية ».

«أرتدي واحدة حمراء اللون، كم نحن محظوظات إذ يمكننا أن نختار من ثلاثة ألوان».

ومن مكان ما بالخارج، كان في مقدورنا سماع صوت ريتشارد ينادي علينا. بمجرد سماع صوته، بدأت معدتي في التقلص.

قالت كارلي: « لن أستمر في العمل هنا، سوف أذهب إلى ملهى ريفيردانس لأخرج من هذا المكان، وبعد ذلك سوف أغيِّر وظيفتي. وليلصق كل تعليماته وتعليمات شامروك على مؤخرته». لقد قدمت لي ما يمكنني وصفه بالهروب الساخر، ثم غادرت حمام السيدات. قضيت بقية اليوم وأنا أتعرَّض لصعقات الكهرباء الساكنة الناتجة عن احتكاك الزي.

* * *

انتهى اجتماع مجموعة الدعم النفسي في التاسعة والنصف. خرجت في تلك الأمسية الصيفية الرطبة، مرهقة بعد نوْبتَي عمل وأحداث المساء، فخلعت سترتي، من شدة الحرارة، شاعرة فجأة كما لو كنت تعرّيت تمامًا في غرفة تعج بالغرباء، فكونهم رأوني مرتدية لباس الرقص الأيرلندي، الذي كان في الواقع قصيرًا للغاية، لم يفرق عندي كثيرًا عن التعرّي.

لم أكن قادرة على التحدث عن ويل. لا يمكنني التحدث عنه كما تحدثوا هم عن قصصهم مع أحبائهم، الذين يتعاملون معهم كما لو كانوا لا يزالون في حياتهم، بل ربما كما لو كانوا في الغرفة المجاورة.

– أوه أجل، لقد كانت جيلي حبيبتي تفعل ذلك طيلة الوقت هي الأخرى.

– لا أستطيع محو رسائل شقيقي الصوتية. إنني أستمع إلى صوته من خلالها حين أشعر أنني بدأت في نسيان كيف يبدو صوته.

- أستطيع سماع صوته في الغرفة المجاورة أحيانًا.

لم أكن قادرة حتى على النطق باسم ويل. كنت أصغي إلى قصصهم وما يربطهم بأحبتهم من علاقات أسرية امتدت لثلاثين عامًا، ومنازل دافئة جمعتهم، وحياة، وأبناء، فشعرت وأنني سأبدو لهم محتالة! لقد أمضيت ستة أشهر في رعاية رجل، وقعت في حبه بعدها، ثم شاهدته وهو ينهي حياته. كيف لغرباء مثلهم أن يتفهَّموا ما كان بيني وبين ويل خلال تلك الفترة؟ وكيف عساي أن أحكي لهم عما ربط بيني وبينه، وكيف كنا نفهم بعضنا بعضًا من مجرد نظرة؟ مزحاتنا القصيرة؟ أحاديثنا عن الحقائق الموجعة؟ وأسرارنا العميقة؟ كيف أوضح لهم مدى تأثير تلك الشهور القليلة على نفسي وعلى نظرتي لكل الأمور من حولي؟ كيف أشرح لهم كيف غيّر مسار حياتي على النحو الذي أشعر معه أن لا معنى لحياتي من دونه؟

وحين كنت أفكر في الأمر مليًا كنت أتساءل عن الفائدة من تقليب الأحزان؟ إن الأمر أشبه بنخز جرحٍ عميق بإصرار على عدم شفائه. لقد كنت على علم بما أمرُّ به وما أنا جزء منه. وكنت على دراية بدوري. ما الفائدة من مكابدة هذا الألم مرات ومرات؟

مشيتُ ببطء باتجاه ساحة انتظار السيارات وأنا أبحث عن مفاتيحي، محدِّثة نفسي بأن قدومي هنا يعني على الأقل أنني لن أمضي ليلة أخرى بمفردي أمام التليفزيون. تخيفني وحدتي خلال اثنتي عشرة ساعة كاملة أحسبها حتى يحين موعد نوبة عملي التالية.

«لم يكن اسمه بيل حقًا، أليس كذلك؟».

قالها جاك بينما تعثرت قدمه في درج إلى جواري.

«كلا».

«إن دافني أشبه بإذاعة متحركة، إن نيَّاتها طيبة في الواقع، ولكنها تعرف قصتك، وسوف تنتشر حتى قبل أن تفكري في الأمر».

«شكرًا لك على إخباري».

ابتسم نحوي ناظرًا إلى تنورتي القصيرة: «رداء لطيف بالمناسبة، إطلالة

تتناسب مع جلسات استشارات نفسية للتعامل مع الحزن كجلساتنا». ثم توقَّف برهة ليعقد رباط حذائه.

توقَّفت عن السير حتى ينتهي، ثم قلت متردِّدة: «أنا آسفة بشأن والدتك».

بدت على وجهه علامات الحزن وهو يقول: «لا تقولي ذلك، إن الأمر أشبه بالسجن، لا يمكنك سؤال أحدهم ما الذي جاء به إليه».

«حقًا، أنا آسفة. لم أكن..».

«لقد كنت أمزح معكِ، أراكِ الأسبوع المقبل».

رفع رجل يستند إلى دراجة بخارية ذراعه لتحيتنا، تقدَّم إلى الأمام بينما يعبر جاك ساحة انتظار السيارات واحتضنه بقوة وقبّله من وجنته. توقَّفت لمشاهدتهما، فقد كان من النادر رؤية أب يحتضن ابنه بهذا القدر من الحميمية في مكان عام، خاصة حين يصلان إلى هذه المرحلة العمرية.

«كيف كان الأمر؟».

«بخير، كالمعتاد». ثم أومأ جاك تجاهي مستدركًا: «هذه... لويزا، إنها عضو جديد في المجموعة».

حدَّق الرجل فيَّ بعينين نصف مغمضتين، كان طويل القامة عريض المنكبين لديه أنف كبير يبدو كما لو أنه تعرض للكسر من قبل، ما منحه مظهر ملاكم سابق.

أومأت بتحية مهذَّبة: «سعدت بلقائك، جاك، إلى اللقاء». رفعت يدي لتحيتهما، وأكملت طريقي إلى سيارتي. ولكن بينما أمر أمام الرجل استمر يحدّق بي، حتى أصابني الحرج وشعرت بأن لوني تغير من نظرته المتفحصة: «إنكِ هي، إنكِ تلك الفتاة».

فكرت في نفسي وأنا أبطئ من خطواتي أوه كلا، ليس هنا أيضًا.

حدَّقت في الأرض للحظة وأخذت نفسًا عميقًا. ثم عدت لمواجهتهما: «حسنًا، لقد أوضحت الأمر لتوي في المجموعة، لقد أخذ صديقي قراراته بمحض إرادته، وكل ما فعلته أني دعمته. وحتى أكون صادقة معك، لا أرغب في الخوض في ذلك هنا مع شخص غريب عني تمامًا».

استمر والد جاك في النظر إليَّ متفحصًا، ثم وضع يده فوق رأسه.

«أنا متفهمة لعدم استيعاب الجميع للأمر، ولكن ذلك هو ما حدث، ولا أرى بأن عليَّ تبرير اختياراتي، كما أني متعبة حقًا، لقد كان يومي شاقًا، وأعتقد أن عليَّ الذهاب إلى منزلي الآن».

حرَّك رأسه جانبًا قبل أن يقول: «ليست لديَّ فكرة عما تتحدثين».

تجهَّمت.

«العرَج. لقد لاحظت أنك تعرجين في مشيتك قليلًا، إنك تعيشين بالقرب من الموقع الإنشائي الضخم الجديد، أليس كذلك؟ أنت الفتاة التي سقطت من أعلى المبنى في شهر مارس، أو إبريل على ما أظن».

ثم تعرفت إليه فجأة «أوه، إنه أنت..».

«أنا رجل الإسعاف، لقد كنت من ضمن الفريق الطبي الذي حملك حينها بعد السقوط، ولطالما فكرت في ما حدث لكِ بعد ذلك».

تنهَّدتُ بارتياح، ومررت بنظرتي المتفحِّصة على وجهه، وشعره وذراعيه، ثم تذكَّرت بدقة طمأنته لي، وصوت سارينة الإسعاف، وأريج الليمون الهادئ الذي انبعث منه حينها. زفرتُ قبل أن أقول: «أنا بخير، لستُ بخير للغاية، فقد كسرت وركي ولديَّ الآن رئيس عمل أحمق، وأحضر جلسات علاج نفسي مع مجموعة هنا داخل قاعة رطبة بالكنيسة ضمن مجموعة يتسم أفرادها بأنهم شديدو..».

«شديدو الحزن». قالها جاك محاولًا مساعدتي.

«سوف يتحسَّن وركك، ومن الواضح أن الكسر لا يؤثِّر على حياتك المهنية كراقصة».

صدرت مني ضحكة قوية.

«أوه... كلا، إن هذا الزي له علاقة برئيسي الجديد في العمل، ذلك الأحمق. ليس هذا أسلوبي في اللبس. على أي حال شكرًا لك..». وضعت يدي على رأسي وقلت: «واو، هذا غريب لقد أنقذت حياتي».

«أنا سعيد لرؤيتك، فمن النادر أن نعرف ما يحدث لمن ننقذهم بعد ذلك».

«ما فعلته كان عظيمًا حقًا، لقد كان... أعني أنك كنت عطوفًا للغاية، أتذكر ما حدث جيدًا».

قال لي: «De nada».

حدَّقت فيه، فقال موضحًا: «إنها كلمة إسبانية تعني: لم أفعل شيئًا».

«حسنًا، سأسحب ما قلت لتوي. شكرًا لك لأنك لم تفعل شيئًا».

ابتسم ملوِّحًا لي بيده التي كانت في حجم المجداف.

وبعدها، لا أدري ما دفعني لأن أستدير ثانية وأقول: «أنت»، استدار لينظر إليَّ: «اسمي سام».

فأردفت: «أنا لم أقفز عن سطح البناية يا سام».

«حسنًا».

«كلا، حقًا لم أفعل ذلك، أعلم أنك تراني الآن عائدة لتوِّي من جلسة دعم نفسي جماعي لتجاوز الأحزان، ولكنني لم أقفز من فوق سطح البناية».

رمقني بنظرة تشي بأنه قد رأى وسمع كل شيء.

ثم قال: «من الجيد معرفة ذلك». ونظرنا إلى بعضنا بعضًا لمدة دقيقة، قبل أن يلوِّح لي ثانية قائلًا: «سعدت بلقائك، لويزا».

وضع خوذته فوق رأسه، وصعد جاك على الدراجة النارية خلفه، ووجدت نفسي أرقبهما وهما ينطلقان بعيدًا عن ساحة انتظار السيارات. ونظرًا لأنني أطلت النظر فقد لاحظت نظرة جاك إلى والده وهو يجذب خوذته، وتذكرت حديثه في الجلسة عن ولع والده وهوسه بالنساء.

حدثت نفسي: «يا له من أحمق». واستكملت طريقي وأنا أعرج نحو سيارتي التي كانت تغلي بهدوء في حرارة المساء.

الفصل الخامس

كنت أعيش على أطراف المدينة، وفي حال انتابني أي شك، كانت على الطريق حفرة كبيرة بحجم مبنى ضخم، يحيط بها سياج شركة المقاولات الذي كُتب عليه بالبنط العريض: «فارثينجال - حيث تبدأ المدينة». كنا تحديدًا عند النقطة التي نصبت فيها البيوت الزجاجية المصقولة المخصَّصة لإغراء الشارين بدفع أموالهم، في مقابل الحوائط الطوبية القديمة والنوافذ المؤطَّرة لمحلات الكاري ومحلات البقالة المتواضعة المفتوحة على مدار الساعة، وحانات التعرّي ومكاتب الميني كاب التي رفضت الانقراض. كانت وحدتي السكنية تقع بين تلك الطرز المعمارية العتيقة الرافضة للتغيير، مبنى ملطَّخ بالرصاص أشبه بمستودع يحدِّق في الموجة العاتية للمباني المشيَّدة من الزجاج والصلب متسائلًا إلى متى سيستطيع الصمود، وربما جاءه الفرج على يد محل للعصائر الطبيعية أو معرض تجزئة مؤقت. لم أكن أعرف أحدًا باستثناء سمير الذي يدير محل البقالة والمرأة العاملة في المخبز، التي حيَّتني بابتسامة ولكن لا يبدو أنها تتكلم الإنجليزية على الإطلاق.

كنت مجهولة الهوية تقريبًا، وكان هذا هو الوضع الأنسب لي. فقد جئت إلى هنا هربًا من تاريخي، ومن الشعور كما لو أن الجميع يعرفون كل شيء يمكن معرفته عني. وقد بدأت المدينة تغيِّرني بالفعل. إذ كان عليَّ أن أعرف ذلك الركن الصغير الذي أعيش فيه منها، كان عليَّ أن أعرف إيقاعه

ونقاط الخطورة فيه. تعلَّمت أنك إذا أعطيت المال لسكران في محطة الحافلات فسوف يأتي ويجلس على باب شقتك في الأسابيع الثمانية التالية؛ تعلَّمت أنني إذا اضطررت للمشي خارجًا في الليل فمن الحكمة أن أفعل ذلك ومفاتيحي معلقة بإحكام بين أصابعي؛ وإن أردت الخروج لشراء زجاجة نبيذ في وقت متأخر من الليل فمن الأفضل ألّا أنظر ناحية مجموعة الشبَّان المتجمِّعين خارج مطعم الكباب كورنر. لم أعد أنزعج من الطنين المتواصل لمروحيات الشرطة التي لا تكف عن التحليق فوق رأسي.

يمكنني البقاء على قيد الحياة. إلى جانب ذلك، كنت أعرف، أكثر من أي شخص آخر، أن الأسوأ يمكن أن يحدث.

«مرحبًا».

«مرحبًا، لو. ألا تستطيعين النوم مجددًا؟».

«الساعة هنا لم تتجاوز العاشرة».

«إذن ما أخبارك؟».

كان ناثان، طبيب ويل السابق، قد أمضى الأشهر التسعة الماضية يعمل في نيويورك لدى مدير تنفيذي في منتصف العمر يتمتع بسمعة طيبة في وول ستريت، ويمتلك تاون هاوس مكوَّنًا من أربعة طوابق، ولديه مشكلة في العضلات. بات الاتصال به في الساعات القليلة التي لا أنام فيها ضربًا من العادة. فمن الجيد أن تعرف أن هناك شخصًا يفهمك، من دون أن تراه أو يراك، حتى لو كانت أخباره في بعض الأحيان مشوبة ببعض الإحباطات الصغيرة، على شاكلة كل من حولي يغادرون، كل من حولي يحققون شيئًا ما.

«إذن، ما أخبار التفاحة الكبيرة[1]؟».

«إنها ليست سيئة؟». لكنته الأسترالية النيوزلاندية تجعل كل إجابة أشبه بسؤال.

---

(1) أحد ألقاب مدينة نيويورك. (المترجم).

استلقيت على الأريكة، ورفعت قدميَّ على مسند الذراع، قائلة «ولكن هذه إجابة غير شافية».

«تمام. حسنًا. لقد حصلت على زيادة في الراتب، وكان هذا أمرًا طيبًا. وحجزت تذكرة طيران للسفر في إجازة مدة أسبوعين لرؤية الأهل، وسيكون هذا جيدًا؛ فهم سعداء للغاية لأن أختي رزقت بمولود. أوه، والتقيت فتاة جميلة حقًا في حانة بالجادة السادسة وكانت الأمور تسير بيننا على ما يرام ما شجعني على طلب الخروج معها، وعندما أخبرتها بعملي، اعتذرت. وفضّلت مواعدة رجال يرتدون البذلات عند ذهابهم للعمل». قالها ضاحكًا.

وجدت نفسي أبتسم وأنا أقول: «ملابس الأطباء غير مرغوبة إذن بالنسبة لها؟».

«على ما يبدو، رغم وعدها لي بأنها قد تغير رأيها إذا تبيَّن لها أنني طبيب حقيقيّ». ضحك مرة أخرى. كان ناثان شخصًا متزنًا ورصينًا، وقد أضاف: «على أي حال لا بأس، فالفتيات من هذا النوع يصعب إرضاؤهن. وكان من الأفضل أن أعرف عنها ذلك مبكرًا، أليس كذلك؟ ماذا عنك؟».

قلت: «في سبيلي إلى التعافي. نوعًا ما».

«ألا تزالين ترتدين التيشيرت الخاص به أثناء النوم؟».

«كلا. لم يعد يحمل رائحته. ولا أخفيك سرًا أن المسألة باتت بلا طعم قليلًا بالنسبة لي، وفقدت قدرًا من تأثيرها، لذا غسلته ووضعته في كيس، ولكنني احتفظتُ بكنزته معي للأيام السيئة».

«من الجيد أن تحصلي على بعض الدعم».

«أوه، وقد شاركت في مجموعة الدعم النفسي للتعافي من الحزن».

«وكيف وجدتها؟».

«هراء. شعرت كما لو أنني محتالة».

سكت ناثان.

قلبت الوسادة تحت رأسي. «هل المسألة برمتها من نسج خيالي يا ناثان؟ أحيانًا أعتقد أنني ضخَّمت ما حدث بيني وبين ويل في مخيِّلتي. فمثلًا، كيف لي أن أحب شخصًا كل هذا الحب في مثل هذا الوقت القصير؟ وكل تلك المشاعر الفيَّاضة التي أعتقد أنها راودت كلينا، هل شعرنا فعلًا بتلك المشاعر التي لا تفارق مخيِّلتي؟ كلما ابتعدنا عن الأمر أكثر، بدت تلك الأشهر الستة حلمًا... غريبًا».

ساد الصمت لبرهة من الوقت قبل أن يرد ناثان: «أنتِ لم تتخيلي شيئًا يا صديقتي».

فركت عيني: «هل أنا الوحيدة التي تمر بذلك؟ هل أنا الوحيدة التي لا تزال تفتقده؟».

ساد الصمت مرة ثانية.

«كلا. كان ويل رجلًا جيدًا. بل كان الأفضل».

هذا أحد الأشياء التي أحببتها في ناثان. فلم يكن يمانع في الصمت لفترات طويلة عبر الهاتف. أخيرًا وقفت وتمخَّطت: «على أي حال. لا أعتقد أنني سأعود إلى تلك الجلسات. لستُ متأكدة من أنها تصلح لي».

«حاولي يا لو. فلا يمكنك الحكم على شيء من الجلسة الأولى».

«تبدو مثل والدي».

«حسنًا، لطالما كان رجلًا عاقلًا».

في تلك اللحظة رن جرس الباب. لم يقرع أحد جرس بابي، باستثناء السيدة نيليس في الشقة رقم اثني عشرة، عندما بدَّل ساعي البريد بريدنا بطريق الخطأ. كنت أشك أنها لا تزال مستيقظة حتى في هذه الساعة. وبالتأكيد لن أستلم مجلتها الفصلية إليزابيثان دول.

رن الجرس مرة أخرى. ومرة ثالثة، حادًا ومصرًا.

«يجب أن أذهب. شخص ما على الباب».

«ابتسمي للحياة يا صديقتي. ستكونين بخير».

وضعت سماعة الهاتف ووقفت بحذر. ليس لديَّ أي أصدقاء في الجوار. لم أتخيَّل في الواقع كيف يصنعهم المرء عند الانتقال إلى منطقة جديدة وقضاء معظم ساعات اليوم في العمل. ولو قرَّر والديَّ التدخل لإعادتي إلى ستورتفولد، لنظما وقتهما للقدوم نهارًا، إذ لا يحب أي منهما القيادة في الظلام.

انتظرت، متسائلة عمَّا إذا كان، أيًا كان هو، سيدرك خطأه ويرحل ببساطة من تلقاء نفسه. ولكنه رن مرة أخرى، رنينًا صارخًا بلا انقطاع، كما لو كان يميل الآن بكل قوته على الجرس.

نهضتُ ومشيت إلى الباب: «من أنت؟».

«أريد أن أتحدَّث إليك».

إنه صوت فتاة. نظرت من العين السحرية. كانت تنظر إلى أسفل قدميها، لذلك لم أستطِع إلا أن أميز شعرها الطويل الكستنائي وسترتها الأكبر من مقاسها. تمايلت قليلًا، وفركت أنفها. ثملة؟

«أعتقد أنكِ أخطأتِ العنوان».

«هل أنت لويزا كلارك؟».

سكتُ لحظة، ثم قلت: «كيف عرفتِ اسمي؟».

«أريد أن أتحدث إليكِ. فقط افتحي الباب؟».

«إنها العاشرة والنصف ليلًا».

«نعم. لهذا السبب أفضِّل أن لا أقف طويلًا هنا في الممر».

عشت هنا فترة طويلة بما يكفي لأتعلَّم ألَّا أفتح بابي للغرباء. وفي هذه المنطقة من المدينة لم يكن من غير المستغرب أن يقرع مدمن مخدرات جرس باب عشوائيًا على أمل الحصول على بعض المال. ولكن هذه كانت فتاة حسنة الهندام، ولا يبدو على محيَّاها أنها من ذلك الصنف الغائب عن الوعي دومًا، ثم إنها صغيرة السن، أصغر من أن تكون أحد أولئك الصحفيين الذين ركزوا لفترة وجيزة على قصة ذلك الشاب النابغة

الوسيم الذي قرَّر في مرحلة ما أن ينهي حياته، وأصغر من أن تخرج في هذا في الوقت المتأخر؟ حاولت التأكد مما إذا كان هناك أي شخص آخر في الممر، ولكنه بدا خاليًا. «هل يمكن أن تخبريني ما الأمر؟».

«ليس هنا، كلا».

فتحت الباب بقدر ما أتاحت سلسلة قفل الأمان، بحيث تقابلنا وجهًا لوجه. «أظنكِ ستفسحين لي المجال أكثر من ذلك».

لا يمكن أن يتجاوز عمرها السادسة عشر بحال من الأحوال، فلا تزال سيماء الامتلاء النديّ التي يمتاز بها الشباب بادية على خديها. شعرها طويل وبراق، وترتدي بنطالًا من الجينز الأسود الضيق يبرز ساقيها النحيفتين الطويلتين. كحلها مسحوب لجانبي وجهها الجميل. سألتها: «إذن.. من أنتِ؟».

«ليلي. ليلي هوتون ميلر». قالتها، ورفعت ذقنها قدر بوصة واحدة، «انظري، أريد أن أتحدث معكِ عن أبي».

«أعتقد أنك قصدتِ الشخص الخطأ، فأنا لا أعرف أحدًا يسمى هوتون ميلر. لا بد أن هناك لويزا كلارك أخرى خلطتِ بيني وبينها».

تهيأتُ لإغلاق الباب، لكنها حشرت مقدمة حذائها فيه. نظرت إلى أسفل نحوه، ثم رفعت نظري إليها ببطء.

«ليس ذلك \اسمه» قالتها كما لو كنت غبية. وعندما تحدثت، كانت عيناها تقدحان شررًا وتجولان بحثًا في أرجاء المكان. «أبي يُدعى ويل ترينر».

وقفت ليلي هوتون ميلر في منتصف غرفة المعيشة ورمقتني بنظرة فاحصة غير متحيِّزة لعالِم يحدق في مجموعة متنوّعة وجديدة من اللافقاريات المتغذية على الروث، «رائع. ماذا ترتدين؟».

«أنا... أنا أعمل في حانة أيرلندية».

«هل تعملين راقصة تعرٍّ؟». لكن يبدو أنها فقدت اهتمامها بي على ما

يبدو، فدارت حول محورها ببطء وهي تحدِّق في الغرفة، «هذا هو المكان الذي تعيشين فيه فعلًا؟ أين الأثاث؟».

«لقد انتقلت إليها لتوِّي».

«لديكِ أريكة واحدة، وتليفزيون واحد، وصندوقان من الكتب؟» أومأت نحو الكرسي الذي أجلس عليه، كنت لا أزال غير قادرة على ضبط إيقاع تنفسي، محاولة استيعاب ما قالته لي.

وقفت وقلت: «سأحضر مشروبًا. هل أحضر لكِ شيئًا؟».

«سآخذ كولا. إلا إذا كان لديك نبيذ».

«كم عمرك؟».

«ولماذا تسألين؟».

«لا أفهم.. ». ذهبت وراء طاولة المطبخ. «لم يكن لدى ويل أطفال، وإلا لعرفت». عبست في وجهها وقد داهمتني الشكوك بغتة. «هل هذه مزحة؟».

«مزحة؟».

«لقد تحدثت أنا وويل... كثيرًا. لو كان لديه أطفال لأخبرني بكل تأكيد».

«أجل. حسنًا، تبيَّن أنه لم يفعل ذلك. لكم أودّ التحدث عنه لشخص لا يفزع في كل مرة لمجرد ذكر اسمه، مثل بقية عائلتي».

حملت في يدها البطاقة التي كانت أمي قد أرسلتها لي ووضعتها مرة أخرى مكانها قبل أن تضيف: «من الصعب اعتبار ذلك مزحة. أعني، أجل إنه والدي الحقيقي، ذلك الرجل البائس على كرسي متحرِّك. ولكن أمر كهذا يبدو لي أحيانًا مضحكًا تمامًا كالمزحة».

أعطيتها كوبًا من الماء وسألتها: «ولكن من... من هي عائلتك؟ أعني، من هي أمك؟».

«هل لديكِ أي سجائر؟»، قالتها وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا،

متحسِّسة الأشياء، تلتقط بعض متعلقاتي البسيطة وتعيدها مكانها ثانية. عندما هززت رأسي قالت: «أمي تدعى تانيا. تانيا ميلر. وهي متزوجة من رجل آخر يدعى فرانسيس صاحب الوجه الغبي هوتون».

«اسم جميل».

وضعت كوب الماء وسحبت علبة سجائر من سترتها وأشعلت واحدة. هممت بأن أقول لها ممنوع التدخين في بيتي، لكنني كنت مذهولة للغاية فعقدت الدهشة لساني، لذا سرت ببساطة إلى النافذة وفتحتها.

لم أستطِع أن أبعد عيني عنها، لعلّي أميز فيها بعض ملامح ويل، كعينيها الزرقاوين المصطبغتين باللون السكري على نحو غامض، وطريقة تحريك ذقنها قليلًا قبل أن تتكلم، وتحديقها من دون أن ترف عيناها. أم تراني أرى الآن ما أردت رؤيته فيها؟ حدَّقت من النافذة إلى الشارع تحتها.

«ليلي، قبل أن نواصل حديثنا ثمة شيء أريد أن..».

قاطعتني قائلة: «أعرف أنه مات». أخذَت نفسًا عميقًا من سيجارتها ونفثت الدخان في وسط الغرفة. «أعني، هذا ما اكتشفته. كان هناك فيلم وثائقي على شاشة التليفزيون عن الانتحار بمساعدة الغير، وحين ذكروا اسمه فزعت أمي فزعًا شديدًا من دون سبب وركضت إلى الحمام، ولحق بها صاحب الوجه الغبي ومن ثم كنت أسمع حديثهما بوضوح. كانت صدمتها كبيرة لأنها لم تعرف حتى إنه يستعين بكرسي متحرك. سمعت كل شيء. أعني أن المسألة لا علاقة لها بأنني لم أكن أعرف أن صاحب الوجه الغبي ليس والدي الحقيقي، بل لأن أمي لم تقل قط إن أبي الحقيقي ما هو إلا شخص أحمق لا يريد أن يعرفني».

«لم يكن ويل أحمق».

هزت كتفيها في لا مبالاة، قائلة: «هو يبدو لي كذلك. ولكن، على أي حال، عندما حاولت طرح الأسئلة عليها ما كان منها إلا أن فقدت السيطرة على أعصابها وقال إنني قد عرفت عنه كل ما ينبغي معرفته، وأن صاحب

الوجه الغبي فرانسيس كان لي أبًا خيرًا من ويل ترينر وأنني يجب أن أتركها لحالها».

ارتشفت الماء. ما كان أحوجني إلى كأس من النبيذ في تلك اللحظة، «إذن، ماذا فعلتِ بعد ذلك؟».

أخذت نفسًا آخر من سيجارتها. «بحثت عن اسمه في جوجل، بطبيعة الحال. ووجدتك».

كنت في حاجة إلى الاختلاء بنفسي حتى أفهم ما قالته لي. لقد كان أمرًا محيرًا. ولم أكن أدري ما الذي يتعيَّن عليَّ فعله حيال تلك الفتاة ذات قصة الشعر الشوكية، التي أخذت تجوب أرجاء غرفة معيشتي، محدثة زوبعة في المكان كله.

«إذن، لم يقل لكِ شيئًا عني مطلقًا؟».

كنت أحدِّق في حذائها، حذاء الباليرينا المهترئ بشدة، ربما لأنها أنفقت الكثير من الوقت تجوب شوارع لندن. شعرت كما لو أنني أقع تحت سيطرتها، «كم عمرك، ليلي؟».

«ستة عشر عامًا. ألا يوجد ولو شبه بيني وبينه؟ رأيت صورة له على جوجل، ولكنني أعتقد أن لديكِ صورة فوتوغرافية»، حدَّقت في جميع أرجاء غرفة المعيشة، «هل تحتفظين بكل صورك في صناديق؟».

لمحتُ صناديق الورق المقوَّى في الزاوية، وتساءلتُ ما إذا كانت ستقدم على فتحها وتفتيشها. كنت متأكدة أن الذي توشك على البدء به يحتوي على كنزة ويل، فشعرتُ بحالة من الذعر المباغت، «هاه... ليلي... هذا كثير... أكثر من قدرتي على الاستيعاب، وإذا كنتِ أنتِ من تقولين إنك هي، فعندئذٍ... عندئذٍ أمامنا الكثير لمناقشته. ولكن الساعة تقارب الحادية عشرة، ولا أظن أن هذا وقت مناسب للبدء. أين تعيشين؟».

«سانت جونز وود».

«حسنًا... أوه... سيقلق عليك والداك ويتساءلان أين أنت. لماذا لا تأخذين رقم هاتفي، وتتـ..».

قاطعتني قائلة: «لا أستطيع العودة إلى المنزل». كانت تواجه النافذة، ونفضت الرماد إلى الخارج بإصبع خبيرة، «بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يفترض بي حتى أن أكون هنا. من المفترض أن أكون في المدرسة. مدرسة داخلية. سينتابهم جميعًا الفزع إذا ما اكتشفوا غيابي». ثم سحبت هاتفها، مستدركة، ونقرت على شيء رأته على الشاشة، ثم دفعته مرة أخرى في جيبها.

«حسنًا، لا... لا أدري ما الذي يمكنني القيام به بخلاف..».

«فكرت... ربما يمكنني البقاء هنا؟ فقط الليلة؟ لتحكي لي المزيد عنه؟».

«تبقين هنا؟ لا، لا، أنا آسفة، لا يمكن. أنا لا أعرفكِ».

«لكنكِ تعرفين أبي. هل قلتِ إنك تعتقدين أنه لا يعرف عني شيئًا في الواقع؟».

«تتعيَّن عليكِ العودة إلى المنزل. انظري، دعينا نتصل بوالديكِ. يمكن أن يأتيا ويصحباكِ. دعينا نفعل ذلك ومن جانبي..».

حدَّقت في وجهي، «ظننتُ أنكِ ستساعدينني».

«سوف أساعدك يا ليلي، ولكن ليس بهذه الطريقة التي..».

«أنتِ لا تصدقينني، أليس كذلك؟».

«أنا... ليس لديَّ أدنى فكرة عما..».

«أنتِ لا تريدين أن تساعديني. لا تريدين أن تفعلي أي شيء. ماذا قلتِ لي فعلًا عن والدي؟ لا شيء. ما الذي أفدتني به فعلًا؟ لم تفيديني في شيء. شكرًا».

«انتظري! هذا ليس عدلًا... كل ما هنالك أننا..».

ولكن الفتاة قذفت بعقب السيجارة من النافذة واستدارت متأهِّبة للخروج من الغرفة.

«ماذا؟ إلى أين ستذهبين؟».

قالت مستنكرة: «أوه، وما شأنك؟». وقبل أن أستطيع أن أقول كلمة أخرى، كانت تصفع باب الشقة من ورائها وتمضي إلى حال سبيلها.

جلستُ مذهولة على الأريكة، محاولة فهم ما حدث للتو لما يقرب من الساعة، وصوت ليلي يرن في أذني، ما بين مكذّبة ومصدقة لنفسي، هل سمعتها وأنا في كامل وعيي؟ رحت أقلب وأقلب ما قالته في رأسي، محاولة استدعاءه من بين الطنين الذي لا يزال صداه يتردَّد في أذني.

والدي هو ويل ترينر.

لقد أخبرتها أمها على ما يبدو أن ويل كان يتنكَّر لها. ولكنه كان ليذكر لي بالتأكيد شيئًا عنها. فلم تكن ثمة أسرار نخفيها عن بعضنا بعضًا. ألم نكن نحن الشخصان اللذان تمكنا من الحديث عن كل شيء؟ ارتعشتُ للحظة: أمن المعقول أن ويل لم يكن صادقًا معي بالدرجة التي تصورتها؟ هل كانت لديه القدرة على التنكر لقطعة من لحمه ودمه بكل تلك البساطة؟

كانت أفكاري تطارد بعضها بعضًا في دوائر. أمسكت اللاب توب، وجلست متربعة على الأريكة وكتبت «ليلي هاوتون ميلر» في محرك البحث، وعندما لم يؤدِ ذلك إلى أي نتائج، حاولت مرة أخرى بهجاء مختلف، لأستقر على «ليلي هوتون ميلر»، الذي أظهر عددًا من النتائج المتعلقة بلاعبي الهوكي المنشورة بواسطة مدرسة تسمى أبتون تيلتون في شروبشاير. قمت باستعراض بعض الصور، ولما كبّرت حجمها، كانت هناك، فتاة متجهِّمة تقف في صف من لاعبي الهوكي المبتسمين. لعبت ليلي هوتون ميلر بشجاعة، رغم ضعف الجوانب الدفاعية. كان تاريخ الصورة قبل عامين. مدرسة داخلية. قالت إنه كان من المفترض أن تكون في المدرسة الداخلية. ولكن كل هذا لا يعني أن ثمة علاقة تربطها بويل، أو أن والدتها كانت تقول لها الحقيقة عن أبيها الحقيقي.

غيَّرت البحث لأكتفي بكلمتي: «هوتون ميلر»، لأحصل على مذكرات

مقتضبة عن فرانسيس وتانيا هوتون ميلر وحضورهما عشاءً لمصرفيين في فندق سافوي، ومخطط من العام السابق لقبو نبيذ تحت البيت في سانت جونز وود.

جلست أفكر، ثم بحثت باسم «تانيا ميلر» و«وليام ترينر». لم أحصل على أي شيء. حاولت مرة أخرى، باستخدام «ويل ترينر»، وفجأة ظهرت أمامي صفحة فيسبوك لخريجي جامعة دورهام، وفيها العديد من النساء، تنتهي جميع أسمائهم فيما يبدو بـ «-إيلا»، إستيلا، فينيلا، أرابيلا - يناقشن وفاة ويل.

لم أستطع أن أصدق الخبر عندما سمعت به في وسائل الإعلام. هو من دون كل الناس! ارقد في سلام يا ويل.

لا أحد يخرج من الحياة سالمًا. تعرفون روري أبليتون الذي توفي في جزر توركس وكايكوس، في حادث لقوارب السرعة؟

الذي كان يعمل بالجغرافيا؟ ذو الشعر الأحمر؟

كلا، معدات للحماية الشخصية.

أنا متأكدة من أنني قد قبَّلت روري في حفل تعارف الطلاب الجدد. لسانه كان فظيعًا وكبير الحجم.

أنا لا أستظرف، فينيلا، ولكن هذا سخيف فعلاً. لقد مات المسكين.

ألم يكن ترينر ذلك الفتى الذي كان يواعد تانيا ميلر طوال السنة الثالثة؟

لا أدري ما السخف في أن أذكر أنني ربما أكون قد قبَّلت شخصًا فقط لمجرد أنه قد رحل عن عالمنا.

أنا لا أقول إنه يتعيَّن عليك إعادة كتابة التاريخ. كل ما هنالك أن زوجته ربما تقرأ هذا الكلام وأنها قد لا تريد أن تعرف أن حبيبها الراحل قد حشر لسانه يومًا في فم فتاة أخرى على الفيسبوك.

أنا متأكدة من أنها تعرف أن لسانه كان فظيعًا. أعني، أنها قد تزوجته وتعرف بالفعل.

هل تزوَّج روري أبليتون؟

إن تانيا تزوَّجت مصرفيًا. هاكم الرابط. لطالما اعتقدت أنها ستتزوَّج ويل منذ أن كانا في الجامعة. كانت جميلة جدًّا.

نقرت على الرابط، الذي أظهر صورة لامرأة شقراء شعرها مصفَّف على نحو رائع بتسريحة شيغنون وتبتسم أثناء وقوفها على درج مكتب التسجيل بصحبة رجل أكبر سنًا ذي شعر أسود فاحم. على بعد مسافة قصيرة، على حافة الصورة، فتاة صغيرة في فستان تول أبيض متجهِّمة الوجه. ثمة شبه واضح بينها وبين ليلي هوتون ميلر التي التقيتها منذ قليل. ولكن الصورة كانت منذ سبع سنوات مضت، وفي الحقيقة يمكن أن تكون تلك صورة لأي وصيفة شرف صغيرة متجهِّمة ذات شعر طويل مائل للون البني.

أعدت قراءة المناقشة، وأغلقت اللاب توب. ما الذي يتعيَّن عليَّ فعله؟ إذا كانت ابنة ويل حقًا، هل يجب أن أتصل بالمدرسة؟ أعلم يقينًا أن هناك قواعد صارمة تنظم محاولات الغرباء للاتصال بالمراهقات في المدرسة.

وماذا لو كانت تلك عملية احتيال محبوكة؟ لقد توفي ويل تاركًا وراءه ثروة معتبرة. ولم يكن من المستبعد أن يدبر أحدهم حيلة مسبوكة يمكنه من خلالها الاستيلاء على التركة من عائلته. وأتذكَّر أنه عندما مات زميل أبي تشالكي إثر نوبة قلبية، جاء سبعة عشر شخصًا إلى زوجته يقولون لها إنه مدين لهم بأموال مراهنات.

قرَّرت أنه يتوجَّب عليَّ استجلاء حقيقة الأمر. فستكون هناك الكثير من الآلام والاضطرابات إذا أسأت التعامل مع هذه القضية.

ولكن عندما استلقيت على الفراش كان صوت ليلي يتردَّد صداه عبر أرجاء الشقة التي يخيِّم عليها الصمت المطبق.

إن والدي هو ويل ترينر.

الفصل السادس

«معذرة. لم يرن المنبه خاصتي». هرعت متجاوزة ريتشارد وعلَّقت معطفي على المشجب، ورحت أرتدي تنورتي.

«تأخرتِ خمسًا وأربعين دقيقة، وهذا ليس مقبولًا».

كانت الساعة تشير إلى تمام الثامنة والنصف صباحًا، وقد لاحظتُ أننا الشخصان الوحيدان في الحانة.

لقد غادرت كارلي: لم تكلِّف نفسها حتى إبلاغ ريتشارد وجهًا لوجه، وإنما اكتفت بإرسال رسالة نصية تخبره فيها بأنها ستحضر الزي اللعين في نهاية الأسبوع، وأنه رغم أنها تستحق بدل عطلة لمدة أسبوعين لعينين، فقد تلقت إشعارًا بالحبس بدلًا من ذلك. لو أنها كلفت نفسها قراءة دليل التوظيف، زمجر غاضبًا، لعرفت أن البدل من العطلة مرفوض تمامًا. وهذا وارد في الباب الثالث، وواضح وضوح الشمس، لو أنها كلفت نفسها النظر فيه. ولم يكن هناك داعٍ لهذا الأسلوب المستفز.

كان يسير في الإجراءات اللازمة للعثور على بديل لها، ما يعني أنه حتى الانتهاء من تلك الإجراءات فسأكون أنا، وريتشارد، فقط المنوط بنا تدبُّر أمر العمل.

«آسفة. لقد تعرَّضت... تعرّضت لظرف طارئ في المنزل».

كنت قد استيقظت في تمام السابعة والنصف، ولعدة دقائق كنت غير قادرة على تذكر البلد الذي أعيش فيه أو حتى اسمي، كنت مستلقية على

السرير عاجزة عن التحرك، فيما رحت أقلب أحداث الأمسية الماضية في رأسي.

«العامل الجيد لا يخلط بين حياته المنزلية والعمل»، قال ريتشارد رافعًا صوته وهو يمر من أمامي ممسكًا بلوح الكتابة. شاهدته يذهب، وتساءلت إذا كانت لديه حياة منزلية أصلًا. لم يكن يبدو أنه يقضي أي وقت هناك.

«أجل. حسنًا. وربّ العمل الجيد لا يجعل موظفته ترتدي زيًا من شأن سترينغفيلو[1] أن يرفضه بوصفه لباسًا مضحكًا»، تمتمت وأنا أُدخل الرمز الخاص بي في لوحة تسجيل الحضور، وأسحب حاشية تنورتي البرّاقة بيدي الأخرى.

التفتَ بسرعة، وعاد من وراء المشرب متسائلًا: «ماذا قلتِ؟».

«لا شيء».

«بلى، قلتِ شيئًا».

«قلتُ سوف أتذكَّر ذلك في المرة المقبلة. شكرًا جزيلا لتذكيري».

ابتسمتُ له ابتسامة حلوة.

نظر إليَّ لعدة ثوانٍ أطول مما يبعث على الارتياح لكلينا. ثم قال: «إن عامل النظافة في إجازة مَرَضية مجدَّدًا. يتعيَّن عليكِ تنظيف مراحيض الرجال قبل أن تبدئي العمل في الحانة».

ظل يحدِّق فيَّ بثبات، ففكرت بالرد. غير أنني ذكَّرتُ نفسي بأنني لا أستطيع تحمل خسارة هذه الوظيفة. فازدردت لعابي، وقلت: «حسنًا».

«أوه، والمقصورة رقم ثلاثة تعج بقليل من الفوضى».

قلت له: «هذا ممتاز».

أدار ظهره وعاد أدراجه إلى المكتب، في حين رحت في مخيلتي أرمي مؤخرة رأسه بسهام الفودو طوال طريقه.

---

(1) رجل أعمال بريطاني شهير.

«يدور موضوع مجموعة الدعم النفسي لهذا الأسبوع حول الشعور بالذنب، شعور الناجين بالذنب، شعورنا بالذنب لتقصيرنا في حق أعزائنا... غالبًا ما يقف ذلك الشعور عقبة في طريق مواصلة حياتنا بشكل سوي».

انتظر مارك ريثما ننتهي من نقل علبة البسكويت فيما بيننا من شخص لآخر، ثم انحنى إلى الأمام على كرسيه البلاستيكي، ويداه مشبّكتان أمامه. تجاهل همهمات الاستياء لعدم وجود البسكويت بنكهة الشوكولاتة.

« كنت دائمًا ضيّق الصدر مع جيلي»، قالها فريد قاطعًا الصمت، «أعني عندما أصيبت بالخرف. كانت تضع الأطباق المتسخة في خزائن المطبخ، لأعثر عليها بعدها بأيام. و... يؤسفني قول إنني صرخت في وجهها بضع مرات بسبب ذلك». ثم مسح دمعة ترقرقت من إحدى عينيه، وأضاف، «كانت ربة منزل من الدرجة الأولى، من قبل. كان ذلك أسوأ شيء حدث لها».

«فريد، لقد تعايشت مع خرف جيلي لفترة طويلة. كان عليك أن تكون إنسانًا خارقًا للعادة حتى لا تشعر بالضجر».

«من شأن الأطباق المتسخة أن تصيبني بالجنون»، هكذا قالت دافني، ثم أضافت: «أعتقد أنني كنت لأصيح وأصرخ على نحو فظيع».

«ولكن لم يكن هذا ذنبها، أليس كذلك؟»، اعتدل فريد في كرسيه، «أعيد التفكير في تلك الأطباق كثيرًا. وكم أتمنى لو عاد بي الزمن، كنت لأغسلها حتى من دون أن أنبس ببنت شفة، ولاكتفيت بأن أحتضنها بلطف بدلًا من ذلك».

قالت ناتاشا: «أجد نفسي أفكِّر في الرجال في المترو، وأتخيل مواقف معهم، في بعض الأحيان عندما أستقل السلم الكهربي، أتبادل نظرة مع رجل ما أختاره عشوائيًا من الجهة المقابلة. وقبل أن أصل حتى إلى الرصيف أكون قد كوّنت في ذهني علاقة كاملة معه. حيث يرجع، كما تعلمون، عدوًا على سلمه لأنه يكتشف أن ثمة شيئًا سحريًا يربط بيننا،

ثم نقف هناك، يحدق كلٌ منا في الآخر، وسط حشود الركاب على خط بيكاديللي، ثم نذهب لتناول مشروب، وسرعان مانـ..».

قال وليام: «يبدو كأنه فيلم لريتشارد كورتيس[1]».

«أحب أفلام ريتشارد كورتيس»، قال سونيل، «خاصة ذلك الفيلم الذي يتناول قصة حياة الممثلة والرجل ذي السروال».

قالت دافني: «شيباردز بوش».

عمَّ الصمت لفترة وجيزة قبل أن يقول مارك: «أعتقد أنه فيلم نوتنغ هيل، يا دافني».

«أؤيد رأي دافني. ماذا؟»، قال وليام ضاحكًا، «الآن ما عاد مسموحًا لنا بالضحك؟».

أردفت ناتاشا: «ومن ثم أتزوَّجه في مخيلتي. وعندئذٍ، وفيما نقف في المذبح، أقول لنفسي: ويحي ماذا أفعل؟ لم يمر على وفاة أولاف أكثر من ثلاث سنوات وأنا أفكر في رجال آخرين».

تراجع مارك في كرسيه قائلًا: «ألا تعتقدين أن هذا أمر طبيعي، بعد ثلاث سنوات من الوحدة؟ أليس من الطبيعي بعد فترة كتلك أن تتخيَّلي الدخول في علاقات أخرى؟».

«ولكنني لو كنت قد أحببت أولاف حبًا حقيقيًا، لم أكن لأفكر في أي شخص آخر بالتأكيد».

هنا تدخَّل وليام معترضًا: «لسنا في العصر الفيكتوري. ولا يجب عليك أن ترتدي ثياب الحداد حتى تكبري وتصبحي مسنة».

«ولكن لو كنت أنا التي متُّ، لكرهت فكرة وقوع أولاف في حب امرأة أخرى».

قال وليام: «ما كنتِ لتعرفي، لأنك ستكونين ميتة حينها».

---

(1) مخرج بريطاني مشهور بالأفلام الرومانسية.

«ماذا عنك، يا لويزا؟»، قالها مارك وقد لاحظ صمتي، «هل تعانين من الشعور بالذنب؟».

«هل يمكننا... هل يمكننا أن نُعجَب بشخص آخر؟».

قالت دافني: «أنا كاثوليكية، أشعر بالذنب حيال كل شيء. إنه سلوك الراهبات، كما تعلمون».

«ما الصعوبات التي تقابلك في هذا الموضوع، يا لويزا؟».

أخذتُ رشفة من القهوة. شعرت بأن أنظار الجميع متوجِّهة نحوي. فقلت مشجعّة نفسي، هيا. ثم تنحنحت قائلة: «لم أستطع منعه. أحيانًا أقول لنفسي إنني لو كنت أكثر ذكاءً، أو... لو تعاملت مع الأمور بشكل مختلف... أو فقط لو كنت أكثر... لا أدري».

«هل تشعرين بالذنب بشأن وفاة بيل لأنك تظنين أنه كان بمقدورك منعه؟».

وبدأت الأفكار تتداعى في رأسي شيئًا فشيئًا، «وأشعر بالذنب لأنني أيضًا أعيش حياة أقل بكثير من تلك التي وعدته أنني سأعيشها. وأشعر بالذنب حيال حقيقة أنه دفع ثمن شقتي، في حين أن أختي ربما لن تتمكّن أبدًا من تدبير ثمن شراء واحدة لها. وأشعر بالذنب لأنني لا أحب حتى العيش فيها، لأنني أحس بأنها ملكي، وأحس بأنه من الخطأ أن أجعلها جميلة لأنها ترتبط في مخيلتي بحقيقة أن ويـ... بيل قد مات، وأنني قد استفدت بطريقة أو أخرى من موته».

ساد الصمت لبرهة.

قالت دافني: «يجب أن لا تشعري بالذنب حيال الممتلكات».

وقال سونيل: «لكم أتمنى لو ترك لي أحدهم شقة».

«ولكن هذه النهاية أشبه بنهايات الحكاية الخيالية، أليس كذلك؟ يموت الرجل، ويتعلَّم الجميع شيئًا، يتقدَّمون في الحياة، ويخلق حادث وفاته شيئًا رائعًا». كنت أتكلم من دون تفكير،»لم أفعل أيًا من ذلك. لقد فشلت فشلًا ذريعًا في كل شيء».

تكلم جاك من دون سابق إنذار قائلًا: «أبي يبكي تقريبًا في كل مرة يضاجع فيها امرأة غير أمي». كان يشبك يديه معًا، وينظر حواليه في تخبّط. «إنه يغري النساء للنوم معه، ومن ثم يشعر بالحزن حيال ذلك. وكأن شعوره بالذنب كل مرة يعني أنه لم يرتكب خطأً».

«أنت تعتقد أنه يستخدم شعوره بالذنب كحيلة نفسية؟».

«كل ما هنالك أنني أعتقد إما أنك تمارس الجنس وتشعر بالسعادة لممارسته كثيرًا..».

قال فريد مقاطعًا: «أنا لن أشعر بالذنب لذلك..».

«أو أن تعامل النساء مثل كل البشر، وتتأكَّد أنك لن تجد ما تشعر بالذنب حياله. أو لا تنَم مع أي امرأة، واحترم ذكرى أمي حتى تتأكد من أنك مستعد للمضيّ قدُمًا في حياتك».

تهدَّج صوته عند كلمة «احترم» وتوترت عضلات فكه. كنا قد اعتدنا حتى ذلك الحين على التعبيرات المتشنِّجة المفاجئة، وإعراب جميع أفراد المجموعة عن احترامهم لما يجيش في صدر أحدهم، وذلك من خلال النظر بعيدًا حتى تهدأ أي دموع محتملة.

كان صوت مارك لطيفًا وهو يقول: «هل أخبرت أباك عن مشاعرك حيال أفعاله يا جاك؟».

«نحن لا نتحدَّث عن أمي. إنه بخير، كما تعلمون، ما دمنا لا نتحدَّث عن أمي».

«يا له من عبء ثقيل تحمله وحدك يا جاك».

«بلى. ولهذا السبب أنا هنا، أليس كذلك؟».

ساد الصمت لبرهة.

قالت دافني: «تفضل قطعة بسكويت يا عزيزي جاك». ومرّرنا العلبة مرة أخرى على الجالسين، اطمأنينا على نحو غامض، بطريقة ما لا يستطيع أحد أن يحددها بالضبط، حينما أخذ جاك واحدة أخيرًا.

ظللت أفكر في ليلي. بالكاد انتبهت إلى حكاية سونيل عن بكائه في قسم المخبوزات في السوبر ماركت، وعبّرت بشكل عارض عن تعاطفي مع احتفال فريد وحده بعيد ميلاد جيلي مع حفنة من البالونات المصنوعة من ورق الفويل. مرَّت عليَّ عدة أيام حتى الآن، ولم تغب المواجهة التي خضتها مع ليلي عن بالي لحظة، حتى إنها غزت أحلامي، بصورها الحيّة السريالية.

كيف يمكن أن تكون له ابنة؟

قال والد جاك الذي كان يتكئ على دراجته النارية فيما كنت أمشي عبر موقف سيارات قاعة الكنيسة «تبدين سعيدة».

وقفت قبالته قائلة: «إنها جلسة الدعم النفسي للتعامل مع الحزن. لا أعتقد أنني سأخرج منها أرقص فرحا».

«غلبتني».

قلت له: «الأمر ليس كما تعتقد. أعني، ليس أنا، بل... الأمر يرتبط بفتاة مراهقة».

مال برأسه إلى الوراء، ورمق جاك بعينه من ورائي، «أوه. صحيح. حسنًا، أشفق على حالك. تبدين صغيرة على أن تكون لديك فتاة في سن المراهقة».

«أوه. كلا، ليست ابنتي! إنه... إن الأمر معقد في واقع الأمر».

«كم أود أن أقدم لكِ المشورة. ولكن ليست لديّ فكرة عن الموضوع».

ثم تقدَّم إلى الأمام وطوَّق جاك في عناقٍ حارٍ، وهو ما سمح به الصبي على مضض، «هل أنت بخير أيها الفتى؟».

«بخير».

«بخير»، قالها سام متفرِّسًا في وجهي بارتياب، «ها أنت ذا تردّ بنفس الكلمة التي يستعملها كل المراهقين للرد على كل شيء... الحرب، المجاعة، الفوز باليانصيب، الشهرة العالمية... كل شيء بخير».

«لم يكن هناك داع لاصطحابي. أنا ذاهب إلى آل جولس».

«ألا تريد توصيلة؟».

أشار جاك قائلًا: «إنها تسكن هناك. في ذلك المربع السكني. أعتقد أنه يمكنني تدبر ذلك الأمر بنفسي».

ظلت تعبيرات سام هادئة. «إذن، هل يمكن أن تخبرني سلفًا في المرة المقبلة لتعفيني من القدوم إلى هنا والانتظار؟».

مشى جاك مبتعدًا وهو يهزّ كتفيه ليهتز معهما حزام حقيبة ظهره. شاهدناه يذهب في صمت.

«سأراك لاحقًا، جاك، اتفقنا؟».

رفع جاك يده ملوّحًا من دون النظر إلى الوراء.

قلت: «حسنًا، أشعر الآن أنني أفضل قليلًا».

هزّ سام رأسه هزة خفيفة. راقب ابنه وهو يذهب، وكأنه لا يستطيع إلى الآن أن يتحمّل غيابه عنه. «في بعض الأيام يبدو أصعب مراسًا من غيرها»، ثم تحوّل إليّ: «أتريدين احتساء القهوة أو مشروب ما، لويزا؟ فقط لكي لا أشعر بأنني أكبر خاسر في العالم؟ اسمك لويزا، أليس كذلك؟».

فكّرت في ما قاله جاك في جلسة ذلك المساء.

يوم الجمعة جلب أبي معه إلى المنزل تلك الشقراء غريبة الأطوار التي تُدعى ماجس، تلك الفتاة المهووسة به. وعندما كان في الحمام سألتني عما إذا كان قد تحدث عنها في غيابها.

يا له من مهووس بالنساء. لكنني لا أنكر أنه كان لطيفًا بما فيه الكفاية، لا سيما أنه قد ساعدني على استعادة شتات نفسي في سيارة الإسعاف، كما أن البديل أنني سأقضي ليلة أخرى في المنزل بمفردي أتساءل عما يدور في رأس ليلي هوتون ميلر. فأجبت على دعوته قائلة: «أجل، إذا كنا نستطيع الحديث عن أي شيء سوى المراهقين».

«حسنًا، هل يمكننا التحدث عن ملابسك إذن؟».

نظرت إلى الأسفل نحو التنورة البرّاقة الخضراء وأحذية الرقص الأيرلندية خاصتي، «بالطبع لا».

قال متحسرًا: «خسارة، كان الأمر يستحق المحاولة» وركب دراجته النارية.

جلسنا خارج حانة شبه خاوية من الرواد على بعد مسافة قصيرة من شقتي. طلب هو قهوة سوداء، وطلبتُ أنا عصير الفاكهة.

كان لديَّ الوقت لدراسته خفية بما أنني الآن لم أكن أراوغ في موقف للسيارات أو أستلقي مربوطة إلى محفّة مستشفى. كانت أرنبة أنفه تحمل الكثير من الحكايات والأسرار، وعيناه متجعّدتين بطريقة توحي بأنه لم يكن هناك تقريبًا سلوك إنساني إلا واختبره، وربما استمتع به قليلًا أيضًا. كان طويل القامة، تبدو سيماه أكثر خشونة من ويل بطريقة أو أخرى، لكنه كان يتحرَّك بحرص ولطف، كما لو كان يبذل جهدًا لعدم الإضرار بالأشياء من حوله نتيجة لضخامة حجمه. وكان من الواضح أنه يرتاح إلى الاستماع أكثر من الحديث، أو لعل كل ما في الأمر أنني منزعجة من الجلوس وحدي مع رجل بعد كل هذا الوقت، لأنني وجدتني أثرثر كثيرًا. تحدَّثت عن عملي في الحانة، مما جعله يضحك على ريتشارد برسيفال والزي الغريب، وتحدَّثت عن شعوري بالغربة لدى عودتي القصيرة لبيت عائلتي، وحدثته عن نكات أبي السيئة، وجدي وكعكاته، وابن أختي واستخدامه غير التقليدي لقلم التحديد الأزرق، لكنني كنت منتبهة أثناء حديثي، كما هو الحال في كثير من الأحيان هذه الأيام، لكل ما لم أبح به: ويل، الأحداث السريالية التي وقعت لي في الليلة السابقة، وأنا شخصيًا. حين كنت بصحبة ويل لم أكن ألقي بالًا أبدًا لما أقول: كان الحديث معه سلسًا من دون جهد كما التنفس. أما الآن فقد أصبحت أجيد عدم قول أي شيء عني على الإطلاق.

أما هو فاكتفى بالجلوس والإيماء برأسه من حين لآخر، مراقبًا حركة

المرور تروح وتجيء أمامه مع ارتشاف قهوته، كما لو أنه من الطبيعي تمامًا بالنسبة له أن يمضي الوقت مع غريبة ثرثارة ترفل في تنورة برّاقة خضراء قصيرة.

وأخيرًا سألني عندما سكتُّ عن الكلام: «كيف حال وركك؟».

«ليست سيئة، ولو أنني أود لو شفيت من العرج».

«سوف تشفين إذا واظبتِ على تمارين العلاج الطبيعي». للحظة، خُيِّل إليَّ أنني أسمع ذلك الصوت من مؤخرة سيارة الإسعاف، فإذا به يسألني بنبرة هادئة تبعث في النفس السكينة والطمأنينة: «هل من إصابات أخرى؟».

رحت أمعن النظر في جسمي، كما لو كنت أرى ما تحت ملابسي. «حسنًا، بخلاف حقيقة أنني أبدو وكأن أحدهم قد رسم بقلم أحمر فاقع على كل جزء من جسمي، فلا بأس».

أومأ سام قائلًا: «كنت محظوظة، فقد سقطتِ من ارتفاع شاهق».

ومرة أخرى أحسست بالألم يجتاح معدتي وبالأرض تميد من تحت قدمي. وما أدراك بما يحدث عندما تسقط من ارتفاع شاهق. «لم أكن أحاول أن..».

«لا بأس، فقد ذكرتِ لي ذلك من قبل».

«ولكنني أشك في أن أحدًا يصدقني».

تبادلنا ابتسامة خجلى فيما رحت أتساءل ما إذا كان لا يصدقني هو الآخر.

«إذن... هل تلتقط الكثير من الناس الذين يسقطون من قمم المباني مثلي؟».

هز رأسه ورنا بنظره عبر الطريق قائلًا: «في الواقع، لا ألتقط إلا أشلاءهم، وكم أنا سعيد لأنهم استطاعوا إعادة جمعكِ من جديد».

جلسنا صامتَيْن لفترة أطول. في تلك الأثناء لم أكف عن التفكير في

الأشياء التي يجب أن أقولها، ونظرًا لعدم خروجي وحيدة مع رجل - رجل رصين على الأقل - منذ فترة ليست بالقليلة، فقد ظللت غير قادرة على تمالك أعصابي ورحت أفتح وأغلق فمي كسمكة ذهبية.

قال سام: «هل تودِّين إخباري بأمر تلك المراهقة التي تحدَّثتِ عنها سابقًا؟».

شعرت أن شرح تلك المسألة لأحدهم سوف ينفِّس عما يعتمل في داخلي. حكيت له عن الطرق على باب شقتي في وقت متأخر من الليل، ولقائنا الغريب وما وجدته على الفيسبوك، والطريقة التي هربت بها قبل أن تتاح لي فرصة للتفكير في ما يمكن القيام به. وما إن أنهيت كلامي حتى قال:

«واو! هذا..». ثم هز رأسه هزة خفيفة: «هل تعتقدين أنها ابنته كما تقول؟».

«فيها شبه منه، لكن بصراحة لا أدري؛ هل أبحث عن علامات؟ هل أرى ما أريد أن أراه؟ كل هذا جائز، فأنا أقضي نصف وقتي في التفكير كم هو مدهش أن هناك شيئًا باقيًا منه، وفي النصف الآخر أتساءل عما إذا كنت بلهاء مغفلة. ثم إن هناك شيء غريبًا، إذا كانت تلك الفتاة ابنته حقًا فكيف لم يتسنّ له أن يقابلها؟ وكيف يُفترض أن يتعامل معها والداه؟ ماذا لو أن لقاءه بها قد حمله على تغيير رأيه في الواقع؟ وماذا لو أن هذا الأمر قد أقنعه بـ.. ». وهنا اختنق صوتي.

مال سام مرة أخرى في كرسيه، وغضَّن حاجبيه قائلًا: «وهذا الرجل هو سبب حضورك المجموعة».

كنت أشعر أنه يدرسني، وربما كان يعيد تقييم ما كان يعنيه لي ويل.

قلت: «أجل إنه هو. لا أدري ماذا أفعل، لا أدري ما إذا كان يجب عليَّ البحث عنها، أم أتركها وشأنها».

راح يتطلَّع إلى الشارع، مفكرًا، ثم قال: «حسنًا، ماذا كان سيفعل هو؟».

ما كان مني حينئذٍ إلا أن تلعثمت. أمعنت النظر في ذلك الرجل الضخم بنظرته المباشرة، وذقنه التي يبدو أنه لم يحلقها منذ يومين، ويديه اللطيفتين القويتين. وتبخَّرت كل أفكاري.

«هل أنت بخير؟».

أخذت رشفة عميقة من مشروبي، في محاولة لإخفاء ما شعرت بأنه قد خُطَّ بوضوح على وجهي. فجأة، ومن دون سبب منطقي، أردت أن أبكي. كان ذلك كله فوق طاقتي وقدرتي على التحمُّل. كانت تلك ليلة غريبة، ليلة اختل فيها توازني. حقيقة أن ويل قد عاد ليلوح في الأفق مرة أخرى، ويحضر بقوة في كل محادثة أربكتني حقًا. كنت أرى وجهه أمامي فجأة، يرفع حاجبه نحوي ساخرًا كعادته، كما لو كان يقول، ماذا عساك فاعلة الآن يا كلارك؟

«مجرد... يوم طويل. في الواقع، هل تمانع إذا استأذنـ..».

دفع سام كرسيه إلى الوراء، ووقف، قائلًا: «كلا. كلا، يمكنك الذهاب. معذرة. لم أكن أعتقد..».

«لقد كان هذا لطيفًا حقًا. كل ما هنالك أنني..».

قال لي: «لا مشكلة. مجرَّد يوم طويل مجهِد، وبعض الأحزان المتراكمة، فهمت الأمر. كلا، لا تقلقي»، ثم أردف وأنا أمسك بمحفظتي. «يمكنني أن أحاسب على عصير البرتقال».

أعتقد أنني ربما وصلت إلى سيارتي ركضًا، على الرغم من عرجي. شعرت بعينيه مثبتتين عليَّ طوال الطريق. انتظرت قليلًا في ساحة انتظار السيارات، وتنهَّدتُ تنهيدة شعرت كأنني كنت أحبسها طوال الطريق من الحانة. نظرت نحو المتجر في الزاوية، ثم عدتُ بعيني إلى شقتي، وقرَّرت أنني لا أريد أن أكون في وعيي. أردت احتساء النبيذ، عدة أكواب كبيرة منه، حتى أحمل نفسي على الاقتناع بعدم النظر إلى الوراء، أو ربما عدم النظر إلى أي شيء على الإطلاق.

آلمتني ساقي أثناء نزولي من السيارة. منذ وصول ريتشارد وهي تؤلمني باستمرار؛ فقد نصحني الطبيب في المستشفى بألا أقف طويلًا على قدمي. ولكن فكرة قول ذلك لريتشارد تصيبني بالرهبة.

هكذ إذن، أنت تعملين في حانة ولكنك تريدين أن يُسمح لك بالجلوس طوال اليوم، أليس كذلك؟

ذلك الوجه اللبني السخيف المعَدّ سلفًا لتمكينه من إدارة المكان كما يتراءى له؛ وقصة الشعر تلك التي لا أجد وصفًا لائقًا بها، ونفخته الكاذبة، على الرغم من أنه لا يكبرني إلا بسنتين. أغلقت عينيَّ، وحاولت التخلُّص من الغصَّة في معدتي.

قلت: «أرغب في شراء هذه فقط، من فضلك»، ووضعت زجاجة نبيذ سوفينيون أبيض باردة على المنضدة.

«إنها حفلة، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«إنك ذاهبة إلى حفلة تنكرية، وستكونين... لا تخبريني». ربَّت سمير على ذقنه هنيهة ثم أردف: «هل ستتنكرين في شخصية سنو وايت؟».

أجبته: «طبعًا».

«ينبغي أن تتوخَّي الحذر، فهي تحتوي على سعرات حرارية بلا قيمة، أليس كذلك؟ يجب أن تشربي الفودكا. هذا مشروب نظيف. ربما مع قليل من الليمون. هذا ما أنصح به جيني. فهي راقصة تعرٍّ كما تعرفين، أليس كذلك؟ وينبغي أن تحافظ على قوامها».

«يا لها من نصيحة غذائية ممتازة».

«السكريات هي أهم ما في الأمر. يجب على المرء مراقبة السكريات. ولا فائدة ترجى من شراء الأطعمة والمشروبات منخفضة الدهون إذا كانت كاملة السكريات، أليس كذلك؟ ستجدين السعرات الحرارية الفارغة. ستجدينها هنا. إن سكرياتها الكيميائية هي الأسوأ، تلتصق في الأمعاء».

قام بتدوين حساب النبيذ، وأعطاني الباقي.

«ما هذا الذي تأكله يا سمير؟».

«معكرونة بلحم الخنزير المقدَّد. إنها رائعة بالفعل».

كنت غارقة في أفكاري - في مكان ما في الصدع المظلم بين آلام عظام حوضي، ويأسي من وظيفتي، ورغبتي بالمعكرونة بلحم الخنزير المقدد - عندما رأيتها.

كانت تجلس في مدخل البناية على الأرض، وذراعاها ملفوفتان حول ركبتيها. أخذت الباقي من سمير، وعبرت الطريق ما بين ماشية ومهرولة.

«ليلي؟».

نظرَت إلى أعلى ببطء.

كانت كلماتها مشوَّشة، وعيناها مكسوَّتين بلون الدم، كما لو أنها كانت تبكي: «لم يسمح لي أحد بالدخول. قرعت كل الأجراس ولكن لم يسمح لي أحد بالدخول».

أدرت المفتاح في الباب وسندته بحقيبتي، ثم جثوْت إلى جانبها، قائلة: «ماذا حدث؟».

قالت وهي تفرك عينيها: «فقط أريد أن أنام. أنا متعبة، متعبة للغاية. أردت أن أركب تاكسيًا ولكن لم يكن لدي أي مال».

شممت رائحة كحول، فقلت لها: «هل أنتِ سكرانة؟».

راحت ترفّ بعينيها وهي تنظر إليَّ ثم أمالت رأسها قائلة: «لا أدري». فتساءلت ما إذا كان الكحول هو السبب. «لو لم أكن سكرانة لظننتكِ ليبركون[1]». ثم أخذت تتحسَّس جيوبها، مضيفة: «أوه، انظري - انظري ما الذي حصلتُ عليه!»، كانت تمسك بين يديها لفافة نصف مدخنة يمكنني

(1) Leprechaun كائن خرافي قصير القامة ويرتدي ملابس خضراء، من الفولكلور الأيرلندي.

أن أتبيَّن من رائحتها أنها ليست مجرَّد لفافة تبغ. «دعينا ندخِّنها يا ليلي»، ثم استدركت قائلة: «أوه، كلا. أنتِ لويزا. أنا ليلي». وأخذت تقهقه ضاحكة، ثم سحبت قدَّاحة من جيبها بطريقة خرقاء وحاولت إشعال اللفافة على الفور من الطرف الخاطئ.

«حسنًا. حان الوقت للعودة إلى مأواكِ». أخذت اللفافة من يدها، متجاهلة احتجاجاتها الغاضبة، وسحقتها بقوة تحت قدمي. «سأطلب لكِ تاكسيًا».

«لكنني لا..».

«ليلي!».

لمحت شابًا يقف على الجانب الآخر من الشارع، واضعًا يديه في جيوب بنطاله الجينز، وقف يراقبنا بثبات. نظرت ليلي إليه ثم أشاحت بوجهها بعيدًا.

فسألتها: «من هذا؟».

حدَّقت في قدميها.

«ليلي، تعالي هنا» كانت نبرة صوته تشي بمعاني السيطرة والامتلاك. وقف، وساقاه منفرجتان قليلًا، كما لو أنه من تلك المسافة يتوقَّع منها الطاعة؛ الأمر الذي دفعني إلى عدم الارتياح.

لم يتحرَّك.

عاودت سؤالها بهدوء: «هل هو صديقك؟ هل تريدين التحدث معه؟».

في المرة الأولى التي تحدثت فيها لم أستطع أن أتبين ما قالت. كان عليَّ أن أقترب منها أكثر وأطلب منها أن تعيد كلامها.

«أبعديه من هنا». أغلقت عينيها، وأشاحت بوجهها نحو الباب مضيفة: «رجاء».

بدأ يعبر الشارع باتجاهنا. وقفت، وحاولت أن أجعل صوتي حازمًا قدر الإمكان. «يمكنك الذهاب الآن، شكرًا لك. ليلي ستدخل معي».

توقَّف في منتصف الطريق.

نظرتُ في عينيه مباشرة وأنا أقول: «يمكنك التحدث إليها لاحقًا. اتفقنا؟».

وضعت يدي على جهاز الإنذار واصطنعت أنني أتكلم بصوت خفيض مع صديق قوي العضلات سريع الغضب: «أجل. هلَّا أتيت وساعدتني يا ديف؟ شكرًا».

ارتسم على وجه الشاب تعبير يشي بأن المسألة لم تنتهِ بعد، ثم استدار وسحب هاتفه من جيبه، وبدأ محادثة عاجلة بصوت أقرب إلى الهمس مع شخص ما وهو يسير بعيدًا، وتجاهل نفير بوق سيارة تاكسي اضطر سائقها أن يلتف حوله، مكتفيًا بإلقاء نظرة سريعة علينا من وراء ظهره.

تنهَّدتُ مرتجفة، ثم وضعت يدي تحت إبطيها، وبأسلوب تعوزه الكياسة وبقدر لا بأس به الشتائم المكتومة، تمكَّنت من نقل ليلي هوتون ميلر إلى الردهة.

في تلك الليلة نامت ليلي في شقتي.لم أتمكن من التفكير فيما يجب القيام به معها. وقد تقيَّأتْ مرتين في الحمام، وكانت تبعدني كلما حاولت رفع شعرها لحمايته من الاتساخ، كما رفضت أن تعطيني رقم هاتف المنزل، أو ربما عجزت عن تذكره، وكان هاتفها الجوال مقفلًا برقم سري.

قمت بتنظيفها وساعدتها على ارتداء سروال وقميص من عندي، واقتدتها إلى غرفة المعيشة، فقالت بنبرة يكسوها العجب: «أنتِ نظيفة ومرتبة!»، كما لو أنني قد فعلت ذلك من أجلها. حملتها على شرْب كوب من الماء ومدَّدتها على الأريكة.

لما رفعتُ رأسها ووضعته على الوسادة، فتحتْ عينيها، كما لو كانت تتعرَّف إليَّ بالشكل المناسب للمرة الأولى. «آسفة». قالتها بهدوء، حتى إنني شككت للحظة في أنها هي من قالت هذا، واغرورقت عيناها لفترة وجيزة بالدموع.

غطَّيتها ببطانية وشاهدتها وهي تغرق في النوم، تأمَّلتُ وجهها الشاحب، والهالات الزرقاء تحت عينيها، والحاجبين اللذين يأخذان نفس انحناءة حاجبي ويل، ونفس حبَّات النمش المتفرِّقة الباهتة.

قمت بقفل باب الشقة واحتفظت بالمفاتيح معي في غرفة نومي، وقمت بدسهم تحت وسادتي لمنعها من سرقة أي شيء، أو ببساطة لمنعها من المغادرة، لم أكن متأكدة حينها فيمَ كنت أفكر. استلقيتُ على فراشي مستيقظة، وذهني لا يزال مشغولًا بصوت سيارة الإسعاف والمطار والوجوه المكسوة بالحزن في قاعة الكنيسة، ونظرة الشاب الحادة ذات المغزى على الجانب الآخر من الطريق، وفكرة أن هناك فتاة غريبة تنام تحت سقف بيتي. وطوال الوقت ظل هاتف يلح عليَّ ويقول: أي مصيبة تلك التي أوقعت نفسك بها؟ ولكن هل كانت بيدي حيلة؟

أخيرًا، وبعد أن بدأت الطيور تزقزق، وأفرغت شاحنة المخبز حمولتها الصباحية في الطابق السفلي، تباطأت أفكاري، ورحتُ في سبات عميق.

الفصل السابع

رائحة القهوة تفوح في المكان، يمكنني تمييزها، ولكنني استغرقتُ بضع ثوانٍ لأدرك لماذا تنتشر تلك الرائحة في شقتي، وما إن أدركت السبب حتى قمت منتصبة في مكاني وقفزت من فراشي مهرولة.

وجدتها جالسة على الأريكة واضعة ساقًا فوق أخرى تدخن سيجارة، مستخدمة واحدًا من أكوابي المفضَّلة كمنفضة للسجائر. أدارت التليفزيون الذي صدح ببعض عروض الأطفال الصاخبة، يقدمها مذيعان يصنعان بوجهيهما أشكالًا مضحكة، وكان هناك كوبان من البلاستيك مستقرين على رف الموقد.

قالت ما إن رأتني: «هاي، مرحبًا، هذا المشروب لك، لم أكن أعلم ما تفضِّلين فجلبت لكِ قهوة أمريكية».

رمشت بعيني، ممسكة أنفي حتى لا أستنشق الدخان التي تنفثه من سيجارتها، واتجهتُ لفتح شباك النافذة، ثم نظرت إلى الساعة، «هل هذا هو وقته؟».

«أجل، ربما تكون القهوة قد بردت قليلًا ولم أعرف ما إذا كان عليَّ أن أوقظك أم لا».

«إنه يوم عطلتي». أخبرتها وأنا أمسك بكوب القهوة، الذي كان لا يزال دافئًا فأخذت رشفة على مهلٍ بامتنان. ثم حدَّقت في الكوب الذي في

يدي: «مهلًا، كيف حصلتِ على تلك القهوة؟ لقد أغلقتُ الباب الأمامي للشقة بالأمس!».

«نزلتُ عبر سلم الطوارئ، ولم أمتلك أي نقود فأخبرتُ الرجل الذي في المقهى عن مكان شقتك، وأخبرني أن في مقدوركِ الدفع له في وقت لاحق. أوه، كما أنك تدينين له أيضًا بثمن قطعتَيْ بيجل محشوَّتين بالسلمون المدخن والجبن».

«هل أدين له حقًا؟» أردت أن أظهر غضبي، ولكنني شعرت فجأة بالجوع الشديد. تتبَّعت نظرتي الباحثة عن البيجل فقالت: «لقد تناولتهما». ثم ألقت بعقب سيجارتها في منتصف الغرفة «ليس لديك الكثير من الطعام في ثلاجتك، إنكِ في حاجة ماسة لترتيب هذا المكان».

بدت شخصية ليلي في هذا الصباح مختلفة عن ليلي التي التقطتها من الشارع بالأمسُ لدرجة أنه كان من الصعب تصديق أنهما الشخص نفسه. عدت إلى غرفة نومي لأرتدي ملابسي، وأنا أسمع صوت التليفزيون الذي كانت تشاهده، وصوت حركتها في المطبخ تجلب لنفسها شيئًا تشربه.

«لويزا، هل... هل يمكنك إقراضي بعض المال؟».

«إذا كان من أجل االسُكر البيِّن الذي كنت عليه بالأمس، فلا».

وجدتها في غرفة نومي من دون أن تقرع الباب، فرفعت قميصي إلى صدري لتغطيته. قالت: «وهل يمكنني البقاء هنا الليلة أيضًا؟».

«ليلي، أريد أن نذهب معًا إلى أمك».

«لماذا؟».

«إنني في حاجة إلى معرفة ما يجري هنا حقًا».

وقفتْ عند ممر الباب وقالت: «إذن فأنتِ لا تصدقينني؟».

أومأتُ لها أن تدير وجهها حتى يمكنني ارتداء حمالة الصدر: «بلى أصدقك، ولكن ذلك هو الاتفاق بيننا: أنت تريدين مني شيئًا، وأنا في حاجة إلى معرفة المزيد عنك أولًا».

استدارت في مواجهتي ثانية بمجرد ارتدائي القميص.

«حسنًا لا بأس، فأنا بحاجة إلى بعض الملابس على أي حال».

«لماذا؟ أين كنت تقيمين؟».

ابتعدت عني كما لو كانت لا تسمعني، وأخذت تشمُّ إبطها قائلة: «هل يمكنني استخدام حمامك، فرائحتي نتنة حقًا؟».

وبعد مرور نحو ساعة، توجَّهنا بالسيارة إلى سانت جونز وود. كنت مرهقة بسبب عملي ونوباته في الأمسيات الليلية، وبسبب الطاقة الغريبة التي كانت تصدرها ليلي وهي جالسة إلى جواري. أخذت تتململ في جلستها دون توقف، دخَّنت عددًا لا حصر له من السجائر، ثم جلست في صمت مثقل بالهموم لدرجة أنني شعرت بحمل ما يدور في رأسها من أفكار.

«من كان ذلك الفتى الذي رأيته الليلة الماضية؟»، لم ألتفت لها وحافظت على نظرتي إلى الأمام، وجعلت صوتي محايدًا لا يحمل اهتمامًا من أي نوع.

«مجرد شخص».

«لقد أخبرتني أنه صديقك».

ردت بصوت بدا أكثر حدة ووجه متجهِّم: «حسنًا، هو صديقي إذن».

وحين اقتربنا من منزل أبويها عقدت ذراعيها على صدرها، ورفعت ركبتيها إلى ذقنها ونظرت نظرة شاردة إلى الفراغ، كما لو كانت في معركة حقيقية مع صمتها. فكرت في أنها ربما كذبت عليَّ بشأن إقامتها في حي سانت جونز وود، إلا أنها أشارت نحو شارع عريض تصطف على جانبيه الأشجار، وطلبت مني أن نتجه إلى اليمين، فوجدتنا قد وصلنا إلى شارع من الطراز الذي يعيش فيه الدبلوماسيون الأمريكان، أو موظفو البنوك، ذلك النوع من الشوارع الذي يبدو كما لو كان لا أحد يذهب ويغدو فيه. أوقفت السيارة محدِّقة من نافذتها إلى المبنى الشاهق المكسو بالجص الأبيض، ونبات الطقسوس المشذَّب بعناية من حوله، ونوافذه مربَّعة الشكل شديدة النظافة.

«هل تعيشين هنا؟»

صفعَت باب سيارتي بقوة ترجرجت معها سيارتي الصغيرة وهي تقول: «أنا لا أعيش هنا، هم من يعيشون هنا».

دخلتُ وتبعتها متعجِّبة، شاعرة أنني دخيلة على المكان. دلفنا إلى بهو فسيح ذي سقف مرتفع أرضيته من الباركيه، وعلى أحد جدرانه تستقر مرآة ضخمة، ذات إطار أبيض اللون دُسَّت في الفراغ من خلفه عدد لا حصر لها من دعوات الزفاف. وتزيَّن البهو بمزهرية فيها مجموعة من الأزهار المختارة بعناية فوق طاولة صغيرة عتيقة. أما الهواء فقد كان عابقًا بشذى الأزهار.

تناهى إلى مسامعنا من الطابق العلوي بعض الضوضاء، ربما يكون صوت مجموعة من الأطفال، كان من الصعب تحديد الأمر بدقة.

«إنهم إخوتي غير الأشقاء». قالت ليلي مجيبة عن تساؤلي الذي لم أطرحه، ثم ذهبت باتجاه المطبخ، وكان من الواضح أنها تتوقَّع أن أتبعها. كانت مساحة المطبخ شاسعة، يغلب عليه لون رمادي عصري، مزيَّن بأشكال لا حصر لها من الفطر المصقول اللامع.كل شيء في ذلك المطبخ كان ينضح بالثراء الفاحش؛ في كل تفصيلة فيه، بدءًا من المحمصة ماركة «دواليت» حتى جهاز صنع القهوة الضخم والمعقد بما يكفي لدرجة أنه يتناسب مع مقهى ميليانس كافيه. فتحت ليلي الثلاجة وتفحَّصت ما فيها لتخرج منها علبة من قطع الأناناس الطازج وبدأت في تناوله بأصابعها.

«ليلي؟»

جاءنا صوت أنثوي متسائلًا من الأعلى، وبدا منزعجًا.

«ليلي هل هذه أنتِ؟».

ثم سمعت صوت خطوات أقدام مهرولًا أسفل الدرج.

ظهرت سيدة شقراء عند الباب، حدَّقت فيَّ ثم حدَّقت في ليلي التي كانت تلقي قطعة من الأناناس داخل فمها بهدوء. مشت السيدة الشقراء

باتجاهها وخطفت العلبة من يدها قائلة: «أين كنتِ بحق السماء؟ المدرسة كلها في غاية القلق، وظل أبوك يجوب الشوارع بحثًا عنك. لقد ظننا أن أحدهم قتلكِ! أين كنتِ؟».

«إنه ليس أبي».

«لا تتذاكي عليّ أيتها السيدة الشابة، لا يمكنك العودة هكذا ببساطة وكأن شيئًا لم يحدث! هل لديكِ أدنى فكرة عن المشاكل التي تسبَّبتِ فيها هنا؟ لقد سهرتُ مع أخيكِ مدة طويلة ولم أتمكن من النوم من فرط قلقي عليك. واضطررت إلى إلغاء رحلتنا إلى الجدة هوتون لأننا لم نعرف مكانك».

نظرت إليها ليلي ببرود: «لا أدري لمَ كل هذا الانزعاج، أنتم عادة لا تكترثون لمكان وجودي».

استشاطت السيدة غضبًا. كانت نحيفة القوام، ذلك النوع من النحافة الذي يتحقَّق بعد اتباع حمية قاسية أو ممارسة التمارين باستمرار، ذات شعر قصير للغاية وملوَّن، وقد ارتدت بنطالًا جينزًا يبدو كأنه مصمَّم لها خصيصًا، أما وجهها فقد لوَّحته الشمس، ولكنه لم يستطِع إخفاء الإرهاق البادي على ملامحها.

دارت حولي متفحِّصة قبل أن تسأل: «هل أنت من كانت برفقتها؟».

«أجل، ولكن..».

نظرت إليَّ من أسفل إلى أعلى، وبدا واضحًا أن ما رأته لم يعجبها: «هل تدركين المشاكل التي تسببت فيها؟ هل لديكِ أدنى فكرة عن عمر ابنتي؟ ما الذي تريدينه من فتاة صغيرة مثلها بحق الجحيم؟ لا بد أنك في الثلاثينيات؟».

«حقًا، أنا..».

ثم توجَّهت نحو ابنتها بالسؤال: «هل هذا هو الأمر؟ ما العلاقة التي تربطك بهذه السيدة؟».

قالت ليلي بعد أن استعادت الأناناس ثانية، وبدأت في التقاطه من العلبة من جديد: «أوه، ماما اصمتي، إن الأمر ليس كما تظنين. إنها لم تتسبب في أي مشاكل». ثم همَّت بوضع آخر قطعة أناناس في فمها على مهل، وتوقَّفت عن الكلام لمضغها كما لو كانت تصنع تأثيرًا دراميًا للمشهد قبل أن تردف: «إنها السيدة التي كانت تعتني بأبي قبل وفاته. أبي الحقيقي».

اعتدلت السيدة تانيا هوتون ميلر في جلستها على الأريكة ذات اللون الكريمي والوسائد الكثيرة، وأخذت رشفة من قهوتها. أما أنا فقد جلست على الطرف المقابل من الأريكة، محدِّقة في الشموع ذات الحجم المبالغ فيه، ومجلات التصميمات الداخلية الموضوعة بعناية وبشكل جمالي على الطاولة. شعرت بقدر من الخوف من أنني لو اعتدلت في جلستي مثلها سوف يسقط فنجان قهوتي في حجري.

سألتني بضجر: «كيف التقيتِ بابنتي؟». وكشف إصبعها عن خاتم زواج يحمل أكبر قطعتي ماس رأيتهما في حياتي.

«لم ألتقِ بها في واقع الأمر، لقد وجدتها تقف عند باب شقتي ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن من تكون».

استغرقتْ دقيقة لفهم ما قلت ثم سألت: «وهل كنتِ المسؤولة عن رعاية ويل ترينر؟».

«أجل حتى وفاته».

ساد صمت قصير بينما نظر كلانا نحو السقف، حين سمعنا صوت ارتطام شيء ما فوق رؤوسنا. ثم قطعت صمتنا متنهِّدة:

«إنهم أبنائي، لديهم بعض المشاكل السلوكية».

«هل هم أبناؤك من...؟».

«إنهم ليسوا أبناء ويل، إذا كان ذلك ما ستسألين عنه.

جلسنا هناك في صمت، أو حالة تشبه الصمت خاصة مع وجود صرخات متعالية تنبعث من الطابق العلوي، تبعها ارتطام آخر ليعقبه صمت تام.

سألتها: «سيدة هوتون ميلر، هل ليلي حقًا ابنة ويل؟».

رفعت ذقنها قليلا وهي تجيب: «أجل».

شعرت بدوار فجأة، فوضعت قهوتي على الطاولة أمامي،وقلت: «لا أفهم ذلك. لا أفهم كيف..».

«إن الأمر بسيط للغاية، لقد كنت على علاقة بويل في السنة الرابعة من الجامعة، لقد كنت واقعة في حبه للغاية بالطبع، كل الفتيات وقعن في حبه في الحقيقة، ولكنه كان حبًا من طرف واحد، كما تعلمين، أليس كذلك؟».

ابتسمتُ ابتسامة بسيطة وانتظرت، كما لو كانت توقَّعت مني قول شيء.

لم أستطِع. لم أتمكن من التفوُّه بشيء. كيف لويل ألّا يخبرني أن له ابنة؟ كيف يخفي عليَّ أمرًا كهذا بعد كل ما كان بيننا؟

استكملت تانيا حديثها: «لقد كنَّا على أي حال الزوج الذهبي في مجموعتنا. كنا نذهب إلى الحفلات الراقصة معًا، ونسافر معًا، ونمضي عطلات نهاية الأسبوع برفقة بعضنا بعضًا. لقد كنتُ أنا وويل معًا في كل مكان». راحت تحكي لي قصتهما كما لو كانت قصة حديثة، وكما لو كانت شيئًا تفكِّر فيه وتستعيده في ذاكرتها مرات ومرات. «ثم وفي واحدة من حفلات الرقص كان عليَّ المغادرة لمساعدة صديقتي ليزا التي ورَّطت نفسها في مشكلة ما، وحين عدت وجدت أن ويل اختفى، انتظرته طويلًا من دون جدوى حتى جاءت السيارات لاصطحاب الجميع ولم يظهر ويل، ثم في النهاية جاءت فتاة لم أكن على معرفة جيدة بها لتخبرني أن ويل قد غادر برفقة فتاة تُدعى ستيفاني لودون، لن تعرفيها، ولكنها كانت مهتمة به منذ زمن. لم أصدق ما سمعت في بداية الأمر، ولكني استقلَّيت سيارتي باتجاه منزل ستيفاني، وانتظرت في الخارج، وفي تمام الخامسة صباحًا، وجدت ويل يخرج من منزلها وتبادلا القبلات عند عتبة الباب، كما لو كانا لا يباليان حتى بمن يمكن أن يراهما. وحين خرجت من سيارتي وواجهته بما رأيت، لم يخجل من نفسه، وقال إنه لا يجد فائدة من تورّطنا في علاقة

عاطفية حقيقية، خاصة أننا لن نستمر معًا بعد انتهاء الجامعة على أي حال.

«ثم انقضت الجامعة بالفعل، وفي الحقيقة كم كان هذا مريحًا بالنسبة لي، فمن تريد أن تكون الفتاة التي تركها ويل من دون أن يهتم؟ ولكن الموقف برمته كان يصعب تجاوزه، فقد كان مفاجئًا وقاسيًا من دون تمهيد، وبعد أن تركنا الجامعة وبدأ هو في عمله، راسلته طالبة منه أن نلتقي لتناول مشروب معًا على الأقل لأفهم كيف آلت الأمور بيننا لما آلت إليه، لأننا كنا بالفعل سعداء حقًا، كنا زوجًا استثنائيًا بين أصدقائنا، ولم أتلقَّ منه سوى رد جاءني عبر سكرتيرته الشخصية في بطاقة تعتذر فيها بسبب أجندة ويل المزدحمة بالمواعيد، وأنه لا يملك الوقت حاليًا للقائي، ويتمنى لي «أطيب الأمنيات»».

تألَّمتُ كثيرًا، وبقدر رغبتي في عدم تصديق روايتها، هذه النسخة من ويل كانت تشبهه حقًا، لقد استرجع ويل نفسه تفاصيل حياته المبكرة بكل صدق ووضوح، واعترف بمعاملته السيئة للنساء في مقتبل العمر. (لقد وصف نفسه حرفيًا بقوله: لقد كنت وغدًا).

وحين عدت من شرودي كانت تانيا لا تزال تتحدث: «وبعد شهرين اكتشفت أنني حامل، وكان الوقت قد فات بالفعل لإجهاض الجنين، فبسبب طبيعة دورتي الشهرية المضطربة لم أكتشف أمر حملي إلا متأخرًا، ومن ثم قرَّرت الاحتفاظ بليلي، ولكنني..». ثم رفعت ذقنها مجدَّدًا قبل أن تردف حديثها كما لو كانت تدافع عن نفسها: «ولكنني لم أجد جدوى من إخباره بأمر حملي منه، ليس بعد كل ما قال وفعل».

كانت قهوتي قد بردت، وقلت بشرود: «لا جدوى من إخباره بأمر حملك منه؟».

«لقد قال إنه لا يرغب في أي شيء ذي صلة بي، ولو كنت أخبرته لتصرَّف كما لو كنت تعمَّدت أن أحمل منه لإيقاعه في شرك الزواج مني أو شيء من هذا القبيل».

فغرتُ فاهي على نحو لا إرادي، ثم أغلقته قبل أن أقول: «ولكن... ولكن ألم تفكري مطلقًا في أن من حقه أن يعرف أن له ابنة، سيدة هوتون ميلر؟ ألم تفكري قط في أنه ربما يرغب في لقاء ابنته بصرف النظر عما حدث بينكما؟».

وضعتْ فنجانها.

قلت: «إنها الآن في السادسة عشر من العمر، وحين مات ويل كانت في الخامسة أو الرابعة عشر، إنها فترة طويلة للغاية... يا إلهي..».

«طيلة ذلك العمر كان لديها فرانسيس كوالد لها، وكان نعم الأب، كنا كعائلة، أعني أننا عائلة بالفعل».

«لا أفهمكِ، إنكِ..».

«لم يستحق ويل معرفة ابنته».

كان وقْع كلماتها لا يُحتمل.

«لقد كان وغدًا، كان ويل ترينر وغدًا أنانيًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى». ثم قامت برفع بعض خصلات الشعر من على وجهها، وأكملت: «بالطبع، لم أكن على علم بما حدث له بعد ذلك، وكانت تلك بمثابة صدمة كبيرة، ولكن حتى أكون صادقة معكِ، لم تكن لتغيِّر شيئًا في موقفي منه».

استغرق الأمر دقيقة لاسترداد قدرتي على الحديث، وقلت: «لكن الفارق سيكون كبيرًا بالنسبة له».

نظرت إليَّ بحدة. فقلت بصوت متهدِّج: «لقد قتل ويل نفسه، أنهى ويل حياته لأنه لم يجد سببًا ليحيا من أجله، ولو عرف أن لديه ابنة..».

انتصبتْ واقفة: «أوه، توقَّفي، ولا تحمّليني مسؤولية الأمر أيتها السيدة أيًا كان اسمك، لن تدفعيني للشعور بالذنب، وبمسؤوليتي تجاه انتحار هذا الرجل. أتظنين أن حياتي لا تنوء بما يكفيها من التعقيدات؟ ومن أنتِ لتجرؤي على القدوم إلى هنا لإصدار حكمك عليَّ. لو كنت مررت بنصف ما مررت به بسببه... كلا وألف كلا. ويل ترينر كان رجلًا بشعًا».

«ويل ترينر كان أنبل رجل قابلته في حياتي».

رمقتني بنظرة متفحِّصة من أسفل إلى أعلى، ثم قالت: «أجل، يمكنني تخيُّل أن هذا قد يكون صحيحًا بالنسبة لشخص مثلك».

أعتقد أنني لم أحمل مشاعر ازدراء لأحد بهذه السرعة مثلما حملت لها.

وقفت مستعدة للرحيل حين أتى صوت ليقطع الصمت الذي خيم علينا: «لم يعلم أبي إذن شيئًا عني».

كانت ليلي واقفة بثبات عند الباب. شحب وجه تانيا هوتون ميلر التي حاولت تجاوز الموقف قائلة: «كنت أحميك من الجرح والأذى يا ليلي، أنا أعرف ويل جيدًا، وأردت أن أجنب كلينا التعرض لإهانة محاولة إقناعه بأنك جزء من علاقة رفضها منِ البداية ولم يرغبها»، ثم قامت بالتمسيد على شعرها، «ثم إن عليكِ التوقُّف عن عادة استراق السمع القبيحة، إنك بذلك تسيئين فهم الأمور لا أكثر».

لم أكن قادرة على الإصغاء للمزيد، اتخذت طريقي عبر الباب حين بدأ أحد الأولاد الصياح من الطابق العلوي. طارت شاحنة بلاستيكية من أعلى الدرج لتستقر على مكان ما بالأسفل متحطِّمة إلى قطع. وحدَّق من فوق الدرابزين وجه يعتريه القلق، ربما كان وجهًا لفيليبينية على ما أعتقد، فبدأت في نزول الدرج.

«إلى أين أنت ذاهبة؟».

«آسفة يا ليلي، ربما يمكننا الحديث في وقت لاحق».

«ولكنك لم تخبريني شيئًا عن والدي».

ردّت تانيا: «إنه ليس والدكِ، لقد قدَّم لكِ فرانسيس منذ مولدك أكثر مما كان سيقدمه لكِ ويل».

صاحت ليلي غاضبة: «فرانسيس ليس والدي».

صوت ارتطام آخر جاء من أعلى، تبعه صياح لسيدة تحدَّثت بلغة لم

أفهمها، ثم تطايرت في الهواء طلقات من بندقية لعب. وضعت تانيا يدها فوق رأسها: «لا يمكنني تحمُّل ذلك، لا يمكنني تحمُّله».

لحقت بي ليلي عند الباب وقالت: «هل يمكنني البقاء معكِ؟».

«ماذا؟».

«البقاء في شقتك؟ هل يمكنني البقاء معكِ هناك؟».

«ليلي لا أعتقد أن..».

«سوف أبقى هذه الليلة فقط رجاءً».

قالت تانيا ملوِّحة: «لا تفوِّتي الفرصة، هيا استضيفيها لليلة أو ليلتين معكِ، إنَّ صحبتها رائعة، فكم هي مؤدبة وودود ومرحة، إن البقاء برفقتها أشبه بالحلم!» ثم احتدت ملامحها، «هيا لنرى إلى أي مدى ستتحملينها؟ هل تعرفين أنها تشرب الخمرة؟ هل تعرفين أنها تدخن في المنزل؟ وأنه تم فصلها لفترة من المدرسة؟ هل أخبرتك بكل ذلك؟».

بدا على قسمات ليلي الملل، كما لو كانت قد سمعت ذلك ملايين المرات من قبل.

«إنها لم تهتم حتى بخوض امتحاناتها، لقد فعلنا كل ما يمكن فعله من أجلها، استعنا بمستشارين نفسيين، ألحقناها بأفضل المدارس، استعنا بمدرّسين خصوصيين، عاملها فرانسيس كما لو كانت ابنته. وكان رد الجميل أنها ألقت بكل ذلك في وجهنا. يواجه زوجي وقتًا عصيبًا للغاية في البنك، والأولاد لديهم مشاكلهم، وهي لا تكترث ولا تعيرنا أدنى قدر من الاهتمام، لم تفعل ذلك يومًا».

«وكيف كنت لتعرفي ذلك؟ لقد قضيت نصف عمري مع المربيات، وبمجرد إنجابكِ للأولاد أرسلتني إلى مدرسة داخلية».

«لم أستطِع التعامل معكِ، لقد فعلتُ كل ما استطعتُ فعله!».

«لقد فعلتِ ما أردتِ فعله، وما أردته هو تكوين أسرتك المثالية مرة أخرى، من دوني». ثم استدارت ليلي نحوي قائلة: «أرجوك، خذيني معكِ

لوقت قليل، لن أسبِّب لك أي مشاكل، أعدك أن أكون متعاونة معكِ حقًا».

كان عليَّ أن أقول لا، أعلم أنه كان عليَّ أن أرفض، ولكنني كنت أستشيط غضبًا من تلك السيدة. كما شعرتُ أنه عليَّ القيام بذلك من أجل ويل. أن أفعل الشيء الذي لم يستطِع فعله، قلت لها: «حسنًا». بينما سقط من الطابق العلوي مجسَّم ضخم مصنوع من لعبة الليجو، مر إلى جانبي أذني واستقر متفتتًا إلى قطع صغيرة ملوَّنة عند قدميّ، «أحضري أغراضكِ، سوف أنتظركِ في الخارج».

ما تبقَّى من اليوم كان ضبابيًا، قمنا بإفراغ الغرفة الإضافية من صناديقي وكدَّسناها في غرفة نومي، لنجعل منها غرفة لها، بالأحرى لم تعد غرفة تخزين، نقلت لها ستارة لم أقم بتركيبها بعد، ومصباحًا وكومودينو إضافيين لا أحتاجهما. اشتريتُ لها سريرًا قابلًا للطي وحملناه معًا عبر الدرج مع عمود شماعات معدني لتعليق أغراضها القليلة، كما اشترينا غطاءً ووسادة جديدين. بدت لي سعيدة بشعورها بأهميتها برفقتي، كما بدت غير منزعجة لانتقالها مع شخص بالكاد تعرفه. راقبتها وهي ترتب أغراضها الجديدة في حجرتها، وانتابني شعور بحزن غامض من أجلها. كيف لفتاة مثلها أن تترك غرفتها الفارهة وعيشها الرغد من أجل غرفة صغيرة كهذه فيها سرير متنقل وعمود شماعات متواضع؟

طهوت مكرونة، مستشعرة غرابة الطهو لضيف في بيتي، ثم شاهدنا التليفزيون معًا، وفي الثامنة والنصف دق جرس هاتفها وطلبت مني ورقة وقلمًا قائلة: «ها هو رقم هاتف ماما، إنها تريد رقم هاتفك وعنوانك في حالة الطوارئ».

وراودني سؤال عابر عن المدة التي تظن أن ليلي ستبقاها معي.

عند العاشرة مساءً كان الإنهاك قد بلغ مني مبلغه، فأخبرت ليلي أنني سآوي إلى فراشي. كانت لا تزال تشاهد التليفزيون، تجلس واضعة ساقًا فوق أخرى على الأريكة، وتراسل شخصًا باستخدام حاسوبها المحمول.

«لا تسهري لوقت متأخر، اتفقنا؟»، بدا مذاق العبارة مصطنعًا على شفتي، كشخص يحاول أن يبدو بالغًا ويلعب دور الناصح.

كانت عيناها لا تزالان مثبّتتين على شاشة التليفزيون.

«ليلي؟».

نظرت إليَّ، كما لو كانت لاحظت للتو وجودي في الغرفة، «أوه، أجل، لقد أردت أن أخبرك أنني كنت هناك».

«هناك أين؟».

«على السطح، حين سقطت من فوق البناية.. كنت أنا من اتصل بالإسعاف».

أجل لقد رأيتها هناك، حينها، فجأة، بعينيها المتسعتين، وجلدها الشاحب في الظلام، «ولكن ماذا كنت تفعلين هناك؟».

«وجدت عنوانك، وبعد أن أصاب الجنون جميع من في المنزل أردت أن أتعرف إليك أكثر قبل التحدث معك، ووجدت أنه يمكنني الصعود عبر سلم الطوارئ، ووجدت أن شقتكِ مضاءة. انتظرتك، ولكنكِ حين صعدتِ إلى السطح وبدأت في العبث على الحافة فكرت أنني إذا قلت شيئًا فقد أصيبك بالفزع».

«وهو ما فعلته».

قالت ضاحكة بعصبية: «أجل، لقد فعلت ذلك عن عمد. وظننت أنني قتلتكِ حينها».

جلسنا صامتتين لدقيقة قبل أن أقول: «يظن الجميع أنني قفزت من فوق سطح البناية متعمِّدة».

استدارت بوجهها نحوي: «حقًا!».

«أجل».

سألتني بتأمل: «وهل جاءهم ذلك الظن بسبب ما وقع لأبي؟».

«أجل».

«هل تفتقدينه؟».

«في كل يوم يمر عليّ».

صمتت، وقالت أخيرًا: «متى يحين موعد إجازتك المقبلة إذن؟».

أجبتها: «يوم الأحد المقبل، لم تسألين؟».

«هل يمكننا الذهاب إلى بلدتك؟».

«هل تودين زيارة ستورتفولد؟».

«أود رؤية المكان الذي كان يعيش فيه».

الفصل الثامن

لم أخبر أبي بقدومنا، ولم أكن متأكدة تمامًا من كيفية إجراء تلك المحادثة. توقّفنا بالسيارة أمام منزلنا، ومكثتُ لدقيقة أراقب انطباعها، وهي تطل من النافذة، عن منزلنا المتواضع والكئيب مقارنة بمنزلهم. كانت قد اقترحتْ أن نشتري باقة ورد عندما أخبرتها أن أمي ستصر على بقائنا لتناول الغداء معهم، وغضبتُ عندما اقترحت شراء زهور القرنفل من محطة البنزين، على الرغم من أنها كانت ستقدمه لشخص لم تلتقِه من قبل.

قدت السيارة إلى السوبر ماركت على الجانب الآخر من ستورتفولد، حيث اختارت باقة ضخمة مربوطة برباط يدوي أنيق من زهور الفريزيا والفاوانيا والحوْذان، وقمتُ بدفع ثمنها.

قلت لها: «انتظري لحظة»، لأنها شرعت في الترجّل من السيارة، «سأشرح لهم الموقف أولًا قبل دخولك معي».

«لكن..».

«ثقي بي. يجب أن أمهِّد لهم الأمر».

قطعت الطريق عبر حديقة بيتنا الصغيرة وطرقت على الباب، كنت أسمع صوت التليفزيون في غرفة المعيشة، وتصوَّرت أن جدي يشاهد السباق، وفمه يعمل بصمت جنبًا إلى جنب مع أرجل الخيول. إنها تلك المشاهد والأصوات المألوفة في منزلنا. فكرت في الأشهر التي نأيت فيها بنفسي، ولم أكن على يقين من أنني كنت موضع ترحيب، كما فكرت كيف

أنني رفضت أن أسمح لنفسي بالتفكير في المشي على هذا الطريق مجددًا، وفي رائحة ملابس أمي المعطرة بمنعّم الأقمشة وهي تأخذني في حضنها، ومشاعر أبي المتحفظة المخفية وراء ضحكاته.

فتح أبي الباب، ورفع حاجبيه قائلًا: «لو! يا لها من مفاجأة!... لم نتوقع حضورك، لم تخبري أحدًا، أليس كذلك؟»، تقدَّم إلى الأمام وعانقني.

أدركت أنني أحب العودة إلى حضن عائلتي من جديد: «مرحبا أبي».

انتظر على عتبة الباب وذراعه ممدودة. كانت رائحة الدجاج المشوي تملأ الممر، «هيا تفضلي بالدخول، أم ترانا ذاهبين إلى نزهة على عتبة الباب؟».

«أريد أن أقول لك شيئًا أولًا».

«لقد خسرتِ وظيفتك».

«كلا، لم أخسرها».

«رسمتِ على جسمكِ وشمًا آخر».

«أكنت تعرف بأمر الوشم؟».

«أنا أبوكِ، وعلى دراية بكل شيء لعين قمت به أنتِ وأختكِ منذ أن كنتما في الثالثة من العمر». ثم انحنى إلى الأمام: «لن تسمح لي أمك بأن أحصل على وشم أبدًا».

«كلا يا أبي، لم أرسم وشمًا آخر»، أخذت نفسًا، ثم أضفت: «معي... معي ابنة ويل».

جمد أبي في مكانه بلا حراك حتى ظهرت أمي خلفه مرتدية مريلة المطبخ، فهتفت: «لو!»، ولاحظت من النظرة المرسومة على وجه أبي فقالت: «ماذا هناك؟ ما الخطب؟».

«تقول إن ابنة ويل معها».

صرخت أمي: «ابنة من؟».

كان وجه أبي شاحبًا تمامًا، وتحسس مبرد المياه من ورائه وتحامل عليه.

فقلت وقد اعتراني القلق: «ماذا؟ ما الخطب؟».

«لا تقولي... لا تقول لي إنك حملتِ منه... حملتِ منه نسمة صغيرة؟».

لوَيت وجهي قائلة: «إنها في السيارة، وهي تبلغ من العمر ستة عشر عامًا».

«الحمد لله. أوه، جوسي، الحمد لله. في هذه الأيام، أنت في غاية... لا أدري ماذا..». تمالك نفسه، ثم أردف: «هل تقولين إنها ابنة ويل؟ لم يسبق لك أن أخبرتنا بأن له..».

«لم أكن أعرف. لم يكن أحد يعرف».

من ورائه أرسلت أمي نظرة نحو سيارتي، حيث كانت ليلي تحاول أن تتصرف كما لو أنها لا تعرف أننا نتحدث عنها.

قال أمي وقد مدت يدها إلى رقبتها: «حسنًا، يجدر بك دعوتها للدخول، فلدينا كمية جيدة من الدجاج ستكفينا كلنا إذا أضفتُ قليلًا من البطاطس»، وهزت رأسها في دهشة، «ابنة ويل. حسنًا، خيرًا يا لو. أنت تحبين المفاجآت»، ولوَّحت إلى ليلي، التي لوَّحت لها بدورها مترددة، «تعالي يا حبيبتي!».

رفع أبي يده محييًا إياها، ثم غمغم هامسًا: «هل السيد ترينر على علم بالأمر؟».

«ليس بعد».

فرك أبي صدره: «هل هناك شيء آخر؟».

«مثل ماذا؟».

«أي شيء آخر تريدين قوله لي، كما تعلمين، بخلاف القفز من المباني وجلب الأطفال المفقودين منذ فترة طويلة. ألم تنضمي إلى السيرك، مثلًا، أو تتبني طفلًا من كازاخستان أو شيء من هذا القبيل؟».

«الحقيقة أنني لم أفعل – حتى الآن – أيًا مما سبق».

«حسنًا، أشكر الله على ذلك. كم الساعة الآن؟ أعتقد أنني مستعد لتناول مشروب».

«حسنًا، ليلي، في أي مدرسة تتعلمين؟».

«إنها مدرسة داخلية صغيرة في شروبشاير، لم يسمع عنها أحد، وهي أشبه بمنفى فاخر للمتخلِّفين عقليًا ولأفراد العائلة الملكية المبعَدين في مولدافيا».

كنا قد حشرنا أنفسنا حول طاولة الطعام في الغرفة الأمامية، حيث جلس سبعتنا متلاصقي الأرجل، وستة منا يذْعون ألّا يحتاج أحد إلى الذهاب للحمام، الأمر الذي يستلزم وقوف الجميع وتحريك الطاولة ست بوصات نحو الأريكة.

«مدرسة داخلية، إذن؟ حيث المقاصف وحفلات منتصف الليل وما إلى ذلك؟ أراهن أنها مسلية للغاية».

«ليس صحيحًا. فقد أغلقوا المقصف في العام الماضي، لأن نصف الفتيات أصبن بسوء التغذية، وأصبن بالمرض لكثرة تناولهن شوكولاتة سنيكرز».

قلت: «إن أم ليلي تعيش في سانت جونز وود. وهي تقيم معي لبضعة أيام حتى... حتى تتعرف على الجانب الآخر من عائلتها».

قالت أمي: «إن آل ترينر يعيشون هنا منذ أجيال».

«حقًا؟ هل تعرفينهم؟».

تجمّدت أمي: «حسنًا، ليس تمامًا..».

«كيف هو بيتهم؟».

اكفهرَّ وجه أمي: «لو خير من يجيبك عن هذا السؤال. فهي من قضى وقتًا متواصلًا هناك».

انتظرت ليلي.

وقال أبي: «إنني أعمل مع السيد ترينر، أنا المسؤول عن إدارة العزبة».

«جدها!»، هتف جدي، وضحك. نظرت إليه ليلي، ثم نظرت لي، فابتسمتُ لها، رغم أن مجرد ذكر اسم السيد ترينر يصيبني بعدم الاتزان بشكل غريب.

قالت أمي: «صحيح يا أبي. إنه جد ليلي. مثلك تمامًا. والآن من يريد المزيد من البطاطس؟».

«جدي»، كررت ليلي الكلمة بهدوء، وبدا من الواضح أنها سعيدة بها.

قلت: «سنتصل بهم و... نخبرهم. وإذا أردت يمكن أن نعرّج على منزلهم بعد مغادرتنا، فقط لكي تتمكني من رؤيته».

كانت شقيقتي صامتة أثناء هذا الحوار. وقد أجلسنا ليلي بجانب توم، في محاولة لحمله على التصرف بشكل أفضل، على الرغم من أن خطر إقدامه على الكلام عن الطفيليات المعوية لا يزال مرتفعًا جدًّا. وظلت ترينا ترقب ليلي. كانت أكثر تشككًا من أبي وأمي، اللذين تقبَّلا للتو كل ما قلته لهما. وقد أخذتني إلى الطابق العلوي بينما كان أبي يرافق ليلي لرؤية الحذيقة، وسألتني كل الأسئلة التي كانت تحوم بعنف في رأسي، مثل حمامة محاصرة في غرفة مغلقة. كيف عرفتِ أنها صادقة فيما تقول؟ وماذا تريد؟ ثم، وأخيرًا، ما أدراكِ أن أمها ستوافق على أن تعيش معكِ؟

«إلى متى ستمكث؟»، سألتني على الطاولة، في حين كان أبي يتكلم مع ليلي عن العناية بأشجار البلوط الأخضر.

«لم نناقش ذلك في حقيقة الأمر».

لوت وجهها بطريقة توحي بأنها تعتبرني بلهاء، وأن هذا لم يكن مفاجئًا لها.

«لم يمضِ على مكوثها معي سوى ليلتين لا أكثر، ترينا، وعلى كلٍّ فهي فتاة صغيرة».

«هذا ما أردت قوله بالضبط. ماذا تعرفين عن رعاية الأطفال؟».

«ولكنها ليس طفلة».

«إنها أسوأ من طفلة؛ فالمراهقون والمراهقات هم في الأساس أطفال صغار يعانون نشاطًا هرمونيًا كبيرًا، أطفال كبروا بما فيه الكفاية ليقدِموا على فعل الأشياء دون مراعاة لأي عقل أو منطق. ومن شأن مراهقة كتلك

أن تقحم نفسها في كل أنواع المتاعب. لا أستطيع أن أصدِّق أنك تفعلين هذا حقًا».

ناولتها طبق المرق، قائلة: ««مرحى يا لو. لقد أحسنت بالحفاظ على عملك في سوق العمل الصعبة. تهانينا بتغلبك على حادث رهيب. لكم تسعدني رؤيتك»».

مرّرت لي الملح، وتمتمت، من تحت أسنانها: «تعرفين أنك لن تستطيعي التعامل مع هذا الموقف، فضلًا عن..».

«فضلًا عن ماذا؟».

«اكتئابك».

همست مستهجنة: «أنا لست مريضة بالاكتئاب، أنا لست مريضة بالاكتئاب، ترينا. أرجوك أنا لم أرمِ نفسي من أعلى المبنى».

«لقد أصبحت غريبة الأطوار، لقد تغيرت كثيرًا منذ أن دخل ويل حياتك».

«ما الذي يجب عليَّ فعله لإقناعك؟ لقد حصلت على وظيفة وأحافظ عليها، كما أنني أواظب على العلاج الطبيعي حتى تُشفَى ساقي، واشتركت في مجموعة مزعجة للدعم النفسي حتى أستعيد سلامتي العقلية. أعتقد أنني أبلي بلاءً حسنًا، أليس كذلك؟»، كان كل من على الطاولة يستمعون إليَّ الآن. «في الواقع.. إليكم الحقيقة. أوه، أجل. كانت ليلي هناك. لقد رأتني أسقط. واتضح لي أنها هي من طلب الإسعاف».

نظر كل أفراد عائلتي إليَّ، وأكملت: «أترون، تلك هي الحقيقة. لقد رأتني أسقط. لم أقفز. ليلي، كنت أقول لأختي إنك كنت هناك عندما وقعت، أليس كذلك؟ هل رأيتني؟ سبق أن أخبرتكم أن كل ما سمعته صوت فتاة. لم أكن مجنونة. لقد رأت كل شيء في الواقع. لقد وقعتُ رغمًا عني، أليس كذلك؟».

رفعت ليلي وجهها من على طبقها، وهي لا تزال تمضغ الطعام. فلم

تتوقف عن الأكل تقريبًا منذ أن جلسنا: «بلى. هي لم تحاول أبدًا قتل نفسها».

تبادلت أمي وأبي نظرة. تنهّدت أمي، راسمة الصليب خفية وابتسمت. رفعت أختي حاجبيها، متوقعةً أن أتلقّى منها اعتذارًا. شعرت، لفترة وجيزة، بالفرح.

«بلى. كانت تصرخ في الفضاء». رفعت ليلي شوكتها، ثم أردفت: «كانت سكرانة، سكرانة حقًا».

ساد الصمت لبرهة، حتى قطعه أبي قائلًا:

«أوه. حسنًا هذا..».

قاطعته أمي: «هذا... جيد».

قالت ليلي: «هذا الدجاج رائع. هل أستطيع الحصول على المزيد منه؟».

بقينا حتى آخر النهار، وذلك لسببين، أولهما أنني كلما هممت بالمغادرة، ألحّت علينا أمي لتناول المزيد من الطعام، وثانيهما أن وجود أشخاص آخرين يتجاذبون أطراف الحديث مع ليلي جعل الموقف يبدو أقل غرابة وتوترًا. انتقلت أنا وأبي إلى الحديقة الخلفية وجلسنا على كرسيي البلاج اللذين لم يهترئا بطريقة أو أخرى حتى اللحظة.

«أعرفتِ أن أختك تقرأ كتاب «المرأة المدجَّنة» ورواية قديمة تسمى «غرفة نوم المرأة» أو شيئًا من هذا القبيل، وتقول إن أمك مثال كلاسيكي لاضطهاد المرأة، وأن اعتراض أمك على ذلك الطرح يبين كم هي مضطهدة؛ كما تحاول إقناعها بضرورة مشاركتي في أعمال الطبخ والتنظيف، وتنعتني برجل الكهف البدائي. وإذا كنت تجرأت وقلت أي شيء ردًا على أفكارها تلك، تقول لي «تحقق من امتيازاتك». أتحقق من امتيازاتي! ولقد قلت لها يسعدني أن أتحقق منها إذا عرفت أين وضعتها أمك بحق الجحيم».

قلت: «تبدو لي أمي على خير ما يرام». أخذت رشفة من الشاي وقد

اعتراني إحساس بالذنب بعد أن تناهت إلى سمعي أصوات الأطباق والصحون التي تغسلها أمي في المطبخ.

نظر إليَّ بطرف عينيه: «إنها لم تحلق ساقيها منذ ثلاثة أسابيع. ثلاثة أسابيع يا لو! وبكل صدق أتضايق عندما تلمسني، حتى إنني كنت أبيت على الأريكة في آخر ليلتين. لا أدري يا لو. لماذا لم يعد الناس سعداء بترك الأمور تسير في مسارها الطبيعي؟ كانت أمك سعيدة، وكنت أنا سعيدًا؛ نحن نعرف ما هي أدوارنا، فأنا رجل مشعر الساقين، وهي امرأة ذات سيقان ملساء كالقفازات المطاطية. الأمر بهذه البساطة».

أسفل الحديقة، كانت ليلي تعلِّم توم كيف يقلد أصوات الطيور باستخدام ورقة. وقد أمسك الورقة بين إبهاميه، ولكن يبدو أن أسنانه الأربع المفقودة أعاقت إصدار أي صوت بالشكل المطلوب، حيث لم يظهر إلا ثمرة توت ورذاذ خفيف من اللعاب.

جلسنا صامتَيْن لفترة، ونحن نستمع إلى نعيق الطيور، وصافرات جدي، ونباح كلب الجيران ليُسمح له بالدخول. شعرت بالسعادة لوجودي في البيت.

سألت أبي: «كيف حال السيد ترينر؟».

«آه، إنه بأحسن حال. أعرفت أنه سيكون أبًا مرة أخرى؟».

التفتُّ إليه بحذر من على الكرسي: «أحقًا ما تقول؟».

«ليس من السيدة ترينر؛ فقد رحلت مباشرة بعد... كما تعلمين. سينجب من فتاة ذات شعر أحمر نسيت اسمها».

قلت وقد تذكرت فجأة: «ديلا».

«أجل، هي ديلا. يبدو أنهما قد تعارفا منذ فترة، ولكنني أعتقد أن حملها بطفل كان مفاجأة لكليهما، كما تعلمين»، فتح أبي علبة بيرة أخرى، «إنه فَرِح بما فيه الكفاية، وأفترض أنه من الجميل أن ينتظر قدوم ابن أو ابنة من جديد، شيء يؤنس وحدته».

أراد جزء مني إدانته، ولكنني استطعت أيضًا أن أتخيل الحاجة إلى خلق شيء جيد بعد ما حدث، والرغبة في العودة إلى الحياة الطبيعية، بأي وسيلة.

أنا الشيء الوحيد الذي يربط بينهما، هذا ما قاله لي ويل، أكثر من مرة.

سألته: «ترى كيف سيكون موقفه من ليلي، برأيك؟».

«ليست لديَّ فكرة يا حبيبتي». فكر أبي قليلًا، ثم أردف: «أعتقد أنه سيسعد بها، فهي أولًا وأخيرًا بضعة من ابنه، وقد عادت إليه من جديد، أليس كذلك؟».

«وترى كيف سيكون موقف السيدة ترينر، برأيك؟».

«لا أدري يا حبيبتي، لا أعرف شيئًا عن المكان الذي تعيش فيه هذه الأيام».

«ليلي... صعبة المراس للغاية».

انفجر أبي ضاحكًا، «لا تقولي ذلك أنتِ بالذات! فقد كنتِ وترينا تقودان أمك إلى حافة الجنون لسنوات عدة بسبب تأخركما في الليل بصحبة أصدقائكما وحكايات أزماتكما العاطفية. ومع مرور الوقت عدتما إلى سبيل الرشاد»، أخذ رشفة من البيرة وقهقه مرة أخرى، «إنها أخبار جيدة يا حبيبتي، فأنا سعيد لأنك لن تكوني وحدك في تلك الشقة القديمة الخاوية».

خرج نعيق من ورقة توم، فتهلل وجهه، ورفع الورقة عاليًا؛ فرفعنا إبهامينا تشجيعًا له.

«أبي». استدار نحوي. «أنت تعرف أنني بخير، أليس كذلك؟».

ربَّت على كتفي بلطف: «نعم يا حبيبتي، ولكن مهمتي في الحياة أن أقلق عليكم. سأظل قلقًا حتى تتقدم بي السن ولا أتمكن من أن أبرح كرسيي، أتدرين، قد يحدث هذا في القريب العاجل».

غادرنا قبل الخامسة بقليل. في مرآة السيارة رأيت ترينا الوحيدة من بين

أفراد الأسرة التي لم تلوِّح لي. كانت تقف عاقدة ذراعيها على صدرها، ورأسها يتحرك ببطء من جانب إلى آخر وهي تشاهدنا نبتعد.

***

عندما وصلنا إلى المنزل، اختفت ليلي على سطح المبنى. لم أصعد هناك منذ وقوع الحادث. كنت قد أخبرت نفسي أن الطقس الربيعي يجعل محاولة الصعود أمرًا غير مبرَّر، لا سيما أن سلم الطوارئ سيكون زلقًا بسبب الأمطار المتساقطة عليه، ومشاهدة كل تلك الأواني من النباتات الميتة من شأنه أن يجعلني أشعر بالذنب، ولكن، في الحقيقة، كنت خائفة. فمجرد التفكير في التوجه إلى هناك مرة أخرى يجعل قلبي يدق بعنف؛ فلم يغب عن بالي أبدًا ذلك الإحساس باختفاء العالم من تحتي، كمن يسحب سجادة من تحت قدمَيّ.

شاهدتها تتسلق من نافذة الردهة وتصيح بأنها ستنزل في غضون عشرين دقيقة. عندما مرت خمس وعشرون، بدأ القلق يراودني. ناديتها من النافذة ولكن لم أسمع سوى صوت حركة المرور في الشارع. في الدقيقة الخامسة والثلاثين وجدت نفسي أتهددها وأتوعّدها، ثم تسلقت من نافذة القاعة إلى سلم الطوارئ.

كانت أمسية صيفية دافئة والإسفلت الذي يغطي سطح البناية يشع حرارة، وفي الأسفل كانت أصوات المدينة تميز يوم الأحد الكسول بحركة المرور البطيئة الحركة والنوافذ المسدلة، والموسيقى الصاخبة، والشباب المتسكعين في زوايا الشوارع، ورائحة الشحوم الآتية من بعيد من حفلات الشواء المقامة على أسطح المنازل الأخرى.

كانت ليلي تجلس على وعاء نباتات مقلوب، تطل على المدينة. وقفتُ مسندة ظهري إلى خزان المياه، محاولة ألّا أشعر بالذعر كلما انحنت نحو الحافة.

كان الذهاب إلى هناك خطأ فادحًا، فقد شعرت بالإسفلت يتمايل

بلطف تحت قدمي، كسطح سفينة، وشققت طريقي مضطربة إلى المقعد الحديديّ الصدئ، وجلست عليه منكمشة. الشعور بالوقوف على هذه الحافة، عرف جسدي تمامًا كيف يمكن قياس الفرق اللانهائي بين الشؤون الحياتية، والنشوة التي من شأنها أن تنهي كل شيء: بأصغر الوحدات، بالجرامات، بالملليمترات، بالدرجات. تلك المعرفة جعلت شعر ذراعي يقف والعرق يتصبَّب من رقبتي.

«أيمكن أن تنزلي، ليلي؟».

«لقد ماتت كل نباتاتك»، كانت تمسك بعض الأوراق الميتة من نبتة جافة.

«نعم فعلًا. حسنًا، لم آتِ إلى هنا منذ عدة أشهر».

«يجب ألّا تدعي النباتات تموت، فهذا أمر قاسٍ».

نظرت إليها بتفحُّص، لأعرف ما إن كانت تمزح، لكنها لم تكن كذلك على ما يبدو. انحنت فجأة، وكسرتْ غصنًا وراحت تفحص قلبه الجاف:

«كيف قابلتِ والدي؟».

وصلت إلى زاوية خزان المياه، في محاولة لوقف اهتزاز ساقيَّ: «لقد تقدمت للحصول على وظيفة لرعايته. ونجحت».

«على الرغم من أنك لم تتلقِ تدريبًا على تقديم الرعاية الطبية».

«أجل».

أخذت تفكر مليًا، رمت الجذع الميت بعيدًا في الهواء، ثم نهضت ومشت إلى الطرف البعيد من الشرفة، ووقفت ويداها على خصرها، كما لو كانت إحدى محاربات الأمازون النحيفات، «كان وسيمًا، أليس كذلك؟».

كان السقف يميد من تحتي. كنت بحاجة للنزول إلى الطابق السفلي، «لا أستطيع أن أتكلم هنا، ليلي».

«هل أنت خائفة حقًا؟».

«أفضل أن ننزل إلى الأسفل. أرجوك».

أمالت رأسها ورمقتني، كما لو كانت تحاول أن تقرر ما إذا كانت ستنفذ ما طلبته منها أم لا. أخذت خطوة نحو الجدار، ووضعت قدمها محدّقة، كما لو كانت تفكر في القفز عن الحافة، ظلت كذلك لفترة طويلة تكفي لجعلي أتصبب عرقًا. ثم التفتت إليَّ، وعلى وجهها ابتسامة عريضة، ووضعت سيجارتها بين أسنانها وعادت عبر السقف نحو سلم الطوارئ، «أنت لن تسقطي مرة أخرى، أيتها الحمقاء. لا أحد سيئ الحظ بهذا الشكل».

«حسنًا، الآن، أنا لا أريد اختبار الاحتمالات».

ثم، عندما استوعبت أنني لا أستطيع التحرك، جلستْ على السلم بجانبي. كنا قد نزلنا ما يقرب من عشر أقدام فقط عما كنا عليه، ولكن مع رؤيتي لردهة شقتي من خلال النافذة، ووجود قضبان حديد على كل جانب، بدأت أتنفَّس بشكل طبيعي مرة أخرى.

قالت وهي تقدم لي سيجارتها: «أنتِ تعرفين ما تحتاجينه».

«هل أنتِ جادة؟ أتريدينني أن أتناول المخدرات وأصعد أربعة طوابق؟ أتعرفين أنني سقطت عن السطح منذ فترة وجيزة؟».

«ستساعدك على الاسترخاء».

عندما رفضت أخذها منها، تذمرت قائلة: «أوه، هيا، ما بك.. هل أنت أكثر الناس استقامة في لندن بأسرها؟».

«أنا لست من لندن».

بعدئذ، لم أستطع أن أصدق أن فتاة في السادسة عشر من عمرها قد تلاعبت بي، ولكن ليلي كانت مثل الفتاة اللطيفة في الفصل المدرسي، تلك التي تجد نفسك تحاول إثارة إعجابها. قبل أن تتمكن من قول أي شيء آخر، أخذتها منها، وسحبت نفسًا بسيطًا من السيجارة محاولة ألّا أسعل عندما ضرب الدخان الجزء الخلفي من حلقي.

فقلت: « أنت في السادسة عشر من العمر، ويجب ألّا تفعلي هذا. ثم من أين يحصل شخص مثلك على هذه الأشياء؟».

نظرت ليلي إلى الدرابزين، «هل كنت مولعة به؟»

«مولعة بمن؟ أبيك؟ ليس في البداية».

«لأنه كان على كرسي متحرك».

أردت أن أقول، لأنه كان يولّد لدي انطباعًا أشبه بدانيال دي لويس في فيلم «قدمي اليسرى» وكان ذلك يخيفني، ولكن ذلك يطول شرحه. «كلا. كان الكرسي المتحرك الشيء الأقل أهمية فيه. لم أكن مولعة به لأنه... كان غاضبًا جدًا، ومخيفًا قليلًا، وهذان الأمران جعلا الوقوع في حبه صعبًا للغاية».

«هل هناك شبه بيني وبينه؟ لقد بحثت عنه على جوجل ولكن لا أستطيع أن أحدد بالضبط ما إذا كنت أشبهه أم لا.

«تشبهينه قليلًا؛ فلون بشرتك هو نفس لون بشرته. وربما عيناكِ أيضًا».

«تقول أمي إنه كان وسيمًا فعلًا، وهذا ما جعل منه شخصًا أحمق. وكلما ضايقتها أو ضغطت على أعصابها الآن تقول لي إنني مثل أبي. كانت تصرخ قائلة: «يا إلهي أنت مثل ويل ترينر تمامًا». كانت دائمًا تقول ويل ترينر، على أي حال، وليس «أباك». كانت مصممة على تشويه صورة أبي. يبدو أنها تعتقد أنها يمكن أن تكوّن أسرة من خلال الإصرار على أننا واحد».

أخذت نفسًا آخر، فشعرت بأنني مشوَّشة الذهن، لا سيما أنني لم أقرب الحشيش منذ سنوات، إلا في ليلة واحدة في حفل منزلي بباريس.

«أعتقد أنني سأستمتع أكثر من ذلك إذا لم يكن هناك احتمال صغير بأن أقع من على سلم الطوارئ هذا».

أخذت مني السيجارة، وسحبت نفَسًا عميقًا ومالت برأسها إلى الوراء، وقالت: «حسنًا، لويزا، أنتِ بحاجة إلى بعض المتعة.هل أخبرك عن شعوره؟ مشاعره الحقيقية؟»، ثم أخذت نفسًا آخر من السيجارة وأعادتها لي. يبدو أنها لم تتأثر بالمخدر بتاتًا.

«نعم».

«هل تشاحنتما؟».

«كثيرًا، ولكننا ضحكنا كثيرًا أيضًا».

«هل كان مولعًا بك؟».

«مولعًا بي؟... لا أدري إن كانت كلمة «مولع» مناسبة لسياق علاقتنا».

تحرك فمي بصمت حول الكلمات من دون أن أتمكن من العثور عليها. كيف يمكنني أن أشرح لهذه الفتاة طبيعة العلاقة بيني وويل، وما كنا نمثله لبعضنا بعضًا بطريقة شعرت بأن أي شخص في العالم لم يكن ليفهمها أبدًا؟ كيف يمكن أن تفهم أن فقدانه كان مثل اختراق ثقب من النار لجسمي، ذكرى مؤلمة، دائمة. أما غيابه فلم أتمكن من تعويضه أبدًا؟

راحت تحدّق في وجهي، وقلت: «بلى! لقد كان أبي مولعًا بك!»، بدأت تقهقه. وكأن قول شيء كهذا مثير للسخرية، وعلى الرغم من ذلك، ضحكت أنا أيضًا.

فغرتُ فاهها مندهشة: «كنت تثيرين غرائز أبي الجنسية. يا له من جنون؟يا إلهي! كان يمكن أن تصبحي زوجة أبي».

حدقنا في بعضنا بعضًا متصنّعتَين الرعب، وقد تضخمت هذه الحقيقة بيننا بطريقة أو أخرى، حتى أصبحت فقاعة من الفرح في صدري. بدأت الضحك، هذا النوع من الضحك الذي يتحول إلى هستيريا، ويجعل معدتك تصاب بالتعب، حيث مجرد النظر إلى أحدهم يعيد إطلاق نوبات متجددة من الضحك.

«هل مارستما الجنس؟».

وهنا ثبت إلى رشدي.

«حسنًا، لقد أصبحت هذه المحادثة غريبة الآن».

لوت ليلي وجهها، «علاقتكما كلها تبدو غريبة».

«لم تكن كذلك على الإطلاق. لقد... لقد..».

فجأة بدا لي الموقف أخطر مما أحتمل: جلوسنا على السطح،

والأسئلة، والمخدرات، وذكريات ويل. بدا لي أننا نستحضره في الهواء بيننا: ابتسامته، بشرته، ملمس وجهه على وجهي، ولم أكن متأكدةً من أنني أريد فعل ذلك. تركت رأسي يسقط بين ركبتيّ. قلت لنفسي، تنفّسي.

«لويزا؟».

«ماذا؟».

«هل كان يخطط دائما للذهاب إلى هذا المكان؟ ديجنيتاس؟».

أومأت. كررت الكلمة لنفسي، في محاولة لقمع شعوري المتزايد بالذعر. شهيق. زفير. فقط تنفسي.

«هل حاولت تغيير رأيه؟».

«كان ويل... عنيدًا».

«هل جادلته في تلك المسألة؟».

ابتلعت ريقي، «حتى اليوم الأخير».

اليوم الأخير. لماذا قلت ذلك؟ أغلقت عيني.

عندما فتحتهما أخيرًا، وجدتها تراقبني.

«هل كنت معه عندما مات؟».

أغلقنا عيوننا. فكرت بيني وبين نفسي؛ الشباب مرعبون، لا حدود لهم، إنهم لا يخشون شيئًا. أستطيع أن أرى السؤال التالي يتشكّل على شفتيها، والنظرة الباحثة في عينيها. ولكن ربما لم تكن بالشجاعة التي ظننتها.

وأخيرا نظرت إلى الأسفل، «إذن، متى ستخبرين والديه بحكايتي؟».

خفق قلبي، «هذا الأسبوع. سأتصل بهما هذا الأسبوع».

أومأت، ثم أشاحت بعيدًا بحيث لم أستطع أن أرى تعابير وجهها. شاهدتها تأخذ شَدَّة أخرى، وفجأة رمت السيجارة من بين قضبان درجات سلم الطوارئ، ثم وقفت وتسلقت إلى الداخل من دون نظرة واحدة للخلف. انتظرت حتى شعرت بأن ساقيَّ يمكن أن تدعماني مرة أخرى، ثم تبعتها إلى الداخل عبر النافذة.

الفصل التاسع

أجريت المكالمة المنتظرة يوم الثلاثاء في وقت الظهيرة، عقب انصراف مجموعة كبيرة من مرتادي الحانة من الجنسيتين الفرنسية والألمانية الذين غادروا تاركين الحانة خاوية تقريبًا. انتظرت حتى اختفى ريتشارد عن الأنظار متوجهًا إلى المكان المخصص لبيع الجملة، ووقفت في الردهة الكبيرة أمام آخر حمام للسيدات قبل موقع الأمن، وبحثت في هاتفي عن ذلك الرقم الذي لم أكن قادرة على حذفه مطلقًا.

رن الهاتف لثلاث أو أربع مرات ثم سيطرت عليّ تلك الرغبة في إنهاء المكالمة، ولكن حينها أجاب رجل على اتصالي وبدا صوته مألوفًا وهو يقول: «مرحبًا».

«السيد ترينر؟ أنا... أنا لو».

«لو؟».

«لويزا كلارك».

ساد الصمت للحظة كانت تخيلت خلالها سيل الذكريات الجارفة التي انهمرت عليه بمجرد سماعه اسمي، وانتابني شعور غريب بالذنب حياله. كانت آخر مرة رأيته فيها عند قبر ويل، رجل ناضج في منتصف العمر، يحاول ألّا يستسلم للحزن الذي يثقل كاهله.

«لويزا، حسنًا... يا إلهي... أنا... كيف حالك؟».

تحركت في مكاني مفسحة الطريق أمام فيوليت لتمر بعربة الترولي

التي تدفعها. ابتسمت لي وهي تعدل من وضع التربان[1] الأرجواني الذي ترتديه على رأسها بيدها الحرة. وقد لا حظت أن طلاء أظافرها مكتوب عليه بخط عريض Union Jacks.

«أنا بخير، شكرًا لك، وماذا عنك؟».

«أوه، كما تعلمين، أنا بخير أيضًا. لقد تغيَّرت الظروف منذ آخر لقاء لنا، ولكن كل الأمور... كما تعلمين..».

انتابتني حالة من الارتباك ريما بسبب شعوري بغياب الألفة بيننا لطول فترة انقطاعنا، فأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أقول: «سيد ترينر، إنني أتصل بك لأنني في حاجة إلى التحدث معك بشأن أمر ما».

ارتفعت نبرته قليلًا وهو يقول: «لقد اعتقدت أن مايكل لاولر قد أنهى جميع الأمور المادية».

أغلقت عيني: «إن الأمر لا يتعلق بالمال، سيد ترينر، لقد زارني شخص منذ فترة قصيرة وأعتقد أنه شخص يجب أن تقابله».

دهست إحدى السيدات قدمي بحقيبتها المتحركة، وتفوَّهت ببعض عبارات الاعتذار.

«حسنًا، أعتقد أنه ليس هناك أفضل من الإفصاح عن الأمر مباشرة. كانت لويل ابنة، وقد قامت بزيارتي، وهي تتوق للقائك».

ساد صمت طويل هذه المرة.

«سيد ترينر؟».

«المعذرة، هل يمكنك إعادة ما قلتِهِ؟»

«ويل لديه ابنة، لم يكن يعلم عن أمرها شيئًا، وأمها من صديقات ويل القدامى من أيام الجامعة، وكانت عزمت على عدم إخباره بشأن ابنته حينها. إن ويل لديه ابنة وقد بحثت عني حتى وجدتني، وهي ترغب في لقائك بشدة. هي في السادسة عشر من عمرها وتدعى ليلي».

---

(1) Turban: نوع من العمائم ترتديها النساء في بعض الدول الأفريقية.

«ليلي؟».
«أجل. وقد تحدثت إلى أمها ويدت لي صادقة. إنها سيدة تدعى ميلر، تانيا ميلر».
«أنا... لا أتذكرها، ولكن كان لويل عدد مهول من الصديقات».
سادت فترة صمت طويلة أخرى، وقطعها هذه المرة بصوت متهدج: «كانت لويل... ابنة؟».
«أجل، حفيدتك».
«وهل تعتقدين حقًا أنها ابنته؟».
«لقد التقيت بأمها وتحدثنا وسمعت منها قصتها، وأعتقد أنها صادقة، أجل».
«أوه، يا إلهي».
كان في مقدوري سماع صوت في الخلفية يقول: «ستيفن؟ ستيفن؟ هل أنت بخير؟».
ساد الصمت مجددًا.
«سيد ترينر؟».
«آسف، كل ما هنالك أنني..».
وضعت يدي فوق رأسي قائلة: «إنها صدمة كبيرة. أعلم، وآسفة لذلك، ولكنني لم أعرف كيف أسوق لك الخبر، فلم أرغب في القدوم إلى منزلك هكذا و..».
«كلا، كلا، لا تأسفي. إنها أخبار جيدة. أخبار رائعة، لديَّ حفيدة».
ردد الصوت في الخلفية مجددًا وبدا قلقًا: «ما الخطب؟ لماذا تجلس على هذا النحو؟».
شعرت بيد توضع على السماعة، «أنا بخير يا حبيبتي، أنا حقًا بخير، سوف أشرح لك كل شيء بعد دقيقة».
سمعت المزيد من التمتمات غير الواضحة، ثم عاد إليَّ ثانية وبدا صوته هذه المرة غير واثق: «لويزا؟».

«نعم؟».

«هل أنت واثقة من ذلك ثقة تامة؟ أعني أن الأمر..».

«أجل أنا واثقة تمامًا سيد ترينر، ويسعدني أن أخبرك بالأمر بمزيد من التفاصيل، هي لا تزال في السادسة عشر من العمر ومفعمة بالحيوية... وحريصة كل الحرص على التعرف إلى عائلتها التي لم تكن تعلم بوجودها من قبل».

«أوه يا إلهي... يا إلهي... لويزا؟».

«أنا ما زلت معك».

قلتها ولكن هذه المرة غلبتني دموعي على نحو غير معهود.

«كيف يمكنني أن أقابلها؟ كيف يمكنني أن أرتب للقاء بـ... ليلي؟».

في السبت التالي، توجَّهنا إليه مستقلين السيارة، شعرت ليلي بالخوف من الذهاب بمفردها، ولكنها لم تتحدَّث في ذلك كثيرًا. كل ما قالته لي إنه من الأفضل أن أشرح أنا كل شيء للسيد ترينر بنفسي متعلِّلة «بأن الكبار يمكنهم فهم بعضهم بعضًا بشكل أفضل».

ساد الصمت بيننا طوال الطريق، أما أنا فقد أصابني التوتر من مجرد فكرة دخولي منزل آل ترينر مرة أخرى، توتر لا يسعني تفسيره للصغيرة المسافرة إلى جواري. ولم تقل ليلي شيئًا.

هل صدَّقك؟

أخبرتها أنه صدَّقني بالفعل، ولكنني أتوقع منها أن تكون بالذكاء الكافي الذي يجعلها تخضع لاختبار دم لطمأنة الجميع.

هل طلب منك حقًا رؤيتي؟ أم أنتِ من اقترح عليه ذلك؟

لم يكن في مقدوري التذكر. لقد كان عقلي مشوشًا بسبب تحدثي إليه ثانية بعد كل هذه المدة.

ماذا لو لم أكن الشخص الذي يتوقعه؟

لم أكن واثقة من أنه يتوقع شيئًا بعينه، لقد اكتشف لتوّه فقط أن لديه حفيدة.

كانت ليلي قد حضرت إليَّ في مساء يوم الجمعة السابق لسفرنا، رغم أنني توقَّعت حضورها صباح السبت، موضِّحة أنها قد دخلت في شجار عنيف مع أمها ومع من وصفته بالأحمق فرانسيس، الذي أخبرها بأنها غير ناضجة بما يكفي، «انظري من يتحدَّث عن النضج، شخص يظن أنه من الطبيعي تخصيص غرفة كاملة لقطع قطار لعبة».

أخبرت ليلي أنها مرحَّب بها في منزلي، وأنها تستطيع أن تبقى مادام: أ- أن أمها تعرف مكانها. ب- أنها لا تعاقر الخمر وهي معي هنا. ج- أنها لا تدخن في شقتي. الأمر الذي قادها إلى الخروج إلى متجر سمير بينما كنت أنا في الحمام واستغرقت في الدردشة معه ما يكفي من الوقت لتدخين سيجارتين، وقد رأيت أنني باعتراضي على ذلك أيضًا سأبدو صعبة المراس وأضيّق الخناق عليها. ظلت تانيا هوتون ميلر تنتحب لمدة عشرين دقيقة متواصلة بشأن استحالة كل ما أقول، وأكدت لي بدل المرة أربع مرات أنني سأعيد ليلي إليهم قبل مرور ثمانٍ وأربعين ساعة فقط وأنني لن أطيقها، ثم أغلقت الهاتف مع انطلاق صراخ صغير في الخلفية. سمعت صوت ليلي تحدث بعض الجلبة داخل مطبخي الصغير، كما كان هناك صوت موسيقى مرتفع لم أفهمها تهتز معه قطع الأثاث الصغيرة القابعة في غرفة معيشتي.

قلت محدثة إياه في صمت حسنًا، ويل، سأفعل ذلك، فإذا كانت تلك هي طريقتك لدفعي لخوض حياة جديدة عليَّ كلية، فأنا لها.

في صباح اليوم التالي توجهت إلى الحجرة الإضافية لإيقاظ ليلي التي وجدتها مستيقظة بالفعل، عاقدة ذراعيها حول ركبتيها، وتدخن بالقرب من نافذتي. تكدست مجموعة من ملابسها حول الفراش في مشهد ينم عن أنها ربما كانت تجرب العشرات منها عليها، ووجدتها جميعًا غير مناسبة.

حدَّقت بي، كما لو كانت تطلب مني ألّا أعلّق على شيء. راودت

مخيلتي فجأة صورة ويل جالسًا على كرسيه المتحرك يرمقني بنظرة مشابهة لنظرتها، نظرة فيها غضب وألم، ووجدتني أذوب شوقًا له.

قلت لها: «سوف نتحرّك في غضون نصف ساعة».

وصلنا إلى ضواحي المدينة قبل الساعة الحادية عشرة. توافد السائحون بحلول فصل الصيف عبر شوارع ستورتفولد الضيقة، يسيرون في مجموعات، يمضغون أطعمة مختلفة الألوان، ممسكين في أيديهم الكتيبات الإرشادية بالمكان والحلوى المثلجة، عابرين من دون هدف أمام المقاهي والمحلات الموسمية التي توزع على المارة شارات دعائية وروزنامات مرسومًا عليها صورة القلعة، ستلقى مصيرها في النهاية داخل أحد الأدراج في المنزل من دون النظر إليها ثانية. قدت سيارتي إلى جوار القلعة أسير ببطء في صف السيارات الممتد عبر شارع ناشيونال تراست، وأنظر إلى المعاطف الخفيفة، والمعاطف المصنوعة من المشمع والقبعات التي لا تتغير وتبدو في حالها نفسه كل عام. وهذا العام هو الذكرى الخمسمائة على إنشاء القلعة، وقد انتشرت الملصقات الداعية لأمسيات متعلقة بهذا الحدث في كل مكان تقع أعيننا عليه: كما ازدحم المكان بالراقصين الشعبيين، وحفلات الشواء، والزينات، والألعاب النارية...

وصلت بسيارتي إلى الساحة الأمامية للمنزل، ممتنة لعدم عبوري بجانب المبنى الملحق به الذي كنت أمضي فيه أنا وويل معظم أوقاتنا معًا. جلسنا في السيارة بينما توقف محركها. وقد لاحظت أن ليلي قضمت معظم أظافرها.

«هل أنت بخير؟». هزت كتفيها من دون جواب.

«هل أنت مستعدة للدخول؟».

حدقت في قدميها ثم قالت: «ماذا لو لم يحبّني؟».

«ولماذا لن يحبك؟».

«لأن لا أحد يحبني».
«أنا واثقة من أن ذلك غير صحيح».
«ليس هناك من يحبني في المدرسة، ووالداي لا يطيقان صبرًا حتى يتخلصا مني»، ثم قضمت زاوية آخر ضفر في يدها بوحشية قبل أن تقول: «أي نوع من الأمهات تلك التي تسمح بوجود ابنتها في شقة قديمة متعفنة مع شخص لا تعرفه؟».
أخذت نفَسًا عميقًا ثم قلت لها: «إن السيد ترينر رجل لطيف، وما كنت لأحضرك إلى هنا لو علمت أن الأمور لن تسير على ما يرام».
«هل يمكننا المغادرة سريعًا إذا لم يحبني؟ هل يمكننا المغادرة بسرعة؟».
«بالطبع».
«سوف أعلم ذلك من الطريقة التي سينظر إليّ بها».
«إذا اقتضى الأمر سوف نهرب مسرعتَيْن على مزلاجي الجليد». ابتسمَت في توتر. فقلت لها محاولة إخفاء توتري الذي لا يقل عن توترها: «حسنًا، هيا بنا».

وقفت على الدرج ورحت أراقب ليلي حتى لا أفكر كثيرًا في المكان الذي أنا فيه الآن، وما عشته فيه من قبل. انفتح الباب ببطء. ها هو ذا يقف هناك، مرتديًا القميص الأزرق الفاتح نفسه الذي ما زلت أتذكره من صيفين مضيا، ولكن مع قصة شعر جديدة، أقل طولًا عن سابقتها، ربما في محاولة منه غير مجدية لمواجهة يد الزمن، وما تركته من علامات تقدم العمر والحزن الشديد. فغر فاهه كما لو ودّ قول شيء ما لي، ولكنه نسي ما أراد قوله، ثم توجه بنظره إلى ليلي واتسعت عيناه قليلًا وهو يقول: «ليلي؟».
فأومأت.

نظر إليها مدققًا، ولم يتحرك أحدهما قيد أنملة، وانطبق فمه واغرورقت عيناه بالدموع، ثم تقدم خطوة ليخطفها بين أحضانه: «أوه يا حبيبتي، يا إلهي، كم أنا سعيد للقائك، أوه يا إلهي».

مال برأسه الذي اشتعل شيبًا واستحال شعره رماديّ اللون على رأسها، وتساءلت في نفسي ما إذا كانت ليلي ستتراجع برأسها عنه، فأنا أعلم أنها لا تحب التواصل البدني، ولكنني رأيت يديها تنسلان وتلتفان حول خصره متشبثة بقميصه، وابيضت مفاصل أصابعها من فرط توترها وأغلقت عينيها وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه.

وقفا على هذا النحو مدة بدت لي دهرًا، الرجل العجوز وحفيدته، ولم يتحركا.

اعتدل بنفسه وكانت دموعه لا تزال تنهمر، ثم قال: «دعيني أراكِ، دعيني أنظر إليك».

حدَّقت فيه بحرَج وسعادة في الوقت ذاته.

«أجل، أجل، يمكنني رؤية الشبه بوضوح، انظري إلى نفسك! انظري إلى نفسك!»، ثم التفت بوجهه نحوي قائلًا: «إنها تشبهه، أليس كذلك؟».

أومأت له بالإيجاب.

كانت تحدِّق به هي الأخرى، ربما باحثة عن أي علامات ترى فيها والدها. وكانا لا يزالان ممسكين بأيدي بعضهما بعضًا.

حتى تلك اللحظة، لم أكن أدرك أنني أبكي. كانت تلك الراحة البالغة التي ارتسمت على وجه السيد ترينر، وبهجة عثوره على شيء ظن أنه فقده إلى الأبد وعاد إليه جزئيًا، وتلك السعادة المترقرقة غير المتوقعة التي غمرتهما لدى عثورهما على بعضهما بعضًا. وبمجرد أن بادلته ليلي الابتسام- بابتسامة عرفان عذبة متمهلة - تبدد توتري وكل شكوكي في ليلي هوتون ميلر.

على الرغم من مرور أقل من عامين على آخر مرة رأيت فيها منزل غرانتا هاوس، فإنه قد تغيَّر كثيرًا. فلم تعد الخزائن العتيقة تنتشر في أرجائه كسابق عهدها، واختفت صناديق الحلي الصغيرة الموضوعة فوق الطاولات المصنوعة من خشب الماهوجني والمصقولة بحرفية، وكذلك اختفت الستائر الثقيلة. وربما رجع هذا التغير في المنزل إلى ذوق سيدته الجديدة

ديلا لايتون. صحيح أنه لا يزال هناك القليل من قطع الأثاث القديمة، إلّا أن كل شيء في المنزل قد تلوَّن بألوان ساطعة مشرقة، وتم استبدال الستائر القاتمة الثقيلة بغيرها خفيفة لونها أصفر فاتح بلون الشمس، وكذلك كست الأرضيات الخشب سجاجيد صغيرة فاتحة اللون، وتزيَّنت الجدران بلوحات حديثة ذات أطر غير مصقولة. تقدَّمت ديلا نحونا ببطء، وارتسمت على وجهها ابتسامة حذرة، كما لو كانت أرغمت على اصطناعها. وجدت نفسي أتراجع إلى الخلف بعفوية مع قدومها: كان هناك شيء صادم بشأن تلك المرأة التي انتفخت للغاية بفعل حملها، كتلة جسدها الضخم، والمنحنى المبالغ فيه لبطنها بفعل الحمل.

«مرحبًا، لا بد أنك لويزا، سعدت بلقائك».

وقفت هناك وقد عقصت شعرها المصبوغ بالأحمر الناري إلى الأعلى، مرتدية قميصًا أزرقَ فاتحًا مخططًا ملتفًا حول خصرها المتورِّم قليلًا. ولم أمنع نفسي من ملاحظة خاتم الزواج الألماس الضخم اللامع في إصبعها، وراودني سؤال مزعج آلمني، كيف مضت الأشهر الأخيرة على السيدة ترينر.

قلت لها في إشارة إلى بطنها: «مبروك!»، كنت أود قول شيء آخر، ولكنني لم أكن أعرف ما إذا كان من الملائم أن أقول لسيدة ممتلئة بالحمل عن آخرها بأنها «ضخمة»، أو ربما «منتفخة»، أو أي من تلك العبارات التي يحاول الأشخاص استخدامها للتلطيف من عبارة مثل عبارة ما كل هذا بحق الجحيم.

«شكرًا لك، لقد كان حملي مفاجأة بالنسبة لنا، ولكنها مفاجأة سعيدة». أشاحت بنظرها عني، وكانت تراقب السيد ترينر وليلي. كان لا يزال ممسكًا بيدها بين يديه مربِّتًا عليها ليطمئنها، وهو يحكي لها عن المنزل وكيف توارثته الأجيال. سألت ديلا: «هل يرغب الجميع في تناول الشاي؟». ثم عاودت سؤالها ثانية «ستيفن؟ هل ترغب في الشاي؟».

«حبيبتي، شكرًا لك. ليلي هل تشربين الشاي؟».

ابتسمت ليلي قائلة: «هل يمكنني الحصول على عصير من فضلك؟ أو بعض المياه؟».

ردّت ديلا: «سوف أحضر لك بعضها». بدأ السيد ترينر في الإشارة إلى بعض الأجداد المرسومين في اللوحات المعلقة على الجدار، ممسكًا رسغ ليلي بيده، موضحًا لها التشابه بين أنفها وبين ذلك الأنف هنا، أو بين شعرها وبين ذلك الشعر هناك.

راقبتهما ديلا لدقيقة، فلمحت القنوط مرتسمًا على ملامحها. وما إن لاحظت أنني أراها حتى ابتسمت سريعًا وقد أحرجها عريْ مشاعرها أمامي على هذا النحو، قلتُ: «سيكون الشاي رائعًا، شكرًا لكِ».

أخذنا نتحرَّك حول بعضنا بعضًا في المطبخ لإعداد الشاي، نجلب اللبن، والسكر، وبراد الشاي، ونبحث عن البسكويت. وقد انحنيت حتى أتمكن من جلب الأكواب من خزانة المطبخ، إذ شعرتُ أن ديلا لا يمكنها طيٌّ جسدها، وقمت بوضعها على الصينية. وقد لاحظت أنها أكواب جديدة. كانت أكوابًا ذات طراز حديث وشكل هندسي، بدلًا من أكواب البورسلين القديمة وردية الشكل التي كانت تفضلها سيدة المنزل السابقة، التي كانت مطعّمة بكل أشكال الأعشاب والزهور بالأسماء اللاتينية. يبدو أن كل أثر للسيدة ترينر، التي استمرت ربة هذا المنزل لثمانية وثلاثين عامًا، قد تم محوه بحرصٍ وقسوة.

قلت معلِّقة: «يبدو المنزل لطيفًا... يبدو مختلفًا».

«أجل حسنًا، لقد خسر ستيفين الكثير من الأثاث بسبب الطلاق، ومن ثم كان علينا إجراء بعض التغييرات»، أمسكت بعربة الشاي ثم أردفتْ قائلة: «لقد خسر أشياء ظلت متوارثة لأجيال في عائلته، لقد أخذت معها بالطبع كل ما يمكنها الحصول عليه».

رمقتني بنظرة، بدت من خلالها أنها تقيّم ما إذا كنت حليفًا لها أم عدوًا.

قلت: «لم أتحدث إلى السيدة كاميلا منذ وفاة ويل». وكم شعرت بالخيانة بعد عبارتي تلك.

قالت بابتسامة ثابتة: «لقد ذكر ستيفن أن الفتاة حضرت إلى منزلك».

«أجل كانت مفاجأة كبرى، وقد تحدثتُ إلى والدتها وكانت... حسنًا، لقد كانت واحدة من المقرَّبات لويل للغاية لبعض الوقت».

وضعت ديلا يدها على أسفل ظهرها، ثم استدارت نحو الغلاية ثانية. أخبرتني أمي أن ديلا قد توجهت إلى بعض المحامين في المدينة المجاورة. وحينها قالت أمي بازدراء يجب أن يتساءل المرء بشأن سيدة بلغت الثلاثين من العمر من دون زواج، ثم، وعقب نظرة سريعة في اتجاهي تداركت ما قالت، بل بلغت الأربعين من العمر، أعني الأربعين.

«ما الذي تريده في اعتقادك؟».

«المعذرة؟».

«ما الذي تريده في اعتقادك؟ أقصد الفتاة».

كان في مقدوري سماع صوت ليلي في الردهة تطرح أسئلة ببراءة وعفوية الأطفال. وشعرت بتحفظ غريب وأنا أجيبها: «لا أعتقد أنها تريد أي شيء، لقد اكتشفت لتوها أن لديها أبًا لم تكن تعلم عنه شيئًا وترغب في التعرف إلى عائلته، أعني عائلتها».

قامت ديلا بوضع المقدار المناسب من أوراق الشاي في الإبريق (وقد لاحظت أنها أوراق الشاي كما يحبها السيد ترينر) وقامت بصب الماء المغلي بحرص حتى لا تحرق نفسها. ولم تنظر إليَّ وهي تقول: «لقد أحببت ستيفن منذ وقت طويل مضى، لقد... لقد عانى كثيرًا خلال العام المنصرم. وسوف تسوء الأمور كثيرًا إذا ما جاءت ليلي لتعقِّد حياته من جديد».

قلت بحرص: «لا أعتقد أن ليلي ترغب في تعقيد حياتكما، ولكنني أعتقد أن لديها الحق في التعرف إلى جدها».

قالت بنعومة سامحة لتلك الابتسامة المصطنعة بالارتسام على وجهها: «بالطبع». وأدركت في هذه اللحظة أنني قد أخفقت في اختبار ما يعتمل في نفسها، وأدركت كذلك أنني لا أبالي. حملت ديلا الصينية، وقبلت عرضي بالمساعدة في إحضار الكعك وإبريق الشاي إلى غرفة الرسم.

«وكيف حالك يا لويزا؟». سألني السيد ترينر معتدلًا في جلسته على مقعده المريح، مبتسمًا ابتسامة واسعة عبر ملامحه المترهّلة. وكان قد أمضى فترة تناول الشاي كلها في التحدث مع ليلي طارحًا عليها أسئلة حول أمها، والمكان الذي تعيش فيه، ودراستها (ولم تخبره ليلي عن المشاكل التي تواجهها في مدرستها) وسألها إذا كانت تفضل كعكة الفواكه أم الشكولا (الشكولا؟ وأنا أيضًا)، وهل تحب الزنجبيل (كلا)، والكركيت (ليس كثيرًا، - حسنًا ستتدبر هذا الأمر!) وقد بدا مطمئنًا لها، مطمئنًا لذلك الشبه بينها وبين ابنه. وأعتقد أنه قد وصل إلى مرحلة، لا يعبأ معها إذا ما أخبرته أن أمها تعمل راقصة برازيلية.

وقد لمحته يختلس النظر إلى ليلي ويراقبها وهي تتحدَّث متفحّصًا ملامحها، ربما راغبًا في رؤية ويل فيها. وتارة أخرى، كنت ألمح الحزن والشجن مرتسمَيْن على ملامحه.

أعتقد أنه كان يفكر فيما سيطر على تفكيري أنا الأخرى: فحزنه الجديد نابع من أن ابنه لن يعلم مطلقًا بوجود تلك الابنة الجميلة على قيد الحياة. ولكنه كان سرعان ما ينتشل نفسه من وهدة الأحزان، وينفض عنه تلك الأفكار، مرغمًا نفسه على الابتسام ابتسامة مطمئنة.

كان قد تمشَّى مع ليلي عبر الحديقة لمدة نصف ساعة، ليعود بعدها صائحًا في سعادة أن ليلي قد تمكنت من الخروج من المتاهة بنفسها، «فعلت ذلك من المرة الأولى لها هنا! لا بد أن الجينات تلعب دورها!»، وابتسمت ليلي ابتسامة فائز لتوِّه بجائزة.

«وكيف تسير حياتك يا لويزا؟».

«أنا بخير، شكرًا لك».

«هل ما زلت تعملين كجليسة للمرضى؟».

«كلا، لقد سافرت في عدة رحلات، وأنا الآن أعمل في أحد المطارات».

«أو يا إلهي، آمل أن يكون عملك على خطوط الطيران البريطانية، هل هو كذلك؟».

شعرت باحمرار وجنتي.

«هل تعملين في الإدارة؟».

«أعمل في واحدة من الحانات، في المطار».

تردد للحظة، وصمت لجزء من الثانية قبل أن يومئ بحزم.

«إن الناس تحتاج إلى الحانات كثيرًا، خاصة في المطارات، أنا دائمًا آخذ كأسين من الويسكي قبل الصعود على متن الطائرة، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

فأجابت ديلا: «أجل، أنت تفعل ذلك».

«كما أعتقد أن مراقبة الناس يطيرون في كل يوم أمر مثير للاهتمام، أمر مثير حقًا».

«لديَّ خطط أخرى في مخيلتي».

«بالطبع لديكِ، أنت تبلين حسنًا».

سادت لحظة صمت قصيرة. فسألت حتى أصرف انتباه الجميع عني: «متى يحين موعد ولادة الطفل؟».

أجابت ديلا وهي تضع يدها على بطنها المنتفخ: «الشهر المقبل، إنها فتاة».

«كم هذا رائع، وماذا ستسمونها؟».

تبادلا بينهما تلك النظرة التي يتبادلها أبوان كانا قد اختارا اسمًا لطفلهما، ولكن لا يرغبان في إطلاع أحد عليه.

«أوه... لم نستقر على اسم لها بعد».

«أشعر بغرابة كوني سأصبح أبًا من جديد، وأنا في مثل هذا العمر، لا أستطيع تخيل أمور من مثل تغيير الحفاضات وغيرها». ثم توجه نحو زوجته بنظرة مطمئنة، «إلا أنه أمر رائع حقًا، أنا رجل محظوظ، كلانا محظوظان في واقع الأمر أليس كذلك يا ديلا؟».

ابتسمت له ديلا.

فقلت «بالطبع»، ثم سألته: «وكيف حال جورجينا؟».

ربما لم يلحظ أحد سواي تغير تعبير وجه السيد ترينر البسيط وهو يقول: «إنها بخير، إنها في أستراليا الآن».

«صحيح».

«لقد أتت إلى هنا منذ بضعة أشهر... ولكنها أمضت معظم الوقت مع أمها. كانت مشغولة للغاية».

«بالطبع».

«أعتقد أنها ارتبطت بصديق الآن، لقد أخبرني أحدهم أنها قد ارتبطت، وهذا في الواقع أمر... لطيف».

وصلت ديلا بيدها لتلمس يده.

سألت ليلي وهي تأكل بسكويتًا: «من هي جورجينا؟».

أجاب السيد ترينر مستديرًا نحوها: «إنها شقيقة ويل الصغرى، إنها عمتك. أجل! في الواقع كانت تشبهك حين كانت في مثل عمرك».

«هل يمكنني رؤية صورة لها؟».

حك السيد ترينر صدغه وهو يقول: «سوف أعثر لك على واحدة، أحاول تذكر أين نحتفظ بصور التخرّج تلك».

قالت ديلا: «إنها في غرفة مكتبك». ثم أردفت: «ابقَ في مكانك حبيبي، سوف أذهب لإحضارها لك، فالحركة مفيدة لي». ثم نهضت عن الأريكة بثقلٍ متجهةً إلى خارج الغرفة، وقد أصرت ليلي على مرافقتها قائلة: «أود رؤيةَ باقي الصور لأتعرف إلى باقي العائلة ومَنْ كنت أشبههم».

راقبهما السيد ترينر وهما تذهبان، محافظًا على ابتسامته. جلست أنا وهو نحتسي الشاي في صمت قبل أن يقطعه سائلًا: «هل تحدثت معها بعد؟... أعني كاميلا؟».

«لا، لا أعلم أين تسكن الآن، كنت سأسألك عن عنوانها، إن ليلي ترغب في رؤيتها أيضًا».

«لقد مرت بفترةٍ عصيبة، على حد قول جورج، لم نتحدَّث كثيرًا. الأمر ازداد تعقيدًا بسبب..». ثم أومأ تجاه الباب مطلقًا تنهيدةً طويلة.

«هل ترغب في إخبارها بنفسك؟ هل ترغب في إخبارها بشأن ليلي؟».

«أوه، كلا، كلا، أنا لست واثقًا من رغبتها في أن..».، ثم مسح بيده فوق جبينه مردفًا، «من الأفضل أن تخبريها أنتِ بالأمر».

كتب لي العنوان ورقم هاتفها على ورقة ثم ناولني إياها: «إن العنوان بعيد عن هنا بعض الشيء»، وابتسم ابتسامة المعتذر عن الأمر، وهو يضيف: «لقد أرادت أن تبدأ حياة جديدة كما تعلمين. أبلغيها تحياتي وأرقّ تمنياتي لها... كم هو غريب أن أحظى بحفيدة أخيرًا في مثل هذه الظروف»، ثم أخفض صوته وهو يقول، «والمثير للسخرية حقًا، أن كاميلا هي الشخص الوحيد الذي يمكنه تفهم المشاعر التي أمر بها الآن».

لو كان شخصًا غيره يجلس أمامي ربما لكنت عانقته، ولكننا إنجليز، وكان رئيسي في العمل بشكل ما حين كنت أعتني بويل، لذا اكتفينا بالابتسام لبعضنا بعضًا ابتسامة ذات مغزى. وربما تمنينا لو كنا في مكان آخر.

اعتدل السيد ترينر في جلسته، وأكمل: «ولكنني ما زلت أرى أنني رجل محظوظ بعد أن حصلت على تلك البداية الجديدة، في مثل هذا العمر، وفي الواقع لست على يقين من أنني أستحقها حقًا».

«أنا على يقين من أنك تستحق السعادة».

«وماذا عنك؟ أعلم أنك كنت مغرمة بويل..».

«من الصعب أن أجد شخصًا مثله، كم صعبة الحياة من بعده..». أدركت أن هناك غصة في حلقي، وبدا صوتي متحشرجًا، وحين عاد صوتي كان السيد ترينر لا يزال ينظر إليّ.

«كان ابني يقدر الحياة ويحبها كثيرًا يا لويزا، لستِ في حاجة لأخبارك بذلك».

«ربما كان هذا الأمر الصعب، أليس كذلك؟».

انتظر صامتًا. ثم قال: «لم يكن بيننا من يدرك ذلك أفضل منه. سوف تجتازين الأمر، سوف نجتازه جميعًا». ثم لمس رسغي وكان حنونًا للغاية.

عادت ديلا مجددًا إلى الغرفة وبدأت في جمْع أكواب الشاي على نحو لا يُفهم منه إلّا أنه إشارة لنا بالانصراف.

وقفت متوجِّهة بحديثي إلى ليلي التي كانت تحمل ألبوم صور في يدها: «يتعيَّن علينا الذهاب الآن».

«إنها تشبهني أليس كذلك؟ هل تعتقد أن أعيننا متشابهة؟ هل تظن أنها سترغب في التحدث معي؟ هل لديها بريد إلكتروني؟».

قال السيد ترينر: «بالطبع ستودين ذلك يا ليلي، ولكن اسمحي لي أن أتحدث إليها أولًا بنفسي لأمهِّد لها الأمر، إن الخبر ليس بالهيِّن بالنسبة لنا، ويجب التمهيد له أولًا».

«حسنًا. متى يمكنني القدوم إلى هنا والبقاء؟»

سمعت صوت اضطراب الصينية في يد ديلا، وصوت كوب كاد أن يسقط من عليها، ورأيتها تتمايل حتى تعيده إلى مكانه على الصينية.

انحنى السيد ترينر إلى الأمام كما لو كان يتأكد مما سمعه: «البقاء؟».

«حسنًا، أنت جدي، واعتقدت أنك لن تمانع في بقائي معك لما تبقّى من الصيف، حتى نتعرف إلى بعضنا بعضًا، فلا يزال لدينا الكثير من الأمور لنتشاركها، أليس كذلك؟»، وظهر على وجهها الترقّب.

نظر السيد ترينر إلى ديلا التي جمدت تعبيرات وجهها بانتظار ما كان سيجيب به حفيدته.

أجابت ديلا حاملة الصينية أمامها: « كم سيكون من اللطيف وجودك بيننا هنا، ولكن لدينا أشياء ننتظر حدوثها في تلك الفترة».

«إنه طفل ديلا الأول، كما تعلمين، وأعتقد أنها ستود..».

«نحتاج فقط إلى بعض الوقت وحدنا أنا وستيفن والمولودة الجديدة».

قالت ليلي: «يمكنني مساعدتكما، لقد كنت أعتني بإخوتي طوال الوقت حين كانوا صغارًا، وكانوا بشعين حقًا. كانوا أطفالًا غير محتملين لا يكفون عن الصراخ طيلة الوقت».

نظر السيد ترينر إلى ديلا: «إني على ثقة من كونك رائعة يا ليلي يا عزيزتي، ولكن الوقت الآن ليس ملائمًا».

«ولكن لديكم عدد كبير من الغرف هنا، يمكنني البقاء في غرفة منها، يمكنني المكوث في غرفة الضيوف، ولن تشعرا بوجودي. ويمكنني مساعدتكما في أمر تغيير الحفاضات ومجالسة المولودة حتى تستطيعا الخروج معًا. يمكنني فقط أن..». ثم توقَّفت ليلي عن حديثها محدِّقة بهما، في انتظار رد فعلهما.

كنت في حالة عدم ارتياح، فقلت وأنا أتحرك نحو الباب: «ليلي.. هيا».

«أنتما لا ترغبان في وجودي هنا».

تقدم السيد ترينر خطوة إلى الأمام، كما لو كان يضع يده فوق كتفها: «حبيبتي ليلي، الأمر ليس..».

ابتعدت ليلي عنه قائلة: «إنك تحب فكرة وجود حفيدة لك، ولكنك لا تريدني حقًا في حياتك، إنك... إنك تريدني فقط كزائرة».

قالت ديلا بهدوء: «إنه التوقيت فقط يا ليلي، حسنًا، لقد انتظرت جدك ستيفن طويلًا حتى أتمكن من الزواج منه، وهذا الوقت ثمين للغاية مع قدوم أول مولود لنا».

«وأنا! لست ثمينة!!».

تحرك السيد ترينر تجاهها ثانية: «ليس كما تظنين».

أبعدته عنها وهي تقول: «أوه! يا إلهي، إنكم جميعا متشابهون. لا يعنيكم سوى أنفسكم وأسركم المثالية الصغيرة، ولا مكان لي بينكم».

قالت ديلا»: لا تكبّري الموضوع لا تصنعي دراما من..».

بصقت ليلي: «اغربوا عن وجهي». وبينما تراجعت ديلا إلى الخلف متفاجئة، واتسعت عينا السيد ترينر من الصدمة، ركضت ليلي، وتركتهما في حالة من الصمت المطبق.. وركضتُ خلفها.

الفصل العاشر

أرسلت رسالة إلى ناثان عبر البريد الإلكتروني وجاءني الرد كما يلي:

لو، هل بدأت في تناول عقار قوي جعلك تهلوسين؟

بعثت له برسالة أخرى تحمل مزيدًا من التفاصيل، وجاءني هذه المرة رد بأسلوبه المتزن المعهود.

حسنًا، إن ذلك الرفيق القديم لا يزال يحمل لنا المفاجآت في جعبته حتى بعد رحيله، أليس كذلك؟

لم أسمع عن ليلي حسًا ولا خبرًا لمدة يومين. كان جانب مني يشعر بالقلق عليها، وجانب آخر شعر بالارتياح لحصولي على الراحة لبعض الوقت. وفكرت في أن ليلي حين تتمكن من طرد قصص الأطفال وعالم الجنيَّات بشأن عائلة ويل من مخيلتها، وتتعامل مع الأمر بواقعية، ربما تصبح أكثر رغبة في مد الجسور بينها وبينهم. ثم تساءلتُ عما إذا كان السيد ترينر قد حاول الاتصال بها مباشرة لتهدئة الأمور. وتساءلت في نفسي عن المكان الذي تختفي فيه ليلي الآن، وهل لغيابها علاقة بالشاب الذي كان كان يقف ويراقبها عند باب منزلي من قبل. هناك شيء حيال ذلك الشاب، فقد تهرّبت من الإجابة حين سألتها عنه.

فكرت في سام، نادمة على هروبي السريع من . فقد أدركت أن الهروب منه على هذا النحو السريع كان تصرفًا غريبًا وانفعاليًا تغلبه العاطفة. لا

بد، وأنني قد بدوت نفس الشخص الذي طالما زعمت أنني لست هو. وعزمت على أنني حين أراه المرة المقبلة خارج مجموعة الدعم النفسي سوف أتصرف بهدوء، وربما ألقي عليه التحية مبتسمةً ابتسامةً غامضةً محيِّرة لشخص لا يعاني الاكتئاب.

واستمرت طاحونة العمل في الدوران، ووفدَت إلى المكان فتاة جديدة، ليتوانية تدعى فيرا، وأصبحت مسؤولة عن إتمام كل المهام المتعلقة بالحانة، وكانت ترسم على وجهها نصف ابتسامة غريبة كما لو كانت تفكر في أن هناك من زرع قنبلة مشعّة في الجوار. وكلما انتهى ريتشارد من الحديث معها، كنت أسمعها تنعت جنس الرجال بـ «الوحوش القذرة». وبدأ ريتشارد في تقديم جرعات من الأحاديث «التحفيزية» الصباحية لنا، والتي كان علينا عقبها أن نقفز في الهواء صائحين «مرحى!»، الأمر الذي كان يخلخل باروكة الشعر من فوق رأسي، فيتجهَّم ريتشارد عابثًا، كما لو كان تخلخلها إشارة على إخفاق ما في شخصيتي، وليس بسبب ارتداء شعر من النايلون لا يستقر فوق الدماغ. أما عن باروكة فيرا فكانت للغرابة ثابتة في مكانها، ربما كان خوفها هو ما يمنعها من السقوط.

وفي إحدى الليالي حين وصلت إلى منزلي قمت بإجراء بحث على الإنترنت عن مشاكل المراهقين، محاولة معرفة ما إذا كان هناك من سبيل لإصلاح ما فسد خلال عطلة نهاية الأسبوع. ولم يسفر البحث إلا عن معلومات عن الزيادات الهرمونية والانفعالات الناجمة عنها، ولكنه لم يدلّني على ما يجب عليَّ فعْله مع فتاة تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، قمت لتوِّي بتقديمها إلى عائلة والدها الراحل الذي لم تكن تعلم عنه شيئًا. استسلمت مع بلوغ الساعة العاشرة والنصف، محدِّقة حولي في غرفة النوم التي كانت لا تزال نصف ملابسي مكدسة في صناديق فيها، واعدة نفسي أن أفعل شيئًا حيالها هذا الأسبوع، وغرقت في النوم.

استيقظتُ في الثانية والنصف صباحًا على صوت أحدهم يحاول فتح

باب شقتي الأمامي بالقوة. هرولت من الفراش، وأمسكت عصا ممسحة في يدي. وقلبي يدق بعنف. وقلت صائحة: «سوف أتصل بالشرطة، ماذا تريد؟».

«أنا ليلي». وبمجرد أن فتحت الباب اندفعت ضاحكة، تفوح منها رائحة السجائر، وتلطّخ المسكارا ما حول عينها.

لففت روب نومي حول خصري، وأغلقت الباب خلفها: «ليلي، يا إلهي، إننا في منتصف الليل».

«هل ترغبين في الرقص؟ اعتقدت أن في مقدورنا الرقص معًا. أنا أحب الرقص. في الواقع، أنا أحب الرقص فعلًا، ولكن ليس ذلك سبب وجودي هنا. لم تسمح أمي لي بالدخول. لقد غيَّرت أقفال المنزل. هل تصدقين ذلك؟».

اعتقدت أن في مقدوري الإجابة عن سؤالها، ولكن حين ينطلق صوت منبهي في السادسة صباحًا وليس في ذلك الوقت.

ارتطمت ليلي بشدة في الحائط وهي تقول: «إنها حتى لم تفتح الباب اللعين، واكتفت بالصياح من خلفه كما لو كنت مجرد... متشرِّدة. لذا فكرت في المجيء إلى هنا. أو يمكننا الرقص معًا..». مرت من جانبي متجهة إلى جهاز تشغيل الموسيقى ورفعت الصوت إلى مستوى لا يحتمل، فهرعت إليها وأخفضت الصوت، ولكنها جذبت يدي بعيدًا، «هيا لنرقص يا لويزا! إنك في حاجة إلى بعض الحركات الراقصة! أنت حزينة طوال الوقت! هيا لننطلق! تعالي!».

حرَّرت يدي منها، وأخفضت الصوت سريعًا قبل أن تنطلق صيحات الغضب من الطوابق السفلية. وحين استدرت كانت ليلي قد اختفت من خلفي في الغرفة الإضافية، حيث تمايلت وسقطت في النهاية على الفراش القابل للطيّ.

«أوه يا إلهي إن هذا الفراش متسخ للغاية».

«ليلي لا يمكنك القدوم إلى هنا هكذا و... أوه، يا إلهي».

جاءتني إجابتها في تمتمة: «اتركيني لدقيقة، إنه مجرد توقف للاستراحة، ثم سأذهب إلى الرقص، سوف نذهب إلى الرقص معًا».

«ليلي، لديَّ عمل في الصباح».

«أحبك يا لويزا، هل أخبرتك بذلك؟ إنني أحبك حقًا لأنك الوحيدة التي..».

«لا يمكنك القدوم هكذا وبهذا الوضع».

«إنها... مجرد... غفوة رقص».

لم تتحرك. ولم تردّ. لمست كتفها في محاولة لتنبيهها: «ليلي... ليلي؟».

وجدتها قد غطَّت في النوم.

تنهّدت، وانتظرت بضع دقائق قبل أن أخلع حذاءها العالي بحرص، وأفرغ ما في جيوبها (سجائر، هاتف محمول، وورقة بخمسة جنيهات مجعّدة) أخذتها جميعها إلى غرفتي. قمت بتعديل وضعها على الفراش لتستقر على جانبها، في النهاية كانت الساعة الثالثة صباحًا وأنا مستيقظة وطار النوم من عيني بلا رجعة من خوفي عليها من الاختناق، فجلست على كرسيٍّ إلى جوارها أراقبها.

كان وجه ليلي مستقرًا هادئًا في سلام، فقد تحوَّل الوجه الغاضب ذو الابتسامة المتحمِّسة المهووسة إلى وجه ملائكي جميل، وتناثر شعرها حول كتفيها بنعومة. وعلى الرغم من كل ما أقدمَت عليه من تصرفات مجنونة، لم أستطع الشعور بالغضب تجاهها. وتذكرت ملامحها يوم الأحد وما اعتراها من شعور بالخذلان والألم. لقد كانت ليلي النقيض المباشر لي، إنها لا تستطيع تطبيب أوجاعها أو احتواءها، بل انطلقت جامحة لتثمل، ووحده الله يعلم ما يختلج في صدرها وتحاول نسيانه. لقد كانت تشبه أباها أكثر مما تصورت.

ماذا كنت ستفعل حيال ذلك يا ويل؟ سألته في صمت.

ولكنني مثلما عانيت مرّ العناء من أجل مساعدته، لا أدري حتى الآن هل في مستطاعي مساعدة ابنته، لا أدري ما الذي يمكنني فعله من أجلها، وما الذي يسعني القيام به لتحسين الأمور بالنسبة لها.

تذكرت كلمات شقيقتي: لن تستطيعي التعامل مع الأمر، وأنتِ تعلمين ذلك. وكم كرهت في قرارة نفسي للحظات أنها ربما تكون محِقّة.

اتفقنا على أوقات يمكن لليلي أن تزورني فيها كل بضعة أيام. وفي واقع الأمر، لم أكن على يقين أيّ ليلي كنت سأجد على باب منزلي في كل مرة: هل هي ليلي المهووسة المتحمسة المبتهجة، التي تطلب مني الخروج لتناول الطعام في أحد المطاعم، وتبدي إعجابها بالقطة رائعة الجمال الواقفة بالأسفل، التي ترقص في غرفة المعيشة على أنغام فرقة موسيقية جديدة اكتشفتها لتوِّها، أم ليلي المهزومة العابسة، التي تحيِّيني بإيماءة صامتة وهي في طريقها للتمدد على الأريكة لمشاهدة التليفزيون. كانت في بعض الأحيان تطرح أسئلة عشوائية عن ويل - عن برامجه المفضلة؟ (كان نادرًا ما يشاهد التليفزيون، كان يفضل مشاهدة الأفلام) هل كان يفضل فاكهة محددة؟ (العنب الأحمر من دون بذور) متى كانت المرة الأخيرة التي رأيته يضحك فيها؟ (لم يكن يضحك كثيرًا، بل كان يبتسم... لا يزال في مقدوري رؤية ابتسامته النادرة الواسعة التي تكشف عن أسنانه البيضاء، وتجعل عيناه تتغضنان) ولم أكن واثقة مما إذا كانت إجاباتي شافية بالنسبة لها أم لا.

وبعدها، وبعد عشرة أيام أو أكثر، كانت تزورني ليلي الثملة، أو ربما شخص أكثر سوءًا منها (لست واثقة من ذلك). وكانت تطرق على باب الشقة في ساعات متأخرة من الليل متجاهلة اعتراضي على توقيت قدومها وعدم قدرتي على العودة للنوم. تتعثّر في مشيتها وخدّها ملطخ بالمسكارا وحذاء من أحذيتها مفقود من قدمها لتلقي بنفسها فوق الفراش، رافضة الاستيقاظ حين أغادر للعمل في الصباح.

بدا لي أن ليلي بلا هواية تمارسها، وليس لديها الكثير من الأصدقاء. كانت تتحدَّث مع أي شخص في الشارع، وتطلب منه خدمات بعدم اكتراث. ولكنها لم تكن ترد على هاتفها في المنزل، وتتوقَّع أن كل من قابلتهم لم يحبوها.

وحين أقفلت مدرستها الداخلية مع قدوم فصل الصيف، سألتها أين كانت تبيت حين لم تكن معي ولا في منزل والدتها، فأجابت باقتضاب بعد صمت وجيز: «في منزل مارتن». وحين سألتها إذا كان مارتن صديقها الحميم، ظهر وجهها شديد المراهقة الذي يجيب بكل غضب عن أكثر سؤال غبي يمكن أن يطرحه شخص بالغ.

تارة كان الغضب يتملكها، وتارة أخرى كانت تتصرَّف بوقاحة. ولكن لم يكن في مستطاعي صدَّها أو رفضها مطلقًا. وعلى الرغم من سلوكها الفوضوي، كنت أشعر أن شقتي هي الجنة الآمنة لها. وجدت نفسي أفتش خلفها: محاولة البحث عن رسائل في هاتفها (الهاتف مغلق برقم سري)، أفتش في جيوبها عن مخدرات (لم أجد شيئًا بخلاف سيجارة واحدة) وذات مرة بعد أن جاءتني باكية وثملة، نظرت إلى الأسفل لأجد سيارة ظلت تطلق بوقها لقرابة ثلاثة أرباع الساعة بشكل متقطِّع بعد صعودها، حتى نزل أحد الجيران وصفع الباب بقوة لينطلق سائقها بعيدًا.

قلت لها ذات صباح بينما كنت أعدّ كوبين من القهوة لنا: «أنا لا أحكم عليكِ يا ليلي، ولكنني لا أعتقد أن حالة السكر التي تدخلين فيها لدرجة أنك لا تدركين ما تفعلين هي فكرة جيدة». تمضي معي ليلي الآن الكثير من الوقت لدرجة أنني قمت بتعديل نمط حياتي: فأصبحت أتسوَّق لشخصين لا لشخص واحد، وأرتِّب فوضى لم أحدثها،وأعدّ المشروبات الساخنة مرتين، وأتذكر أن أوصد باب الحمام خلفي لأتجنب دخولها عليَّ وسماع صيحة يا إلهي لم أقصد!

«ولكنك تحكمين عليَّ وتعتبرين أن تصرفاتي ليست جيدة».

«نعم، وأنا جادة في ذلك».

«وهل أخبرك كيف تعيشين حياتك؟ هل أخبرك أن هذه الشقة مثيرة للاكتئاب، وأن أسلوبك في الملبس أسلوب شخص فقد الرغبة في الحياة، بعيدًا عن ساقك المثيرة العرجاء؟ هل أملي عليك أي شيء؟ هل أفعل؟ هل أفعل؟ كلا، لا أقول لك أي شيء من هذا القبيل. فاتركيني لحالي إذن؟».

أردت أن أخبرها عن ذلك الوقت، أردت أن أخبرها عما حدث لي منذ تسع سنوات مضت، في ليلة أسرفت فيها في الشراب، وكيف أحضرتني شقيقتي إلى المنزل وأنا حافية القدمين، أبكي في صمت في ساعات النهار المبكرة. ولكنها من دون شك كانت ستقابل ذلك برد فعلها الطفولي المعتاد الوقح، كما تعاملتُ مع معظم تعليقاتي، كما أن حديثًا كهذا لم أكن لأبوح به إلا لشخص واحد، شخص فارق دنيانا. «ولكن ليس من العدل كذلك أن توقظيني في منتصف الليل، فلديَّ عمل ينبغي الاستيقاظ من أجله مبكرًا».

«إذن أعطني نسخة عن المفتاح وبذلك لن أضطر إلى إيقاظك، اتفقنا؟».

ووجَّهت إليّ تلك الابتسامة المنتصرة، ابتسامة نادرة ومبهرة تشبه ابتسامة ويل بما يكفي لأجد نفسي أستسلم وأمنحها المفتاح، وإن كنت أعلم ما ستقوله لي شقيقتي حيال تصرفي هذا.

تحدثت إلى السيد ترينر مرتين خلال هذه الفترة، وكان قلقًا بشأن ليلي، ويتوق لسماع أخبار جيدة عنها، كما كان قلقًا بشأن مستقبلها، «إنها فتاة ذكية للغاية، خسارة كبيرة أن تترك مدرستها وهي في السادسة عشر؟ أليس لوالديها رأي في ذلك؟».

«أعتقد أنهما لا يتحدَّثان معها كثيرًا».

«هل ينبغي أن أتحدَّث معهما في ذلك الشأن؟ هل تعتقدين أنها بحاجة إلى تمويل أو دعم مادي للالتحاق بالجامعة؟ صحيح أن الأمور المادية

قد تغيَّرت منذ الطلاق، ولكن ويل ترك لي مبلغًا لا بأس به، وأعتقد أنه من المناسب استغلال هذا المبلغ لدراستها الجامعية». ثم أخفض صوته وهو يردف: «وأظن أنه من الحكمة عدم إخبار ديلا بهذه القصة الآن، حتى لا تسيء فهم الأمور».

قاومت رغبتي في سؤاله كيف يمكنها أن تحسن فهم الأمور، ولكنني آثرت الصمت.

«لويزا، هل تعتقدين أن بمقدورك إقناع ليلي بالعودة؟ لا أكفّ عن التفكير فيها، أود أن نحاول مرة أخرى. وأعلم أن ديلا ستحب التعرف إليها أكثر».

تذكَّرت تعبيرات وجه ديلا بينما كنت أنا وهي في المطبخ. وتساءلت في نفسي هل السيد ترينر يتعامى بإرادته أم أنه مجرد شخص متفائل أكثر من اللازم.

«أعدك أنني سأحاول».

يسود شقتك نوع خاص من الصمت حين تكون في مدينة بمفردك، خاصة في يوم عطلة نهاية أسبوع من أيام فصل الصيف. أنهيت نوبة عملي مبكرًا عند الساعة الرابعة ظهرًا ووصلت إلى شقتي في الخامسة، منهكة، وأشعر في قراره نفسي بسعادة لكوني سأنفرد بنفسي فيها لعدة ساعات مقبلة. أخذت حمامًا، وتناولت بعض الخبز المحمَّص، وأخذت أبحث عن وظيفة على الإنترنت، سواءً كانت براتب أعلى من الحد الأدنى للأجور أم عقد غير مقيد بساعات عمل محددة. ثم جلستُ في غرفة المعيشة وفتحت جميع النوافذ لأسمح للهواء بالدخول، وأستمع إلى أصوات المدينة في الخارج تتبدد في الهواء الدافئ.

شعرت في معظم الوقت، بالرضا عن حياتي. فقد خضعت الآن لما يكفي من عدد جلسات الدعم النفسي الجماعي لأتعلَّم الامتنان لأبسط الأشياء والمتع في حياتي. فها أنا أتمتع بصحتي الآن، كما أنني استعدت

عائلتي ثانية، علاوة على أن لديَّ عملًا. حتى إن لم أصل إلى التصالح مع حقيقة موت ويل، فإنني على الأقل بدأت أشعر بقدرة ما على التسلل خارج ظله.

ولكن على الرغم من ذلك...

في مساء كهذا، حين تعج الشوارع في الأسفل بالعشاق الذين يتهادَون في السير جنبًا إلى جنب، وبالأشخاص الخارجين من الحانات ضاحكين، وقد خططوا بالفعل للوجبات التي سيتناولونها، والنزهات، والجولات في النوادي، كان هناك جزء في داخلي يؤلمني، شيء ما فطريّ يخبرني أنني في المكان الخاطئ، أو أنني أفتقد شيئًا ما.

في تلك اللحظات كنت أشعر أنني تُركت وحيدة.

قمت بترتيب المكان قليلًا، وغسلت زي العمل خاصتي، حين انطلق جرس الباب بقوة. وقفت لأرفع سماعة التليفون الداخلي بضجر، متوقعة أحد موصلي طلبات البيتزا أخطأ العنوان، ولكنني بدلًا من ذلك سمعت صوت رجل.

«لويزا؟».

«من هناك؟»، سألته على الرغم من تعرفي على الصوت بمجرد سماعه.

«أنا سام، رجل الإسعاف. كنت في طريق عودتي من العمل ومررت بمنزلك... وأردت فقط... لقد رحلتِ سريعًا المرة السابقة وأردت التأكد من أنك بخير».

«جئت تطمئن عليَّ بعد مرور أسبوعين؟ كان يمكن للقطط أن تأكلني طيلة هذه المدة؟».

«أعتقد أنها لم تفعل».

«ليست لدي قطة»، وبعد فترة صمت قصيرة قلت: «أنا بخير يا سيد سام المسعف».

«عظيم، يسعدني سماع ذلك».

تحركت في مكاني حتى أتمكن من رؤيته عبر شاشة الفيديو الصغيرة ذات اللونَيْن الأبيض والأسود، فوجدته يرتدي سترة جلد سوداء وليس زي العمل. ورأيته يرفع يده التي كان يسندها على الجدار، ويستدير لمواجهة الطريق. بدا أنه يهمُّ بالخروج، مما دفعني إلى التحدث: «ما الجديد الذي تفعله في حياتك إذن؟».

«ليس الكثير، أحاول وأخفق في التحدث إلى شخص عبر الهاتف الداخلي لمنزله».

جاءت ضحكتي سريعة عالية، وقلت: «لقد يئست من تلك المحاولات منذ وقت طويل، إن شراء مشروب لهنّ أمر صعب للغاية حقًّا».

رأيته يضحك، ونظرت حولي في أرجاء شقتي الخاوية الصامتة وقلت له قبل أن أسمح لنفسي بالتفكير: «انتظر، سوف أنزل حالًا».

كنت سأتوجّه لجلب سيارتي، ولكنني حين رأيت في يده خوذة واقية إضافية، شعرت أن الإصرار على ركوب سيارتي سيكون أمرًا سخيفًا. وضعت مفاتيح سيارتي في جيبي وانتظرته حتى يقلّني.

«أنت مسعف، وتقود دراجة بخارية».

ابتسم ابتسامة ثعلبية ماكرة جعلت شيئًا ما في داخلي يترنح على حين غرة: «أعلم ولكن من بين كل آثامي، هذه الدراجة هي الوحيدة التي لم أتركها، ألن تشعري بالأمان معي؟».

لم تكن لديَّ إجابة مناسبة عن هذا السؤال، ولكنني نظرت في عينيه بثبات وأنا أركب الدراجة خلفه. وفي كل حال إذا ما أقدم على أي شيء متهوّر فلديه المهارة الكافية لإصلاحي وجمع شتاتي ثانية بعدها.

سألته: «ماذا عليَّ أن أفعل إذن؟ فأنا لم أركب واحدة من تلك الدراجات النارية من قبل؟».

«تمسكي بالمقبضين على المقعد، واتركي جسدك يسترخي، وإذا لم تشعري بارتياح نبّهيني بيدك على كتفي فأتوقّف».

«إلى أين سنذهب؟».
«هل تفهمين في أمور الديكور الداخلي؟».
«على الإطلاق، لماذا؟».
انطلق بالمحرك وهو يقول: «أردتُ أن أريكِ منزلي الجديد».

ثم انطلقنا بين السيارات في حركات متموّجة بينها وبين عربات اللوري، نتبع الإشارات الخاصة بالدراجات النارية. وأغمضتُ عيني، ضاغطة بنفسي على ظهره آملة ألّا يسمع صوت نحيبي.

ذهبنا إلى أطراف المدينة، حيث ترتفع أطوال الحدائق أعلى من المعتاد، وانتقلنا إلى حقول، حيث تحمل المنازل أسماءً بدلًا من الأرقام. ثم وصلنا إلى قرية غير منفصلة تمامًا عن سابقتها، وأبطأ سام دراجته عند بوابة أحد الحقول، ثم أوقف المحرك في النهاية مشيرًا لي بالنزول. خلعت الخوذة وكنت لا أزال أسمع دقات قلبي المتلاحقة، وحاولت رفع خصلات شعري المبتل عن وجهي، ولكن أصابع يدي المتيبِّسة بفعل الإمساك بالمقبض لم تساعدني على ذلك. فتح سام البوابة وأرشدني إلى الداخل. كانت المساحة عبارة عن حقل نصفه مرج وفي نصفه الآخر توزعت كتل خرسانية عشوائية وقوالب بناء متفرقة. وفي زاوية أعمال البناء التي تغطيها أشجار عالية، وقفت عربة قطار سكة حديد، وإلى جانبها عش دجاج خشبي وبداخله وقفت مجموعة متنوعة من الطيور تنظر نحونا.

«هذا منزلي». فنظرت حولي وقلت: «لطيف! ولكن أين هو؟».

مشى سام باتجاه الحقل وقال: «هناك، تلك هي الأساسات، لقد استغرق مني بناؤها ثلاثة أشهر كاملة».

«أتعيش هنا؟».

«أجل».

حدَّقت في الألواح الخرسانية. ولكن شيئًا ما في تعبيرات وجهه جعلني أتراجع عما كنت سأقول، قمت بحك رأسي وأنا أقول: «حسنًا هل سنقف هناك طوال المساء؟ أم أنك ستأخذني في جولة سياحية هنا؟».

تمشينا ببطء مستمتعَيْن بدفء شمس الغروب، وبروائح المرج واللافندر، وصوت طنين النحل، متنقلين من لوح خرساني إلى الآخر، وسام يشرح ويشير إلى الأماكن التي ستكون فيها النوافذ والأبواب، «هذا هو الحمام».

«إنه مكشوف قليلًا».

«أجل، أحتاج إلى القيام بشيء حيال ذلك، انتبهي هذا ليس ممر الباب، لقد توجهت الآن إلى الدش».

تخطى كومة من قوالب البناء منتقلا إلى لوح خرساني كبير آخر، مادًا يده لي حتى يمكنني العبور بسلام: «ها هي غرفة المعيشة، وإذا نظرت عبر النافذة هناك»، راسمًا بيده مربعًا في الهواء، «سوف تطلّين على مشهد ريفي مفتوح».

نظرت إلى المنظر الطبيعي المبهر في الأسفل، فشعرت كما لو كنا بعيدَيْن عن المدينة بملايين الأميال وليس مجرد عشرة أميال فقط. أخذت نفَسًا عميقًا، مستمتعة بما لم أتوقعه حقًا، «هذا لطيف، ولكنني أعتقد أن أريكتك في المكان الخاطئ، أنت بحاجة إلى أريكتين واحدة هنا والثانية هناك. وأعتقد أنه ستكون لديك نافذة هنا، أليس كذلك؟».

«أوه، أجل سوف أفتح نافذتين».

«إمم، علاوة على أنك في حاجة إلى إعادة التفكير كليًا في مكان التخزين».

الشيء المجنون حقًا هو أنني كان في مقدوري عقب دقائق قليلة من سيرنا وتحدثنا، رؤية المنزل كما لو كان موجودًا بالفعل. تخيَّلت الخطوط التي كان يرسمها سام في الهواء بيده لمدفأة غير مرئية، وسلالم من صنع مخيلته، كما رسم خطوطًا عبر سقف المنزل غير المرئي، فكنت أرى نوافذه العالية، وعواميد الدرابزين التي سينحتها صديق له من خشب البلوط.

قلت له حين تخيَّلنا اللمسات الداخلية الأخيرة: «سوف يكون هذا جميلًا».

«قد يستغرق الانتهاء منه نحو عشر سنوات، ولكنني أعيش على ذلك الأمل».

نظرت حولي إلى الرقعة الخضراء المزروعة بالخضراوات، وعش الدجاج الخشبي، وأصوات الطيور، ثم قلت له: «عليَّ أن أخبرك أنني لم أتوقَّع ذلك، ألا تفكر في الاستعانة بعمال بناء لإنهاء العمل بالمنزل؟».

«ربما ألجأ إلى ذلك في النهاية، ولكنني أحب العمل عليه بنفسي، إن بناء منزلك بيدك أمر مفيد للروح، خاصة إذا كنت تمضين يومك في تضميد جراح راكبي دراجات خانتهم ثقتهم المفرطة في أنفسهم، أو علاج زوجات اتخذ منهن أزواجهن كيسًا للتدرب على الملاكمة...»، وبعد ابتسامة أضاف: «أو سيدات معتوهات يسقطن من أعلى سطح بناية».

« إنني أقوم بذلك حتى أتمكن من التعايش مع كل هذا، ألا ترغبين في بعض البيرة؟»، ثم أومأ تجاه خلاط الخرسانة وكومة من قوالب البناء، وتوجّه إلى عربة قطار السكة الحديد، مشيرًا إليّ للانضمام له.

لم تعد في الواقع عربة سكة حديد من الداخل. فقد وضع بداخلها مطبخًا صغيرًا مناسبًا للغاية، ومقعدًا على شكل حرف L في الزاوية، على الرغم من أن المكان لا يزال يحمل عبق القطارات ورائحة المسافرين، فإنه بدا مختلفًا. قال كما لو كان يفسر لي الأمر: «لا أحب المنازل المتنقلة». ثم أشار لي بالجلوس «تفضلي». وجذب زجاجة بيرة باردة من الثلاجة. فتحها وناولني إيَّاها.، ثم وضع براد الشاي لنفسه على الموقد.

«ألا تشرب؟».

هز رأسه نافيًا: «لقد وجدت بعد عامين من العمل أنني أذهب إلى البيت وأتناول كأسًا لأسترخي، وبعدها تحولت الكأس إلى كأسين فثلاث، وبعدها وجدت نفسي غير قادر على الاسترخاء إلا بعد تناول هاتين الكأسين أو الثلاثة كؤوس»، فتح علبة لحفظ الشاي ووضع ملعقة منها في كوبه قبل أن يردف، «ثم فقدت شخصًا عزيزًا عليَّ، فقررت إما أن أتوقف عن الشرب حينها أو لن أتوقف إلى الأبد». لم يكن ينظر إليَّ حين كان

يقول ذلك بل كان يتحرك داخل عربة القطار، بحجمه الضخم، والمبهج في الوقت ذاته بين جدرانها الضيقة، «أحتسي البيرة من حين لآخر، ولكن ليس الليلة، فسوف أقوم بتوصيلك إلى المنزل في وقت لاحق».

خفَّفت تلك الدردشة من حدّة شعوري بالتوتر جراء الجلوس مع شخص بالكاد أعرفه في عربةِ قطار سكة حديد مهجورة. على أي حال، كيف يمكنك الحفاظ على تحفُّظك مع شخص سلَّمت له جسدك المكسور نصف العاري؟ وكيف تشعر بالقلق من رجل قد أخبرك بالفعل أن من بين خططه لليوم إعادتك إلى منزلك؟ بدا وكأن طبيعة لقائنا الأول الذي لم نرتّب له قد أزالت تلك العوائق النفسية عند التعرف إلى شخص ما. لقد رأى سام ملابسي الداخلية، يا إلهي بل لقد رأى ما هو تحت جلدي، لذا شعرت مع سام براحة ربما لم أشعر بها بصحبة شخص آخر.

ذكَّرتني عربة القطار تلك بعربات قوافل الغجر التي كنت أقرأ عنها في طفولتي، حيث كان لكل شيء مكانه المحدد، يسودها النظام. كان مناخها عائليًا لطيفًا، ولكنه تقشفيًا، وذكوري على نحو لا تخطئه عين. وسادت داخلها رائحة الخشب الدافئ بفعل أشعة الشمس، وكذلك رائحة الصابون واللحم المقدَّد. أعتقد أنها بداية جديدة، وتساءلت في نفسي عما حدث لمنزله ومنزل جاك القديم، «إذن... إمم... ما رأي جاك في المنزل؟».

جلس على الطرف الآخر من المقعد وفي يده كوب الشاي قائلًا: «لقد ظن في البداية أنني مجنون، أما الآن فالأمر يروق له كثيرًا، ويقوم بالاعتناء بالحيوانات حين أكون في نوبة عملي. وقد وعدته أن أعلمه القيادة حول الحقل هنا حين يبلغ السابعة عشر»، ثم رفع كوبه في نخب مردفًا:

«فليساعدني الله». فرفعت زجاجة البيرة له في المقابل.

وربما كان ما انتابني حينها هو تلك المتعة غير المتوقعة التي استشعرتها جراء الخروج في ظهيرة يوم جمعة دافئ مع رجل ينظر في عينيَّ بينما يحدثني، رجل يمتلك شعرًا من النوع الذي تنتابك رغبة في تمرير أصابعك

بينه، أو ربما كان ذلك بتأثير زجاجة البيرة الثانية، ولكنني في النهاية بدأت بالاستمتاع بالأمر. وحين أصبح الجو خانقًا داخل العربة خرجنا في الهواء وجلسنا على كرسيين من النوع القابل للطي، ورحت أراقب الدجاج وهو ينقر حولنا في العشب، وشعرت براحة لم أعهدها، بينما كان سام يحكي حكاياته مع المرضى السمان ممتلئي القوام، الذين احتاجوا إلى أربعة فرق طبية لنقلهم خارج منازلهم، وأفراد العصابة الذين حاولوا الهجوم على بعضهم بعضًا ثانية حتى بعد ربطهم في سيارة الإسعاف. وبينما كنا نتحدث وجدتني أختلس نظرات إليه، إلى طريقة مسكه للكوب، إلى ابتساماته غير المتوقعة، التي كانت تتسبب في ظهور ثلاثة خطوط مثالية مرسومة إلى جانب كل عين من عينيه.

حدثني عن والديه: والده رجل إطفاء متقاعد، ووالدته كانت مغنية في أحد الملاهي الليلية، وقد تخلت عن عملها من أجل أبنائها. (أعتقد أن هذا هو سبب إعجابي بملبسك ذلك اليوم، فالملابس اللامعة تروق لي) لم يذكر اسم زوجته الراحلة حين تحدث عنها، ولكنه أشار إلى أن والدته شعرت بالقلق بشأن افتقار حياة جاك ابنه إلى اللمسات الأنثوية، «لقد جاءت أمي إليه في شهر ما، وأخذته معها إلى كارديف حتى تتمكن هي وشقيقاتها من الاعتناء به وإطعامه وتغذيته والتأكد من وجود عدد كاف من الجوارب النظيفة»، ووضع رسغه على ركبتيه ثم أردف: «تذمّر كثيرا بشأن الذهاب معها ولكن أعتقد أن ذلك كان يروق له سرًا».

أما أنا فحكيت له عن عودة ليلي، وقد انزعج من قصة لقائها بالسيد ترينر. أخبرته عن مزاجها الغريب المتقلب، وسلوكها الشاذ. أومأ من دون تعليق كما لو كانت تلك التصرفات متوقعة. وحين حكيت له عن والدة ليلي حرك رأسه في أسف: « كونهما والدين ثريان لا يعني أنهما صالحان. فهذه الأم تحتاج إلى مساعدة من الأخصائيين الاجتماعيين»، ثم رفع كوبه نحوي قائلًا: «كم هو رائع ما تفعلينه مع تلك الفتاة يا لويزا كلارك».

«لستُ على يقين من أنني أؤدي دوري معها بشكلٍ جيد في الواقع».

رد: «ليس هناك من يشعر أنه يؤدي دوره بشكل جيد عندما يتعلّق الأمر بالمراهقين، فتلك سمة هذه المرحلة العمرية».

كان من الصعب عليَّ التصالح مع فكرة أن سام هذا، الجالس أمامي، البسيط للغاية في منزله، المعتني بدجاجاته، هو نفس الشخص الباكي اللاهث وراء النساء الذي سمعت عنه في جلسات مجموعة الدعم النفسي. ولكنني كنت أدرك تمامًا أن في مقدور الشخص أن يظهِر للعالم الجانب الذي يريده من شخصيته حتى ولو اختلف عما في داخله. وأعلم أن الحزن قد يجعلك تتصرف على نحو ربما لا يمكنك استيعابه. قلت له: «أحب عربة قطار سكة الحديد خاصتك، كما أحب منزلك الخفي».

«أتمنى أن تأتي مرة أخرى إذن».

هوَسه بالنساء وولعه بهن. إذا كانت تلك هي طريقته في الإيقاع بالنساء في شركه، فيا له من بارع حقًا. لا شك في أنه يتمتع بمزيج من القدرات الخاصة: الوالد الحزين المهذَّب، ذو الابتسامات الساحرة، القادر على الإمساك بالدجاجة بيد واحدة في حين تبدو الدجاجة سعيدة تمامًا في قبضته. ظللت أفكر، بأنني لن أسمح بأن أصبح واحدة من صديقاته الحميمات المختلات نفسيًا، على الرغم من شعوري بمتعة خفية في أن أكون محل إعجاب رجل وسيم مثله. فكم هو لطيف أن أختبر مشاعر أخرى غير القلق والغضب المكتوم التي باتت تصاحبني طيلة يومي. خاصة أن علاقاتي مع الجنس الآخر في الشهور الأخيرة باتت غارقة في الكحوليات، وكانت تنتهي في سيارة أجرة تنهمر فيها دموعي، وشعور بكراهية نفسي بينما أستحم.

ماذا تظن يا ويل؟ هل هذا جيد؟

ازداد المكان ظلمة، وراقبنا الدجاجات وهي تدخل ساخطة إلى قنّها.

راقبها سام معتدلًا على مقعده، ثم قال: «لديَّ شعور يا لويزا أنكِ حين تتحدثين معي، فهناك محادثة أخرى مختلفة تدور في مكان آخر».

كم رغبت في التوصل إلى ردٍّ ذكي على عبارته تلك، ولكنه كان محقًا فيما قال، ولم يسعني قول شيء.

«أنتِ وأنا، كلانا يدور حول شيء ما».

«أنتَ مباشر للغاية».

«أعتقد أنني جعلتكِ تشعرين بعدم الارتياح الآن بسبب مباشرتي تلك».

نظرت نحوه، «كلا... حسنًا، ربما قليلًا».

حلَّق سرب من الغربان خلفنا محدثًا جلبة في السماء، بأجنحته التي تحركت في الهواء الساكن محدثة ذبذبات. قاومت رغبتي في لمس شعري، وبدلًا من ذلك ارتشفت آخر رشفة من بيرتي قائلة: «حسنًا، دعني أطرح عليك سؤالًا حقيقيًا، ما الفترة التي تعتقد أنك تحتاجها لتجاوز حزنك على وفاة شخص ما؟ أعني شخصًا أحببته حبًا حقيقيًا».

لا أدري كيف طرحت سؤالًا كهذا عليه، لقد كان سؤالا فجًا قاسيًا بالنسبة لشخص في ظروفه. ربما كنت أخشى من أن يؤثر عليَّ هوسه بالنساء ويلعب دوره معي.

اتسعت عينا سام قليلًا، «أوه، حسنًا». حدَّق في كوبه، ثم رنا بنظره صوب ظلال الحقول، «لست واثقًا من قدرة المرء على ذلك مطلقًا».

«هذا مثير للاكتئاب».

«كلا، ليس حقًا. لقد فكَّرت في ذلك كثيرًا. إنك تتكيفين مع الأمر، وتتعلَّمين أن تعيشي معهم؛ فهم لا يفارقونك حتى إن لم يكونوا على قيد الحياة. إنه شعور يختلف عن ذلك الحزن القاسي الذي ينتابك في بداية الأمر، الحزن الذي يعصف بك ويصيبك برغبة في البكاء وأنت في المكان غير المناسب للبكاء، ويدفعك إلى التصرف بعصبية وغضب مع كل هؤلاء الحمقى الذين لا يزالون على قيد الحياة، في حين أن من أحببت قد رحل. إنه مجرد شيء تتعلمين الاعتياد عليه. مثل التكيف مع فجوة تزداد بداخلك. لا أدري... وكأنك تصبحين مفرغة من الداخل مثل كعكة الدونَتس بعد أن كنت كعكة كاملة».

كسا وجهه الحزن، فانتابني شعور بالذنب وأنا أقول: «حلوى الدونَتس».

قال بنصف ابتسامة: «أعلم أنه تشبيه أحمق».

«لم أعن أنه..».

هز رأسه، ونظر إلى العشب بين قدميه ثم نظر إليَّ وقال: «هيا، دعيني أقلُّك إلى المنزل».

تجاوزنا الحقل وصولًا إلى دراجته النارية، وشعرت ببرودة الهواء على ذراعيَّ وصدري، وما إن لاحظ ذلك حتى ناولني معطفه، وأصر على أن أرتديه رغم تأكيدي له أنني بخير. كان معطفًا ثقيلًا وذكوريًا. وحاولت ألّا أفكر في الأمر.

«هل تقل كل مرضاك على هذا النحوى على درّاجتك؟».

«الباقين على قيد الحياة منهم فقط».

ضحكت، وجاء صوت ضحكتي أعلى مما توقعت.

ناولني الخوذة الإضافية قائلًا: «إننا لا نطلب من مرضانا الخروج في مواعيد غرامية، ولكنني أظن أنك لم تعودي مريضتي بعد».

أخذت الخوذة منه قائلة: «هذا لم يكن موعدًا غراميًا».

«أحقًا ذلك؟»، ثم أومأ تجاهي إيماءة صغيرة تحمل معاني كثيرة بينما صعد على الدراجة قائلًا: «حسنًا».

الفصل الحادي عشر

في ذلك الأسبوع حين وصلت إلى مجموعة الدعم النفسي لم يكن جاك حاضرًا. وبينما كانت دافني تناقش عدم قدرتها على فتح البرطمانات في ظل عدم وجود رجل في حياتها، ويتحدَّث سونيل عن مشاكله في تقسيم متعلقات أخيه القليلة بين أشقائه المتبقين، وجدت عيني شاخصة على الباب الأحمر الثقيل في نهاية ساحة الكنيسة منتظرة إياه أن ينفتح معلنًا قدوم جاك. أقنعت نفسي أنني أنتظر جاك لأنه في حاجة إلى التفريج عن نفسه والتحدث مثلنا عن عدم ارتياحه لسلوك والده، وأن الأمر لا يتعلَّق بسام ورغبتي في رؤيته واقفًا مستندًا إلى دراجته النارية.

«ما الأشياء الصغيرة التي تعثّر خطواتك يا لويزا؟».

فكرت في أن جاك ربما أنهى جلساته مع المجموعة، وربما قرر أنه لم يعد في حاجة إلى حضور هذه الجلسات بعد الآن، لا سيما أن الجميع أشاروا إلى أن البعض يتخلفون عن الحضور، ولعل هذا هو سبب غيابه اليوم إذن. لن أرى أيًا منهما ثانية.

«لويزا؟ الأشياء اليومية؟ لا بد أن هناك شيئًا ما يعثّر خطواتك؟».

ظللت مستغرقة في التفكير في الحقل، في عربة القطار وتنظيمها الدقيق، وفي سام الذي جاب الحقل ودجاجة تحت ذراعه، كما لو كان يحمل شيئًا ثمينًا. والريش شديد النعومة الذي كان يغطي صدرها.

دفعتني دافني لتنبيهي.

قال مارك: «كنا نتناقش في الأمور اليومية الصغيرة التي تدفعك إلى التفكير في ما تفتقدين؟».

قالت ناتاشا: «إنني أفتقد ممارسة الجنس».

رد ويليام: «ولكن ذلك ليس بالأمر الصغير».

أطلقت ناتاشا ضحكة عالية: «ولكنك لم تعرف زوجي، ليس حقًا، يا لها من مزحة سيئة، آسفة... لا أدري ما حل بي».

قال مارك مشجِّعًا إياها: «لا بأس من المزاح بهذا الشأن».

«لقد كان أولاف موهوبًا، موهوبًا للغاية في واقع الأمر». ثم رفعت يدها وأومأت بأسف قائلة: «لقد كنا سعداء للغاية».

سادت فترة صمت قصيرة. قطعها مارك بقوله: «حسنًا، من الجيد سماع ذلك».

«لا أرغب في أن يفكر أي شخص... أعني ليس ذلك ما أريد أن يظنه الناس حين يفكرون في زوجي، وفي صغر حجم..».

«ليس هناك من يفكر في زوجك على هذا النحو بكل تأكيد».

قال ويليام: «ولكنني سوف أفعل إذا ما استمرّيتِ في الحديث عنه هكذا».

قالت ناتاشا: «لا أريدك أن تفكر في حجم عضو زوجي الذكري، أنا في الواقع، أمنعك من التفكير في عضو زوجي الذكري».

ردّ ويليام: «توقفي عن الحديث بشأنه إذن!»

قالت دافني: «هل يمكننا التوقف عن التحدث بشأن الأعضاء الذكرية؟ فهذا يجعلني أشعر بالغرابة، لقد كانت الراهبات توبخنا وتذكّرنا بالتعليمات لمجرد ذكر «الجزء السفلي» من الجسد».

بدا صوت مارك محملًا بالإحباط وهو يقول: «هل يمكننا تغيير موضوع... أعني هل يمكننا العودة إلى موضوعنا عن الخسارة. لويزا، كنت على وشك إخبارنا عن الأشياء الصغيرة التي تشعركِ بالخسارة؟».

جلست هناك، محاولة تجاهل ناتاشا التي رفعت يدها ثانية كما لو كانت تقيس طولًا ما غير مرئي في صمت.

قلت بحرص: «أظن أنني أفتقد وجود شخص أناقش معه الأمور».

سمعتهم يتمتمون موافقين.

«أعني، أنني لست من الأشخاص الذين يملكون دائرة معارف وصداقات كبيرة. لقد استمرّيت مع آخر صديق لي لسنوات... ولم نتوافق كثيرًا... ثم ظهر بيل. واعتدت أنا وهو على التحدُّث في كل شيء، الموسيقى، والناس، والأشياء التي فعلناها، والتي نرغب في فعلها. ولم أقلق حينها أبدًا من قول شيء قد يكون خاطئًا أو مسيئًا. لقد «تقبَّلني» كما أنا، أتدرون ما أعني؟ وها أنا الآن وقد انتقلت إلى لندن بمفردي، بعيدة عن عائلتي، الذين صار الحديث معهم دائمًا... شائكًا».

قال سونيل: «يا له من وصف».

«والآن هناك الكثير من الأمور التي تجري، والتي أود أن أتحدَّث معه بشأنها، وأن أسمع رأيه، ولكن ذلك لم يعد متاحًا. أنا أفتقد من أقول له «ما رأيك في ذلك؟» وأتلقى منه إجابة، أيًا كانت. سواء كان محقًا فيها أم لا».

صمتت المجموعة لدقيقة.

قال مارك: «يمكنك التحدث إلينا يا لويزا».

«إن الأمر... معقَّد».

قال ليان: «إن الأمور دائمًا تكون معقَّدة».

نظرتُ إلى وجوههم جميعًا وبدت طيبة ومترقّبة، وبدا أنهم غير مدركين لما أقول على الإطلاق. لا يفهمون حقًا ماذا أعني.

قالت دافني وهي تعدّل من وضعية وشاحها الحريري: «ما تحاول لويزا قوله إنها في حاجة إلى شاب للتحدث معه. بالقطع هي في حاجة إلى ذلك. إنك صغيرة وجميلة، سوف تجدين رجلًا آخر». ثم أردفت: «وأنت كذلك يا ناتاشا، عليك الخروج إلى الدنيا. أنا فات الأوان بالنسبة لي، أما

أنتما فليس عليكما الجلوس في هذه الساحة الكئيبة العتيقة، آسفة يا مارك، ولكن لا يجدر بهما ذلك. عليهما الخروج للرقص والضحك».

تبادلت أنا وناتاشا النظر، وكان من الواضح أنها ترغب في الخروج للرقص مثلي تمامًا.

وتذكرت رجل الإسعاف سام فجأة، ثم طردت الفكرة من رأسي.

قال ويليام: «وإذا ما أردت عضوًا ذكريًا جديدًا، يمكنني أن أرتب لك..».

«حسنًا، لنتحدث الآن عن الوصايا، هل تفاجأ أحدكم بواحدة منها؟».

عدت إلى منزلي منهَكة في التاسعة والربع، لأجد ليلي متمدِّدة على الأريكة أمام التليفزيون مرتدية بيجامتها. ألقيت بحقيبتي:

«منذ متى وأنتِ هنا؟».

«منذ موعد الإفطار».

«هل أنت بخير؟».

«إمممم».

كان وجهها شاحبًا كما لو أنها مريضة أو تعاني من إرهاق شديد.

«هل أنت بخير؟».

كانت تتناول الفشار. نظرت بتكاسل إلى الفتات في قاع الطبق وقالت: «أشعر أنني لا أرغب في القيام بأي شيء اليوم».

رن هاتفها، فنظرت بلا اهتمام في الرسالة الواردة، ثم دفعت بالهاتف تحت وسادة على الأريكة.

سألتها بعد دقيقة: «هل حقًا كل شيء بخير؟».

«أنا بخير».

ولكنها لم تبدُ بخير.

«هل هناك ما يمكنني تقديمه لك؟».

«قلت لك إنني بخير».

لم تكن تنظر إليَّ وهي تحدثني.

أمضت ليلي تلك الليلة في الشقة. وفي اليوم التالي، وبينما كنت أهم بالمغادرة إلى العمل اتصل السيد ترينر، وطلب مني التحدث إليها. كانت ليلي ممدَّدة على الأريكة، ورمقتني بنظرة خالية من التعبير حين أخبرتها مَن الذي يتكلم بالهاتف. أخيرًا أخذت مني السماعة بتردد. وقفت أنظر إليها بينما هي تصغي إليه. لم أكن أستطيع تمييز كلماته ولا فهْم ما يقوله لها، ولكن كنت أسمع نبرة صوته، وكانت حنونًا وهادئة ومطمئنة. وحين انتهى من كلامه، صمتت ليلي للحظات ثم قالت:

«حسنًا، لا بأس».

سألتها وهي تعيد إليَّ الهاتف: «هل ستقابلينه ثانية؟».

«هو يرغب بالقدوم إلى لندن لرؤيتي».

«هذا تصرّف لطيف».

«ولكنه في الوقت ذاته لا يستطيع أن يكون بعيدًا عنها، لأنها قد تضع مولودهما في أي وقت».

«هل ترغبين أن آخذك إلى هناك ثانية لرؤيته؟».

«كلا».

وضعتْ ركبتيها أسفل ذقنها، ثم أمسكت ريموت التليفزيون وأخذت تقلِّب بين القنوات. فسألتها بعد دقيقة:

«هل ترغبين في التحدث حول الأمر؟».

وحين لم ألقَ منها جوابًا بعد دقيقة أو دقيقتين، أدركت أن المحادثة قد انتهت.

يوم الخميس، دخلت إلى غرفة نومي وأغلقت الباب خلفي واتصلت بشقيقتي. كنا نتحدَّث عدة مرات في خلال الأسبوع؛ فلم يعد بعدي عن

والديَّ، وطبيعة علاقتي بهما تؤثِّران على حديثنا كالسابق، فأضحت المحادثات بيننا أكثر سهولة.

«هل تعتقدين أن هذا طبيعي؟».

«لقد أخبرني أبي أنني توقَّفت ذات مرة عن الحديث معه لمدة أسبوعين كاملين حين كنت في السادسة عشر. لم يكن بيننا سوى المشاحنات، وعلى الرغم من ذلك كنت سعيدة للغاية».

«ولكنها لا تدخل في مشاحنات. تبدو بائسة وحسب».

«كل المراهقين هكذا، هذا جزء من تركيبتهم. إن المراهقات المبتهجات مدعاة للقلق، لأنهن ربما يخفين اضطرابًا كبيرًا في عاداتهن الغذائية، أو ربما يسرقن مساحيق التجميل من المتاجر».

«لقد أمضت الأيام الثلاثة الأخيرة ممددة على الأريكة».

«وإلامَ يشير ذلك في اعتقادك؟».

«أظن أن هناك خطبًا ما».

«إنها فتاة في السادسة عشر من العمر، لم تكن تعرف أن لديها أبًا حقيقيًا، وحين توصلت إلى تلك الحقيقة كان قد رحل عن الدنيا. تزوجت أمها من رجل تطلق عليه صاحب الوجه الغبي، لديها شقيقان يبدو أنهما غاية في الإزعاج والوحشية مثل التوأمين المجرمين ريجي وروني كاري، وأمها قامت بتغيير أقفال المنزل حتى لا تسمح لها بالدخول. لو كنت مكانها، ربما لبقيت على الأريكة لعام كامل». أخذت ترينا رشفة من كوب الشاي قبل أن تضيف قائلة:

«هذا علاوة على أنها تعيش مع شخص يرتدي زيًا أخضر لامعًا مصنوعًا من ألياف الرنة ويذهب إلى الحانة ويُطلق على ذلك عملًا».

«إنه مصنوع من قماش اللوريكس اللامع، وليست ألياف».

«أيًا ما يكون. متى ستبحثين لنفسك عن وظيفة مناسبة؟».

«قريبًا، أنا بحاجة فقط إلى ترتيب أموري وتجاوز الوضع».

«أي وضع؟».

«إنها محبَطة للغاية. وأنا حزينة من أجلها».

«أتدرين ما الذي يصيبني بالإحباط؟ أنكِ دائمًا تقطعين وعودك البراقة بأن تعيشي الحياة التي تستحقينها وتحلمين بها، ثم تضحّين بنفسك من أجل كل متشرِّد وضالّ يقابلك في طريقك».

«ولكن ويل لم يكن متشردًا أو ضالًا».

«ولكن ليلي كذلك. إنك لا تعرفين تلك الفتاة جيدًا. عليك التركيز على المضيّ قدمًا في حياتك. إرسال سيرتك الذاتية إلى شركات مختلفة، التحدث مع معارفك، التعرف على نقاط قوتك، وليس البحث عن عذر جديد لإيقاف سير حياتك».

حدَّقت في سماء المدينة بالخارج. وكان بمقدوري سماع صوت التليفزيون في الغرفة المجاورة ينخفض، وصوت ليلي تنهض ذاهبة إلى الثلاجة، ثم صوتها وهي تعود أدراجها:

«ما الذي كنت ستفعلينه لو كنت مكاني، ترينا؟ ماذا كنت ستفعلين لو ظهرت ابنة الرجل الذي أحببته عند باب شقتك، ووجدت أن الجميع قد تخلوا عن مسؤولياتهم تجاهها. أكنت ستتخلين عنها أنتِ الأخرى؟».

صمتت شقيقتي دون هجوم عليَّ، وكان ذلك حدثًا نادرًا، فشعرت بضرورة استمراري في الكلام: «لنفترض أن توم بعد ثماني سنوات ابتعد عنك لأي سبب، لنفترض أنه أراد الاستقلال بنفسه، وانحرف عن جادة الصواب، هل كنت ستقبلين أن يتخلى عنه الشخص الوحيد الذي لجأ إليه طلبًا للمساعدة لمجرد أنه يشعر بألم شديد في مؤخرته من الجلوس إلى جواره، هل كنت ستقبلين؟». نظرت إليها وأسندت رأسي إلى الحائط: «إنني فقط أحاول القيام بالشيء الصحيح هنا يا ترينا. فقط أمهليني الوقت، اتفقنا؟».

لم ألقَ منها جوابًا.

«إن هذا يجعلني أشعر بأنني أفضل حالًا، حسنًا؟ إن مساعدتي لها تجعلني أشعر بأنني أفضل حالًا».

طالت فترة صمت شقيقتي لدرجة ظننت أنها قد أنهت الاتصال، «ترينا؟».

«حسنًا، أتذكَّر أنني قرأت شيئًا في الصحة النفسية يشير إلى أن المراهقين يجدون صعوبة في التواصل المباشر وجهًا لوجه».

«هل تريدينني أن أتحدث إليها من خلف باب؟». سوف أقوم يومًا ما بمهاتفة شقيقتي من دون أن أضطر إلى الاستفسار عن شيء على هذا النحو من البلاهة.

«كلا يا حمقاء، ما أعنيه، أنك إذا أردتها أن تتحدث إليك، عليكما أن تقوما معًا بشيء ما جنبًا إلى جنب».

في طريق عودتي إلى المنزل مساء يوم الجمعة توقفت عند متجر دي إي واي. ولدى عودتي إلى بنايتي، حملتِ حقائب المشتريات صاعدة الطوابق الأربعة، ثم دلفت إلى الشقة، لأجد ليلي في المكان الذي توقَّعت أن أجدها فيه تمامًا ممددة على الأريكة أمام التليفزيون.

سألتني: «ما هذا؟».

«إنه طلاء، تبدو تلك الشقة بالية قليلًا. دائمًا تخبرينني أنني في حاجة إلى تغيير اللون، ففكرت أنه يمكننا التخلص من هذا اللون الماغنولي القديم الممل».

لم تقاوم فضولها، أما أنا فقد تظاهرت بانشغالي في صنع مشروب لي، وأنا أراقبها بطرف عيني تتمدد ثم تنهض من على الأريكة لفحص علب الألوان.

«ولكن هذا اللون ليس أقل مللًا من سابقه، إنه لون رمادي شاحب».

«لقد أخبروني أن اللون الرمادي هو الموضة الآن، سوف أعيده للمتجر إذا كنت تعتقدين أنه غير مناسب»، حدَّقت فيه ثم قالت: «كلا، لا بأس به».

«أعتقد أنه يمكننا تلوين الغرفة الإضافية جدارين باللون الكريمي،

وجدار بالرمادي، هل تعتقدين أن ذلك مناسب؟». ثم شغلت نفسي بفك لفافات فراشي الطلاء بينما أتحدَّث. وغيَّرت ملابسي فارتديت قميصًا قديمًا وسروالًا قصيرًا وطلبت منها أن تشغِّل الموسيقى.

«أي نوع من الموسيقى؟».

«سأترك الاختيار لك». ثم جذبت كرسيًّا ووضعت الملاءات الواقية من غبار الطلاء ثم أردفت: «لقد قال لي والدك إنني غير مثقفة موسيقيًا».

لم تعلِّق بأي شيء، ولكنني تمكَّنت من جذب انتباهها. فتحت علبة من علب الطلاء وبدأت في مزج الألوان قائلة: «لقد اصطحبني والدك إلى أول حفل موسيقي أحضره في حياتي، كان حفلًا كلاسيكيًا، وليس موسيقى شعبية. وقد وافقت فقط لأن ذلك كان يعني أنه سيغادر المنزل الذي لم يكن يبرحه. كان والدك لا يحب الخروج كثيرًا في أيامي الأولى معه. لبس قميصه وسترته وكانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها هكذا وكان يشبه..». تذكرت ذلك الشعور الذي اعتراني حين رأيته يطل في سترته تلك، وكأنني رأيت الرجل الذي كان عليه قبل الحادث، «على أي حال، لقد ذهبت مهيأة نفسي للشعور بالملل من الحفل، ولكنني لم أتمالك نفسي من البكاء في نصفها الثاني، وبدوت ساذجة تمامًا. لقد كان شيئًا من أروع ما سمعته في حياتي على الإطلاق».

سادت فترة صمت قصيرة.

«ماذا كانت؟ ما الموسيقى التي استمعت إليها؟».

«لا أتذكر كثيرًا، أعتقد أنها موسيقى سيبيليوس. هل اسمها كذلك؟ ».

هزت كتفها في إشارة إلى عدم معرفتها، وبدأت أنا في الطلاء. بعد قليل جاءت إلى جانبي، ثم أمسكت بفرشاة. لم تقل شيئًا في البداية، ولكن كان واضحًا أنها تعمل من دون انزعاج. كما أنها كانت حريصة أيضًا، وتقوم بتعديل وضعية الملاءة حتى لا تلطِّخ الأرضية بالطلاء، وتمسح فرشاتها على حافة الوعاء. كان يسود نوع من الصمت تخرقه بعض الطلبات التقليدية هلاَّ ناولتني الفرشاة الصغيرة؟ هل تعتقدين أن هذا اللون سيظل على درجته تلك بعد دهنه مرة ثانية؟

بعد أن أنهينا دهان الجدار الأول، قلت معجبة بما أنجزناه:

«ما رأيكِ؟ هل ننتقل إلى جدار آخر؟».

حرَّكت ليلي الملاءة وبدأت العمل في طلاء الجدار التالي. ثم شغَّلت موسيقى لفرقة لم أسمع بها من قبل، وكانت موسيقى خفيفة الظل ولطيفة للغاية. عدت إلى العمل متجاهلة الألم الذي أشعر به في كتفي.

«عليك شراء بعض اللوحات».

«أنت محقّة».

«إن لديّ لوحة كبيرة لكاندينسكي في المنزل، هي لا تتناسب مع غرفتي، يمكنني إحضارها لك إذا أردت».

«سيكون هذا رائعًا».

كانت تعمل بسرعة أكبر الآن عبر الحائط، تدهن بعناية حول النافذة الضخمة.

قلت: «كنت أفكر في التحدث إلى والدة ويل، جدتك، فهل توافقين على أن أتصل بها؟».

لم تقل شيئًا. انحنت نحو الأسفل، وكان من الواضح استغراقها في طلاء حافة الجدار، ثم وقفت: «وهل هي مثله؟».

«مثل من؟».

«السيد ترينر؟ هل هي مثل السيد ترينر؟».

نزلت عن الصندوق الذي كنت أقف عليه، ومسحت فرشاتي في حافة السطل، وقلت: «إنها... مختلفة».

«هل تلك طريقتك لتخبريني أنها بغيضة؟».

«إنها ليست بغيضة. ولكن الأمر قد تطلَّب وقتًا أطول لفهمها».

«إذن تخبريني أنها بغيضة وأنها لن تحبني».

«أنا لم أقل ذلك على الإطلاق يا ليلي. ولكنها ليست من الأشخاص الذين يبوحون بمشاعرهم بسهولة».

تنهَّدت ليلي واضعة فرشاة طلائها جانبًا: «أنا الشخص الوحيد في العالم الذي اكتشف أن له جدين لم يكن يعرف عن أمرهما شيئًا، ليكتشف بعد ذلك أن أيًّا منهما لم يحبه».

نظرنا إلى بعضنا بعضًا ودخلنا في نوبة ضحك على حين غرَّة.

وضعت الغطاء على سطل الطلاء وقلت: «هيا، لنخرج معًا».

«إلى أين؟».

«أنت ستختارين، إنني أرغب في الاستمتاع، لتخبريني أنت بالمكان المناسب».

جذبت عددًا من بلوزاتي المختلفة من صناديق التخزين حتى حدَّدت ليلي أيها مقبول ومناسب للخروج معها، وسمحت لها باصطحابي إلى نادٍ ليليّ صغير في الشارع الخلفي بالقرب من ويست إند، حيث كان الحراس والعاملون في المكان يعرفون ليلي بالاسم، وبدا أن لا أحد بينهم فكر لدقيقة في أنها ربما تكون أقل من ثمانية عشر عامًا. قالت بابتهاج: «إنها موسيقى الثمانينات، موسيقى الجيل القديم!»، وحاولت ألّا أفكر كثيرًا في أنني في نظرها سيدة مسنة.

رقصنا حتى بدأت أحسّ أنني بدأت أفقد الوعي، وبلل العرق ملابسنا، والتصق شعرنا وتشعّث، وبدأت أشعر بألم في وركي لدرجة تساءلت معها عما إذا سيمكنني الوقوف خلف البار في العمل. رقصنا كما لو لم يكن هناك شيء نفعله سوى الرقص. يا إلهي، كم كان ذلك رائعًا. كنت قد نسيت بهجة الوجود، بهجة أن تسلم نفسك لإيقاع الموسيقى بين حشد من الناس، ذلك الشعور بأن تصبح مع مجموعة كبيرة، تتحركون في كتلة كبيرة، لا يحرككم سوى الإيقاع الراقص. وقد نسيت خلال تلك الساعات نادرة الحدوث كل شيء، وتطايرت مشاكلي أمامي مثل بالون من الهيليوم: وظيفتي المريعة، مديري صعب الإرضاء، إخفاقي في المضيّ قُدُمًا في حياتي. أصبحت أكثر قدرة الآن على الشعور بالحياة والبهجة. نظرت بين الحشد إلى ليلي، كانت تغمض عينيها ويتطاير شعرها فوق وجهها، وقد

ارتسم على ملامحها ذلك المزيج الخاص من التركيز والشعور بالحرية التي تصحب تسليم شخص نفسه للموسيقى. ثم فتحت عينيها، وأردت أن أشعر بالغضب حين رأيت في يدها المرفوعة زجاجة كان من الواضح أنها ليست كولا، ولكنني وجدت نفسي أبتسم لها ابتسامة واسعة مبهجة. فكرت كم هو غريب أن تكون فتاة صغيرة مثلها تعرف نفسها بالكاد قادرة على تعليمي الكثير عن أمور الحياة.

بدت لندن من حولنا صاخبة مجلجلة على الرغم من بلوغ الساعة الثانية صباحًا. توقفنا حتى تلتقط لنا ليلي معًا بعض صور السيلفي أمام صالة سينما، وتحت لافتة صينية، وإلى جوار رجل ارتدى زيًا أشبه بالدب الضخم (من الواضح أنها كانت تحب أن تحفظ ذكرى كل حدث بالتقاط صورة)، ثم شققنا طريقنا عبر شوارع مزدحمة بحثًا عن حافلة تقلنا في تلك الساعة، مارين على محلات الكباب التي تفتح أبوابها إلى وقت متأخر، وجعجعة الثمالى والقوّادين وضحكات فتيات الليل. ازداد الألم في وركي بشكل كبير، وتسبب العرق المتصبب تحت ملابسي في شعوري بالبرودة، إلا أنني كنت لا أزال أشعر بالحيوية والنشاط.

قالت ليلي بابتهاج: «وحده الله يعلم كيف سنصل إلى المنزل».

وحينها سمعت صيحة: «لو!»،

كان صوت سام، يطلّ من نافذة السائق لسيارة الإسعاف. وحين رفعت يدي ملوِّحة له، شد مكابح السيارة بقوة عبر الطريق مستديرًا بالسيارة في حركة نصف دائرية.

«إلى أين أنت ذاهبة؟».

«إلى المنزل، إذا ما وجدنا وسيلة لتقلنا».

«هيا اركبا، هيا سوف أقوم بتوصيلكما»، ثم نظر إلى السيدة التي تجلس إلى جواره قائلًا «هيا يا دون، إن تلك السيدة مريضة، وركها مكسور، لا يمكننا تركها تمشي إلى المنزل».

ابتهجت ليلي لهذا التغير غير المتوقَّع في سير الأحداث. ثم انفتح

الباب الخلفي للسيارة، وأدخلتنا فيها سيدة ترتدي زي المسعفين تحرك عينيها في حنق وتشير لنا بالجلوس قائلة:

«سوف تتسبب في طردنا يا سام، أنا دونا، أوه، أنا أعرفك، أنت الفتاة التي..».

«سقطت من فوق سطح البناية».

جذبتني ليلي تجاهها لأخذ سيلفي في سيارة الإسعاف وحاولت ألّا أنظر حين قامت دونا بتحريك عينيها معترضة ثانية.

سألنا سام عبر المقطورة الخلفية لسيارة الإسعاف: «أين كنتما؟».

أجابت ليلي: «كنا نرقص، كنت أحاول إقناع لويزا أن تصبح عجوزًا أقل مللًا، هل يمكنك تشغيل صوت سيارة الإسعاف؟».

«كلا، إلى أين تذهبان؟ هذا سؤال من رجل عجوز ممل أيضًا، لا يفهم شيئًا مما تقولين».

قالت ليلي «إلى رقم اثنين وعشرين، خلف طريق توتنهام كورت رود تقريبًا؟».

«إنه الشارع الذي قمت بإسعافي فيه يا سام».

«أذكر ذلك. يبدو أنك قد أمضيت ليلة رائعة».

قالها والتقت عيناي بعينيه في المرآة فتلوَّن وجهي خجلًا، وشعرت فجأة بالسعادة والامتنان لخروجي من أجل الرقص تلك الليلة. جعلني ذلك أشعر أنه يمكنني أن أصبح شخصًا آخر، شخصًا مختلفًا كليا. وليس مجرد موظفة في واحدة من حانات المطار تقتصر كل فكرتها عن السهر في السقوط من فوق سطح البنايات.

قلت مبتسمة: «كانت ليلة رائعة».

نظر لأسفل على الشاشة التي أمامه وقال: «أوه عظيم، لدينا استدعاء في ملهى سبينسر الليلي».

قالت دونا: «ولكننا عائدان للتو، لماذا يفعل بنا ذلك ليني دومًا؟ إن هذا الرجل سادي».

«ما من أحدٍ متاح غيرنا».

«ما الذي يحدث؟».

«لقد تم استدعاؤنا.، لذلك سأضطر إلى إنزالكما، ولكن ليس بعيدًا عن المنزل على أي حال. تمسكنا جيدًا يا فتيات».

انطلق صوت سيارة الإسعاف، وانطلقنا مسرعين عبر شوارع لندن، يومض الضوء الأزرق عاليًا فوق رؤوسنا، وليلي تصيح ابتهاجًا وإثارة.

أخبرتنا دونا، بينما كنا نتشبَّث بالمقابض داخل سيارة الإسعاف المنطلقة، أنهم معرَّضون للاستدعاء في أي يوم أو ليلة من أيام الأسبوع لإسعاف حالات في ملهى سبينسر خاصة لهؤلاء الشباب الذين يفقدون صوابهم ويتورَّطون في أعمال عنف بعد شرب ست كؤوس من الخمرة فيدخلون في شجارات تستدعي تضميد وجوههم عقبها، وهؤلاء الشباب عليهم أن يستشعروا عظمة الحياة بدلًا من سحق أنفسهم على هذا النحو حتى آخر جنيه في جيبوبهم، في كل أسبوع لعين.

وصلنا في دقائق معدودة، وأبطأت سيارة الإسعاف من سرعتها تجنبًا للسكارى الذين يخرجون بأعداد كبيرة إلى الرصيف. وقد أعلنت اللافتات المضيئة على ملهى سبينسر الليلي: «مشروب مجاني للفتيات قبل الساعة العاشرة مساءً». وعلى الرغم من ليالي الاحتفالات التي تضم فتيانًا وفتيات، وعلى الرغم من الملابس المبهرجة الصاخبة فإن تلك المناطق التي يتجمَّع فيها السكارى لا تبدو كرنفالية بل مشحونة وخطرة. ووجدت نفسي أحدق عبر النافذة بحذر.

فتح سام الأبواب الخلفية للسيارة وأمسك بحقيبته قائلًا: «ابقين في الداخل». ثم انطلق.

توجَّه إليه أحد رجال الشرطة، متمتمًا له بشيء ما، ثم راقبناهما وهما يتوجهان إلى شاب يجلس فوق البالوعة والدماء تتدفق من جرح

في صدغه. جلس سام إلى جواره بينما ظل رجل الشرطة محاولًا إبعاد الطفوليين السكارى، والأصدقاء «المتعاونين»، والصديقات المنتحبات. وقد بدا محاطًا بمجموعة من الزومبي السائرين أمواتًا المهندمي الملبس، الذين يتمايلون بلا عقل ويزمجرون، وعادة ما يكونون ملطَّخين بالدماء.

قالت دونا بينما كانت تبحث بسرعة في حقيبتها عن ضمادات طبية بلاستيكية ومواد طبية:

«كم أكره هذه المهام، كم أفضِّل أن يوكلوا لي رعاية سيدة على وشك الوضع، أو جدة لطيفة تعاني من مشكلة ما في عضلة القلب. أوه يا إلهي».

بينما أمال سام وجه الشاب المصاب ليتفحصه، خرج شاب آخر يلصق شعره بالهلام، وامتقعت ياقة قميصه بالدماء يتمايل وجذب كتف سام قائلًا:

«أنا في حاجة للدخول إلى سيارة الإسعاف».

استدار سام ببطء تجاه الشاب الثمل، الذي تتناثر منه الدماء واللعاب، بينما يتحدث وقال له: «تراجع إلى الخلف الآن يا صاح؟ دعني أؤدي عملي».

تحامق الفتى بفعل تأثير الخمر، فنظر إلى رفاقه ثم هدر صائحًا في وجه سام:

«لا تأمرني بأن أتراجع إلى الخلف».

تجاهله سام وركز اهتمامه على الفتى المصاب الذي بين يديه.

دفع الشاب سام في كتفه قائلًا:

«أنت، يا أنت، أنا في حاجة إلى الذهاب للمستشفى».

وقف سام ببطء واستدار حتى أصبح في مواجهة الشاب الثمل تمامًا عينًا بعين وأنفًا بأنف، ثم قال: «سأشرح لك الأمر بطريقة ربما قد تصبح قادرًا على فهمها يا بني، لن تصعد إلى تلك الشاحنة. لا جدال في ذلك، لذا عليك أن توفر طاقتك، ولتذهب وتكمل سهرتك مع رفاقك، لكن ضع بعض الثلج على إصابتك، ولتقم بزيارة طبيبك في الصباح».

«ليس عليك أن تخبرني بشيء، أنا من يدفع لك راتبك هنا. إن أنفي اللعين قد كسر».

حدَّق سام فيه بثبات، فرفع الفتى يده ودفع سام في صدره. نظر سام إلى حيث وضع الفتى يده ودفعه.

قالت دونا: «أوه، يا إلهي».

بدا صوت سام وهو يتحدث الآن متذمرًا: «حسنًا، أنا أحذرك الآن...».

احتقن وجه الفتى غضبًا، «أنت لا تحذرني! من تظن نفسك لتحذرني؟».

خرجت دونا من الشاحنة وتوجهت صوب الشرطي متمتمة له بشيء ما في أذنه، ثم رأيتهما يتوجهان بنظرهما نحوهما. وبدا وجهها متوسِّلًا. وكان الفتى لا يزال يصيح في وجه سام: «سوف تعالجني قبل أن تتعامل مع ذلك التافه».

عدَّل سام من وضع ياقته، وكان لا يزال ثابتًا على نحو مخيف.

وقبل أن أدرك ازدياد خفقات قلبي تحسبًا من الموقف، كان رجل الشرطة هناك، واقفًا بينهما. أمسكت دونا بكم سام وكانت تجذبه بعيدًا عن الفتى عند الرصيف. تمتم رجل الشرطة بشيء ما في جهاز اللاسلكي الخاص به، واضعًا يده فوق كتف الفتى الثمل. استدار الفتى وبصق على سترة سام: «تبًا لك».

سادت لحظة صمت قصيرة من هول الصدمة، وبدا أن سام تيبَّس.

«هيا يا سام ساعدني، أنا في حاجة إلى عونك هنا». تقدمت دونا وقامت بدفعه إلى الأمام، حين لمحت النظرة على وجه سام، فقد لمعت عيناه في برودة وقسوة بالغتين.

قالت دونا بينما كانا يحملان الفتى شبه فاقد الوعي إلى السيارة: «هيا يا سام، هيا بنا، لننصرف من هنا».

***

قاد سام السيارة في صمت، وانتقلت أنا وليلي للجلوس إلى جواره في المقعد الأمامي. بينما قامت دونا بتنظيف ظهر سترته من البصاق.

قالت دونا بمرح: «إننا نتعرَّض لما هو أسوأ من ذلك، لقد قام أحدهم ذات يوم بالتقيؤ على شعري. فعلها ذلك البائس عن عمد، حيث قام بوضع إصبعيه في حلقه ليتقيأ عليَّ، لأنني لم أوصله إلى المنزل، وكأنني سائق تاكسي لعين لا مسعفة».

أمسكت بعلبة مشروب الطاقة التي كانت تحتفظ بها عند المقعد الأمامي وقالت: «إن ما يقومون به إهدار للموارد، عندما تفكرين في ما يمكننا فعله بدلًا من نقل هؤلاء الفتية الـ..». أخذت رشفة من مشروبها، ثم نظرت إلى الفتى الفاقد للوعي تقريبًا: «لا أدري كيف يفكِّرون، وأتساءل عما يعتمل داخل رؤوسهم».

رد سام قائلًا: «ليس الكثير».

قالت دونا وهي تربِّت على كتف سام: «أجل، حسنًا علينا أن نكبح جماح ذلك الفتى، لقد تلقى إنذرًا رسميًا العام الماضي».

نظر إليَّ سام بطرف عينيه وقال في خجل: «ذهبنا لإسعاف فتاة في شارع كوميرشيال ستريت. وكان وجهها قد تحطم إثر لكمات عنيفة، بسبب مسألة شخصية. وبينما كنت أقوم برفعها على الحامل الطبي لحق بنا صديقها مسرعًا ليكمل ما بدأه معها، وحينها لم أتمالك نفسي».

«هل قمت بلكمه؟».

قالت دونا ساخرة: «لم تكن لكمة واحدة».

«أجل لقد كان ذلك من الأوقات السيئة».

نظرت دونا متجهِّمة قائلة لي: «لا يصحّ أن يدخل نفسه في مشكلات من أي نوع ثانية، قد يقوده ذلك إلى الفصل من العمل».

قلت ونحن نترجَّل خارج السيارة: «شكرًا، شكرًا لك على التوصيلة».

قال سام: «لم أستطع تركك في العراء في هذا الوقت».

التقت عيناي بعينيه لفترة وجيزة، وحينها أغلقت دونا باب السيارة التي انطلقت بهما إلى المستشفى ومعهما حمولتهما البشرية.

قالت ليلي بينما نراقب سيارة الإسعاف يبتلعها الشارع: «إنك غارقة في حبه».

لقد نسيت حتى إنها كانت هناك، تنهَّدت بينما كنت أضع يدي في جيبي باحثة عن المفتاح قائلة: «إنه زير نساء».

قالت ليلي بينما كنت أفتح باب البناية لتدخل: «وماذا إذن؟ لو كنت مكانك لأحببت هذا، أعني لو كنت كبيرة في السن ومحبَطة مثلك».

«لا أعتقد أنني مستعدة للدخول في علاقة الآن، يا ليلي».

كانت ليلي تصعد خلفي، ويمكنني أن أقسم أنها كانت تصنع بوجهها حركات سخط وسخرية موجّهة نحوي حتى وصلنا إلى باب الشقة.

الفصل الثاني عشر

بعثتُ رسالة إلى السيدة ترينر، لم أخبرها فيها شيئًا عن ليلي، واكتفيت بسؤالها عن أحوالها، وإخبارها أنني عدتُ من رحلاتي لتوِّي، وسوف أكون بالقرب من منطقة سكنها خلال الأسابيع القليلة المقبلة بصحبة صديقة لي، وأود أن ألقي التحية عليها إن أمكن. وشعرت بإثارة غريبة وأنا ألقي بالخطاب في صندوق البريد.

كان أبي قد أخبرني عبر الهاتف أنها قد غادرت جرانتا هاوس في غضون بضعة أسابيع من وفاة ويل. وذكر لي أن العمَّال قد صدموا جرَّاء رحيلها، ولكنني تذكرتُ كيف ضبطتُ السيد ترينر برفقة ديلا، التي هي الآن على وشك وضع مولودهما. وتساءلتُ ما إذا كان شعور المصدومين لرحيل السيدة ترينر شعورًا حقيقيًا، لا سيما أن البلدات الصغيرة لا تُحفظ فيها أسرار.

قال أبي: «كان الأمر صعبًا كثيرًا عليها، وبمجرد أن رحلت حلَّت محلها تلك السيدة ذات الشعر الأحمر. رأت فرصتها، ولم تضيِّعها من يدها، فرجل مثل السيد ترينر، لطيف وناضج، ولا يزال يملك شعرًا فوق رأسه، ولديه منزل كبير، لن يظل أعزب لوقت طويل، أليس كذلك؟ آه بالمناسبة يا لو، ألن تحدثني أمك بشأن شعر إبطها؟ سوف تقوم بتضفيره إذا ما تركته ينمو لأطول من ذلك».

لم أتوقَّف عن التفكير في السيدة ترينر، وردة فعلها حين أقدِّم لها ليلي.

ما زلت أذكر البهجة والاندهاش اللذين ارتسما على وجه السيد ترينر في أول لقاء لهما معًا. هل يمكن لوجود ليلي أن يساعد على تخفيف آلامها ولو بقدر قليل؟ في بعض الأحيان كنت أراقب ليلي وهي تضحك على شيء ما في التليفزيون، أو تحدِّق في صمت عبر النافذة، فكنت أرى ويل أمامي في ملامحها - نفس تقاسيم الأنف، وشكل الوجنتين التي ترجع غالبًا لأصول سلافية - كانت تشبهه لدرجة تنسيني التقاط أنفاسي كلما رصدت ذلك التشابه. (وحين كنت أصل إلى هذه المرحلة كانت ليلي عادة ما تتمتم قائلة: «توقفي عن التحديق بي على هذا النحو الغريب يا لويزا، إنك تخيفينني»).

جاءت ليلي للبقاء معي لمدة أسبوعين، فقد اتصلت بي تانيا هوتون ميلر، وأخبرتني أن الأسرة مسافرة في رحلة عائلية إلى توسكاني، وأن ليلي لا ترغب في الذهاب معهم، «بصراحة، إن الطريقة التي تتصرف بها حاليًا غير مقبولة بالنسبة لي، فهي تتعبني».

ذكّرتها أن ليلي نادرًا ما تكون معهم في المنزل أصلًا، وبما أنها قد غيَّرت أقفال باب المنزل، فسيكون من الصعب بالنسبة ليلي أن تتعب أيًا منهم، إلا إذا كانت تنقر على نوافذهم في المساء أو تغني بصوت مزعج. خيَّم الصمت لفترة قصيرة.

«لويزا، حين يكون لديكِ أطفال، ربما تفهمين ما أتحدث عنه». نفس الكليشيهات المحفوظة التي يردِّدها الآباء. كيف يمكنني فهم الأمر وأنا لستُ أمًا بعد؟

عرضتْ عليَّ بعض الأموال لتغطية مصاريف ليلي أثناء سفرهم، وشعرت بالسعادة وأنا أرفض عرضها موضِّحة لها أنني لن آخذ مثل تلك الأموال، على الرغم من أن مصاريف ليلي، وبصراحة، تكلفني أكثر مما توقَّعت. فقد اتضح، أن ليلي لا تحب الخبز المحمَّص بزبد الفول السوداني، أو سندويشات الجبن في العشاء. فكانت تطلب مني أموالًا، ثم تعود ومعها خبز مصنوع بمهارة بشكل فني، وفاكهة غريبة النوع، وزبادي

يوناني، ودجاج عضوي، إنها نوع السلع التي يقتنيها مطبخ أسرة ثرية تنتمي إلى الطبقة فوق المتوسطة. تذكرت منزل تانيا، وليلي وهي واقفة أمام الثلاجة العملاقة وتلقي بشرائح الأناناس في فمها.

سألتها: «بالمناسبة، من هو مارتن؟».

توقَّفت للحظة قصيرة ثم أجابت: «مارتن هو رفيقي السابق، تصر ليلي على رؤيته رغم علمها بأن هذا لا يروق لي».

«هل يمكنك إعطائي رقم هاتفه؟ أنا فقط أود التأكد من معرفة المكان الذي توجد فيه خاصة وأنتِ مسافرة».

صاحت: «رقم هاتف مارتن؟ ولماذا سأحتفظ برقم هاتف مارتن؟»، ثم أنهت المكالمة دون مقدمات.

* * *

ثمة شيء قد تغيَّر منذ التقيت ليلي، شيء لا علاقة له بقدرتي على التعامل مع نوبات غضب المراهقة التي تنفجر عارمة بين حين وآخر في شقتي شبه الخاوية. لقد بدأت في الاستمتاع بوجود ليلي في حياتي، إنها متعة أن يكون هناك شخص أتناول الطعام برفقته، وأن نجلس إلى جوار بعضنا بعضًا على الأريكة، نعلِّق على أي شيء يدور على شاشة التليفزيون، أو حين تتيبس ملامح وجهَيْنا عندما نتناول وجبة من اختراع ليلي. حسنًا، كيف كان يمكنني أن أعرف أنه يجب علينا طهو البطاطس قبل وضعها في سلطة البطاطس؟ إنها سلطة بحق السماء!

أصبح بإمكاني الآن وأنا في العمل سماع صوت الآباء على البار يتمنون لأبنائهم ليالي طيبة قبل رحلات أعمالهم، عليك أن تحسن التصرف مع ماما يا لوك، اتفقنا؟ هل فعلت ذلك حقًا؟ يا لك من ولد ممتاز! وأيضًا أسمع المشاحنات بشأن رعاية الأطفال في المكالمات الهاتفية: كلا أنا لم أقل إنني سوف أقله من المدرسة ذلك الوقت، كان ينبغي عليَّ الوجود في برشلونة... أجل، بالفعل... كلا، كلا، أنت لا تسمعين!

كنت عاجزة عن استيعاب فكرة أن يكون بمقدورك إنجاب طفل، وأن تحبه، وترعاه، ثم حين يبلغ السادسة عشر تغير أقفال منزلك وتغلقه في وجهه. إن فتاة في السادسة عشر مثلها لا تزال طفلة، دون شك. كان في مقدوري رؤية تلك الطفلة في ليلي في كل تصرفاتها وأفعالها. رأيت تلك الطفلة في شعورها بالإثارة وفي حماستها المفاجئة. كانت تلك الطفلة واضحة وتطلُّ من عينيها في حركاتها أمام مرآة حمامي صانعة أشكالًا مختلفة بوجهها، وفي نومها البريء دون مقدمات.

فكرتُ في شقيقتي وحبها غير المشروط لتوم. فكَّرت في والديَّ، وتشجيعهما ودعمهما الدائمين لي ولترينا على الرغم من أننا نبلي بلاءً حسنًا الآن بعدما كبرنا، وأحسست في تلك اللحظات بغياب ويل عن حياة ليلي كما أحسست بغيابه عن حياتي. قلت محدِّثة إياه في صمت، كان ينبغي أن تكون هنا يا ويل، فأنت من تحتاجه ليلي حقًا.

تقدَّمت بطلب إجازة من العمل، الأمر الذي اعتبره ريتشارد انتهاكًا صارخًا للوائح (لقد عدت من إجازتك المطولة منذ خمسة أسابيع فقط، لا أفهم لمَ تودين الاختفاء ثانية)، ابتسمت له، وانحنيت إلى الأمام أحيِّيه بطريقة الفتيات الأيرلنديات، وعدت بسيارتي إلى المنزل لأجد ليلي تعمل على طلاء أحد جدران الغرفة الإضافية بدرجة مبهجة من درجات اللون الأخضر الفيروزي. وقفت هناك مشدوهة فقالت: «لقد أردتِ أن نجعلها مبهجة، لا تقلقي لقد دفعتُ ثمن الطلاء».

قمت بخلع باروكتي وحذائي، وقلت: «حسنًا عليكِ التأكد من الانتهاء منها هذا المساء، لقد حصلت على إجازة غدًا»، وأضفت بينما أرتدي سروالي الجينز: «سوف أريك بعض الأشياء التي كان يحبها والدك».

توقَّفتْ عن الطلاء، مسقطة قطرات من الطلاء على السجادة متسائلة: «أي أشياء؟».

«سوف ترين».

أمضينا اليوم في القيادة، نستمع إلى قائمة الأغاني التي يضمها جهاز الآي بود الخاص بليلي، الذي حمل إلينا مرة لحنًا حزينًا عن الحب والفقدان، ومرة صدح بأغنية بموسيقى صاخبة تصم الأذن عن الكراهية لكل الجنس البشري. أما أنا فقد تمرَّست على أن أعلو بذهني فوق صخب الموسيقى لأركز على الطريق، وبالنسبة لليلي فقد كانت تجلس إلى جانبي متفاعلة مع الإيقاع الصاخب السريع إما بهز رأسها أو محاكاة النقر على الطبل بحركات ارتجالية. وقد سعدت لأنها تستمتع بوقتها، فمن بحاجة إلى طبلة أذنه سليمة برفقتها على أي حال؟

بدأنا رحلتنا بالوصول إلى ستورتفولد، وتمشينا في الأماكن التي اعتدت الجلوس فيها أنا وويل وتناول الطعام، وتنزّهنا في الحقول وجلسنا على المقاعد التي كنا نجلس عليها حول القلعة، وكانت ليلي رحيمة بي إذلم تظهر شعورها بالملل. وإحقاقًا للحق، كان من الصعب الحفاظ على جذوة الحماسة مشتعلة في حكايات عن عدد من الحقول، ومن ثم فقد جلسنا، وأخبرتها عن لقائي الأول به، وكيف أن ويل كان نادرًا ما يغادر المنزل، وكيف أنني تمكنت بعد عدد من الحيل والإصرار على المحاولة من إقناعه بالخروج ثانية. قلت لها: «عليك أن تفهمي أن والدك كره أن يعتمد على أي شخص، وأن خروجنا من المنزل لم يكن يعني فقط اعتماده على شخص آخر، بل يعني أيضًا رؤية الآخرين له وهو يعتمد على شخص آخر».

«حتى لو كان ذلك الشخص هو أنت».

«حتى لو كان ذلك الشخص هو أنا».

فكَّرتْ للحظة ثم قالت: «أنا أكره كذلك أن يراني الناس عل هذا النحو، إنني لا أحب حتى أن يراني الناس بشعر مبتلّ».

قمنا بزيارة المتحف حيث حاول ويل أن يوضح لي الفرق بين الفن الحديث «الجيد» والفن الحديث «الرديء» (الشيء الذي ليس في مقدوري فهمه حتى الآن)، وكانت ليلي دائمًا تصنع أشكالًا بوجهها لكل اللوحات

التي على جدرانه. ثم مررنا سريعًا بسوق النبيذ، حيث جعلني ويل أتذوق جميع أنواع النبيذ (كلا يا ليلي، لن نختبر أنواع النبيذ اليوم)، ثم تمشينا إلى متجر الوشم حيث أقنعني أن أدقّ وشمًا على جسمي. (وسألتني إذا كان في مقدوري إقراضها بعض المال لدق وشم هي الأخرى، وكم شعرت بالارتياح حين أخبرها صاحب المكان أنه «ممنوع لمن هم دون الثامنة عشر من العمر». ثم طلبت أن ترى نحلتي الطنانة الضخمة، وكانت تلك واحدة من المناسبات القليلة التي شعرت فيها بقدرتي على إثارة فضولها وإعجابها. وضحكت بصوت مرتفع حين أخبرتها بشأن الوشم الذي اختاره لنفسه: فقد اختار كتابة عبارة «كنت أفضل» على صدره.

قلت لها: «الديكِ نفس حسّه الفكاهي الفظيع يا ليلي». وحاولت أن تخفي خجلها.

وحينها، أشار صاحب المكان الذي كان يستمع إلى حديثنا أنه لديه صورة له. فقال من تحت شاربه الكث: «إنني أحتفظ بصور لجميع أوشامي. فأنا أحب الاحتفاظ بسجل لأعمالي. هل يمكنك فقط أن تذكّريني بالتاريخ؟».

وقفنا هناك بصمت بينما كان الرجل يقلب في مجلده، وها هي بين يده، صورة ترجع إلى عامين سابقين، صورة مقرَّبة للتصميم بالأبيض والأسود مرسومة بعناية فوق بشرة ويل الكريمية اللون. وقفتُ محدِّقة في الصورة التي حبست أنفاسي بمجرد أن وقعت عليها عيناي. إنه ذلك الوشم الصغير بالأبيض والأسود، الذي قمت بمسحه ذات مرة بقطعة قماش ناعمة، والذي قمت بتجفيفه، والذي وضعت عليه كريمًا واقيًا للشمس، والذي أسندت عليه رأسي في هدوء. كنت على وشك لمسه، حين سبقتني إليه ليلي بإصبعها وأظافرها المقضومة لامسة صورة بشرة والدها برفق، «أظن أنني سوف أحصل على وشم كهذا، أعني مثل وشمه».

«كيف حاله إذن؟».

استدرت أنا وليلي. وكان صاحب المكان جالسًا على كرسيه يحك ساعده الغارق في الألوان الصاخبة وقال: «ما زلت أذكره، لا يمرُّ علينا الكثيرون من المصابين بشلل رباعي هنا». ثم ابتسم مردفًا: «كانت له شخصية مميزة، أليس كذلك؟».

شعرتُ بغصَّة في حلقي فجأة.

قالت ليلي بأسى: «لقد مات، إنه أبي، وقد مات».

انزعج الرجل قائلًا: «آسف يا حبيبتي، لم تكن لديّ فكرة».

قالت ليلي وقد بدأت في إخراج الصورة من غلافها البلاستيكي بالفعل: «هل يمكنني الاحتفاظ بها؟».

«بالطبع، ويمكنك الاحتفاظ بالغطاء البلاستيكي كذلك».

«شكرًا لك». قالتها ووضعت الصورة بعناية تحت ذراعها، ومشينا خارج المتجر بعد أن أعرب صاحبه عن أسفه ثانية.

تناولنا الغداء - ووجبة الإفطار في الوقت ذاته في واقع الأمر- داخل أحد المقاهي في صمت. وحين شعرت أن الحالة المزاجية التي تركنا فيها اليوم تتبدَّد، بدأتُ في التحدث عنه ثانية. أخبرتها عما أعرفه عن تاريخ ويل الرومانسي، وعن عمله، وكيف أنه كان الرجل الذي يجعلك تتوقين للحصول على قبوله ورضاه، سواء كان من خلال فعل شيء يثير دهشته أم من خلال إضحاكه بنكتة حمقاء. وحكيت لها كيف كان في أول لقاء لنا، وكيف تغيَّر بعد ذلك وأصبح أكثر لينًا، وكيف بدأ استشعار البهجة في الأمور الصغيرة، حتى لو تضمنت تلك الأمور الصغيرة السخرية مني.

«لم أكن من النوع المغامر في تناول الطعام، فقد كانت أمي لا تعرف سوى عشرة أصناف طعام رئيسية فقط ظلَّت تصنعها لنا طيلة خمسة وعشرين عامًا. ولم يتضمن أيٌّ منها وجبة الكينوا، أو الليمونجراس، أو الجواكامولي. أما والدك فقد كان يجرّب أي شيء».

«والآن هل تجربين كل شيء أنت أيضًا؟».

«في واقع الأمر، ما زلت أجرب الجواكامولي كل شهرين أو ما شابه. وذلك من أجل خاطر ويل».

«هل أحببتها؟».

«أعتقد أن مذاقها مقبول، ولكنني لا أستطيع تجاهل حقيقة أنها تشبه المخاط».

أخبرتها عن صديقته السابقة، وكيف اقتحمنا زفافها وأنا جالسة على ركبة ويل بينما نلف بكرسيه المتحرك في حركة دائرية في ساحة الرقص. ضحكت ليلي حتى خرج مشروبها من أنفها، «حقًا؟ فعلتما ذلك في زفافها؟»، حاولت عبر جدران المقهى الصغير أن أستحضر لها والدها قدر المستطاع، وربما لأننا كنا بعيدتين عن تعقيدات المنزل، أو لأن والديها كانا في دولة أخرى، أو لأن شخصًا ما للمرة الأولى يحكي لها قصصا غير معقدة ومرحة عن والدها، ضحكت من قلبها، وطرحت أسئلة، وكانت تومئ برأسها مع كل إجابة لي كما لو كانت فقط تؤكد على شيء ما تعرفه بالفعل. أجل، صحيح، لقد كان على ذلك النحو، نعم، ربما أنا كذلك أيضًا.

وبينما استغرقنا في الحديث لما بعد الظهيرة، تاركين فنجاني الشاي يبردان أمامنا. وبينما عرضت النادلة التي شعرت بالسأم للمرة الثانية أن تأخذ آخر قطعة خبز محمص استغرقنا ساعتين في تناولها، لاحظت أمرًا آخر: ألا وهو أنها كانت المرة الأولى التي أتذكر فيها ويل من دون أن أشعر بالحزن.

«وماذا عنك؟».

«ماذا عني؟»، ردَّدتُ بينما أتناول آخر قطعة خبز، وأرنو باتجاه النادلة، التي اعتبرتْ نظرتي إشارة لها للقدوم مجدَّدًا.

«أعني، ما الذي فعلته بعد موت أبي؟ يبدو لي أنه كان لديك الكثير من الأمور التي تفعلينها برفقته حتى لو كان على كرسي متحرك».

وقفت قطعة الخبز في حلقي، ولم أستطع بلْعها، وعندما ابتلعتها أجبت: «إنني أفعل الكثير من الأمور، أعني.. أذهب إلى العمل، فحين تكون طبيعة العمل نوبات صباحية ومسائية يصعب وضع خطط أخرى».

وجدتها ترفع حاجبيها جزئيًا ولم تعلق بقول أي شيء.

«كما أن وركي لا يزال يؤلمني، أنا لستُ مستعدة لتسلق الجبال بعد».

رشفت ليلي من كوب الشاي بلا مبالاة.

«إن حياتي مليئة بالأحداث، أعني أنني سقطت أخيرًا من فوق سطح بناية، وهذا قد كسر الرتابة، إنه حدث يحمل من الإثارة ما يكفيني لعام كامل مقبل».

«ولكنك بالكاد تفعلين أي شيء».

صمتنا لدقيقة، وأخذتُ نفسًا عميقًا محاولة التخفيف من حدة الطنين المفاجئ الذي غزا أذني. جاءت النادلة لتنقل أطباقنا الفارغة إلى المطبخ كمن انتصر بعد طول انتظار.

قلت لليلي: «مهلًا، هل أخبرتكِ عن المرات التي اصطحبت فيها والدكِ إلى السباق؟».

في الوقت غير المناسب بالمرة، ارتفعت درجة الحرارة في سيارتي على بعد أربعين ميلًا من لندن لتتعطل بنا على الطريق السريع. ولدهشتي شعرت ليلي بالإثارة البالغة حيال الموقف. في الواقع لقد أصابها الفضول: «لم تتعطل بي سيارة في حياتي، بل إنني في الحقيقة لا أدري كيف يمكن أن تتعطل السيارات من الأساس».

فغرتُ فاهي في ذهول من عبارتها الأخيرة (تذكّرت كيف كان أبي يصلي من أجل شاحنته القديمة، ويحدّثها كما لو كانت شخصًا أمامه واعدًا بالاستعانة بأفضل أنواع الوقود، وإجراء فحص دوري على الإطارات، وبمنحها حبًا لا متناهيًا، إذا ما أكملت جميلها وأعادته إلى المنزل ثانية) ثم أخبرتني أن والديها كانا يغيران سياراتهما المرسيدس كل عام بسبب التلف في فرشها الجلدي الذي يحدثه شقيقاها.

جلسنا داخل السيارة إلى جانب الطريق السريع منتظرين قدوم سيارة ونش لنقلها، شاعرين باهتزاز سيارتنا الصغيرة كلما مرت شاحنة إلى

جوارنا. وقررنا في النهاية، أن الجلوس خارج السيارة، سيكون أكثر أمانًا، فترجّلنا خارجها وجلسنا على المرج الأخضر مراقبين شمس ما بعد الظهيرة وهي تفقد حرارتها وتنزوي خلف الجهة المقابلة من جسر الطريق السريع.

سألتها بعد أن تحدثنا في كل شيء آخر ممكن حتى نفدت جعبتنا: «من هو مارتن إذن؟».

رنت ليلي إلى العشب بجوارها ثم قالت: «مارتن ستيل؟ إنه الرجل الذي نشأت معه».

«كنت أعتقد أنك نشأت في بيت فرانسيس».

«كلا لقد ظهر فرانسيس صاحب الوجه الغبي في حياتي وأنا في السابعة».

«أتدرين يا ليلي، ربما كان عليك التوقف عن نعته بهذا الوصف».

رنت إليَّ بطرف عينها وقالت: «حسنًا، ربما تكونين محقة». ثم استلقت على العشب مبتسمة ابتسامة حلوة وأضافت: «سوف ألقبه بصاحب الملامح التناسلية بدلًا من ذلك».

«حسنًا لا بأس بصاحب الوجه الغبي إذن. وكيف تزورينه حتى الآن؟».

«مارتن؟ لا أعرف لي أبًا غيره. لقد ارتبطت به أمي عندما كنت صغيرة. إنه موسيقيٌّ مبدع للغاية. اعتاد قراءة القصص لي وتأليف الأغاني عني، ومثل هذه الأمور. كل ما هنالك أنني..».

«ما الذي حدث بينه وبين أمك؟».

أمسكت ليلي بحقيبتها وأخرجت علبة السجائر وأشعلت واحدة. سحبت نفسًا عميقًا ونفثت دخانًا كثيفًا من فمها قبل أن تقول: «لقد عدت إلى المنزل من المدرسة ذات يوم لأجد أمي وقد أعلنت أنه قد ذهب. قالت أمي إنهما اتفقا على الانفصال». سحبت نفسًا آخر: «يبدو أنه لم يكن مهتمًا بنضج شخصيتها أو لم يشاركها رؤيتها المستقبلية، شيء من هذا الهراء. أظن أنها قابلت فرانسيس وأدركت أن مارتن لن يمنحها ما تريد مطلقًا».

«وما الذي تريده؟».

«المال، ومنزل ضخم، ورفاهية تمضية يومها في التسوّق أو برفقة صديقاتها أو ممارسة اليوجا وفنون الطاقة وما إلى ذلك. إن فرانسيس يجني ثروة طائلة من عمله المصرفي». ثم استدارت نحوي قائلة: «كان مارتن أبي في يوم من الأيام. كنت أناديه أبي حتى اليوم الذي غادر فيه. لقد اعتاد على اصطحابي إلى الحضانة وبعدها إلى المدرسة الابتدائية، وكل مكان، حتى جاء اليوم الذي قرَّرت فيه أنها أخذت كفايتها منه. عدت يومًا إلى المنزل ووجدته قد اختفى. إنه منزلها، ووحدها من يملك أن يقرر مَن يبقى ومَن يختفي، هكذا بهذه البساطة. ولم يكن مسموحًا لي برؤيته أو التحدث عنه وإلا أمسيت فتاة صعبة المراس تثير المتاعب! وذلك لأنها تتألم وتعاني من ضغط عاطفي وأنا لا أقدرها». هنا كانت ليلي تقلد صوت تانيا تقليدًا مضحكًا، «وحين جن جنوني بسببها ذات يوم، أخبرتني أنه لا فائدة من ضيقي وحنقي على هذا النحو، لأن مارتن ليس والدي الحقيقي. وكانت تلك طريقة لطيفة لأكتشف الأمر».

حدَّقت فيها.

«ثم ظهر فرانسيس عند باب منزلنا، حاملًا باقات الزهور، وكنت لا أزال طفلة لا تفكر سوى في اللعب، ويتم إرسالها مع المربيات ليمضيا هما وقتهما معًا في أحد الفنادق المترفة. وبعد مرور ستة أشهر اصطحبتني أمي إلى أحد محلات البيتزا الشهيرة، واعتقدت أنها مكافأة ما لي أو أن مارتن سيعود ثانية، فوجدتها تخبرني أنها وفرانسيس سيتزوجان، وأنه أمر رائع، وأنه سيكون أفضل أب ممكن لي وأنه «ينبغي عليَّ أن أحبه كثيرًا»».

نفثت ليلي دائرة دخان في السماء، وأخذت تراقبها بينما تتبدد في الهواء وتختفي.

«ولم تحبيه».

رنت إليَّ بطرف عينها قائلة: «بل كرهته، فحتى لو كنت صغيرة، يمكنك أن تشعري بالشخص الذي أمامك حين يقبّلك على مضض،

وهو لم يطيقني، ولم يكن يريدني مطلقًا، لم يرد سوى أمي. فمن يرد ابن شخص آخر على أي حال؟ وبمجرد أن أنجبا ابنيهما التوأمين أرسلاني إلى المدرسة الداخلية. مرحى تم إنجاز المهمة بنجاح».

اغرورقت عيناها بالدموع، وأردت احتضانها ولكنها كانت تلف ذراعيها حول ركبتيها وتحدق في الفراغ. جلسنا هناك صامتتين لبضع دقائق نراقب حركة السيارات التي بدأت تزداد مع غروب الشمس.

«ثم وجدته ثانية».

نظرت إليها.

«وجدت مارتن، حين كنت في الحادية عشرة من عمري. لقد سمعت مربيتي تخبر مربية أخرى أنها تلقت أوامر بعدم إخباري أنه كان يتصل للسؤال عني. فطلبت منها أن تخبرني عن مكان سكنه وإلا أخبرت أمي أنها تسرق أشياء من المنزل. وبحثت عن عنوانه ووجدته في مكان يبعد عنا بنحو خمس عشرة دقيقة، فذهبت مشيًا إليه عبر طريق بيكروفت روود، هل تعرفينه؟».

هززت رأسي نافية، «وهل أسعده لقاؤك؟».

ترددت قبل أن تقول: «كان سعيدًا للغاية، لقد بكى لدى رؤيتي تقريبًا وقال إنه افتقدني كثيرًا، وأن ابتعاده عني أمر مريع، وأنني أستطيع المجيء إليه متى شئت. ولكنه كان قد تعرف إلى سيدة أخرى وأنجبا طفلًا. وحين تذهبين إلى منزل أحدهما وتجدين أن فيه زوجته وطفله، وأسرتهما المستقلة التي لا تنتمين لها، تشعرين أنك مجرد شخص مهمَل».

«أنا واثقة أن أيًا منهم لم يفكر في...».

«أجل، حسنًا، لقد كان لطيفًا وكل شيء، ولكنني أخبرته أنني لن أستطيع رؤيته ثانية، إن الأمر غريب. وكما قلت له، فأنا لست ابنته الحقيقية. ولكنه رغم ذلك كان لا يزال يناديني بابنتي طيلة الوقت. هذه حماقة». هزّت ليلي رأسها بعنف، وجلسنا هناك صامتتين لبرهة، ونظرت ليلي إلى السماء قبل أن تقول: «أتدرين ما الذي أزعجني حقًا؟».

انتظرتها.

«أنها غيرت اسمي لاسمه حين تزوجت. غيرت اسمي، من دون أن تفكر أن تسألني». ثم تهدَّج صوتها وهي تردف: «لم أرغب أن يقترن اسمي بهوتون ميلر».

«أوه، ليلي».

مسحت وجهها سريعًا براحة يدها كما لو كانت تشعر بالحرج من رؤيتها وهي تبكي. أخذتْ نفسًا من سيجارتها قبل أن تطفئها في العشب وتقول غاضبة: «أتدرين أن صاحب الملامح التناسلية وأمي يتشاجران أخيرًا كثيرًا، وقد ينتهي بهما الأمر إلى الطلاق، وإذا ما وقع ذلك سوف يكون علينا الانتقال من المنزل ثانية وتغيير الأسماء ولن يكون بمقدور أيٍّ كان التفوُّه بكلمة مراعاة لما تشعر به من آلام ومن ضغط عاطفي أو أيًا ما تسميه. وفي غضون عامين سيظهر في حياتها صاحب وجه لعين جديد وسيتغير اسم شقيقي من هوتون ميلر إلى برانسون أو أوزيماندز، أو تودليبايب أو أيٍّ كان». وضحكت نصف ضحكة، «ولكنني سأكون محظوظة كفاية حينها لأنني لن أكون موجودة بينهم، ولا أعتقد أنها سوف تلحظ ذلك».

«هل تظنين حقًا أنكِ لست مهمة إلى هذا الحد بالنسبة لها؟».

استدارت ليلي تجاهي لتنظر إليَّ نظرة موجعة تحمل من الحكمة ما هو أبعد من عمرها بكثير، «أعتقد أنها تحبني. ولكنها تحب نفسها أكثر. وإلا كيف استطاعت أن تفعل ما فعلته بي؟».

الفصل الثالث عشر

وُلِد طفل السيد ترينر في اليوم التالي. رنّ هاتفي في السادسة والنصف صباحًا، ولفترة وجيزة فظيعة ظننت أن شيئًا مريعًا قد وقع، ولكنه كان السيد ترينر يزفُّ إليَّ البشرى باكيًا بصوت متهدج تكسوه نبرة المندهش غير المصدق: «إنها فتاة! ثمانية أرطال وأوقية! وهي في أتم صحة وعافية!». أخبرني كم هي جميلة، تشبه ويل عندما كان طفلًا، وكيف أنني يجب أن آتي لرؤيتها هكذا ببساطة، ثم طلب مني أن أوقظ ليلي، وهو ما فعلته، وشاهدتها يغلبها النعاس ويعتريها الصمت حينما بشَّرها جدها بأنه قد ولد لها عـ... عـ... (أخذ دقيقة لاستيعاب المسألة) عمّة!

قالت أخيرًا: «حسنًا». وبعد أن استمعت لفترة من الوقت، أردفت: «أجل... بالتأكيد».

أنهت المكالمة وأعطتني الهاتف. التقت عيناها بعينيّ، ثم استدارت بقميصها المجعد، وعادت إلى السرير بعد أن أغلقت الباب بقوة وراءها.

كان مندوبو بيع خطط التأمين الصحي السكارى على وشك تفويت رحلتهم، التي يحين موعدها في الحادية عشرة إلا الربع، وكنت أتساءل ما إذا كان يتعين عليَّ أن أشير إلى تلك المسألة أم لا عندما ظهرت سترة عاكسة للضوء مألوفة في الحانة.

«لا أحد في حاجة إلى المساعدة الطبية هنا»، مشيت إليه ببطء. «حتى الآن على الأقل».

«لا أملّ من هذا الزي أبدًا، ولا أدري لماذا».

رفع سام نفسه ليجلس على الكرسي وأراح مرفقيه على الطاولة، «تلك الباروكة... لافتة للانتباه».

سحبت تنورة لوريكس خاصتي، وأنا أقول: «أمتلك قدرة خارقة على توليد الكهرباء الساكنة. هل تريد قهوة؟».

«شكرًا. لا أستطيع أن أتسكع أو أتلكأ». نظر في جهاز اللاسكي خاصته وأعاد وضعه في جيب سترته.

أعددت له القهوة الأمريكية، محاولة إخفاء شعوري بالسعادة لدى رؤيته. «كيف عرفت مكان عملي؟».

تلقينا مكالمة من البوابة الرابعة عشرة، اشتباه بأزمة قلبية. ذكرني جاك بأنك تعملين في المطار، وكما تعلمين، لم يكن تعقبك بالأمر الصعب..».

كان رجال الأعمال يلزمون الصمت، فكما لاحظت، كان سام من نوعية الرجال الذين إذا تكلموا أسكتوا الآخرين. «دونا تختلس النظر إلى حقائب اليد في السوق الحرة».

«أظنكم قد أسعفتم المريض الذي جئتم من أجله؟».

ابتسم قائلًا: «كلا، سأتجه إلى البوابة الرابعة عشرة بعد احتساء هذه القهوة».

«مضحك. إذن، هل أنقذتم حياته؟».

«أعطيتها حبتَيْ أسبرين، ونصحتها بأن تشرب أربعة أكواب كبيرة الحجم من قهوة الإسبرسو قبل العاشرة صباحًا. ألم تكن فكرة جيدة؟ لكم أنا فخور بأن يكون لديك مثل هذا التصور المثير عن طبيعة عملي».

لم أستطِع أن أمنع نفسي من الضحك. مددت له يدي بالقهوة التي أخذ منها رشفة معبرًا عن امتنانه، «إذن، كنت أتساءل... ما إن كنتِ غير مرتبطة بمواعيد قريبًا؟».

«مع أو من دون سيارة إسعاف؟».

«من دونها بالتأكيد».

«هل سنناقش مشاكل المراهقين؟»، وجدت نفسي ألف حول أصابعي خصلة من باروكة شعري المصنوعة من ألياف النايلون. ما هذا الذي أفعله بحق السماء؟! كنت ألعب بشعري الذي لم يكن شعري الحقيقي، فتركته من فوري.

«يمكننا أن نناقش ما تريدين».

«ما الذي يدور في رأسك؟».

سكتُّ لفترة طويلة بما يكفي لتتورد وجنتاي خجلًا، «وجبة عشاء في بيتي، هذه الليلة؟ أعدك أنها إذا أمطرت فلن أجعلك تجلسين في غرفة الطعام».

«وأنا قبلت».

«سأمرّ لأصطحبك في السابعة والنصف». كان يشرب آخر رشفة من قهوته عندما ظهر ريتشارد. وزّع عليَّ وعلى سام نظراته. كنت لا أزال أميل على الطاولة، على بُعد بضع بوصات منه، فقال: «هل هناك مشكلة؟».

قال سام: «لا توجد مشكلة على الإطلاق». عندما وقف، بدا أطول من ريتشارد بفارق واضح.

اربدّ وجه ريتشارد ببعض الأفكار العابرة التي كانت من الوضوح، بحيث إنني استطعت قراءتها من دون مجهود. ما الذي جاء بهذا المسعف هنا؟ لماذا لا تفعل لويزا شيئًا؟ أود أن أعنّف لويزا لعدم الجدية في مباشرة عملها، ولكن هذا الرجل ضخم الجثة وهناك دينامية لا أفهمها وأنا قلق منه. كدت أضحك بصوتٍ عالٍ.

«الليلة إذن». أومأ سام برأسه إليّ، ثم أضاف: «لا تنسي أن تلبسي باروكتك، اتفقنا؟ فأنا أحبك قابلة للاشتعال».

تراجع أحد رجال الأعمال في كرسيه، مزهوًا ومعتدًا بنفسه حتى إن

بطنه برز من بين أزرار قميصه، «والآن، هل ستلقي علينا محاضرة عن مخاطر الكحول؟».

ضجَّ الآخرون بالضحك.

قال سام وهو يرفع يده بالتحية: «كلا، استمروا أيها السادة، أراكم بعد سنة أو سنتين على الأكثر».

شاهدته يتوجَّه إلى صالة المغادرة، وقد انضمَّت إليه دونا التي كانت واقفة خارج كشك توزيع الصحف. عندما عدتُ إلى الطاولة وجدت ريتشارد يراقبني، فقال لي: «لويزا، عليَّ أن أقول إنني لا أوافق على إدخال شؤون حياتك الاجتماعية في مكان العمل».

«حسنًا، في المرة المقبلة سأخبره بأن يتجاهل الأزمات القلبية عند البوابة الرابعة عشرة».

صرَّ ريتشارد على أسنانه، «وما قاله لك توًا حول ارتدائك الباروكة لاحقًا. إن هذه الباروكة ملك شركة «شامروك آند كلوفر أيريش ثيمد بارز» وغير مسموح لك بلبسها في غير أوقات العمل».

هذه المرة لم أستطِع أن أكتم ضحكي: «حقا؟».

احمرَّ وجهه قليلًا: «إنها سياسة الشركة، وهذا زيها الرسمي المعتمد».

«اللعنة. أعتقد أنه يتعيَّن عليَّ شراء باروكة الراقصات الأيرلنديات في المستقبل. كما تشاء، ريتشارد!»، ثم صحت متحدية وهو يعود أدراجه إلى المكتب، «للإنصاف، هل هذا يعني أنه لا يمكنك الرقص في الديسكو مع السيدة برسيفال وأنت ترتدي قميص البولو الخاص بك؟».

وصلتُ إلى المنزل ولم أجد أثرًا لليلي بخلاف علبة حبوب الإفطار على طاولة المطبخ، وكومة من التراب على الأرض في الردهة، وهو ما أثار استغرابي. حاولت مهاتفتها، ولكن من دون جدوى، وتساءلت كيف يوازن المرء بين إفراط الأم في القلق، وقلق الأم العادي، وتانيا هوتون ميلر. ثم قفزت إلى الحمام استعدادًا للقاء الذي لم يكن أبدًا وبكل تأكيد موعدًا غراميًا.

هطلت الأمطار، وكأن السماوات فتحت أبوابها بعد قليل من وصولنا إلى حقل سام. وقد أغرقتنا المياه رغم أننا قطعنا المسافة القصيرة من دراجته إلى عربة القطار عدوًا. وقفتُ تقطر مني المياه فيما كان هو يغلق الباب خلفي، متذكِّرة الإحساس غير المحبب بابتلال الجوارب.

«انتظري هنا»، قالها وهو يمشِّط فروة رأسه ليزيل قطرات المياه بيده. «لا يمكنك البقاء في تلك الملابس المبتلة».

فقلت: «يبدو لي هذا أشبه بالمشهد الأول من فيلم إباحي سيئ حقًا». وقف متسمِّرًا في مكانه، وأدركت أنني قلت ما قلته بصوت عالٍ فعلًا. أعطيته ابتسامة خرجت بلهاء بعض الشيء.

فقال وقد ورفع حاجبيه: «حسنًا».

اختفى في مؤخرة العربة وظهر بعد دقيقة وفي يده سترة وما يشبه السروال الرياضي.

«سروال جاك، مغسول ونظيف، وإن كان لا يناسب نجمة أفلام إباحية»، ناولني الملابس، وأضاف: «غرفتي هناك إذا أردت تغيير ملابسك، أو يمكنك الدخول إلى الحمام من هذا الباب، إذا كنت تفضلين ذلك».

مشيتُ إلى غرفة نومه وأغلقت الباب ورائي. كانت قطرات المطر تضرب سقف العربة محدثة صخبًا وضوضاء، وتتسبب بغشاوة على النوافذ من تيار لا ينتهي من المياه. فكرت في شد الستائر، ثم تذكَّرت أنه ليس هناك من يمكنه رؤيتي أصلًا، بخلاف الدجاجات التي احتشدت بعيدًا عن المياه المتساقطة وراحت تنفض الماء عن ريشها بعنف. خلعت سترتي وبنطالي الجينز الغارقين بالمياه وجفَّفت نفسي بمنشفة وضعها مع الملابس. وعلى سبيل المزاح، غمزت للدجاجات عبر النافذة، الشيء الذي لاحظت فيما بعد أن ليلي قد تقوم به، ولكن يبدو أن الدجاجات لم تعجب بتلك الحركة. رفعت المنشفة إلى وجهي وشممتها على نحو إجرامي، كمن يستنشق مخدرات محظورة. تم غسلها حديثًا ولكنها لا

تزال محتفظة برائحة ذكورية لا شك فيها. لم أشم رائحة كتلك منذ رحيل ويل. جعلتني أشعر بعدم التوازن لفترة وجيزة حتى تركتها من يدي.

كان السرير المزدوج يشغل معظم مساحة الغرفة، وثمة خزانة صغيرة تم استخدامها كخزانة ملابس، بالإضافة إلى زوجين من أحذية العمل كانا موضوعين بنظام في الزاوية. كان هناك كتاب على منضدة وبجوارها صورة لسام مع امرأة مبتسمة، شعرها أشقر مربوط بعقدة غير محكمة. كانت المرأة تلف ذراعها حول كتفيه وتبتسم للكاميرا. لم تكن بجمال عارضة أزياء، ولكن كان هناك شيء جذَّاب في ابتسامتها يشدك إليها. بدت من نوعية النساء الضحوكات. نسخة مؤنَّثة من جاك. شعرت فجأة بالرثاء المرير من أجله، وكان عليَّ أن أنظر بعيدًا قبل أن أشعر بالرثاء من أجلي أنا أيضًا. في بعض الأحيان أشعر وكأننا جميعًا نخوض في الأحزان، ونتردَّد في الاعتراف للآخرين إلى أي مدى تلعب بنا أمواج الأحزان أو نغرق في بحورها. رحت أتساءل عما إذا كان تردد سام في الحديث عن زوجته يعكس ترددي أنا شخصيًا، ومعرفة أن اللحظة التي يفتح فيها صندوق الذكريات، حتى إن كان همسة حزن، ستنفجر كل مآسيك للتحول إلى سحابة تظلل كل محادثة أخرى.

راجعت نفسي، وأخذت نفَسًا. «فقط استمتعي بأمسية لطيفة»، غمغمت، متذكرة كلمات مجموعة الدعم النفسي: اسمحي لنفسك بلحظات من السعادة.

مسحت لطخات المسكارا من تحت عيني، وفي المرآة الصغيرة لاحظت أن تصفيفة شعري صعبة الإصلاح. عندئذٍ سحبت سترة سام كبيرة المقاس فوق رأسي، في محاولة لتجاهل الحميمية الغريبة التي انبعثت من ارتداء ملابس رجل، ولبست سروال جاك محدِّقة في صورتي المنعكسة على المرآة.

ما رأيك، ويل؟ مجرد أمسية لطيفة، لا تعني أي شيء، اتفقنا؟

انفرج ثغر سام عن ابتسامة بمجرد ظهوري، وشمَّر عن سواعد سترته، قائلًا: «تبدين في الثانية عشرة تقريبًا».

دلفت إلى الحمام، وعصرت بنطالي الجينز والقميص والجوارب في الحوض، ثم علقتها جميعًا على قضيب ستارة الدش.

«ماذا تطبخ؟».

«حسنًا، كنت أنوي عمل سلطة، لكن الطقس لا يشجِّع على سلطة في الواقع، لذلك قرَّرت أن أرتجل».

كان يضع وعاء فيه ماء يغلي على الموقد، ما أدى إلى انتشار البخار على النوافذ.

«أنت تأكلين المكرونة، أليس كذلك؟».

«أنا آكل أي شيء».

«ممتاز».

فتح زجاجة نبيذ وصب لي كوبًا، مومئًا لي بالجلوس على الدكة الخشبية. كانت المنضدة أمامي مخصَّصة لشخصين، وشعرت بالإثارة تلوح في الأفق. لا بأس بالاستمتاع للحظة، متعة صغيرة. كنت أغمز لبعض الدجاجات. وها أنا الآن في سبيلي للاستمتاع بقضاء أمسية مع رجل يريد أن يطهو لي عشائي. كل ذلك كان تقدمًا، من نوعٍ ما.

ولعل سام اكتشف شيئًا من هذا الصراع الدائر في داخلي، لأنه انتظر حتى أخذت أول رشفة لي، ثم قال، فيما يقلب شيئًا على الفرن: «هل كان هذا رئيسك الذي كنت تتحدثين عنه؟ ذلك الرجل الذي قابلته اليوم؟».

قلت: «أجل». وأخذت رشفة أخرى. كان النبيذ لذيذًا. لم أجرؤ على الشرب وليلي معي، لعلي تخلَّيت عن حذري.

«أعرف هذا النوع من الرجال. إذا كان في ذلك عزاءً لك، ففي غضون خمس سنوات إما سيصاب بقرحة في المعدة أو بارتفاع ضغط الدم بالدرجة الكافية للتسبب في ضعف الانتصاب».

ضحكت: «كل هذه الأفكار مريحة بشكل غريب».

وأخيرًا جلس، وقدم لي طبق مكرونة يتصاعد منه البخار. «في صحتك»، قالها ورفع كوبًا من الماء، «والآن أخبريني ماذا حدث بشأن فتاتك المتغيِّبة منذ فترة طويلة».

أوه، كان وجود شخص أتحدث معه أمرًا يبعث على الراحة بشكل عجيب. لم أكن معتادة على التحدث لأشخاص يستمعون فعلًا، لدرجة أن التحدث إلى سام كان إلهامًا. لم يقاطعني، أو يخبرني بما يعتقد، أو ما يتعيَّن عليَّ فعله. استمع، وأومأ، وملأ كوبي بالنبيذ، أخيرًا، عندما كاد يخيم الظلام في الخارج، قال: «لقد حمَّلتِ نفسكِ مسؤولية كبيرة».

انحنيتُ إلى الوراء على المقعد الخشبي ورفعت قدمي على المنضدة، «لا أشعر بأن لديَّ خيارًا. ولطالما سألت نفسي: ماذا سيريد مني ويل أن أفعل؟». أخذتُ رشفة أخرى، «على الرغم من ذلك، فالأمر أصعب مما كنت أتخيل. ظننت أن دوري سيقتصر على توصيلها إلى جدها وجدتها، وبهذا يكون الجميع سعداء، وتنتهي الحكاية نهاية سعيدة، مثل برامج لم الشمل تلك التي تُقدَّم على شاشات التليفزيون». راح يتأمّل يديه، ورحت أنا أتأمله.

«لعلك تحسبني مجنونة ورَّطت نفسها في ما لا يعنيها».

«كلا. الكثير من الناس يسعون وراء سعادتهم الخاصة من دون التفكير في الأضرار التي يتركونها في أعقابهم. ما كنت لتصدقي عدد الأطفال الذين ألتقطهم في عطلات نهاية الأسبوع، وهم في حالة سكر، مغيبي العقل بفعل ما يتعاطونه من مخدرات أو أيًا ما كان. وقد انشغل آباؤهم بشؤونهم الخاصة، أو اختفوا تمامًا، لذا فهم يعيشون في حالة من الفراغ، ويختارون خيارات سيئة».

«هل ساءت الأمور أكثر من المعتاد؟».

«من يدري؟ كل ما أعرفه أنني أتعرَّض على نحو دائم لكل هؤلاء

الأطفال الفاسدين، والمصحات النفسية التي لديها قوائم انتظار للشباب صغار السن بطول ذراعك». انفرج ثغره عن ابتسامة ممتعضة، «أمسكي هذا الصندوق، أود أن أجمع الطيور فالليل قد أقبل».

أردتُ أن أسأله كيف لشخص حكيم مثله أن يهمل مشاعر ابنه على هذا النحو. أردتُ أن أسأله ما إذا كان يدرك كم يشعر جاك بالتعاسة. لكنها بدت لي أسئلة صدامية للغاية، نظرًا للطريقة التي كان يتحدَّث بها، وحقيقة أنه قد طهى لي للتو عشاءً لطيفًا جدًّا... وقد تشتَّت ذهني لدى رؤية الدجاجات تدخل إلى حظائرها واحدة بعد الأخرى، ثم عاد سام معبقًا بروائح الجو في الخارج، والهواء الأكثر برودة، ومرَّت اللحظة.

صب المزيد من النبيذ فشربت. تركت نفسي أنهل من معين المتعة في دفء عربة القطار، والاستمتاع بالشعور بمعدة ممتلئة فيما أستمع إلى حديث سام. حكى لي عن تلك الليالي التي أخذ فيها بأيدي كبار السن الذين لم يرغبوا في إثارة الضجيج، وحكى عن أهداف الإدارة التي دمرت روحهم المعنوية، وعن شعوره هو وزملائه أنهم لم يؤدوا المهمة التي دُرّبوا من أجلها. استمعت، وتركت نفسي أسبح في عالم بعيد عن عالمي، ورحت أراقب يديه ترسمان دوائر في الهواء، وابتسامته الساخرة عندما شعر أنه يأخذ نفسه على محمل الجد أكثر من اللازم. راقبت يديه، ثم راقبت يديه.

احمرَّ وجهي خجلًا لما أدركت إلام انحرفت أفكاري، فتجرعت رشفة أخرى من النبيذ لمداراته. «أين جاك الليلة؟».

«لم أره. أعتقد أنه في بيت صديقته». بدا حزينًا، «لديها أسرة أشبه بآل والتون في المسلسل التليفزيوني الشهير، حيث يعيش في بيتهم نحو مليون أخ وأخت بالإضافة إلى أمهم. إنه يحب التسكع هناك». أخذ رشفة أخرى من كوب الماء.

«وأين ليلي؟».

«لا أعرف! لقد أرسلت لها رسالتين لكنها لم تكلف نفسها عناء الرد».

كان حضوره طاغيًا، أضخم وأنشط من غيره من الرجال بمرتين. ظلت أمواج أفكاري تنجرف نحو سحر عينيه اللتين كانتا تضيقان قليلًا كلما أنصت، كما لو كان يحاول التأكد من أنه قد فهمني تمامًا... الشعيرات القصيرة النابتة على وجهه، شكل كتفيه تحت الصوف الناعم لكنزته. ظلَّ نظري ينزلق نحو يديه، المستريحتين على المنضدة، وأصابعه تنقران على سطحها بذهول؛ يا لهما من يدين قويتين. في تلك اللحظة تذكرت رقته وهو يمسك رأسي بين راحتيه، وطريقة تشبُّثي به في سيارة الإسعاف كما لو كان ملاذي الوحيد. رنا إليَّ وابتسم، وفي عينيه تساؤل رقيق، وفي داخلي ذاب شيء ما. هل سيكون الأمر بذلك السوء، مادامت كانت عيني مفتوحة؟

«تريدين قهوة، لويزا؟».

كانت لديه تلك الطريقة التي يرنو بها إليّ. هززت رأسي.

«هل تريد...».

قبل أن أتمكن من التفكير في الأمر، انحنيت عبر المنضدة الصغيرة، حتى وصلت إلى مؤخرة رأسه وقبَّلته. تردد للحظة واحدة فقط قبل أن يميل بدوره ويرد لي القبلة. عند نقطة ما أعتقد أن أحدنا قد أوقع كأس النبيذ ولكنني لم أستطع التوقف، أردت تقبيله إلى الأبد. طردت من رأسي كل الأفكار حول ما كان هذا، ما قد يعني، ما الفوضى التي قد أخلقها لنفسي. هيا عيشي حياتك، هكذا قلت لنفسي. قبلته وقبلته إلى أن تسرب العقل من بين مسامي وأصبحت قلبًا ينبض بالحياة، أعيش فقط لما أردت فعله.

سحب نفسه إلى الوراء أولًا، في حالة من الذهول. «لويزا...»قرقعت إحدى أدوات المائدة عند وقوعها على الأرض. وقفتُ ووقف، وجذبني إليه. وفجأة رحنا نتطاحن في عربة السكك الحديدية، يدي في يديه وشفتاي في شفتيه، ويا إلهي، ها أنا أشتم رائحته، أتذوق طعمه، وأستشعر ملمسه.

كان أشبه بلعبة نارية صغيرة تلعب بجسمي كله، محركة فيَّ ما كنت أعتقد أن قد مات وانتهى، فإذا به يعود إلى الحياة من جديد. رفعني لأعلى فطوَّقته بيدي ورجلي، حملني بكل جسمه وقوته وعضلاته. رحت أقبِّل وجهه، أذنه، وأصابعي في شعره الداكن الناعم. ثم أنزلني وأوقفني، كانت تفصل بيننا بضع بوصات، عيناه في عيني، وتعابير وجهه تطرح سؤالًا صامتًا.

كنت ألهث، قلت: «لم أخلع ملابسي أمام أي شخص منذ ذلك... الحادث».

«لا بأس، فأنا مدرَّب على تقديم الرعاية الطبية».

«أنا جادة. أنا مرتبكة قليلًا»، فجأة شعرت برغبة غريبة في البكاء.

«أنت تريدينني أن أجعلك تشعرين بشعور أفضل؟».

«هذه جملة ساذجة...».

رفع قميصه، وكشف عن ندبة أرجوانية بطول بوصتين في بطنه. «تلقيت طعنة من قبل أسترالي يعاني بعض المشاكل في صحته العقلية قبل أربع سنوات، وهنا...»، استدار ليكشف عن كدمة خضراء وصفراء ضخمة أسفل ظهره، «حصلت على ركلة من سكرانة يوم السبت الماضي...»، رفع يده، «إصبع مكسورة. علق في محفة بينما كنت أرفع مريضًا مفرط البدانة، أوه، نعم... هنا». وأظهر لي فخذه، وعليه خط قصير فضي اللون خشن الملمس لغرز مرئية. «آثار جرح مجهول المصدر نتيجة معركة في ملهى ليلي في هاكني رود العام الماضي. ولم تتوصَّل الشرطة إلى الجاني حتى اللحظة».

تأمَّلت صلابته، ندوبه المتفرقة، وقلت: «ما هذه الندبة؟» لمست بلطف ندبة أصغر على جانب بطنه. كان جلده ساخنًا تحت قميصه.

«هذه؟ أوه. إنها الزائدة الدودية. كنت في التاسعة من عمري».

رنوْت إلى جذعه، ثم صعّدت النظر إلى وجهه، ثم تعلَّقت عيناي في عينيه، حتى وجدتني أرفع السترة ببطء فوق رأسي. كنت أرتجف لا إراديًا،

ربما نتيجة الهواء البارد، وربما من أثر دغدغة مشاعري، لا أستطع أن أجزم بالسبب الحقيقي. اقترب، اقترب جدًّا حتى لم يكد يفصل بينه وبيني سوى بضع بوصات فقط، ومرر إصبعه برقة على طول خط فخذي. «أتذكر هذا. أتذكر أنه كان بمقدوري تحسُّس الكسر هنا». مرَّره برقة على بطني العارية، بحيث انقبضت عضلاتي، «وهنا. كان لديك تورم أرجواني على بشرتك. خشيت أن يكون ذلك بسبب انفجار أحشائك». ووضع كفه عليه. كان دافئًا، وحبست أنفاسي.

«لم أكن أتصور أن عبارة «انفجار الأحشاء» يمكن أن تبدو مثيرة من قبل».

«أوه، إنني لم أبدأ بعد».

مشى بي ببطء إلى الوراء نحو سريره. جلست، عيناي عليه، جثا على ركبتيه، محركًا يديه أسفل ساقي. «ثم كان هناك هذا». أمسك قدمي اليمنى وعليها ندبة حمراء لا تزال ظاهرة. تتبع خطها بعطف بإبهامه. «وهنا... كسر... تمزق في الأنسجة الرخوة».

«أنت تتذكر الكثير».

«معظم الناس لم أتمكن من التعرف إليهم في الشارع بعد يوم واحد من إسعافهم. لكنك يا لويزا، لم تغيبي عن بالي لحظة». حنا رأسه وقبَّل الجزء العلوي من قدمي، ثم حرَّك يديه ببطء على جانبي ساقي لأعلى، وصار فوقي، رافعًا نفسه عني بكلتا يديه، «لا شيء يؤلمك الآن، أليس كذلك؟».

هززت رأسي من دون أن أنبس ببنت شفة. لم أعد أبالي. لم أعد أبالي إذا كان زير نساء أو أفَّاقًا يتلاعب بمشاعري. لقد طغت عليَّ الرغبة فيه بجنون، ولم أكن أبالي فعلًا حتى لو كان سيكسر فخذي الآخر.

راح يتحرَّك فوقي، بوصة بوصة، مثل أمواج المد، وأنا مستلقية على السرير، وقد تهدَّجت أنفاسي حتى صارت هي كل ما أسمعه في هذا الصمت المطبق. أخذ يتأمّل وجهي، ثم أغمض عينيه وقبَّلني، ببطء

وبرقة. قبَّلني وترك وزنه يسقط عليَّ من بعيد بما يكفي لأشعر بالخدر اللذيذ للنشوة، وصلابة جسمه فوق جسمي. رحنا نتبادل القبلات، شفتاه تلثمان رقبتي، جلده يحتك ببشرتي، حتى أصابني دوار المتعة، كان جسمي يتقوَّس لا إراديًا أمام جسمه، وساقي ملتفَّتين حوله.

«أوه، يا إلهي». قلتها لاهثة عندما أخذنا شهيقًا طويلًا. «أتمنى ألا تشعر بالذنب لما فعلناه معًا».

رفع حاجبيه، قائلًا: «هذا... أوه... مغرٍ».

«أنت لن تبكي في ما بعد، أليس كذلك؟».

غمز لي، قائلًا: « ماذا... كلا».

«وليكن في علمك أنني لست من أولئك المهووسين غريبي الأطوار، ولن أطاردك، أو أطلب من جاك أن يخبرني أشياء عنكِ وأنتِ في الحمام».

«هذا... هذا جيد».

وبمجرد أن أرسينا القواعد الأساسية، انقلبت فوقه ورحت ألثمه حتى نسيت كل ما قد اتفقنا عليه للتو.

بعد ساعة ونصف الساعة، كنت مستلقية على ظهري أحدِّق في السقف المنخفض شاردة الفكر. تدغدَغ جلدي وانسحقت عظامي وتألمت في أماكن لم أكن أعرف فيها الألم، ولكنني كنت مأخوذة بإحساس غير عادي من السلام، كما لو كان جوهري قد ذاب بكل بساطة واستقر في شكل جديد. لم أكن متأكدة من أنني سأنهض على قدميَّ مرة أخرى.

ليس في مقدورك التنبؤ بما يمكن أن يحدث لك حين تسقط من ارتفاع شاهق.

لم تكن هذه أنا، بالتأكيد. احمرّ وجهي خجلًا حينما عدت بذاكرتي عشرين دقيقة فقط إلى الوراء. هل أقدمت حقًا... وهل هذه أنا من فعل... أخذت ذكرياتي تطارد بعضها في دوائر ساخنة. لم يسبق لي أن مارست الجنس بهذا الشكل من قبل، ولا في السنوات السبع التي قضيتها

مع باتريك. كان الأمر مثل مقارنة شطيرة من الجبن مع... ماذا؟ أشهى المأكولات الدسمة؟ شريحة لحم ضخمة؟ ندَّت عني ضحكة لا إراديًا فوضعت يدي على فمي. شعرت بأنني إنسانة أخرى تمامًا.

كان سام يغط في سبات عميق بجواري، التفتّ برأسي لأنظر إليه. أوه يا إلهي، فكرت، متعجبة من معالم وجهه، وشفتيه... كان من المستحيل أن تنظر إليه ولا تراودك نفسك أن تلمسه. تساءلت عما إذا كان ينبغي أن أقرّب وجهي قليلًا ويدي بحيث أستطيع أن...

«مهلًا» قال بهدوء، عيناه يغشاهما النوم.

... وعندئذٍ صدمتني الخاطرة.

يا إلهي. لقد أصبحتُ واحدة منهن.

* * *

ارتدينا ملابسنا فيما يشبه الصمت. عرض عليَّ سام تحضير الشاي، ولكنني تعللت بضرورة العودة إلى المنزل للتحقق من رجوع ليلي، «كما أن عائلتها في عطلة أيضًا»، مررت أصابعي على شعري الذي تلبَّد.

«بالتأكيد. حسنًا. هل تريدين الذهاب الآن؟».

«نعم... إذا سمحت».

أحضرتُ ملابسي من الحمام، وقد اعتراني فجأة شعور باستعادة الوعي والاتزان. لم أستطِع السماح له بأن يرى كم كنت مختلة التوازن. كل ذرة من كياني كانت تركز على محاولة النأي بنفسي من جديد، وهو ما جعلني أبدو خرقاء بعض الشيء. عندما خرجت كان قد أتم ارتداء ملابسه وشرع ينظِّف ويرتِّب المكان. حاولت أن أتحاشى النظر إليه. كان الأمر أيسر على هذا النحو.

«هل يمكنني اقتراض هذه الملابس للعودة بها إلى البيت؟ ملابسي لا تزال مبللة».

«بالتأكيد. كل ما هنالك...». دس يده في درج وأخرج منه كيسًا بلاستيكيًا.

أخذته ووقفنا هناك في الفضاء المعتم.

«كانت... ليلة لطيفة».

«لطيفة»، نظر إليَّ كما لو كان يحاول فهم شيء ما، وكرر «الطيفة».

عندما ركبنا دراجته النارية في تلك الليلة الرطبة، حاولت جاهدة ألا أريح خدي على ظهره. وقد أصر على إقراضي سترة جلدية، رغم أنني أصريت على أنني سأكون على ما يرام. وبعد أن قطعنا بضعة أميال في الطريق، كان الجو باردًا وكنت سعيدة بذلك. وصلنا إلى شقتي قبيل الحادية عشرة إلا الربع، رغم أنني اضطررت للتحقق عندما رأيت الساعة. شعرت كأنني عشت عدة أعمار منذ أن أقلَّني.

نزلت عن الدراجة وبدأت أخلع سترته، لكنه دفع مسند الدراجة إلى الأسفل بكعبه. «إننا في وقت متأخر من الليل. اسمحي لي على الأقل أن أصحبك إلى الشقة».

ترددت، «حسنًا، إذا كنت ستنتظر يمكن أن أرد لك ملابسك».

حاولت أن أبدو لا مبالية. هزَّ كتفيه وتبعني إلى الباب.

بدأنا نصعد السلم على صوت الموسيقى التي تغرق المدخل. عرفت على الفور من أين تصدر. رحت أعرج بخفة أسفل الممر، حتى توقَّفت خارج الشقة وفتحت الباب ببطء. وقفت ليلي في منتصف الصالة، والسيجارة في يد وكأس النبيذ في الأخرى. كانت ترتدي فستانًا مزهرًا أصفر اللون اشتريته من بوتيك للملابس الكلاسيكية في الأيام الخوالي لما كنت أهتم بما أرتديه. تسمَّرت في مكاني محدِّقة، ولعلّي لمَّا لاحظتُ ما كانت ترتديه أيضًا انعقد لساني، شعرت بسام يمسك ذراعي.

«سترة لطيفة يا لويزا!».

رفعت ليلي قدمها قليلًا. كانت ترتدي حذائي الأخضر اللامع. «لماذا لا ترتدين هذه؟ لديكِ كل هذه الملابس المجنونة ولكنك تكتفين بارتداء الجينز والقمصان وتلك الأشياء كل يوم. أشياء مملة جدًا!».

مشت إلى غرفتي وعادت بعد دقيقة واحدة، ممسكة في يدها بذلة ذهبية لامعة من موديلات السبعينيات اعتدت أن ألبسها مع حذاء بني، «أعني، انظري إلى هذا! لديَّ الآن طقم كامل سيحسدني الناس عليه».

عندما استطعت الكلام قلت لها:»اخلعي ملابسي».

«ماذا؟».

«هذه الجوارب، اخلعيها». خرج صوتي مخنوقًا ولا يمكن التعرف عليه.

نظرت ليلي نحو الأسفل إلى الجوارب ذات الخطوط السوداء والصفراء. «لا، بكل جدية، لديك عتاد لا بأس به من الملابس الكلاسيكية هناك، ماركة بيبا، دي في إف. وذاك الفستان الأرجواني من شانيل. هل تعرفين قيمة هذه الأشياء؟».

«قلت اخلعيها».

ربما بعد أن لاحظ صلابتي المفاجئة، بدأ سام يدفعني إلى الأمام، «انظروا، لماذا لا نذهب إلى غرفة المعيشة و...».

«لن أتحرَّك من مكاني حتى تخلع تلك الجوارب أولًا».

لوَت ليلي قسمات وجهها.

«يا إلهي. لا داعي لكل هذا!».

كنت أغلي من الغضب وأنا أرقب ليلي تشرع في خلع الجوارب المخطَّطة كخطوط جسم النحلة، وتركلها بعيدًا.

«لا تمزِّقيها!».

«إنها مجرد زوج من الجوارب».

«ليست مجرد زوج من الجوارب. إنها... هدية».

«حتى إن كان، تبقى زوجًا من الجوارب». قالتها متمتمة.

وأخيرًا انتهت من خلعهما، صانعة كومة سوداء وصفراء اللون على الأرض. في الغرفة الأخرى سمعت قعقعة الشماعات حيث كان من المفترض أنه يتم استبدال بقية ملابسي على عجل.

بعد لحظة، عادت ليلي إلى غرفة المعيشة، مرتدية ملابسها الداخلية فقط. انتظرت حتى تيقَّنت من أنها قد لفتت انتباهنا، ثم سحبت فستانًا قصيرًا ببطء وبطريقة مسرحية على رأسها، اهتزت قليلًا عندما نزل على فخذيها النحيلين، الشاحبين. ثم ابتسمت لي ابتسامة حلوة. «أنا ذاهبة إلى الملهى. لا تنتظريني. كم هو رائع أن أراك مرة أخرى، سيد...».

قال سام: «فيلدينغ».

«السيد فيلدينغ». ابتسمت لي. ابتسامة لم تكن ابتسامة على الإطلاق، وخرجت ثم صفعت الباب صفعًا.

أطلقت تنهيدة مرتعشة، ثم مشيت ولملمت الجوارب. جلست على الأريكة وقمت بفردها وفحصها حتى أتأكد من عدم وجود تمزقات أو حروق سجائر عليها.

جلس سام بجواري، قائلًا: «أنتِ بخير؟».

« قلت في نهاية المطاف»: «أعلم أنك تعتقد الآن أنني مجنونة، لكن تلك الجوارب كانت...».

«لست مضطرة للشرح».

«كنتُ شخصًا مختلفًا. كانت تعني – كنت – لقد أعطاني..». تم اختنق صوتي.

جلسنا هناك في الشقة يخيِّم علينا الصمت المطبق. كنت أعرف أنني يجب أن أقول شيئًا ولكن تاهت مني الكلمات، وكان هناك ما يشبه الورم الهائل في حلقي.

خلعت سترة سام، ومدّيتها له قائلة: «أنا بخير. لستَ مضطرًا للبقاء».

شعرت بعينيه ترنوان إليَّ ولكنني لم أرفع عينيّ من على الأرض.

«سأترك لكِ الأمر تسوّينه بنفسك».

عندها، وقبل أن أتمكن من قول أي شيء آخر، كان قد غادر المكان.

الفصل الرابع عشر

كنت متأخِّرة على ميعاد مجموعة الدعم النفسي. وبعد أن تركت لي ليلي كوبًا من القهوة، ربما كنوعٍ من الاعتذار، وجدتها وقد خلعت سروالها الأخضر وتركته على أرضية الرِّدهة، ونسيت علبة من الآيس كريم لتذوب على أحد الأركان في المطبخ، وأخذت مفتاح شقتي، ومعه مفتاح السيارة، لأنها لم تستطع العثور على مفتاحها، واستعارت الباروكة الخاصة بي وخرجت بها ليلًا من دون إذن مني، لأجدها على أرضية غرفة النوم. وحين وضعت الباروكة على رأسي بدوت كما لو أن كلب حراسة إنجليزي عجوزًا قد فعل شيئًا لا يصح ذكره برأسي.

وبوصولي إلى ساحة الكنيسة كان الجميع ينتظرون هناك. أفسحت لي ناتاشا مكانًا حتى أتمكن من الجلوس على الكرسي البلاستيكي إلى جوارها.

قال مارك الذي كان يحمل كوبًا من الشاي في يده: «سوف نتحدَّث اليوم عن العلامات التي تدلنا على أن علينا المضي قدمًا في الحياة، وليس بالضرورة أن تكون هذة العلامات آيات ضخمة، بل ربما تكون ببساطة، الدخول في علاقة جديدة، أو عمل جديد، أو ملابس جديدة، أو أي شيء آخر، أي أمور بسيطة قد تشعرنا أنه يمكننا تجاوز الحزن. المثير للدهشة حقًا، هو أننا لا نلحظ الكثير من هذه العلامات، التي تمرُّ علينا مرور الكرام من دون أن نراها، أو من دون أن نعترف بها، نظرًا لشعورنا بالذنب من مجرد المضيّ قدمًا والاستمرار في حياتنا».

قال فريد: «لقد انضممت إلى أحد مواقع المواعدة، اسمه من «مايو إلى ديسمبر»».

سرت بعض الهمهمات المنخفضة المؤيدة للفكرة.

ارتشف مارك رشفة من كوب الشاي خاصته: «هذا مشجِّع يا فريد، ما الذي تطمح إلى الوصول إليه من خلال هذا الموقع؟ هل تود الحصول على بعض الصحبة؟ لقد ذكرت لنا من قبل أنك تفتقد وجود شخص تخرج معه عصر يوم الأحد من كل أسبوع، وتتمشيان معًا بجوار بحيرة البط، كما كنت تفعل أنت وزوجتك، أليس كذلك؟».

«أوه كلا، إن هذا الموقع من أجل ممارسة الجنس عبر الإنترنت».

غُصَّ مارك بالشاي في فمه. وسادت لحظة صمت ثم ناوله أحدهم منديلًا ليمسح الشاي من على بنطاله.

«الجنس عبر الإنترنت. أليس ذلك ما يفعله الجميع؟ لقد اشتركت في ثلاثة مواقع». ثم رفع فريد يده ليعدّهما: «موقع من مايو إلى ديسمبر، وهذا يضم الفتيات اللاتي يحببن الرجال الكبار سنًا، وموقع «شوجار بابا» ويضم الفتيات اللاتي يفضلن الرجال الأكبر سنًا ولديهم أموال، وموقع... إمم... «هوت ستودز» وهو موقع غير محدَّد المعالم».

خيَّم الصمت لفترة قصيرة أخرى.

قطعتها ناتاشا بقولها: «من اللطيف أن تكون متفائلًا يا فريد».

«وماذا عنكِ يا لويزا؟».

ترددت مع وجود جاك أمامي، ثم فكرت في نفسي اللعنة، وقلت: «لقد خرجت في موعد غرامي هذا الأسبوع».

صدرت همهمات عن البعض، واحمرّ وجهي قليلًا، في الواقع لم يكن في مقدوري التفكير في تلك الليلة من دون أن يكتسي وجهي بحمرة الخجل.

«وكيف سار الأمر؟».

«كان... مدهشًا».

قالت ناتاشا: «لقد فتنت لويزا أحدهم، لقد فتنته كليا».

فعقَّب ويليام: «انظروا إليها إن وجهها يشرق بهذا الوميض».

وقال فريد: «هل اتخذ خطوات جادة في علاقتكما أو أي شيء، وهل تمكَّنتِ من عدم التفكير في بيل؟».

«لم أفكر فيه بالقدر الذي يمنعني من إقامة العلاقة... لقد شعرت أنني أود القيام بشيء.شيء يجعلني أشعر بأنني لا أزال على قيد الحياة».

سمعت التمتمات المؤيِّدة بعد عبارتي الأخيرة. لقد كان ذلك هو ما نصبو إليه جميعًا، أن نتحرَّر من أحزاننا، أن نخرج إلى الحياة بعيدًا عن عالم الأموات فنصف قلوبنا دفينة هناك معهم، أو حبيسة لوح البورسلان الذي يحمل أسماءهم فوق قبورهم. وانتابني شعور طيب لقولي شيئًا إيجابيًا لمرة بينهم.

أومأ مارك مشجعًا: «أعتقد أن ذلك صحّي للغاية».

أصغيت إلى سونيل يقول إنه بدأ في سماع الموسيقى مرة أخرى، وإلى ناتاشا وهي تخبرنا أنها نقلت بعض صور زوجها من غرفة المعيشة إلى غرفة نومها، «حتى لا ينتهي بي الحال أتحدث عنه في كل مرة يزورني فيها أحدهم»، وتوقَّفت دافني عن تشمُّم قمصان زوجها من دون أن يراها أحد، وقالت: «حتى أكون صادقة معكم، لم تعد قمصانه تحمل رائحته، ربما كانت مجرَّد عادة تملَّكتني».

«وماذا عنك يا جاك؟».

كان لا يزال يبدو بائسًا حين قال: «أعتقد أنني أخرج في الآونة الأخيرة أكثر من المعتاد».

«هل تحدَّثت مع والدك بشأن مشاعرك؟».

«كلا».

حاولت ألّا أنظر نحوه وهو يتحدَّث، فقد انتابني شعور بالغرابة كوني لا أعلم ما حدود معرفته عن علاقتنا.

«ولكنني أعتقد أنه مغرم بإحداهن».

سأله فريد: «أتعني المزيد من الهوس الجنسي؟».

«كلا، أعني هو واقع في حب أو أتبادل الإعجاب مع إحداهن».

شعرت بوجنتيَّ تحمرَّان، وانحنيت لأحك بيدي علامة غير مرئية في فردة حذائي في محاولة لإخفاء وجهي.

«وما الذي جعلك تظن ذلك يا جاك؟».

«بدأ في التحدث عنها بينما كنا نتناول الإفطار معًا، وقال إنه يعتقد أنه سيتوقف عن الدخول في علاقات عشوائية مع النساء، وأنه التقى بواحدة يظن أنه يرغب في الاستمرار معها».

تهلَّل وجهي مشرقًا كمنارة مضيئة، ولا أستطيع تصديق أن أحدًا من الجالسين في الغرفة لم يلحظ ذلك.

«هل تعتقد إذن أنه أدرك أن علاقاته الكثيرة العابرة لم تكن صحية؟ ربما كان في حاجة إلى بعض الرفقة قبل أن يقع في الحبِ مرة أخرى».

قال ويليام: «لقد دخل في الكثير من العلاقات العابرة، الكثير في الواقع».

سأله مارك: «جاك؟ كيف تشعر حيال ذلك التغير؟».

«ينتابني مزيج غريب من المشاعر، فأنا أفتقد أمي، ولكنني أعتقد أنه من الجيد أن يمضي قدمًا في حياته».

حاولت تخيُّل ما قاله سام. هل ذكر اسمي؟ بإمكاني تخيل كليهما في عربة القطار الصغيرة، يتحدَّثان معًا وهما يشربان الشاي ويتناولان الخبز المحمَّص. شعرت كما لو أن وجنتي جمرة من النار، وفكرت في أنني لستُ على يقين من رغبتي في أن يقفز سام إلى افتراضات مبكِّرة. كان ينبغي أن أكون أكثر وضوحًا بشأن ما حدث، وأنه لا يعني دخولنا في

علاقة جادة. كان ذلك مبكرًا للغاية، ومبكرًا على أن يناقشه جاك هكذا أمام الجميع.

قالت ناتاشا: «وهل قابلت تلك السيدة؟ هل أحببتها؟».

«أجل قابلتها وكم كان ذلك مزعجًا».

حدَّقت مشدوهة.

«لقد طلب أبي منها الحضور لتمضية اليوم معنا وتناول الغداء، وكان وجودها أشبه بالكابوس. كانت ترتدي قميصًا ضيقًا للغاية، وأخذت تلف ذراعها حولي كما لو كانت على معرفة وثيقة بي، وتضحك بصوت مرتفع ومزعج، وحين ذهب أبي إلى الحديقة ظلَّت تنظر إليَّ بعينيها الكبيرتين المستديرتين وتسألني وهي تميل رأسها بشكل ينمّ عن عدم رغبتها في وجودي: «وكيف حالك إذن؟».

قال ويليام: «أوه... تميل رأسها». وتبعته أصوات تمتمة بين الجميع.

«وحين عاد أبي راحت تقهقه وتحرّك شعرها في محاولة منها أن تبدو مراهقة على الرغم من أنه من الواضح أنها على الأقل في الثلاثينيات من العمر». وكمش أنفه باشمئزاز.

قالت دافني وهي تحرك عينيها في كلا الجانبين: «الثلاثينيات، تخيلوا!»

«في الواقع أنا أفضل تلك السيدة التي كانت تسألني عمَّا سيقوم به أبي، على الأقل لم تكن تتظاهر بأنها صديقتي المقرَّبة».

لم أتمكن من سماع بقية ما قاله، فقد بدأ صوت طنين جرس مرتفع يضرب أذني، وغطَّى على كل الأصوات الأخرى. كيف يمكن أن أكون بهذا الغباء؟ وتذكَّرت فجأة جاك وكيف حرك عينيه في المرة الأولى التي رأى فيها سام يتحدَّث معي، كانت بمثابة تحذير لي، ولكنني كنت غبية بما يكفي لأتجاهله.

شعرت بجسمي يغلي ويرتعد. لا يمكنني البقاء هنا. لا يمكنني سماع المزيد، تمتمت: «آسفة... لقد تذكرت أن لديَّ موعدًا، وعليَّ الذهاب». لملمت أشيائي ووقفت: «تقبَّلوا اعتذاري».

«هل كل شيء على ما يرام، لويزا؟».

«أنا بأفضل حال، ولكن عليَّ الذهاب سريعًا». وهرعت إلى الباب، وأنا أجبر ابتسامتي الزائفة على المكوث على وجهي لدرجة شعرت معها بالألم.

كان واقفًا هناك، بالطبع ها هو هناك قد أوقف دراجته النارية لتوّه في ساحة انتظار السيارات وكان يخلع خوذته. خرجت من صالة الكنيسة وتوقَّفت أعلى الدرج، مفكرة في أي وسيلة تمكنني من الوصول إلى سيارتي من دون المرور عليه، ولكن دون جدوى. كان الجانب الحسّي من عقلي لا يزال يتذكر هيئته قبل ذلك الموقف، وحدوث ذلك الارتباك فانقسم عقلي بين المتعة المتدفقة التي سرت في جسدي مع كل لمسة منه، وذلك الشعور بالغضب العارم وفوران الدم في عروقي بسبب شعوري بالإهانة.

«مرحبًا»، قالها بمجرد أن لمحتني عيناه المفعمة بالمتعة، مبتسمًا ابتسامة واسعة. ذلك الساحر الجذَّاب اللعين.

مشيت بخطوات متمهِّلة حتى يتمكن من رؤية الألم الذي تحمله قسمات وجهي. لم أبال، شعرت فجأة كما لو كنت ليلي، لن أقبل بمداراته، فلست أنا من يغادر فراش أحدهم إلى فراش آخر هكذا بكل بساطة.

«عملٌ جيد أيها الوغد، أيها الوغد الحقير». ثم بصقت وهرولت إلى سيارتي متجاوزة إياه قبل أن يتحوَّل الاختناق في صوتي إلى بكاء ونحيب.

وما تبقّى من ذلك الأسبوع لم يكن أفضل من بدايته، كما لو كان أحدهم قد أعطى إشارة للمصائب التي لا تأتي فرادى. أصبح ريتشارد أكثر تسلطًا وإزعاجًا، ودائم الشكوى من أننا لا نوزِّع ما يكفي من الابتسامات على العملاء، وأن أسلوبنا المفتقر إلى «الحركات المبهجة» قد دفع العملاء إلى تركنا والذهاب إلى حانة وينجز إن ذا إير. هذا وقد تسبَّبت تقلبات المناخ، في تأجيل الكثير من الرحلات، وهكذا فقد عجَّ المطار بالمسافرين الغاضبين وسيئي المزاج. ومع تضارب المواعيد وضغوط الوقت، دخل الحمّالون في

إضراب عن العمل. قالت فيرا بعصبية متوجهة إلى عميل طلب رغوة أقل على مشروب الكابتشينو: «وماذا تنتظر؟ عطارد يسير في دورة عكسية».

وفي المنزل، عادت ليلي مغتمَّة. جلست في غرفة معيشتي ملتصقة بهاتفها المحمول، وأيًا كان ما تفعله بدا من الواضح أنه لا يدخل عليها البهجة. جعلت تحدِّق من النافذة، بوجه متحجِّر يخلو من التعبيرات، تمامًا كما كان يفعل والدها، كما لو كانت مصابة بالشلل مثله. حاولت أن أشرح لها أن ويل هو من أعطاني الجورب الطويل ذا اللونين الأصفر والأسود، وأن أهميته لم تكن في ألوانه أو خامته بل في كونهما هديته.

ولكنها أجابت: «حسنًا، حسنًا، الجورب الطويل. لا يهم».

لم أهنأ بالنوم لثلاث ليالٍ متتالية، كنت أحدِّق فيها إلى سقف غرفتي تتأجَّج داخل صدري جمرة مشتعلة من فرط الغضب. أجل شعرت بالغضب من سام، ولكنني كنت أكثر غضبًا من نفسي. بعث لي رسالتين نصيتين بريئتين هزليتين لا تحملان أكثر من علامات استفهام «؟؟؟»، ولم أثق في قدرتي على الرد. لقد تصرفت بالأسلوب النسائي الكلاسيكي المعهود الذي تتبعه أي امرأة متجاهلة كل ما يقوله الرجل ويفعله مفضلة الإصغاء إلى ما تصرُّ عليه في قلبها: سيكون الأمر مختلفًا معي. وكنت أنا من بدأتُ بتقبيله، أنا من بدأتُ الأمر، ولا يمكنني إلا لوم نفسي.

حاولت أن أقنع نفسي بأنني على الأقل كنت محظوظة بما يكفي لفهم الأمر مبكرًا، وعلى الرغم من علامات التعجب القليلة التي شعرت بها داخلي، فإن اكتشاف أمره الآن أفضل من اكتشافه بعد ستة أشهر مثلًا! كما حاولت أن أرى الأمر من منظور مارك: حسنًا من الجيد أنك تحركت في أي اتجاه! ويمكنني اعتبار ما حدث لك كخبرة حياتية تستفيدين منها! على الأقل لقد استمتعت بالعلاقة الجنسية! ثم وجدت الدموع الغبية تنهمر ساخنة من عينيَّ الأكثر غباء لأمسحها مخبرة نفسي أن هذا ما أجنيه من السماح لأي شخص بالاقتراب مني.

تعلمنا في مجموعة الدعم النفسي أن الاكتئاب يحب الفراغ، وأنه من الأفضل أن نشغل أنفسنا دومًا بالقيام بشيء ما، أو على الأقل ننشغل بالتخطيط لشيء ما. كما أن وهم السعادة أو اصطناعها يمكن أن يخلق شعورًا بها بداخلك من دون أن تقصد. وقد أخبرت ليلي بعد أن أصابني السأم من رؤيتها مستلقية على الأريكة لدى عودتي إلى المنزل كل مساء، وسأمي من محاولة تجاهل شعوري بالتوتر من ذلك، أخبرتها ليلة يوم الجمعة أننا سوف نذهب إلى السيدة ترينر في اليوم التالي.

«ولكنك أخبرتني أنها لم تردّ على خطابك».

«ربما لم يصلها الخطاب، سوف يخبر السيد ترينر عائلته بأمرك على أي حال، ومن ثم يمكننا الذهاب وزيارتها قبل أن يحدث ذلك».

لم تقل شيئًا، واعتبرت ذلك علامة على القبول.

وجدت نفسي تلك الليلة أقلب في الملابس التي أخرجتها ليلي من حقيبة التخزين، تلك الملابس التي أهملتها لعامين سابقين منذ مغادرتي انجلترا وذهابي إلى باريس. لم تكن هناك حاجة لارتدائها، لقد شعرت أنني نفس ذلك الشخص منذ وفاة ويل.

والآن أشعر بأهمية ارتدائي لشيء يختلف عن الجينز التقليدي، على ألّا يكون كذلك رداء رقص أيرلنديًا أخضر اللون. وجدت بين ملابسي فستانًا أزرق قصيرًا كنت أحبه، وجدته مناسبًا لزيارة شبه رسمية كتلك، فقمت بكيّه ووضعه جانبًا. أخبرت ليلي أننا سنذهب في تمام التاسعة من صباح اليوم التالي، وذهبت إلى الفراش. كم هو مرهق أن تعيش مع شخص يعتقد أن عبارة تحوي أكثر من كلمة واحدة هي شكل من أشكال الثرثرة البشرية!

عقب عشر دقائق من إغلاقي باب غرفتي وجدت رسالة بخط اليد تمر من تحته.

عزيزتي لويزا

آسفة أنني استعرت ملابسك ذلك اليوم. وشكرًا لك على كل شيء.
أعلم أنني لا أُحتمل في بعض الأوقات.

آسفة ليلي XXX

ملحوظة: عليك أن ترتدي تلك الملابس، إنها أجمل بكثير من تلك التي ترتدينها حاليًا.

فتحت الباب، لأجد ليلي واقفة أمامه غير مبتسمة. أخذت خطوة إلى الأمام ومنحتني عناقًا حميمًا قصيرًا ولكنه قوي لدرجة تألمت معها ضلوعي، ثم استدارت من دون أن تتفوَّه بكلمة واختفت في حجرة المعيشة.

جاء صباح اليوم التالي أكثر إشراقًا علينا، وارتفعت فيه معنويات كلتينا قليلاً. قدنا السيارة لعدة ساعات إلى قرية صغيرة تسمى أوكسفوردشاير، مكان تميزه حدائق ذات أسوار، وخيام بلون أصفر فاقع وجدران حجرية بارزة. أخذت أثرثر في أي حوارات تافهة طيلة الرحلة، غالبًا لأخفي توتري من لقاء السيدة ترينر مرة أخرى. إن أصعب شيء في التحدُّث للمراهقين حقًا، هو أن أي شيء تقوله، حتى لو لم يكن متعمَّدًا، سوف تبدو كسيدة مسنَّة عجوز في حفل زفاف.

«ما الأشياء التي تحبين القيام بها إذن حين لا تكونين في المدرسة؟».

وتلقَّيت الإجابة عندما هزَّت كتفيها.

«ما الذي تعتقدين أنك سترغبين في القيام به بعد رحيلك؟».

ولم أتلقَّ منها سوى نظرة ذات مغزى.

«لا بد أن هناك هوايات كنت تحبين ممارستها، أليس كذلك؟»

سردت لي قائمة سريعة: القفز بالخيول، ممارسة لعبة لاكروس، والهوكي، والعزف على البيانو (حين كنت في الصف الخامس) والركض عبر المدينة، وممارسة كرة المضرب.

«كل ذلك؟ ولم ترغبي في الاستمرار في ممارسة أي منها؟».

لوت أنفها وهزت كتفها في آن واحد ثم رفعت ساقها أمامها على تابلوه السيارة في إشارة واضحة إلى أن المحادثة قد انتهت.

بعد أن قطعنا عدة أميال بدَّدْت الصمت قائلة: «كان والدك محبًا للسفر».

«لقد ذكرتِ لي ذلك من قبل».

«قال لي إنه جاب العالم بأسره ما عدا كوريا الشمالية وديزني لاند. كان في مقدوره أن يحكي لي قصصًا عن أماكن لم أسمع عنها في حياتي».

«قد يشيخ الناس ولم يُقدِموا على مغامرة واحدة في حياتهم، وكأنه لا يوجد مكان يستحق الاكتشاف. أما الأشخاص دائمو السفر في الفترة ما قبل دخول الجامعة فمملون على نحو لا يصدَّق. تجدهم يثرثرون حول حانة اكتشفوها في كو فانج يان، أو كيف تعاطوا نوع مخدر مدهش في غابة مطيرة في دولة بورما».

«ليس عليكِ أن تكوني مثلهم».

«أجل، ولكنكِ بمجرد أن تدخلي في واحد من مجموعة فنادق ماندريان أوريانتال ترينهم جمعًا هناك». ثم تثاءبت قبل أن تقول: «لقد التحقت بواحدة من المدارس في منطقة قريبة من هنا». وأطلَّت من النافذة: «كانت المدرسة الوحيدة التي أحببتها حقًا، وكانت لي صديقة تُدعى هولي».

«وماذا حدث؟».

«سيطرت على أمي فكرة أنها ليست نوع المدارس المناسبة لي. قالت إنها كانت خارج المنافسة بين نظيراتها من المدارس الداخلية أو شيء من هذا القبيل. كانت مجرد مدرسة داخلية صغيرة. وليست أكاديمية، لذا قامت بنقلي منها. ومن بعدها لم أتمكَّن من تكوين صداقات. ما الهدف من تكوين صداقات إذا كانوا سيقومون بنقلي ثانية؟».

«وهل بقيت على تواصل مع هولي؟».

«ليس حقًا، فما من فائدة من التواصل إذا لم نكن قادرين على رؤية بعضنا بعضًا».

راودتني ذاكرة ضبابية حول حميمية الصداقات بين الفتيات في سن المراهقة، كانت تحمل شغفًا أكثر من أي صداقة أخرى.

«ما الذي ستفعلينه بعد ذلك في اعتقادك؟ أعني إذا لم تعودي إلى المدرسة ثانية؟».

«لا أحب التفكير في أمور لم تحدث بعد».

«ولكن يتعيَّن عليكِ التفكير في شيء ما يا ليلي».

أغلقت عينيها لدقيقة، ثم أنزلت ساقها من فوق التابلوه، وأزالت جزءًا من طلاء أظافر سبابتها، ثم قالت: «لا أدري يا لويزا، ربما سأتخذ منك قدوة وأحاكي تجربتك المذهلة وأقوم بكل الأشياء المثيرة التي تقومين بها».

أخذت ثلاثة أنفاس عميقة، حتى أمنع نفسي من التوقف فجأة في منتصف الطريق السريع. وقلت لنفسي: هدّئي أعصابك. ثم، حتى أضايقها، قمت بتشغيل الراديو على المحطة رقم 2 بصوت مرتفع للغاية وتركته لما تبقى من الطريق.

* * *

تمكنا من الوصول إلى عنوانها «فور أسريز لين» بمساعدة رجل من أهل البلدة كان يقوم بتمشية كلبه، وتوقفنا أمام بناية «فوكسيز كوتاج» وكان عبارة عن مبنى أبيض متوسِّط الارتفاع بسطح مثلث الشكل. وفي الخارج انتشرت الأزهار حول السور الحديدي وفي بداية ممر الحديقة، كما كانت هناك براعم جميلة مزهرة تصارع من أجل حجز مكان لها في الأصص المصفوفة بعناية.

ووقفت سيارة هاتشباك صغيرة في المكان المخصَّص لها أمامه.

قالت ليلي محدِّقة من النافذة: «لقد تدهور بها الحال، وفعل الزمن بها فعلته».

«إنه منزل جميل».

«بل إنه أشبه بصندوق حذاء».

أوقفت المحرك، ثم قلت لها: «اسمعي يا ليلي، عليك أن تعرفي قبل أن ندخل أنه ليس عليك أن تتوقَّعي الكثير، فالسيدة ترينر من نمط الشخصيات

الرسمية، وتحب الأسلوب الراقي في التعامل، فربما تحدثك كما لو كانت معلِّمة. أعني لا تتوقَّعي منها أن تقوم بعناقك كما فعل السيد ترينر».

لوَت ليلي أنفها ثم قالت: «السيد ترينر رجل منافق، يتكلم كما لو كنت شيئًا عظيمًا بالنسبة له، ولكنه ليس أكثر من عضو تناسلي مشوَّه».

«ورجاء لا تستخدمي مثل هذه الألفاظ والتعبيرات أمامها».

«لا فائدة من التظاهر بأنني شخص آخر يا لويزا».

جلسنا في مكاننا لفترة قصيرة، وقد أدركت أن أيًا منا لا يرغب في أن يكون الشخص الذي يطرق على باب المنزل. قلت وأنا أمسك هاتفي: «هل عليَّ محاولة الاتصال بها مرة أخرى؟». وكنت قد حاولت الاتصال بها ذلك الصباح مرتين، ولكن كان الهاتف يحوِّلني إلى البريد الصوتي مباشرة.

قالت ليلي فجأة: «لا تخبريها مباشرة من أكون، أعني... إنني أرغب في رؤية من تكون أولًا قبل أن نخبرها».

قلت بلطف: «طبعًا»، وكانت ليلي قد خرجت من السيارة قبل أن أتمكن من قول أي شيء آخر، وتوجَّهت صوب البوابة الأمامية وأخذت تدق الجرس.

فعل الزمن فعلته بالسيدة ترينر وترك بصمته عليها؛ فقد شاب شعرها البني الغامق وتحوَّل إلى اللونين الرمادي والأبيض، وبات قصيرًا مما جعلها تبدو أكبر سنًا من عمرها الحقيقي، وبدت كما لو كانت قد تعافت لتوِّها من مرض خطير. ربما كانت أقل من وزنها الذي كانت عليه آخر مرة التقيتها فيها بنحو 16 رطلًا، كما ظهرت هالات سود أسفل عينيها. نظرتْ إلى ليلي بارتباك شخص لم يكن يتوقَّع قدوم أي زوار إليه، في أي وقت، ثم رأتني واتسعت عيناها قائلة: «لويزا؟».

تقدَّمت خطوة إلى الأمام مادَّة لها يدي: «مرحبًا سيدة ترينر، لقد كنَّا في الجوار، ولا أعلم ما إذا كنت قد تلقَّيت الخطاب الذي أرسلته لك، ولكنني فكَّرت في المرور عليك لإلقاء التحية..».

تبدَّد صوتي الذي كان يحمل نبرة مبتهجة زائفة ومصطنعة. كانت المرة الأخيرة التي رأتني فيها وأنا أفرغ غرفة نوم ابنها من متعلقاته قبل وفاته، وقبلها كنت معها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وها أنا أراقبها وهي، تعيش هذين الموقفين برؤيتها لي مرة أخرى. «أعجبتنا حديقتك كثيرًا».

قالت ليلي: «إنها ورود من نوع ديفيد أوستين».

نظرت إليها السيدة ترينر كما لو كانت تلحظ وجودها للمرة الأولى وابتسمت ابتسامة بسيطة مرتعدة: «أجل، إنها هي كم أنت ماهرة، آسفة، لا يزورني الكثيرون الآن، المعذرة ما اسمك؟».

قلت لها وأنا أراقب ليلي وهي تصافح السيدة ترينر، متفحِّصة إياها أو تدرسها كما أرادت «إنها ليلي».

وقفنا هناك أمام باب المنزل لدقيقة، وفي النهاية كما لو أنه لم يكن أمام السيدة ترينر بديل آخر دفعت الباب لتسمح لنا بالدخول: «أعتقد من الأفضل أن تتفضَّلوا بالمنزل».

كان المكان ضيقًا وسطحه منخفضًا لدرجة أنني أخفضت رأسي وأنا أنتقل من الصالة إلى المطبخ، انتظرت السيدة ترينر حتى تصنع الشاي وأنا أرقب ليلي وهي تدور بلا هوادة داخل غرفة المعيشة، متفحِّصة قطعًا قليلة من الأنتيكات المصقولة بعناية، والتي ما زلت أتذكرها من أيامي في جرانتا هاوس، ممسكة القطع ورافعة إياها لأعلى ثم واضعة إياها في مكانها ثانية.

«وكيف كان حالك؟»، كان صوت السيدة ترينر يخلو من أي حماسة، كما لو كانت لا تسعى للحصول على إجابة.

«أوه، في خير حال، شكرًا لك».

فترة صمت طويلة.

«إنها قرية جميلة».

قالت السيدة ترينر وهي تصب الماء المغلي في إناء الشاي: «أجل، لم أستطِع البقاء في ستورتفولد». ولم يسعني حينها سوى تذكر ديلا وهي تجوب مطبخ السيدة ترينر القديم.

«هل تعرفين الكثير من الأشخاص هنا؟».

«كلا». وبدا جوابها كما لو كان ذلك هو السبب الوحيد لقدومها إلى هذا المكان: «هل يمكنك رفع إناء اللبن؟ لا يمكنني وضعه على هذه الصينية؟» تلت ذلك نصف ساعة ثقيلة من المحادثة، فقد بدا واضحًا أن السيدة ترينر التي كانت تتمتَّع بمهارة التعامل مع أي موقف اجتماعي، قد فقدت مهارتها في التواصل. بدا أن نصف عقلها فقط كان معي حين أتحدَّث. طرحتْ سؤالًا ثم أعادت طرحه ثانية بعد عشر دقائق، كما لو كانت قد فشلت في سماع الإجابة. وفكرت في أنها ربما تتعاطى مضادات الاكتئاب. أخذت ليلي في مراقبتها خلسة، وكانت الأسئلة الدائرة في خلدها تقفز على محيَّاها. جلست وأنا أشعر بتقلص معدتي، منتظرة حدوث شيء ما.

كنت أثرثر لأبدد الصمت، أتحدَّث عن وظيفتي البشعة، وعن الأشياء التي قمت بها في فرنسا، وأن أبويّ بخير، أشكرها... كنت أقول أي كلمات ممكنة لأقضي على السكون الثقيل الذي يجثم على الغرفة كلما صمتُّ. إلا أن حزن السيدة ترينر كان كالضباب الذي يرخي سدوله على المنزل بأسره. فإذا بدا أن السيد ترينر قد أعياه الحزن، فالناظر إلى السيدة ترينر يرى أن حزنها قد ابتلعها تمامًا. ليس هناك ما تبقَّى من السيدة النشيطة المتفاخرة التي عرفتها.

سألتني في النهاية: «ما الذي أتى بك إلى هذه المنطقة؟».

أجبت «إمم... كنت فقط أزور صديقًا لي».

«كيف تعرفتما إلى بعضكما؟».

«أنا أعرف والد ليلي».

«أمر لطيف». قالتها السيدة ترينر وابتسمت كلتانا ابتسامة باهتة. وراقبت ليلي منتظرة إياها أن تقول شيئًا، ولكنها تجمَّدت في مكانها، كما لو كانت هي الأخرى مدركة حجم الألم الذي يعتصر هذه السيدة.

تناولنا كوبًا آخر من الشاي معلّقين على جمال حديقتها للمرة الثالثة أو ربما الرابعة، وقاومت شعوري بأن تحمّلها لوجودنا كان يحتاج من جانبها لجهد كبير. لم تكن ترغب في وجودنا هناك. صحيح أنها مهذَّبة بالقدر الذي يمنعها من التصريح بذلك، لكن رغبتها في أن تكون بمفردها أمر لا تخطئه عين. فقد بدا ذلك في كل حركاتها وإيماءاتها، وكل ابتسامة تجبر نفسها عليها، وكل محاولة منها لإنهاء المحادثة. وفكَّرت في أنها في اللحظة التي سنغادر فيها سوف تنزوي ببساطة على مقعدها وتبقى هناك، أو ستصعد للطابق العلوي لتستلقي في فراشها.

كما لاحظت أمرًا آخر: ألا وهو الغياب التام للصور من على الجدران. الصور ذات الأطر الفضية التي كان يعجّ بها منزلها القديم تحمل صور أبنائها، أحفادها، خيولهم، إجازات التزلج، صورًا للأجداد من بعيد، كلها غابت عن جدران ذلك المنزل الصغير. كانت هناك صورة صغيرة لحصان برونزي اللون، وصورة لبعض الأزهار... ولمنظر طبيعي، ولكن لم تكن هناك صور لأشخاص. وجدت نفسي أتململ في مقعدي، وأتساءل هل أفتقدهم ببساطة. ولكن كلا: إن هذا المنزل لا يحمل طابعًا شخصيًا على الإطلاق. وحينها فكرت في شقتي، وفشلي الذريع في إضفاء لمسة شخصية عليها أو السماح لنفسي بتحويلها إلى منزل دافئ. وانتابني شعور مفاجئ بالاكتئاب والحزن الشديد.

ما الذي فعلته بنا يا ويل ؟

قالت ليلي وهي تنظر إلى الساعة: «أعتقد أن الوقت قد حان لرحيلنا يا لويزا، لقد ذكرتِ أنك لا ترغبين أن نعلق في زحام المرور».

حدَّقت فيها قائلة: «ولكن...».

قالت بنبرة صوت أعلى وأكثر وضوحًا: «لقد قلتِ إنه لا ينبغي علينا البقاء طويلًا».

قالت السيدة ترينر ناهضة من مقعدها: «أوه، أجل إن المرور قد يكون مزعجًا للغاية».

كنت أحملق في ليلي محاولة الاعتراض على رحيلنا ثانية حين رن جرس الهاتف. جفلت السيدة ترينر، كما لو أن الصوت لم يكن مألوفًا بالنسبة لها. نظرنا إلى بعضنا بعضًا، متسائلين عما إذا كانت سترد عليه أم لا، وبدا أنها لن ترد في حضورنا فاستأذنت واتجهت إلى الغرفة الأخرى، حيث كان في مقدورنا سماعها ترد على الاتصال.

سألت ليلي: «ماذا تفعلين؟».

قالت بائسة: «أشعر أن كل شيء لا يسير على ما يرام».

«ولكن لا يمكننا الذهاب هكذا من دون إخبارها».

«لا يمكنني القيام بذلك اليوم، كل ما هنالك أن..».

«أعلم أن الأمر مرعب، ولكن انظري إليها بربك يا ليلي، أعتقد أن إخبارك لها بالأمر سوف يساعدها كثيرًا، أليس كذلك؟».

اتسعت عينا ليلي فجأة.

«تخبراني بماذا؟».

استدرت برأسي لأجد السيدة ترينر تقف دون حراك عند مدخل الصالة الصغيرة: «ما الذي تريدان إخباري به؟».

نظرت ليلي إليَّ، ثم عادت بنظرها إلى السيدة ترينر، وشعرت بالوقت يمر ببطء حولنا. ازدردت ليلي ريقها، ورفعت رأسها قليلًا قائلة: «نخبرك أنني حفيدتك».

سادت فترة صمت قليلة.

«أنكِ... ماذا؟».

«أنا ابنة ويل ترينر».

تردد صدى عبارتها عبر جدران الغرفة الصغيرة. انتقلت السيدة ترينر بنظرتها المحدقة نحوي في محاولة لتتأكد مني ما إذا كان ما تسمعه حقيقة أم مجرد مزحة سخيفة.

«ولكن... هذا مستحيل».

صمتت ليلي متراجعة.

فبدأت في محاولة التوضيح: «سيدة ترينر أعلم أن هذا الأمر بمثابة صدمة وأنه...».

لم تسمعني، كانت تحدق بشدة بليلي قائلة: «كيف يمكن أن تكون لابني ابنة لا أعرف عنها شيئًا».

ظهر صوت ليلي هامسًا: «لأن أمي لم تخبر أحدًا بالأمر».

«طيلة هذا الوقت؟ كيف يمكن أن يبقى أمرك سرًا طيلة هذا الوقت؟»، ثم استدارت نحوي سائلة: «هل كنت على علم بهذا الأمر؟».

ابتلعتُ ريقي: «كان هذا هو سبب إرسال خطابي لكِ، جاءت ليلي للبحث عني. كانت ترغب في التعرف إلى أسرتها. سيدة ترينر، لم نرغب في أن نتسبَّب لك في مزيد من الألم، كل ما أرادته ليلي هو التعرف إلى أجدادها ولم يسر الأمر على النحو المنشود مع السيد ترينر و..».

«ولكن ما كان ويل ليخفي عني أمرًا كهذا»، ثم هزت رأسها نافية، «أعلم أنه كان ليخبرني، إنه ابني».

قالت ليلي مادة ذراعها: «أنا مستعدة لإجراء اختبار دم لإثبات النسب إن أردتِ ذلك، فلا أريد شيئًا منك، ولست في حاجة للقدوم والبقاء معك هنا أو ما شابه. ولديَّ أموالي الخاصة إذا كان ذلك ما تفكرين فيه».

قالت السيدة ترينر: «أنا لست واثقة من...».

«ليس هناك داعٍ لكل هذا الذعر، أنا لا أحمل مرضًا معديا. كل ما هنالك أنك ستتعرفين إلى حفيدتك، يا إلهي!».

هوت السيدة ترينر في مقعدها واضعة يدها المرتعدة فوق رأسها.

«هل أنت بخير سيدة ترينر؟».

«لا أعتقد أنني..». أغمضت السيدة ترينر عينيها، كما لو كانت تعود بنفسها إلى مكان ما بعيد بداخلها.

«ليلي، أعتقد أن علينا الذهاب الآن. سوف أترك لك رقم هاتفي، سيدة ترينر. وسوف أعود ثانية حين تكون هناك فرصة لاستيعاب الأمر».

«مَن سيأتي؟ أنا لن أعود إلى هنا ثانية. إنها تظن أنني كاذبة. يا إلهي! تلك هي عائلتي؟».

حدَّقت ليلي في كلتينا غير مصدقة، ثم اندفعت إلى خارج الحجرة، مرتطمة بطاولة صغيرة مصنوعة من خشب أشجار جوز الهند. انحنيتُ لأعدل الطاولة وأعيد القطع الفضية الصغيرة.

بدت السيدة ترينر شاحبة من هول الصدمة.

«أنا آسفة للغاية سيدة ترينر، لقد حاولت أن أخبرك بالأمر مسبقًا قبل قدومها».

سمعت صوت صفع باب السيارة في الخارج.

أخذت السيدة ترينر نفسًا قبل أن تقول: «أنا لا أقرأ الخطابات التي لا أعرف مصدرها، هناك كومة من الخطابات هنا، ولا أرد على الكثير من الاتصالات الآن، فأنا لا أود سماع أي شيء». وكم بدت متحيرة، عجوزًا، مكسورة.

حملت أغراضي وذهبت مسرعة: «أنا آسفة، أنا حقًا آسفة».

قالت ليلي بمجرد أن دلفت إلى السيارة: «لا تقولي أي شيء، فقط لا تقولي أي شيء، اتفقنا؟».

جلست في مقعد السائق والمفتاح في يدي: «لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا أفسدتِ الأمر؟».

«كان في مقدوري الإحساس بشعورها نحوي من اللحظة التي نظرت فيها إليَّ».

«إنها أم فجعها فقدان ابنها، ومن الواضح أنها لا تزال حزينة عليه، وكان الخبر بمثابة صدمة كبيرة. وقد انطلقتِ في وجهها كالصاروخ، لماذا لم تمهليها وتمنحيها بعض الوقت لتهضم الخبر؟ لماذا تدفعين الجميع بعيدًا عنكِ؟».

«أوه، وما الذي تعرفينه عني بحق الجحيم؟».

«أعلم أنك تدمِّرين علاقتكِ بأي شخص يحاول التقرب منكِ».

«يا إلهي، هل الأمر متعلِّق بهذا الجورب الأحمق ثانية؟ وما الذي تعرفينه عن أي شيء؟ أنتِ تمضين حياتك داخل شقة كئيبة بمفردكِ ولا يزوركِ أحد. ومن الواضح أن والديكِ يريانكِ فاشلة. وليست لديكِ الشجاعة لترك وظيفتكِ المزرية التي هي أكثر الوظائف إثارة للشفقة في العالم».

«ليست لديكِ فكرة عن صعوبة الحصول على عمل هذه الأيام، لذا لا تخبريني...».

«أنتِ فاشلة، والأسوأ من كونكِ فاشلة هو أنك تُملين على الآخرين ما يجب عليهم فعله. من منحكِ ذلك الحق؟ لقد جلستِ هناك إلى جانب أبي وراقبته وهو يحتضر ولم تفعلي شيئًا حيال ذلك. لم تفعلي أي شيء! أنا لا أجد فيك أي ميزة تجعلني أستمع إلى نصائحكِ عن التصرف الأمثل».

بدا الصمت الذي تلى عبارتها تلك قاسيًا ومؤلما. حدَّقت في مقود السيارة. وانتظرت حتى تمكنت من التنفس بشكل طبيعي.

أدرت محرك السيارة لأقودها مسافة 120 ميلًا في صمت مطبق.

الفصل الخامس عشر

لم أرَ ليلي في الأيام التالية إلا قليلًا، وقد أراحني ذلك في واقع الأمر. حين كنت أعود من عملي كنت أرى آثار الفتات على الأرض أو الأكواب الفارغة التي تؤكد أنها كانت هنا. انتابني شعور غريب مرتين حين دلفت إلى شقتي بأن هناك ما يعكِّر صفوها، وكأن شيئًا قد حدث في داخلها لا أستطيع تحديد كنهه. ولكنني حين لم أجد شيئًا مفقودًا أو شيئًا لافتًا للانتباه، أدركت أن السبب وراء ذلك الشعور الغريب هو مشاركتي الشقة مع شخص ليس على وفاق معي. لقد سمحت لنفسي للمرة الأولى بالاعتراف أنني أشتاق إلى وحدتي وانفرادي بنفسي.

اتصلتُ بشقيقتي وكانت من الرحمة بما يكفي لكي لا تقول: «ألم أقل لكِ ذلك». حسنًا، ربما قالتها مرة واحدة.

همهمَت قائلة: «إن هذا هو أسوأ جانب في الأمومة». قالتها كما لو كنت أمًا أنا الأخرى بالفعل، «فمن المطلوب منك دائمًا أن تحافظي على هدوئك، وأن تكوني ذلك الشخص اللطيف العالم بكل شيء والعارف بكل أمر، الذي يستطيع التعامل مع كل موقف. وحين يكون توم وقحًا معي، أو حين أشعر بالضجر والتعب منه تتولَّد لديَّ رغبة في صفع الباب في وجهه، أو أن أقول له بأنه أحمق وقح، أو حتى أستخدم ألفاظًا نابية».

وكان ذلك تمامًا ما شعرت به.

علاقتي بالعمل أصبحت مزرية، فقد كنت أجبر نفسي على غناء ألحان مبهجة في سيارتي لأتمكن من القيادة إلى المطار.

ثم حان دور سام.

سام الذي لم أفكر فيه.

سام الذي لم أفكر فيه في الصباح، وأنا أنظر إلى جسدي العاري في مرآة الحمام. ولم أفكر في لمسته وهي تستكشف جسدي بطريقة جعلت من ندوبه ذات اللون الأحمر الفاقع غير مرئية كما لو لم تكن. ولم أفكر كيف أنني شعرت لليلة في حياتي أنني ما زلت حية وما زلت طائشة. سام الذي لم أفكر فيه وأنا أراقب المحبين وهم يتفحّصون جوازات صعودهم على متن الطائرة، ليعيشوا معًا مغامرة رومانسية -أو ربما ليمارسوا جنسًا مجنونًا - في مكان بعيد. سام الذي لم أفكر فيه وأنا في طريقي من وإلى العمل، كلما سمعت صوت سيارة إسعاف، وهو الأمر الذي يحدث مرّات في اليوم الواحد. سام الذي لم أفكر فيه حين أجلس وحدي بالمنزل على الأريكة، محدقة بشاشة التليفزيون أمام أحد البرامج التي لا يمكنك فهم مضمونها.. أكثر النساء بؤسًا ووحدة على ظهر الكوكب.

اتصل بي ناثان وترك رسالة يطلب فيها أن أعاود الاتصال به. لم أكن واثقة من قدرتي على سماع حكاياته الأخيرة عن حياته الجديدة المثيرة في نيويورك، وأن أضيف إلى قائمة مهامي الذهنية، التي لن أقوم بها في الواقع مطلقًا، مهمة جديدة. كما بعثت إلّي تانيا رسالة تخبرني أن عائلتها -عائلة هوتون ميلر- قد عادت من رحلتها قبل الموعد المحدد للعودة بثلاثة أيام بسبب أمور تتعلّق بعمل فرانسيس. واتصل ريتشارد ليخبرني أنني سأعمل في نوبة العمل المسائية من يوم الإثنين إلى يوم الجمعة. ورجاء لا تتأخري يا لويزا، فليس هناك داع لتذكيرك أن هذا هو إنذارك الأخير.

أقدمت على فعل الشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به: قدتُ سيارتي إلى منزل عائلتي في ستورتفولد، وأنا أشغّل الموسيقى عاليًا حتى لا تنفرد

بي أفكاري وأترك نفسي فريسة سهلة لها. كنت أشعر بالذنب تجاه والدي. وشعرت بحنين إلى المنزل، شعرت بذلك الرابط الخفي الذي يربطني به، وبتلك الراحة التي تغمرني بين أفراد عائلتي ونحن ملتفون حول مائدة الطعام أيام الآحاد.

قال أبي وذراعاه معقودتان فوق معدته محركًا فكه في سخط: «الغداء؟ أوه، كلا لقد توقفنا عن إعداد وجبة الغداء يوم الأحد. إن الغداء دليل على القمع الأبوي».

أومأ جدي بأسى من الركن الجالس فيه.

«كلا، لم نعد نحصل على وجبة غداء، إننا نحضر ساندويتشات، أو حساء. فمن الواضح أن الحساء أكثر تماشيًا مع الأفكار النسوية».

أدارت ترينا عينيها في محجريهما على نحو يشي بعدم رضاها عن سخرية أبي.

«تحضر ماما دروسًا في الشعر مع مجموعة من النساء في صباح يوم الأحد، لقد تحوَّلت إلى أندريا دوركيAndrea Dworkin ».

«أرأيت يا لويزا؟ من المفترض الآن أن أعرف كل شيء عن النسوية، كما أن هذه الرفيقة أندريا دوركين قد سرقت غداء يوم الأحد اللعين من عائلتي».

«أنت تبالغ، وتحول الأمر إلى دراما يا أبي».

«وما المبالغة في ذلك؟ يوم الأحد هو يوم تجتمع فيه العائلة، اليوم الذي نتناول فيه الغداء معًا كأسرة واحدة».

«إن حياة ماما كلها عائلية، لماذا لا نمنحها وقتًا لنفسها؟».

أشار بابا بصحيفته المطوية تجاه ترينا قائلًا: «أنتِ سبب ذلك، لقد كنتُ أنا وأمك غاية في السعادة قبل أن تبدئي أنتِ في إخبارها بأنها لم تكن سعيدة».

أومأ جدي مصدِّقًا على كلامه.

«لقد ساءت الأمور هنا على نحو غير مسبوق واتخذتُ منعطفًا خطيرًا. لا يمكنني أن أشاهد التليفزيون من دون أن أسمعها تتمتم معلّقة على إعلانات الزبادي «تحيّز جنسي». هذا تحيز جنسي، وذاك تحيز جنسي. حين جلبت معي إلى المنزل نسخة أدي بالمر من مجلة صن الرياضية Ade Palmer's copy of the Sun لقراءتها أحرقت المجلة، نظرًا لأن الصفحة الثالثة منها لم ترُق لها. وها هي تتنقل من مكان إلى آخر بين يوم وآخر من دون أن أعرف شيئًا عنها».

قالت ترينا بهدوء، من دون أن تتوقَّف عن البحث بين كتبها: «ماما لا تحضر سوى درسًا واحدًا لمدة ساعتين يوم الأحد».

قلت له: «أنا لا أمازحك يا أبي، ولكن ما فائدة هذا الشيء الذي في نهاية ذراعك؟».

نظر والدي تجاه يديه قائلًا: «ماذا؟، ماذا هناك؟».

«يداك، ليس عليهما نقش الحناء على ما أظن».

نظر إليَّ عابسًا.

«ما رأيك في أن تعدّ الغداء بنفسك، أن تعدّ لماما مفاجأة لدى عودتها من دروس الشعر؟».

اتسعت عينا أبي: «أنا أعد غداء الأحد؟ أنا؟ إننا متزوجان منذ ثلاثين عامًا تقريبًا يا لويزا، لم أقم فيها بتحضير الغداء اللعين لمرة واحدة. إن مهمتي أن أذهب للعمل لكسب الأموال وأمك تعد الطعام. كان ذلك هو الاتفاق! هذا هو ما وقّعت عليه في عقد الزواج! ما الذي حدث في العالم لأرتدي المريلة وأذهب لتقشير البطاطس يوم الأحد؟ هل هذا إنصاف؟».

«إنها الحياة العصرية يا أبي».

قال بابا معربدًا: «الحياة العصرية، لا فائدة منكِ على الإطلاق».

«أراهنك على أن السيد ترينر اللعين يحصل على غدائه كل يوم أحد، زوجته الجديدة ليست نسوية على الإطلاق».

«إنك في حاجة إلى قلعة إذن يا أبي، فالقلاع تنتصر على النسوية في كل مرة».

وبدأنا أنا وترينا في الضحك.

«أتدريان؟ لقد أدركت الآن سبب عدم ارتباطكما حتى الآن».

«أووه بطاقة حمراء!» رفعت كلتانا يدها اليمنى، فطوّح جريدته إلى أعلى في الهواء، وخرج إلى الحديقة.

ابتسمت ترينا لي قائلة: «ما رأيك أن نقوم بإعداد الغداء معًا الآن؟».

«لا أدري. لا أرغب في تخليد القمع الأبوي إلى الأبد. ما رأيك في الذهاب إلى حانة؟».

«ممتاز، سوف أبعث رسالة نصية إلى ماما».

وهكذا بدأت ماما في الخروج من قوقعتها وهي في السادسة والخمسين من عمرها، بدت كالسلطعون الناسك الذي غادر قوقعته ولو بصورة مؤقتة، ولكنها كانت مفعمة بالحماس هذه المرة من دون شك. فلم تغادر ماما المنزل بمفردها لسنوات طوال، راضية بمساحتها الخاصة المتمثِّلة في منزل صغير مكوَّن من ثلاث غرف ونصف غرفة. إلا أن تمضيتها أسابيع طويلة في لندن عقب الحادث الذي تعرّضتُ له قد أجبرها على الخروج عن روتينها المعتاد، وأشعل جذوة الفضول التي كانت قد انطفأت في داخلها طويلًا حول الحياة خارج حدود ستورتفولد. وقد تعرَّضت ماما إلى صحوة حقيقية حين وقعت في يدها بعض النصوص النسوية الخاصة بترينا، التي حصلت عليها من مجموعة الزلزال الجنسي التوعوية. وقد شقت طريقها في عالم النسوية من خلال قراءتها لكتب «الجنس الآخر» و«الخوف من الطيران» ثم تبعتهما بكتاب «المرأة المدجَّنة» إلا أنها عقب قراءتها لكتاب «غرفة النساء» أصابتها صدمة من درجة التشابه بين ما ورد فيه وبين حياتها لدرجة أنها رفضت الطهو لمدة ثلاثة أيام، حتى اكتشفت أن جدي يلتهم أربع علب من الدونَتس.

«كثيرًا ما أفكر في ما قاله لك حبيبك ويل». أشارت ماما عندما جلسنا حول طاولة في حديقة الحانة نراقب توم وهو يتزلج مع الأطفال الآخرين في لعبة القلعة المطاطية. «إنك تعيشين حياة واحدة، أليس ذلك ما أخبرك به؟»، كانت ترتدي قميصها الأزرق المعتاد ذا الأكمام، ولكنها كانت تعقص شعرها إلى الخلف بطريقة لم أرها من قبل، وبدت أكثير شبابًا على نحو ملحوظ. «لذلك أردت الاستمتاع بالأشياء إلى أقصى درجة ممكنة، أردت أن أستزيد علمًا ولو بقدر قليل، أردت أن أخلع قفاز غسيل الأطباق الأصفر من يدي بين الحين والآخر».

قلت: «لقد أثار ذلك جنون بابا».

«راقبي لغتك».

قالت ترينا: «إنه مجرد ساندويتش يصنعه، فهو لا يسافر في رحلة مضنية عبر صحراء جوبي من أجل الحصول على طعام».

قالت ماما بحزم معتدلة في جلستها: «كما أن «الكورس» لمدة عشرة أسابيع فقط، ولن يموت بسببه». ثم تفحَّصتنا أمي وأضافت: «حسنًا الآن، أليس هذا جميلًا؟ أتذكر أن آخر مرة خرجنا فيها معاً كانت وأنتما في سن المراهقة. وكنا نخرج للتسوق في المدينة في يوم السبت من كل أسبوع».

«وكانت ترينا تشكو من أن المحلات مملة».

«ولكن ذلك كان لأن لويزا كانت تحب المتاجر الخيرية التي تزكم فيها أنوفنا رائحة العرق».

«من اللطيف أن أراكما ترتديان قطعًا من ملابسكما المفضلة». نظرت ماما إليَّ في إعجاب، وقد ارتديتُ قميصًا أصفر زاهيًا على أمل أن أبدو أكثر سعادة مما أنا عليه.

سألتاي عن ليلي وأخبرتهما أنها تمضي وقتًا أطول مع أمها، وأن الاعتناء بها بات أمرًا شاقًا. وتبادلتا نظرات فيما بينهما، وكأن ذلك ما توقَّعتا مني قوله تمامًا. لم أخبرهما شيئًا عن السيدة ترينر.

«إن قصة ليلي بأسرها غريبة للغاية، لا أستطيع تخيل تلك الأم التي سلمتك ابنتها هكذا».

قالت ترينا: «إن ماما لا تقصد شيئًا، بالمناسبة».

«ولكن عملك يا لو يا حبيبتي لا يروق لي، لا أحب فكرة أنك تتبخترين في حانة، وكأنك تعملين في ذلك المكان... ما اسمه؟».

أجابتها ترينا: «هوترز».

«ولكنه ليس مثل هوترز، إنه مطار، فكل مرتاديه يرتدون كامل ملابسهم».

قالت ترينا: «لا يلمس أحد هذين النهدين».

«ولكنك ترتدين ملابس مثيرة جنسيًا لتقديم المشروبات، إذا كان ذلك ما تريدين يمكنك القيام به في... لا أدري، ديزني لاند في باريس. فإذا ما أديت دور ميني أو ويني ذا بوه، لن تكوني مضطرة لكشف سيقانك».

قالت شقيقتي: «سوف تبلغين الثلاثين قريبًا، يمكنك أن تكوني ميني، أو ويني أو نيل جويني، إن الخيار لكِ».

قلت بينما أحضرت النادلة أطباق الدجاج والبطاطس: «حسنًا، لقد فكّرت مليًا في الفترة السابقة، ووجدتك محقة. ومن الآن فصاعدًا سوف أمضي قدمًا، سوف أركز على مستقبلي المهني».

وضعت شقيقتي بعضًا من البطاطس في طبق توم، وقد أصبحت حديقة الحانة أكثر جلبة. وقالت: «هل يمكنك قول ذلك ثانية؟».

رفعت صوتي قائلة: «سوف أركز على مستقبلي المهني».

«كلا، أعني قولك لي بأنك وجدتني محقّة، لم أسمع عبارة كهذه منك منذ عام 1997. توم لا تذهب إلى القلعة المطاطية ثانية يا حبيبي، سوف تمرض».

جلسنا هناك لفترة طويلة من المساء متجاهلين وابل الرسائل النصية التي بعثها والدنا يسأل عما نفعله معًا. لم أجلس مطلقًا مع شقيقتي وماما

جلسة أناس عاديين ناضجين مثل تلك، نتجاذب فيها أطراف الحديث من دون إثارة مواضيع غير مرغوب بها، أو وجود شخص مزعج للغاية. والمثير للدهشة أننا وجدنا أنفسنا مهتمات بحياة بعضنا، وآراء بعضنا البعض، وكأننا اكتشفنا فجأة أن هناك أدوارًا أخرى نلعبها في الحياة بعيدًا عن دور العاقلة، ودور الفوضوية، ودور ربة المنزل.

انتابني شعور غريب لدى رؤيتي لأفراد أسرتي كبشر عاديين بعيدًا عن السياق الذي اعتدت رؤيتهم فيه.

«ماما». ناديتها بعد أن فرغ توم من طبق الدجاج الخاص به وانطلق إلى اللعب ثانية، وقبل خمس دقائق من تقيؤ توم لما تناوله من طعام في لعبة القلعة المطاطية ليعود باكيًا ليصبح ذلك الحدث لما تبقى من المساء، «هل فكرتِ من قبل في أن تكون لك حياة مهنية؟».

«كلا، لقد أحببت كوني أمًا وربة منزل. أحببت ذلك حقًا. ولكن جرت الأمور على نحو غريب...كل ما حدث خلال العامين الماضيين يدفعني إلى التفكير».

انتظرتها حتى تكمل حديثها.

«لقد قرأت الكثير عن أولئك النساء، صاحبات الأرواح الجسور الشجاعة اللواتي تمكنّ من إحداث ذلك التغيير في العالم، اللواتي تمكن من ترك بصمتهن وتغيير الطريقة التي يفكر ويتصرف بها الناس. ثم نظرت إلى ما قدمته في حياتي، وفكرت ما إذا كان هناك من سيذكرني مثلهن ولو بمثقال ذرّة».

قالت ذلك بهدوء تام لم أستطع معه معرفة ما إذا كانت مستاءة من ذلك بالفعل أم أن استياءها الأكبر كان لاعترافها به. وقلت: «ولكننا نذكر لك ما هو أكثر من مثقال ذرة يا ماما».

«ولكنني لم أترك أثرًا كبيرًا في العالم من حولي، أليس كذلك؟ لا أدري. لقد كنت دومًا راضية، ولكني بدأت أشعر أنني أمضيت ثلاثين

عامًا من عمري أفعل الشيء نفسه، وحين بدأت قراءة الكتب، ومشاهدة التليفزيون، والاطلاع على الصحف، بدا وكأن كل شخص وكل شيء حولي يخبرونني أنني لا أساوي شيئًا».

حدَّقت أنا وشقيقتي في بعضنا بعضًا.

«ولكنك تساوين الكثير بالنسبة لنا يا أمي».

«أنتن فتيات طيبات».

«أنا أعني ذلك حقًا يا أمي»، وتذكرت حينها السيدة هوتون ميلر، «لقد منحتنا الشعور بالأمان والحب، لكم أحب وجودك في المنزل في كل مرة أعود فيها إلى المنزل».

وضعت ماما يدها فوق يدي: «أنا فخورة بكما حقًا، وبمسعاكما في شق طريقكما في الحياة. ولكنني في حاجة فقط إلى القيام ببعض الأمور لنفسي، كما أنني أجد رحلتي الجديدة مثيرة للغاية. أحببت القراءة كثيرا، كما أن السيدة دينيس أمينة المكتبة ترشِّح لي كل الكتب الممكنة التي تظن أنني سأهتم بموضوعاتها. وسوف أنتقل في قراءاتي التالية إلى الموجة النسوية الجديدة في أمريكا. كل نظرياتهن مثيرة للاهتمام. ولكنني أتمنى أن تتوقَّف صاحبات الحركات النسوية عن المشاحنات والجدال مع بعضهن بعضًا، فأحيانًا أرغب في تحطيم رؤوسهن جميعًا».

«وهل، وهل لاتزالين ممتنعة عن حلاقة شعر ساقيك؟».

لقد تجاوزت حدودي كثيرًا بهذا السؤال، فقد تغير وجه ماما ورمقتني بنظرة خبيثة قبل أن تقول: «يحتاج الأمر في بعض الأحيان لفترة طويلة لتنتبهي إلى الممارسات القمعية في حياتك. لقد قلتها لوالدكن صراحة، وها أنا أخبركم بوضوح يا فتيات، في اليوم الذي يذهب فيه والدكن إلى صالون تجميل ليغطي ساقيه بشمع ساخن ولتجذبه فتاة لعينة في الحادية والعشرين من عمرها بقوة، سيكون اليوم الذي سأبدأ فيه بحلاقة شعر ساقيَّ أنا الأخرى».

غابت الشمس رويدًا رويدًا عن ستورتفولد، كما لو كانت قطعة من الزبدة آخذة في الذوبان. سهرت مع عائلتي أكثر مما كنت أنوي هذه الليلة، ثم ودعتهم لأستقلّ سيارتي عائدة إلى المنزل. وكم شعرت أن لديَّ أرضًا صلبة يمكنني الوقوف عليها. بعد كل ما عصفت بي من اضطرابات عاطفية خلال الأسبوع الماضي، كنت في حاجة إلى أن أعود قليلًا إلى طبيعتي، وأن يحيطني أفراد عائلتي، خاصة وأن شقيقتي التي دأبت على عدم إظهار أي علامات ضعف، قد اعترفت لي أنها تظن أنها ستظل من دون زواج إلى الأبد متجاهلة تشجيع أمي لها على الزواج، وعندما قالت لها أمي: «أنتِ فتاة رائعة الجمال».

ردَّت عليها: «ولكنني أم عزباء، ولا أستطيع مغازلة أو مواعدة أحدهم، لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول في مثل هذه المواقف ما لم تقم لويزا بالوقوف خلف الرجل ممسكة بلافتة مكتوب عليها ما يجب قوله. كما أن الرجال الذين قابلتهم عبر العامين الماضيين إما هربوا خوفًا من توم أو كان لهم غرض ما».

همهمت ماما: «أوه، ولكن...».

«أعلم سوف تقدِّمين نصائح حسابية مجانية».

وشعرت فجأة بالعطف تجاهها حين نظرت إلى حالها من بعيد. كم كانت شقيقتي محقَّة، لقد حظيت بميزات عدة، رغم كل الظروف - منزل خاص بي، مستقبل بلا أي أعباء أو مسؤوليات - ولم يكن هناك ما يحول بيني وبين الاستمتاع بتلك الميزات سواي أنا شخصيًا. وكم كان مؤثرًا عدم شعورها بالسخط والمرارة لحالها مقابل حالي، فوجدتني احتضنها حتى قبل أن أشعر بذلك. وقد أصابتها الصدمة من فعلتي، حتى إنها تحسَّست ظهرها تحسبًا لوجود لافتة «اركلني» عليه، وحين اطمأنت في النهاية بادلتني الاحتضان.

قلت لها: «تعالي وابقي معي، تعالي وابقي معي وسوف أصحبكِ إلى ناد للرقص، ويمكن أن تعتني ماما بتوم».

ضحكت شقيقتي، وأغلقت باب السيارة حين شغَّلت المحرك: «أجل، هل تذهبين للرقص؟ أتخيل أن ذلك سوف يحدث يومًا ما».

وكانت لا تزال تضحك بينما أبتعد بسيارتي.

بعد ستة أيام عدت إلى شقتي عقب نوبة عمل متأخرة تبعها ذهابي إلى ملهى ليلي بمفردي، وجدت أن السكون المعتاد الذي كان يخيِّم على شقتي بينما أصعد إليها عبر البناية قد حل محله صوت ضحكات وصوت موسيقى مرتفع مألوف بالنسبة لي. ترددت للحظة أمام باب الشقة، معتقدة أنني ربما يهيَّأ لي ذلك بسبب إنهاكي الشديد، ثم فتحت الباب.

كانت رائحة الحشيش القوية هي أول ما صدمني بمجرد أن فتحت للباب، كانت قوية وتفوح في المكان، لدرجة أنني سددت أنفي لكي لا أستنشقها. مشيت ببطء إلى غرفة المعيشة، وفتحت الباب ووقفت في مكاني غير قادرة على الحراك من هول ما رأيت. وجدت ليلي في الغرفة خافتة الإضاءة، مستلقية على الأريكة، وتنورتها القصيرة مرفوعة لأعلى عند بطنها، وفي منتصف فمها سيجارة ضخمة محشوة بالمخدرات، وشابين مستلقيين على الأرض بجوار الأريكة، بين عدد لا حصر له من زجاجات الكحول الفارغة، وأكياس البطاطس، وأكياس وجبات سريعة. كما جلست على الأرض فتاتان في عمر ليلي، واحدة منهما تعقص شعرها إلى الخلف نظرت إليَّ رافعة أحد حاجبيها، كما لو كانت تسألني ما الذي أفعله هناك. كانت الموسيقى تصدح من مكبر الصوت، وكان عدد زجاجات البيرة الفارغة وأعقاب السجائر تشي بأنهم قضوا ليلة طويلة هنا.

قالت ليلي على نحو مبالغ: «أوه، هاااااي».

«ما الذي تفعلونه هنا؟».

«أجل، كنا في الخارج معًا، وقد فاتتنا آخر حافلة وفكرت في أنه لا بأس بالقدوم للمبيت هنا، وأنك لن تمانعي، أليس كذلك؟».

تمكنت من التحدث بالكاد من هول الصدمة: «بلى، أنا أمانع. قطعًا أمانع».

بدأت في التذمر: «أووه».

ألقيت بحقيبتي، وأنا أحدِّق حولي في غرفة معيشتي التي بدت كمقلب قمامة وصحت: «لقد انتهى الحفل، أمامكم خمس دقائق لتنظفوا هذه الفوضى وتذهبوا من هنا».

«أوه يا إلهي، كنت أعلم ذلك، كنت أعلم أنك ستكونين مملة كالعادة، أليس كذلك؟ أوه يا إلهي، كنت أعرف ذلك». ثم ألقتْ بنفسها على الأريكة ثانية بشكل ميلودرامي. كان صوتها غير واضح. وبدا أن تصرفاتها قد فقدت أي لياقة ممكنة بسبب المخدرات؟ انتظرت. انتظرت دقيقة كاملة شابها التوتر، نظر إليَّ خلالها الشابان بثبات وكان بمقدوري فهم ما يدور في خلدهما وأنهما يقيِّمان ما إذا كانا سينهضان أم سيبقيان في مكانهما ببساطة.

أصدرت واحدة من الفتيات صوتًا مسموعًا بفمها.

قلت وأنا أقطِّع الكلمات: «بقيت أمامكم أربع دقائق».

ربما كان غضبي المستحق هو ما منحني تلك القوة، وربما كانوا هم أقل شجاعة مما يبدون عليه، ولكن النتيجة هي أنهم تسرَّبوا واحدًا تلو الآخر من أمامي مغادرين عبر باب الشقة. وبينما كان الصبي الأخير في طريقه للذهاب رفع يده متفاخرًا وأسقط علبة البيرة في منتصف الصالة فتناثرت على السجادة والجدار. ركلت الباب بعنف خلفهم ورفعت العلبة عن الأرض. وحين وصلت إلى ليلي، كنت أرتعد من الغضب: «ماذا تظنين نفسك فاعلة بحق الجحيم؟».

«يا إلهي، لقد كانوا مجرد مجموعة من الأصدقاء، حسنًا؟».

«هذه ليست شقتك يا ليلي، وليست مكانك لتستضيفي فيه أشخاصًا كما..». ثم لمع المشهد في رأسي: تذكرت ذلك الشعور الغريب الذي راودني حيال الشقة، وأن الأشياء ليست في مكانها حين عدت إلى المنزل منذ أسبوع مضى. «أوه يا إلهي! لقد فعلتِ ذلك سابقًا، أليس كذلك؟ لقد

فعلت ذلك الأسبوع الماضي. لقد جلبت أشخاصًا معك وغادرتم قبل وصولي».

تمايلت ليلي وأخذت تتحرَّك بشكل غير ثابت، وقامت بإنزال تنورتها من فوق بطنها، وأخذت تمرر يدها عبر شعرها لفك تشابكاته. كان كحل عينيها ملطّخًا، وكانت هناك كدمة أو ربما أثر قبلة عنيفة في رقبتها. «يا إلهي لِمَ تضخّمين الأمور هكذا، لقد كانوا مجرد أشخاص، حسنًا؟».

«في منزلي».

«حسنًا، لا يمكننا أن نطلق على هذا المكان منزلًا، أليس كذلك؟ ليس هناك أثاث، ولا أي شيء شخصي. ليس لديك حتى صور على الجدران. إنه أشبه... بالمرآب. مرآب من دون سيارة. إنه أشبه بملحق منزلي في الواقع».

«لا شأن لكِ بما أفعله بمنزلي».

تجشأت تجشؤًا بسيطًا فتغيرت رائحة الهواء أمام فمها، «أوف، رائحة كباب». توجهت إلى المطبخ وبصعوبة تمكنت من العثور على كوب ملأته بالماء وشربت، «حتى إنك لا تملكين تليفزيونًا كما ينبغي أن يكون، ما زلت لا أصدق أن هناك من يحتفظ بتليفزيون ثماني عشرة بوصة».

بدأتُ في رفع علب البيرة عن الأرض، ووضعها في كيس بلاستيكي، «من الذين كانوا معك إذن؟».

«لا أعلم مجرد أشخاص».

«لا تعلمين؟».

بدت متوترة وهي تقول: «أصدقاء، مجرد أشخاص من الملهى».

«هل قابلتهم في الملهى؟».

«أجل قابلتهم هناك في الملهى... إلخ إلخ، أتعلمين، كأن تتعمدين التصرف بطيش. أجل. إنهم مجرد أصدقاء تعرفت إليهم في الملهى. إن هذا ما يفعله الناس الطبيعيون أليس كذلك؟ يكون لديهم أصدقاء يخرجون معهم».

رمتْ الكوب الذي كان في يدها في الحوض وسمعت صوت تحطمه، وخرجت بامتعاض من المطبخ.

حدّقتُ فيها، وأنا أفكّر فيما قد يكون حصل. شعرت بقلبي يدق فزعًا بداخلي. هرعت إلى غرفتي وفتحتُ الدرج العلوي. وأخذت أبحث بسرعة بين جواربي عن صندوق المجوهرات الصغير الذي كان يحتوي سلسلة جدتي وخاتم زواجها. توقفت ثم أخذت نفسًا عميقًا وأنا أبحث عن الصندوق ولا أستطيع العثور عليه بسبب توتري. وأفكر لا بد أن يكون هناك. بالطبع سيكون هناك. وبدأت في إخراج محتويات الدرج قطعة قطعة ورميها على الفراش.

صرخت: «هل دخلوا إلى هنا؟».

ظهرت ليلي عند الباب: «ما الأمر؟».

«أصدقاؤك. هل دخلوا إلى غرفة نومي؟ أين مجوهراتي؟».

بدا أن ليلي تنبهت قليلًا: «مجوهرات؟».

«أوه كلا، كلا» قمت بفتح جميع الأدراج ملقية محتوياتها على الأرض: «أين مجوهراتي؟ وأين المبلغ الذي أتركه للطوارئ؟»، استدرت لها، «من كانوا؟ ما أسماؤهم؟».

لم تنبس ليلي ببنت شفة.

«ليلي!».

«لا أدري».

«ما الذي تعنيه بلا أدري؟ لقد قلت إنهم أصدقاؤك».

«مجرد أصدقاء من الملهى. أسماؤهم ميتش، لايز... لا أستطيع التذكر».

هرعت إلى الباب مسرعة، ونزلت أربعة أدوار مهرولة كالصاروخ. ولكنني حين وصلت إلى باب المبنى كان كل من الممر والشارع خاويين تمامًا فيما عدا الحافلة المتجهة إلى ووترلو تسير ببطء في منتصف الطريق المظلم من بعيد.

وقفت عند الباب لاهثة. ثم أغلقت عيني مقاومة دموعي، واضعة يدي على ركبتي حين أدركت ما فقدت: خاتم جدتي، وسلسلتها الذهبية، مع قلادة صغيرة كانت ترتديها وهي طفلة. وقد أدركت أنني لن أسترد تلك المتعلقات ثانية. كانت تلك بعض الأشياء الصغيرة التي كنت سأورّثها لأسرتي، وها هي قد ضاعت.

عدت أدراجي عير السلم ببطء.

كانت ليلي واقفة في الممر المؤدي للصالة حين فتحت الباب: «أنا آسفة حقًا، لم أكن أعلم أنهم سيسرقون أغراضك».

قلت لها: «اذهبي من هنا يا ليلي».

«لقد بدوا لطيفين حقًا. كان... كان يجب أن أفكر».

«لقد أمضيت في عملي ثلاث عشرة ساعة. ويجب أن أحصر الأشياء التي فقدتها. وأرغب في النوم. لقد عادت أمك من عطلتها، رجاء عودي إلى منزلك».

«ولكنني...»

«كلا، لن أسمح بالمزيد». اعتدلت في وقفتي حتى أتمكن من التنفس بشكل بطبيعي: «أتعلمين ما الفرق بينك وبين أبيك؟ إنه حتى في أتعس لحظاته لم يكن ليعامل أحدًا مثلما تفعلين».

بدت كما لو كنت صفعتها ولكنني لم أبالي.

«لا أستطيع تحمل المزيد يا ليلي». ثم أخرجت عشرين جنيهًا من محفظتي وناولتها إياها: «هذا من أجل التاكسي».

نظرت إلى النقود ثم إليَّ وابتلعت ريقها. مسحت بيدها فوق شعرها ثم عادت أدراجها إلى غرفة المعيشة.

خلعتُ سترتي وأخذت أنظر إلى صورتي المنعكسة على المرآة. وكم بدوت شاحبة ومنهكة ومهزومة. قلت لها: «واتركي مفاتيحك».

سادت فترة صمت قصيرة. ثم سمعت صوت المفاتيح وهي تلقيها على طاولة المطبخ، ثم صوت انغلاق الباب. بعد أن ذهبت.

الفصل السادس عشر

لقد أفسدتُ كل شيء يا ويل.

رفعت المفاتيح إلى صدري، وحاولت تخيل ما يمكن أن يقوله لي لو رآني في هذا الموقف، ولكني لم أعد قادرة على سماع صوته في رأسي، وقد زادتني تلك الحقيقة البسيطة حزنًا.

ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

أدركت أنه لا يمكنني البقاء في هذه الشقة التي تركها لي ويل في وصيته. شعرت كأنها قد غرقت في بحر إخفاقاتي وفشلي، كما لو كانت جائزة فشلت في حصدها. فكيف يمكنك أن تصنع بيتًا في مكان وُهب لك لكل الأسباب الخاطئة؟ سوف أبيعها وأستثمر أموالها في شيء آخر. ولكن إلى أين سأذهب بعد بيعها؟

فكرت في وظيفتي، وفي الألم الذي أشعر به في معدتي من مجرد سماع اسم الحانة التي أعمل فيها، ولو حتى على شاشة التليفزيون، وكيف جعلني ريتشارد أشعر بأنني بلا قيمة، وبلا فائدة.

فكرت في ليلي، شاعرة بحمل ذلك الصمت المطبق الجاثم في الشقة الذي ينتج عن علمك دون أي مجال للشك أنه لن يكون هناك شخص سواك في المنزل. تساءلت في نفسي عن مكانها الآن، ثم طردت الفكرة من رأسي.

كان سقوط الأمطار يتباطأ شيئًا فشيئًا حتى توقّف المطر تمامًا كما لو كانت السماء تعتذر عما أصابني، وكأن المناخ يعترف بأنه لم يكن على علم بكل ما حدث لي. ارتديت بعض الملابس، وقمت بتنظيف الشقة، وأخرجت الحقائب التي امتلأت بمخلفات الحفل المشؤوم. تمشيتُ إلى متجر الزهور، ربما لأشغل نفسي بأي شيء، متذكرة ما قاله مارك من الأفضل كثيرًا أن تخرجي للقيام بأي شيء. فربما أشعر بحال أفضل كوني في منتصف طريق كولومبيا رود بمناظر أزهاره وبراعمه المبهجة وحشود المتسوّقين الذين يجوبونه ببطء. رسمت ابتسامة ثابتة على محياي، وكم أدهش سمير شرائي لتفاحة (هل أصبحت تتعاطين المخدرات؟) ثم توجهت إلى بحر من الأزهار.

أخذت كوبًا من القهوة في أحد المقاهي الصغيرة، وجلست أراقب السوق عبر إحدى نوافذه، متجاهلة حقيقة أنه لم يكن هناك أحد غيري داخل المقهى. وبعد أن فرغت من قهوتي تمشيت في السوق بين روائح وأريج الزهور، وكم راقت لي أشكال أعواد نبات الفاوانيا مع الأزهار، المبلل سطحها بقطرات المطر الخفيفة، واشتريت لنفسي زهور الأضاليا، وشعرت طيلة الوقت كما لو كنت أمثل دورًا في إعلان: فتاة المدينة العزباء التي تعيش في الحلم اللندني.

عدت إلى المنزل حاملة زهور الأضاليا في ذراع، باذلة قصارى جهدي حتى لا أعرج في مشيتي، ومحاولة أن أمنع نفسي عن التفكير في السؤال الملحّ على بالي: من تظنين أنك تخدعين بأفعالك تلك؟

حلَّ المساء ملقيًا بظلاله الكئيبة، مثلما تفعل كل الليالي التي أقضيها وحيدة. انتهيت من تنظيف الشقة، بعد أن اصطدت أعقاب السجائر من المرحاض، وشاهدت بعض برامج التليفزيون، وغسلت زي العمل خاصتي. شرعت في أخذ حمام بعد ملء الحوض بالفقاعات، وخرجت

منه بعد خمس دقائق فقط خوفًا من أن تنفرد بي أفكاري. لم أستطع الاتصال بماما أو بشقيقتي: فقد كنت أعلم أنني لن أستطيع التظاهر أمامهما بالسعادة.

وفي نهاية المطاف، أخرجت الخطاب الذي رتب ويل أن يصل لي بينما كنت في باريس، من طاولة السرير الجانبية، حين كنت لا أزال مفعَمة بالأمل. فتحت طيَّاته بعناية ولطف. لقد مرَّت عليَّ أوقات، خاصة في العام الأول من رحيله، كنت أقرأ فيها هذا الخطاب في كل ليلة محاولة إعادة ويل إلى الحياة بجانبي ثانية. وكنتُ من فرط قراءتي له أحاول أن أعقّل نفسي قائلة: أنا لست في حاجة لرؤية الخطاب، فقد خشيتُ أن يفقد قواه السحرية، وأن تصبح كلماته بلا معنى وتفقد تأثيرها، ولكن كم أنا في حاجة إلى هذه الكلمات الآن.

كانت رسالته المكتوبة على الحاسوب، غالية على قلبي كما لو كان قد كتبها بخط يده، كانت تلك الكلمات المطبوعة لا تزال تحمل بين ثناياها سحره وطاقته فيها.

وإنك في بداية الأمر قد لا تشعرين بالارتياح في عالمك الجديد، فدائمًا ينتاب المرء شعور بالغربة لدى خروجه من منطقة الراحة التي اعتاد المكوث فيها طويلًا... إنك تملكين ذلك الشغف يا كلارك، وتتحلِّين بتلك الشجاعة، ولكنك دفنت تلك الشجاعة وذلك الشغف بداخلكِ وأنكرت وجودهما كما يفعل معظم الناس.

لتحيي حياتك جيدًا وحسب. لتحيي وحسب.

قرأت كلمات الرجل الذي كان ذات يوم مؤمنًا بي، قرأتها ووضعت رأسي بين ركبتيَّ، وأخيرًا بكيت.

رن الهاتف بصوت مرتفع للغاية، ففزعت من صوته ونهضت على الفور. جعلت أتحسس بيدي حتى وصلت له ونظرت إلى الوقت. كانت الساعة الثانية صباحًا. رفعت السماعة وقد اعتراني القلق قائلة:

«ليلي؟».

«ماذا؟ لو هذا أنا».

كان صوت ناثان الرخيم يتردد عبر السماعة.

«إنها الثانية صباحًا يا ناثان».

«أوه، يا إلهي، دائما أنسى أمر فرق التوقيت. هل تودِّين أن أنهي المكالمة؟».

اعتدلت في جلستي وأنا أمسح بيدي على وجهي: «كلا، كلا، كم هو لطيف سماع صوتك». ثم أضأتُ المصباح الجانبي مردفة: «كيف حالك؟».

«أنا بخير، لقد عدت إلى نيويورك».

«عظيم».

«أجل لقد كان رائعًا أن ألتقي بالرفاق القدامى، ولكن بعد أسبوعين كنت لا أطيق صبرًا للعودة إلى هنا ثانية، فتلك المدينة ملحمية».

أجبرتُ نفسي على الابتسام، وكأنه سيسمع صوت ابتسامتي، وقلت:

«هذا رائع يا ناثان أنا سعيدة من أجلك».

«هل ما زلت راضية عن عملك في تلك الحانة؟».

«لا بأس بها».

«ألا ترغبين في القيام بشيء آخر؟».

«أتدري حين تسوء الأمور وتشرع في تهوين الأمر على نفسك بقولك كان يمكن أن أكون الشخص الذي ينظف الصفائح المخصصة لتبرّز الكلاب من الحدائق العامة، أليس كذلك؟ حسنًا، أنا الآن الشخص الذي يفضل القيام بعملية إفراغ الصفائح من براز الكلاب».

«حسنًا، إن لديَّ فرصة عمل لك».

«الكثير من العملاء يقولون لي هذه العبارة يا ناثان، ودائما يكون جوابي الرفض».

«حسنًا، هناك فرصة للعمل هنا مع العائلة التي أعيش معها، وكنت أنت أول شخص يتبادر إلى ذهني عند سماعي بالأمر».

ثم شرح لي الأمر قائلًا إن زوجة السيد جوبنك، ليست من وول ستريت، وهي لا تقوم بكل أمور التسوّق والطهو، وأنها قد غادرت بلدها بولندا إلى الأبد لأسباب سياسية، وأنها تعاني من اكتئاب طفيف، كما أنها تشعر بالوحدة والمرأة الغواتيمالية التي تساعدها لا تستطيع قول كلمتين بالإنجليزية.

وقد أراد السيد جوبنك الاستعانة بشخص محل ثقة ليكون في صحبة زوجته ويساعدها في أمور الأطفال، وأن يكون عونًا إضافيًا حين يسافرون. «إنه يريد أشبه بمن تكون صديقة للأسرة، أن تكون إنسانة مبهجة ومحل ثقة، ولا تفشي أسرار حياتهم الخاصة».

«وهل يعرف بأمر...».

«لقد أخبرته عن ويل منذ لقائنا الأول، وقد أبدى إعجابه بالتزامنا برغبات ويل، وأننا لم نبع قصته عقب موته». توقّف ناثان لبرهة قبل أن يردف: «عند هذه المرحلة، يفضل الناس الأمانة والنزاهة أكثر من أي شيء آخر. أعني، أنك لا يجب أن تكوني حمقاء، وأن تؤدي عملك على أكمل وجه، ولكن أمانتك وإخلاصك هنا هما ما يهمان في الأساس».

شعرت وكأن دوارًا قد أصاب رأسي، وكأنني ركبت واحدة من ألعاب الملاهي. أمسكت الهاتف أمام عينيّ ونظرت إليه ثم قمت بوضعه على أذني ثانية:

«هل هذا... أما زلت نائمة؟».

«ليس هذا العمل بالسهل، سوف يدوم ساعات طويلة ويحتاج إلى جهد شاق، ولكن لأصدقك القول، فإني أمضي أفضل أوقات حياتي».

مسحت على شعري بيدي، مفكّرة في الحانة، وما يتردد عليها من رجال أعمال متغطرسين ونظرة ريتشارد المحدقة الثاقبة لي. فكرت في الشقة،

وجدرانها التي تطبق على أنفاسي في كل مساء «لا أدري. إن ذلك... أعني أن كل ذلك يبدو...».

فتر صوت ناثان قائلًا: «إنه الجرين كارد يا لويزا، إنه الطعام والسكن، إنها نيويورك. اسمعي، إن هذا الرجل إذا ما أنجزت له عمله، وبذلت جهدك سوف يعتني بك. إنه شخص ذكي وعادل. تعالي إلى هنا واثبتي نفسك أمامه، وقد تنفتح أبواب الفرص أمامك بشكل لن تصدقيه. أنا جاد للغاية. رجاء لا تفكري في الأمر على أنه عمل كجليسة أطفال، فكري فيه كبوابة عبور».

«لا أدري..».

«هل هناك شخص ما في حياتك لا ترغبين في الرحيل من أجله؟».

أجبت مترددة: «كلا، ولكن حدث الكثير من الأمور... ولم أكن..». بدا مزعجًا أن أقوم بشرح الوضع في الثانية صباحًا.

«أعلم أن ما حدث قد كسرك، وقد كسرنا جميعًا، ولكن يجب أن تستمر الحياة».

«لا تخبرني بأن ذلك ما أراده ويل».

«حسنًا». وصمت كلانا، ولكنه كان يقولها صامتًا.

حاولت تجميع أفكاري:

«هل سيكون عليَّ الذهاب إلى نيويورك من أجل إجراء مقابلة شخصية؟».

«هم سيذهبون إلى هامبتونز في فصل الصيف، لذا فإنهم يبحثون عن شخص ليبدأ العمل في سبتمبر. أي تحديدًا في غضون ستة أسابيع. إذا ما أبديت اهتمامك، سوف يجري معك مقابلة عبر سكايب، ثم ستحضرين أوراقك، ونذهب. ولكن السيد جوبنك يثق بي يا لو، وإذا ما رشّحت له أحدًا للعمل، فستكون فرصته كبيرة في الحصول على الوظيفة، هل أخبره عن رغبتك في الالتحاق بالعمل؟ أنت موافقة أليس كذلك؟».

قلت قبل أن أتمكن من التفكير: «أوه، أجل موافقة..».

«عظيم، راسليني عبر البريد الإلكتروني إذا كانت لديك أي استفسارات وسوف أرسل لك بعض الصور».

«ناثان؟».

«عليَّ الذهاب يا لو، فقد استدعاني الرجل العجوز».

«شكرًا لك يا ناثان، شكرًا لأنك فكرت فيَّ».

صمت قليلًا قبل أن يجيب: «لن أجد من هو أفضل منكِ للعمل معه يا لو».

لم أتمكن من النوم بعد اتصاله، جلست أفكر في المحادثة برمتها، وتطن في رأسي الأفكار حول ما يمكن أن يكون في انتظاري إذا لم يكن ذلك خيالًا بل واقع حقيقي. في تمام الساعة الرابعة بعثت لنيثان رسالة عبر بريده الإلكتروني تحمل مجموعة من الأسئلة، وعادت الإجابات بعدها مباشرة.

العائلة لا بأس بها. إن الأثرياء قطعًا ليسوا أشخاصًا طبيعيين (!) ولكن هؤلاء الناس طيبون. ويبدون أقل قدرٍ ممكن من الدراما.

ستكون لديكِ غرفتك الخاصة وحمامكِ الخاص. وسوف تتشاركين المطبخ مع مدبِّرة المنزل. وهي امرأة لا بأس بها، أكبر منا سنًا قليلا، لا تنشغل إلّا بنفسها ولا تتدخل في شؤون غيرها.

عدد ساعات العمل المعتادة - ثماني ساعات - وربما تصل إلى عشر في أسوأ الظروف. ربما تحتاجين إلى تعلم القليل من اللغة البولندية!

رحت في النوم مع سطوع النهار، وكان عقلي مزدحمًا بمنازل منهاتن الدوبلكس وشوارعها الصاخبة، وحين استيقظت كانت هناك رسالة إلكترونية في انتظاري.

السيدة كلارك

لقد أخبرني نيثان عن أنك ربما ترغبين في القدوم والانضمام إلى

طاقم العمل في منزلنا. هل أنت متاحة لإجراء مقابلة عبر سكايب مساء يوم الثلاثاء الساعة الخامسة بتوقيت جرينيتش (منتصف النهار بالتوقيت الشرقي).

تفضلي بقبول خالص تحياتي..

ليونارد إم. جوبنك

أخذت أحدق في الرسالة لمدة عشرين دقيقة حتى أتأكد من أنني لم أكن أحلم. ثم نهضت واستحممت، وصنعت لنفسي كوبًا كبيرًا من القهوة وبعثت ردّي. فقد قلت محدثة نفسي إن إجراء المقابلة لن يضير في شيء. لن أحصل على الوظيفة إذا كان هناك متقدمون لها من نيويورك أكثر احترافية مني، ولكنني على الأقل سأتعلم شيئًا من التجربة، كما سأشعر بأنني أحاول اتخاذ خطوات فعلية للمضي قدمًا.

وقبل أن أغادر من أجل العمل، رفعت خطاب ويل بحرص عن الطاولة، وطبعت قبلة عليه ثم قمت بطيِّه برفق وأعدته إلى مكانه ثانية.

شكرًا لك، قلتها له في صمت.

لم تكن مجموعة الدعم النفسي مكتملة هذا الأسبوع، فناتاشا كانت في عطلة وكذلك جاك، وهو الأمر الذي جعلني أشعر بالارتياح في واقع الأمر، وفي الوقت نفسه كنت منزعجة قليلًا على نحو لا أستطيع التصالح معه. كان موضوع المجموعة هذا المساء هو: «هل يمكن العودة بالزمن؟». وهو الأمر الذي كان مصحوبا بدندنة وغناء التراتيل خلال الفواصل في فترة الساعة ونصف الساعة، مدة اجتماع المجموعة.

استمعت إلى فريد وهو يقول إن الزمن لو عاد به كان سيمضي وقتًا أقل في العمل، وأما سونيل فقال إنه كان سيتعرف إلى أخيه بشكل أفضل (إننا نتخيل أنهم لن يرحلوا يومًا ما، أتفهمون ما أعني؟ وعلى حين غرة لا تجدهم معك).

مرّت عليَّ بعض الأوقات التي فكرت فيها أن المجموعة يمكن أن تكون

مفيدة. ولكنني في الوقت ذاته وجدت نفسي أمضي وقتًا طويلًا للغاية بين أشخاص لا يوجد بيني وبينهم أي رابط، يتحدَّثون أحاديث طويلة مملة حين يجدون لهم صحبة. شعرت بالسأم والتعب، وقد آلمتني أردافي فوق الكرسي البلاستيكي، وفكرت في أنه ربما كان بمقدوري التعرف على حالتي الذهنية بشكل أفضل لو شاهدت حلقات مسلسل إيست إندرز. كما أن البسكويت كان مريعًا!

حكت لنا لياني، وهي أم عزباء، عن شجارها مع شقيقتها الكبرى على سروالها الرياضي قبل وفاتها بيومين: «لقد اتهمتها بأنها أخذته، لأنها كانت دائمًا تأخذ أغراضي. وكانت دائمًا تنكر ذلك على الرغم من علمي بأنها تأخذها».

انتظر مارك لتكمل حديثها، وفكَّرت في ما إذا كانت لدي مسكِّنات للصداع في حقيبتي.

«ثم صدمتها الحافلة ولم أرَها بعد شجارنا إلا داخل المشرحة. وحين كنت أبحث عن ملابس داكنة لارتدائها في الجنازة، أتعلمون ماذا وجدت في خزانة ملابسي؟».

قال فريد: «السروال الرياضي».

قال مارك: «إن ترك الأمور معلقة أمر مؤلم، ولكننا نحتاج في بعض الأحيان إلى النظر إلى الصورة الكلية الأكبر».

قال ويليام: «يمكنك أن تحب شخصًا ما، وتتهمه بأنه سرق سروالك الرياضي من بين أشيائك الخاصة، ليست لهذا علاقة بذاك».

لم تكن لديَّ الرغبة في التحدث ذلك اليوم، لقد كنت هناك بينهم، لأنني لم أقوَ على مواجهة الصمت المتربِّص بي في شقتي. وراودني حينها شكٌّ، أو ربما شعور غريب، في أنني يمكن أن أتحوَّل في يوم من الأيام إلى واحدة من هؤلاء الأشخاص المتعطِّشين للتواصل الإنساني لدرجة أنهم قد يتحدَّثون مع الغرباء في القطار، ويبوحون لهم بما لا يجب أن يعرفه أحد،

أو يمضون عشر دقائق في السوبر ماركت حتى يتمكنوا من التحدث مع البائع أو أحد مساعديه. وبينما كنت مستغرقة في تفكيري في أن أحد تلك الأعراض لتعطُّشي للتواصل هو تحدثي مع سمير في السوبر ماركت، كانت دافني تتكلم عن أنها تتمنى لو رجعت من عملها في ذلك اليوم تحديدًا قبلها بساعة واحدة لمنع زوجها من الانتحار، ثم انخرطت في البكاء.

«دافني؟».

«أنا آسفة يا رفاق، ولكنني استغرقت طويلًا في التفكير في «ماذا لو»، ماذا لو لم أتوقَّف ذلك اليوم للتحدث مع تلك السيدة في كشك الزهور، ماذا لو تركت دفتر الحسابات الأحمق وعدت إلى المنزل مبكرًا. ماذا لو عدت إلى المنزل في الوقت المناسب... لربما أقنعته بالعدول عن فكرته. لربما أمكنني القيام ولو بشيء واحد يقنعه أن الحياة غالية، ولا يجب أن نفرِّط فيها بهذه السهولة».

انحنى مارك إلى الأمام وفي يده علبة المناديل فأخذتها منه ووضعتها على ساق دافني، «هل حاول آلان أن ينهي حياته قبل ذلك يا دافني؟».

أومأت ثم تمخَّطت، «أوه أجل، مرات عدة، لقد اعتاد على المرور بما سماه «أوقات الحزن» منذ سن صغيرة، ولم أكن أحب أن أتركه بمفرده حين تداهمه تلك الأوقات وتعود إليه، لقد كان الأمر أشبه بـ...لم يكن قادرًا على سماعك. لم يكن يصغي إليك مهما تحدثت معه. كنت كثيرًا ما أحصل على إجازات مرضية من عملي لمجرد الجلوس معه، ومحاولة إدخال البهجة إلى قلبه. كنت أصنع له ساندويتشاته المفضلة، وأجلس إلى جواره على الأريكة. كنت أفعل أي شيء ليشعر أنني هناك إلى جواره. أعتقد أن ذلك كان هو السبب في عدم حصولي على ترقية في العمل مطلقًا في حين حصلت عليها جميع الفتيات الأخريات. كان عليَّ أن أخصِّص له وقتًا طويلًا».

«الاكتئاب أمر صعب للغاية، لا يعاني منه مريضه وحسب بل المحيطون به أيضًا».

«هل كان يتناول أي عقاقير؟».

«أوه كلا، ولكنه وقتها... أعني لم تكن... عقاقير كيميائية».

«هل أنت متأكدة؟ أعني أن تشخيص الاكتئاب لم يكن يتم بالدقة الكافية في تلك الآونـــة».

رفعت دافني رأسها قائلة: «لقد كان آلان مِثليًا». قالت عبارتها بملء فمها وبوضوح تام، محمرّة الوجنتين قليلًا، ناظرة نحونا كما لو كانت تتحدانا أن يقول أحدنا أي شيء في المقابل، «لم أخبر أي شخص بذلك من قبل، ولكنه كان مثليًا، وأعتقد أن ذلك كان سبب تملك الحزن منه. ولأنه كان رجلًا طيبًا لم يرغب يومًا في إيذائي فلم يكن... يذهب هكذا... ليفعل مثل هذه الأمور. كان يعلم أن ذلك سيتسبَّب في شعوري بالخزي».

«ما الذي جعلك تفكرين أنه مثليٌّ يا دافني؟».

«وجدت بعض الأشياء بينما كنت أبحث عن واحدة من ربطات عنقه. تلك المجلات التي تحتوي على رجال يمارسون الجنس مع بعضهم بعض، عثرت عليها في أحد أدراجه ولا أعتقد أنك ستحتفظ بواحدة من تلك المجلات إلا إذا كنت مثليًا».

قال فريد: «بالطبع لا».

ردت دافني: «لم أواجهه بالأمر مطلقًا، وقمت بإعادة المجلات حيث وجدتها. ولكن الصورة بدأت تتضح لي أكثر، حيث لم يكن حريصًا على المعاشرة الزوجية، وبدأت أفهم خلفية الأمر. ولكنني فكرت في أنني محظوظة لأنني لم أكن مولعة بالجنس من جانبي أنا الأخرى. وكان السبب في ذلك الراهبات، إنهن يجعلنك تزهد في كل شيء وتفكر في قذارة كل الأمور الدنيوية. وهكذا كنت متزوجة من رجل لطيف لا يقفز لاعتلائي كل خمس دقائق، فرأيت أنني من أكثر النساء حظًا على وجه الأرض. صحيح أنني كنت أحب الأطفال، وكنت أود لو أن لديَّ طفلًا ولكننا..». تنهدت: «ولكننا لم نتحدث في ذلك الأمر بشكل جاد. وبالعودة إلى الوراء، أتمنى لو تحدثت معه في ذلك الأمر، يا لها من خسارة».

«هل تظنين أنك لو تحدثت معه بصراحة وصدق لتغيرت الأمور؟».

«حسنًا، لقد تغير الزمن الآن. ولم تعد المثلية أزمة كبيرة كما كان الأمر في الماضي. إن منظف الملابس بالبخار الذي أتعامل معه مثلي ويحكي عن صديقه لكل شخص. صحيح أنني لن تسعدني خسارة زوجي، ولكنه لو كان يشعر أنه أسير زواجنا، كنت سأتركه يذهب ليمضي في الحياة التي يرغبها. كنت سأتركه يذهب حقًا، فلم أكن أرغب في أسره بزواجنا، كل ما أردته هو أن يكون أكثر سعادة».

تغضَّن وجهها وهي تبكي، فلففت ذراعي حولها وكان شعرها برائحة لحم الضأن المطبوخ.

وقف فريد ليربت على كتفها وكم بدا المشهد غريبًا إلى حد ما:

«هيًّا اهدئي يا فتاتنا الكبيرة. أنا واثق من أنه كان يعلم أنك أردت لَه كل خير».

بدا صوتها مرتجفًا وهي تقول: «هل تظن ذلك حقًا يا فريد؟».

أومأ فريد: «أوه أجل، وأنت محقة، كانت الأمور مختلفة حينذاك، لا لوم عليك».

ابتسم مارك متعاطفًا:

«كم كانت شجاعة منك أن تشاركينا تلك القصة يا دافني، شكرا لك. وكم أنا معجب كل الإعجاب باستجماع شتات نفسك وقدرتك على المضي قدمًا في الحياة. في بعض الأحيان، يتطلَّب منا تجاوز الأيام في حياتنا أن نكون أبطالًا خارقين».

ووجدت دافني وقد أمسكت بيدي، ووجدت أصابعها المكتنزة تتشابك مع أصابعي فعصرتها. وقبل أن أتمكن من التفكير شرعت أقول: «لقد فعلت شيئًا أتمنى لو لديَّ القدرة على تغييره».

استدارت نصف دستة من الوجوه نحوي، فقلت: «لقد التقيت ابنة ويل، لقد هبطت على حياتي من حيث لا أدري، وكنت أظن أن ذلك سيكون سبيلي للشعور بمشاعر أفضل حيال موته إلا أن الأمور...».

كانوا جميعًا محدِّقين، وصنع فريد تعبيرات بوجهه قائلًا:
«ماذا؟».
«من هو ويل؟».
«لقد قلت إن اسمه بيل».
هبطت قليلًا في مقعدي، «حسنًا، بيل هو ويل، ولكنني كنت لا أرتاح لفكرة استخدام اسمه الحقيقي في بداياتي معكم هنا». كانت هناك حالة عامة من الدهشة في الغرفة.

ربتت دافني على يدي قائلة: «لا بأس يا حبيبتي، إنه مجرد اسم، في مجموعتنا العلاجية السابقة كانت بيننا سيدة اختلقت كل شيء، وقالت لنا إنها كان لديها طفل توفي إثر إصابته باللوكيميا، واتضح لنا فيما بعد أنها لم تكن تمتلك حتى سمكة ذهبية صغيرة».

نظر لي مارك بنظرته العطوفة الخاصة قائلًا: «لا بأس يا لويزا يمكنك التحدث معنا». فرددت عليه بابتسامة صغيرة، لأظهر له أنني أفهم نظرته ولأطمئنه أن ويل ليس سمكة ذهبية صغيرة، وفكرت في نفسي، لمَ كل ذلك بحق السماء؟ إن حياتي ليست أكثر فوضى من حياتهم.

حكيت لهم عن ظهور ليلي في حياتي، وكيف أنني فكرت بإمكان إصلاحها وإصلاح الأمور ولم شمل العائلة وجعل الجميع سعداء، وكيف أشعر الآن بالحماقة والسذاجة: «أشعر أنني خذلت ويل والجميع مرة أخرى. وها هي قد رحلت، ولا أكف عن سؤال نفسي عما كان يمكنني أن فعله بشكل مختلف لتغيير الأمور، ولكنني في الواقع لم أكن بالقوة الكافية لتحمل مسؤولية كل ذلك وتعديل مساره للأفضل».

«ولكن مقتنياتك! مقتنياتك الثمينة قد سُرقت».
وجدت يد دافني المكتنزة الأخرى فوق يدي قائلة:
«لديك كل الحق في الشعور بالغضب!».
وأضاف سونيل:

«عدم وجود أب في حياتها، لا يعطيها الحق في التصرف على هذا النحو الوقح».

وقالت دافني: «كم كان لطفًا منك أن تسمحي لها بالبقاء معك من البداية، لست واثقة من أنني كنت سأتصرف على هذا النحو لو كنت مكانك».

صبَّ مارك لنفسه قدحًا آخر من القهوة وهو يقول:

«ما التصرف الآخر في ظنك يا لويزا الذي كان سيقدم عليه والدها لو كان حيًا؟».

تمنيت فجأة لو أن لديَّ جوابًا أكثر قوة، وأنا أقول: «لا أدري، ولكنه كانت لديه طريقته في تولي مقاليد الأمور حتى لو لم يكن قادرًا على تحريك يديه وساقيه. كان سيستطيع ردعها عن القيام بتلك الأمور الغبية. كان سيقوِّم سلوكها بطريقة ما».

قال فريد: «هل أنت واثقة من أنك لا تجعلين منه شخصًا مثاليًا؟ إنني دائمًا أجعل من جيللي قديسة، أليس كذلك يا مارك؟ وقد نسيت أنها كانت تعلِّق جواربها على دش الاستحمام، وكم كان ذلك يصيبني بالغيظ».

«ربما لم يكن والدها ليملك أي شيء لمساعدتها، ليست لديكِ فكرة عما كان يمكن أن يحدث بينهما، فربما كرها بعضهما بعضًا».

قال مارك: «يبدو أنها فتاة معقدة للغاية، وأعتقد أنك منحتها أكبر عدد ممكن من الفرص، ولكن يتعيَّن علينا في بعض الأحيان أن نحمي أنفسنا لكي نستطيع مواصلة الحياة. وربما تكونين على دراية بذلك في أعماقك، فإذا كانت ليلي قد تسبَّبت في الخراب والفوضى في حياتك، فقد أقدمتِ على التصرف الوحيد الممكن».

«أوه أجل»، كثرت الإيماءات الموافقة على كلامه في المجموعة، «ارفقي بنفسك، فأنتِ بشر». كانوا لطفاء معي مبتسمين لي ابتسامات مطمئنة لكي يخففوا عني.

كانت مشاعرهم حقيقية فصدَّقتهم.

يوم الثلاثاء، طلبت من فيرا أن تمنحني خمس دقائق (وثرثرت معها متحدِّثة عن مشاكل النساء، وأومأت لي على نحو يشي بأن حياة النساء ليست شيئًا سوى مجموعة من المشاكل، وتمتمت أنها سوف تحدثني في وقت لاحق عن أورامها الليفية). هرعت إلى أكثر مراحيض السيدات هدوءًا - فهو المكان الوحيد الذي لا يستطيع ريتشارد رؤيتي فيه - حاملة معي اللاب توب الخاص بي في حقيبتي. ارتديت قميصًا فوق زي العمل واضعة اللاب توب بالقرب من الحوض، واتصلت بالواي فاي المجاني في المطار لمدة ثلاثين دقيقة، جالسة بعناية أمام الشاشة. وفي تمام الخامسة، وبمجرد أن نزعت عن رأسي باروكة العمل جاءتني مكالمة السيد جوبنك عبر سكايب.

مع أنني لم أرَ سوى وجه السيد ليونارد جوبنك غير الواضح عبر الشاشة، كان من السهل معرفة أنه رجل ثري. كانت قَصَّة شعره راقية وجميلة، وكانت نظرته عبر الشاشة تحمل سلطة طبيعية، وقد تحدث من دون أن يهدر كلمة. حسنًا، كما ظهرت وراءه في الخلفية واحدة من اللوحات العتيقة القيّمة.

لم يطرح عليَّ أسئلة حول درجاتي الدراسية، أو مؤهلاتي، أو سيرتي الذاتية، أو السبب في أنني أجري المقابلة الشخصية وإلى جواري مجفف اليد بالهواء الساخن. نظر إلى مجموعة من الأوراق ثم سأل عن علاقتي بعائلة ترينر.

«علاقة طيبة! أعني يمكن أن ترجع لهم إن أردت للسؤال عني، لقد كنت على تواصل معهم أخيرًا لسبب أو لآخر. وعلاقتنا طيبة على الرغم من الظروف التي..».

قال بصوت خفيض حازم:

«على الرغم من الظروف التي أدت إلى انتهاء عملك معهم، لقد شرح لي ناثان ذلك الموقف، ويا له من موقف صعب».

قلت له بعد لحظة صمت:

«أجل، ولكنني شعرت بأنني مميزة لكوني جزءًا من حياة ويل».

قام بتدوين ذلك ثم سأل: «وما الذي تفعلينه منذ ذلك الحين؟».

«حسنًا، لقد سافرت، وكانت معظم رحلاتي إلى أوربا، وكم كان أمرًا مثيرًا. السفر شيء رائع، ويضيف إليك وإلى نظرتك للأمور». وحاولت الابتسام قائلة، «والآن أعمل في المطار، ولكنه ليس عملًا مناسبًا»، ودلفت إلى الحمام سيدة من خلفي تجر حقيبة ذات عجلات. عدلت من وضع حاسوبي، آملة ألّا يسمع صوتها وهي داخل الحمام: «ليس العمل الذي أود القيام به على المدى الطويل». أرجوكِ لا تحدثي صوتًا وأنت تتبولين، توسَّلت إليها في سرّي.

طرح عليَّ بعض الأسئلة حول مسؤولياتي الحالية، ودخلي الشهري. وحاولت إجابته متجاهلة صوت شطّاف الماء، محافظة على نظرتي أمامي، ومتجاهلة السيدة التي خرجت من المرحاض.

«وما الذي تريدين...»، وما إن طرح السيد جوبنك السؤال، حتى تقدمت السيدة إلى مجفف الهواء بجواري وقامت بتشغيله، محدثًا صوتًا مزعجًا بجانبي، فعبس وجهه في المقابل.

«لحظة واحدة سيد جوبنك رجاء». ثم وضعت إصبعي فوق ما آمل أن يكون الميكروفون وصحت فيها قائلة: «آسفة، لا يمكنك استخدام ذلك المجفف، إنه معطّل».

نظرت إليَّ وهي تحك أصابعها ذات طلاء الأظافر المثالي، ثم نظرت نحو المجفف ثانية قائلة «كلا ليس معطلًا، أين اللافتة التي تقول إنه خارج العمل؟».

«لقد احترق فجأة، فهو جهاز فظيع خطير».

رمقتنا بنظرة متشكِّكة، أنا والمجفف، ثم سحبت يدها من تحته، وأخذت حقيبتها وخرجت. وضعت الكرسي خلف الباب لأمنع أي شخص آخر

من الدخول، ووضعت اللاب توب أمامي حتى يتمكن السيد جوبنك من رؤيتي: «آسفة، كان يجب عليَّ القيام بهذا في العمل، إنه مجرد..».

كان يقلب في أوراقه حين قال:

«لقد أخبرني ناثان أنك تعرضت لحادث أخيرًا».

ابتلعت ريقي:

«صحيح، ولكنني أفضل بكثير الآن، أنا على خير حال. حسنًا في ما عدا عرَج بسيط».

قال مبتسمًا ابتسامة بسيطة: «كلنا معرضون لذلك» فبادلته الابتسام. حاول أحدهم فتح الباب، فتحركت بجسدي ليكون وزني في مقابل الباب حتى لا ينفتح.

سأل السيد جوبنك: «ماذا كان الجانب الأصعب؟».

«عفوًا؟».

«أعني ماذا كان الجانب الأصعب من العمل لدى وليام ترينر، يبدو أن الأمر كان تحديًا على نحو كبير».

ترددت للحظة. وعمَّ المكان فجأة صمت رهيب: «كان الجانب الأصعب، تركه يرحل». وجدت دموعي تنهمر من عيني فجأة.

حدق بي ليونارد جوبنك عبر أميال بعيدة من شاشته. قاومت رغبتي في مسح دموعي «سوف تتواصل معك سكرتيرتي، آنسة كلارك. شكرًا لوقتك». وبإيماءة منه، توقَّفت صورة وجهه ثم استحالت الشاشة إلى فراغ وأنا ما زلت محدِّقة، مفكرة في حقيقة أنني قد أفسدت كل شيء مجددًا.

في تلك الليلة، وأنا في طريق عودتي إلى المنزل، قررت ألّا أفكر في تلك المقابلة الشخصية. وبدلًا من ذلك أخذت أردد عبارة مارك كما لو كانت تعويذة. وأتذكر كل ما قامت ليلي بفعله: ضيوفها غير المرغوب فيهم، سرقة مقتنياتي، المخدرات، السهرات اللامتناهية لوقت متأخر، استعارتها لأغراضي.. فكرت في كل ذلك في ضوء رأي أفراد مجموعتي

العلاجية. كانت ليلي عبارة عن فوضى متحركة، وخَلَل، كانت فتاة تأخذ كل شيء ولا تمنح أي شيء في المقابل. صحيح أنها صغيرة، وبيولوجيًا تنتمي لويل، ولكن ذلك لم يكن يعني أن أتحمل مسؤوليتها، أو أن أتقبَّل تلك الفوضى التي تحدثها.

شعرت بقليل من التحسن بالفعل، كما ذكّرت نفسي بشيء آخر قد قاله مارك: بعد تجرُّع الأحزان لا يوجد طريق مستقيم لأي رحلة، لا بد أن يكون هناك يوم حلو ويوم مرّ. وقد كان اليوم مجرد يوم مرّ، عثرة في الطريق ولكنها لن تعيقني عن استكمال الرحلة والعيش.

دخلت إلى شقتي، ألقيت بالحقيبة من يدي، سمحت لنفسي باستشعار متعة وجود منزل يمكن العودة إليه بعد مغادرته. أخبرت نفسي بأنني سوف أسمح بمرور مساحة من الوقت، ثم سأراسلها، مع الحرص التام على وضع إطار لزياراتنا المستقبلية. وأنني سوف أركز طاقاتي على الحصول على وظيفة جديدة، وسوف أفكر في نفسي على سبيل التغيير. سوف أسمح لنفسي بالتعافي. كان عليَّ التوقف عند هذه النقطة، لأنه قد انتابني القليل من القلق من أن أبدو مثل تانيا هوتون ميلر.

حدَّقت في سلم الطوارئ، وقرَّرت أن خطوتي الأولى ستكون في عودتي إلى الصعود إلى سطح المنزل الأحمق ثانية. سوف أصعد إلى هناك بمفردي، من دون أن تصيبني نوبة فزع، وسوف أجلس هناك لنصف ساعة كاملة، وسوف أستنشق الهواء وأضع حدًا لهذا الجزء من منزلي الذي يسيطر على مخيلتي على هذا النحو الهزلي.

خلعت زي العمل، وارتديت بنطالًا قصيرًا وقميص ويل الكاشمير، الذي كنت قد أخذته عقب وفاته، من باب بث مزيد الثقة في نفسي، شاعرة بالراحة لملمسه على بشرتي. مشيت عبر الردهة وفتحت الباب على مصراعيه، لا أحتاج سوى الصعود درجات قليلة على الدرج الحديدي وسأكون هناك بالفعل.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت بصوت مرتفع: «لن يحدث شيء. كنت للغرابة لا أشعر بساقي وأنا أصعد على الدرج، ولكنني حدّثت نفسي بكل حزم أنه مجرد شعور قديم بالقلق لا يزال يترك صداه في داخلي، ويمكنني التغلب عليه. سمعت صوت ويل في أذني.

هيا يا كلارك، خطوة واحدة أخرى.

أمسكت بالدرابزين بقوة بكلتا يديّ، وبدأت في طريقي للصعود. لم أنظر إلى أسفل، ولم أسمح لنفسي بالتفكير في الارتفاع الذي أنا عليه، أو كيف أن النسيم الخفيف جعلني أسترجع وقتًا سابقًا مضت فيه الأمور على نحو خاطئ، ولم أفكر في ذلك الألم المستمر في فخذي الذي يبدو أنه لن يتركني ويرحل مطلقًا. فكرت في سام، ودفعني شعوري بالغضب العارم إلى الاستمرار. ليس عليّ أن ألعب دور الضحية دائمًا، ذلك الشخص الذي تؤثر فيه الأحداث ولا يبادر إلى صنع شيء في المقابل.

حدثت نفسي بكل ذلك بينما أواصل الصعود على الدور الثاني من الدرج، وقد بدأت ساقيَّ في الارتجاف. صعدت فوق الجدار المنخفض بلا مرونة، خائفة أن ينهار من أسفل قدمي، زحفت على السطح على يدي وركبتي. وبقيت على أربع، مغلقة عيني، محاولة استيعاب حقيقة أنني على السطح. لقد فعلتها. لقد أصبحت متحكمة في مصيري. وسوف أبقى هناك حتى أشعر أنني عدت إلى طبيعتي.

جلست القرفصاء، مستندة إلى الجدار من خلفي مستشعرة صلابته، وفردت ظهري مقابل الجدار، وأنا آخذ نفسًا عميقًا. وشعرت أن كل شيء على ما يرام. ليس هناك ما يتحرك. لقد فعلتها. ثم فتحت عيني، وحينها توقف اللهاث في صدري.

وجدت السطح يزدحم بالأزهار والورود. الأصص التي كانت تحتوي على براعم ميتة تشرق الآن بالأزهار القرمزية والأرجوانية الغنّاء، وتنتشر عبر الأطراف، وكأن السطح تحول إلى نافورة صغيرة من الألوان المبهجة.

كما كان هناك إصيصان جديدان يحملان عددًا لا حصر له من البتلات الزرقاء الصغيرة، كما ازدهرت شجرة القيقب اليابانية داخل إصيص مزين إلى جوار أحد المقاعد، واهتزت أوراقها برقّة متراقصة مع النسيم.

وفي الركن المشمس هناك في أحد الجوانب كانت هناك حقيبتان مخصصتان للزراعة معلّقتان إلى جوار خزان المياه وتتدلى منهما أعناق طماطم الشيري الحمراء، وكانت الأخرى راقدة على الإسفلت وتخرج من منتصفها أوراق خضراء زخرفية الشكل. بدأت في السير تجاهها، مستنشقة عبير الياسمين، ثم توقفت وجلست ويدي تتحسس المقعد الحديدي. جلست على وسادة مريحة أدركت أنها من غرفة معيشتي.

نظرت في ذهول غير مصدقة إلى الواحة الغناء رائعة الجمال التي أصبح عليها سطح منزلي القاحل. وتذكرت ليلي وهي تقصم غصنًا ميتًا من إصيص وتقول لي بكل جدية إن ترك نباتاتي لتموت على هذا النحو جريمة، وملحوظتها عن الأزهار في حديقة السيدة ترينر «أزهار من نوع ديفيد أوستن»، ثم تذكرت آثار التراب التي كنت أجدها في ممر الشقة من دون تفسير واضح.

وحينها وضعت رأسي فوق كلتا يدي.

الفصل السابع عشر

راسلتُ ليلي مرتين؛ مرة لأشكرها على ما فعلته على سطح البناية: قمة الروعة، أتمنى لو كنتِ قد أخبرتني. بعدها بيوم واحد كتبت لها رسالة نصية أقول فيها إنني جد آسفة لأن الأمور بيننا باتت في غاية السوء، وأنها متى شاءت التحدث عن ويل، فسوف أبذل قصارى جهدي للرد على أي أسئلة بهذا الخصوص. وأضفت أنني آمل أن تذهب لمقابلة السيد ترينر ورؤية الطفل الجديد، فالتواصل مع أفراد أسرتك أمر مهم على حد علمي.

ولكنها لم ترد على أيٍّ من رسائلي، ولم أكن مندهشة.

في اليومين التاليين وجدت نفسي أعود إلى السطح، مثل شخص يخشى سقوط سنّه المخلخلة. سقيت النباتات، وقد تسلل إليّ شيء من الإحساس بالذنب. مشيت حول البراعم المتفتِّحة، متخيِّلة ساعات العمل المضنية التي قضتها هنا، وجئت أنا لأسرق ثمرة مجهودها بهذه السهولة، تخيلت كيف أنها حملت أكياس السماد وأواني التربة على سلم الطوارئ أثناء وجودي في العمل. ولكن كلما عدت بذاكرتي إلى الوراء وتأمَّلت كيف كانت علاقتنا، أجد نفسي أدور في حلقات مفرغة. ما الذي كان في يدي ولم أفعله؟ لم أتمكن من دفع آل ترينر إلى قبولها بالطريقة التي تريدها. لم أستطِع جعلها أكثر سعادة. والشخص الوحيد الذي ربما كان قادرًا على ذلك رحل عن عالمنا.

كانت هناك دراجة نارية متوقفة خارج المبنى. أقفلت السيارة وعبرت

الطريق مشيًا بساقي العرجاء لشراء علبة حليب وأنا أشعر بالإنهاك. كانت السماء تمطر رذاذًا خفيفًا، فنكّست رأسي لأتفادى الأمطار. عندما رفعت عيني، رأيت زيًا مألوفًا لشخص يقف في مدخل البناية، فتسارعت دقات قلبي.

عدت على الفور وتجاوزته، ورحت أفتش في حقيبتي بحثًا عن مفاتيحي. لماذا تتحول أصابع المرء دومًا إلى ما يشبه النقانق في لحظات من التوتر؟

«لويزا».

لم أستطع إيجاد المفاتيح. رحت أقلب حقيبتي مرة ثانية، فسقط منها مشط ومناديل ورقية ونقود معدنية، وبعض الأشياء اللعينة. تحسست جيوبي لعلي أتذكر أين وضعتها.

«لويزا». ثم، وبغُصة في معدتي، تذكرت أين هي: في جيب سروال الجينز الذي كنت قد غيرته قبل توجهي للعمل مباشرة. أوه، رائع.

«حقًا؟ هل ستتجاهلينني؟ أهذه هي طريقتكِ للتفاهم؟».

أخذت نفسا عميقًا، والتفتّ إليه، وقد عدلت كتفي قليلًا. «سام».

بدا متعبًا أيضًا، وقد نبت الشعر الأشيب غير المهذب على ذقنه. لعله أنهى مناوبته للتو. لم يكن من الحكمة أن أراه بهذا الشكل. ركزت على نقطة تقع إلى اليسار قليلًا من كتفه.

«هل يمكننا التحدث؟».

«لا فائدة ترجى من حديثنا فيما أظن».

«لا فائدة؟ لماذا؟»

«لقد تلقيت الرسالة، أليس كذلك؟ لا أدري حتى سبب وجودك هنا».

«أنا هنا لأنني انتهيت للتو من ست عشرة ساعة متواصلة من العمل المضني في مناوبتي، وأنزلت دونا على الطريق، وكنت أظن أنه يجدر بي رؤيتك ومحاولة حل المشكلة التي حدثت بيننا. لأنني أؤكد لكِ أنه ليست لديّ فكرة عن السبب الذي أوصلنا إلى هذه الحالة».

«حقًا؟».

«حقًا».

كنا نحدق في بعضنا بعضًا. لماذا لم أرَ من قبل كم هو وقح؟ كم هو بغيض. لا أفهم كيف أعمتني الشهوة عن حقيقة هذا الرجل في حين تريد كل ذرة من كياني الآن أن تسير بعيدًا عنه. أجريت محاولة أخيرة عقيمة للبحث عن مفاتيحي وقاومت الرغبة في ركل الباب.

«إذن، هل ستعطيني فكرة على الأقل؟ لقد تعبت يا لويزا، وأنا لا أحب الألاعيب».

«أنت لا تحب الألاعيب!». خرجت الكلمات من فمي مشوبة بضحكة مريرة.

أخذ نفسًا، «حسنًا. شيء أخير. شيء أخير وسأذهب. فقط أريد أن أعرف لماذا لا تردين على مكالماتي».

نظرت في وجهه وقلت: «لأنني أتصف بالكثير من الصفات، ولكن ليس من بينها الحماقة. أعني أنني كنت رأيت علامات تحذيرية، وتجاهلتها. ولكنني لم أرد على مكالماتك، في الأساس، لأنك مجرد قضيب، لا أكثر ولا أقل».

انحنيت لألتقط الأشياء التي وقعت على الأرض، وشعرت بدرجة حرارة جسمي ترتفع بسرعة، كما لو أن ترمومتري الداخلي قد جنّ جنونه فجأة. «أوه، أنت جيد جدًّا، أتعلم ذلك؟ لو لم يكن الموقف مقززًا ومثيرًا للشفقة إلى هذا الحد لأعجبت بك أيّما إعجاب». اعتدلت وأنا أقفل حقيبتي. «انظروا إلى سام، الأب العطوف، الحنون، الحساس (قلتها بنبرة سخرية). ولكن ما الذي يجري في الحقيقة؟ أنت مشغول بمطاردة النساء في نصف شوارع لندن حتى إنك لم تلاحظ أن ابنك تعيس».

«ابني».

«أجل! لأننا نستمع إليه فعلًا، أتدري! أعني، لا يجدر بنا أن نخبر الغرباء

بما يجري في المجموعة. ولن يخبرك هو بتلك الحقيقة، لأنه في سن المراهقة. لكنه بائس، ليس فقط لفقدان أمه ولكن لأنك مشغول بابتلاع أحزانك عن طريق امتلاك جيش كامل من النساء اللاتي يتمرغن على سريرك وعلى...».

في تلك اللحظة كنت أصرخ، تتلاحق كلماتي وراء بعضها بعضًا، ويداي تلوّحان مهددة. أستطيع من مكاني هذا أن أرى سمير وابن عمه يحدقان من خلال نافذة المحل، لكنني لم أهتم. قد تكون تلك آخر فرصة تتاح لي لأعزف مقطوعتي.

«وأجل، أجل، أعلم أنني كنت غبية بما فيه الكفاية لأكون واحدة من أولئك النسوة. لذلك ما أنت إلا قضيب في نظري ونظره. ولهذا السبب لا أريد أن أتحدث معك الآن، ولا في أي وقت حتى».

حك شعره: «هل ما زلنا نتحدث عن جاك؟».

«بالطبع أنا أتحدث عن جاك. وهل لديك أبناء آخرون؟».

«جاك ليس ابني».

حدَّقت فيه مستنكرة.

«جاك ابن أختي»، ثم استدرك مردفًا: «أقصد كان».

استغرقت هذه الكلمات عدة ثوانٍ لتأخذ شكلًا يمكن أن أفهمه. كان سام يتفرَّس في وجهي باهتمام، وجبينه مغضّن كما لو كان يحاول أيضًا الاستيعاب.

«ولكن.. ولكنك مسؤول عنه. إنه يعيش معك».

«أنا آخذه يوم الإثنين فقط لأن أباه يعمل في نوبة ليلية ذلك اليوم، وقد يبقى معي أحيانًا، لكنه لا يعيش معي».

«جاك... ليس ابنك؟».

«في حدود علمي، لم أرزق بأطفال. ويبدو أن موضوع ليلي يجعلك في حيرة من أمرك».

لمعت في خاطري صورته وهو يعانق جاك، واسترجعت في ذهني عشرات المحادثات. «لكنني رأيته عندما التقينا أول مرة. وعندما كنا أنا وأنت نتحدث دارت عيناه في محجريهما، مثل..».

طأطأ سام رأسه.

«أوه، يا إلهي»، ندت عني العبارة، ووضعت يدي على فمي، «هؤلاء النسوة..».

«لا علاقة لي بهن»، وقفنا هناك في منتصف الشارع. كان سمير الآن في المدخل، يراقب، وقد انضم إليه شخص آخر من أبناء عمومته. وإلى يسارنا أشاح كل من في محطة الحافلات بعيدًا لما أدركوا أننا عرفنا أنهم كانوا يراقبوننا. أومأ سام إلى الباب من ورائي. «هل تعتقدين أنه يمكننا مواصلة حديثنا في الداخل؟».

«أجل، أجل، أوه. لا، لا أستطيع... يبدو أنني قد نسيت المفتاح في الداخل».

«والمفتاح الاحتياطي؟».

«في الشقة».

مسح وجهه بيده، ثم تفقد ساعته. كان منهكًا بشكل واضح، ومضطربًا حتى العظام. أخذت خطوة إلى الوراء في المدخل. «انظر.. عد إلى المنزل واحصل على قسط من الراحة. سنتحدَّث غدًا. آسفة».

فجأة هطلت الأمطار بغزارة، مخلِّفة ما يشبه جداول من السيول والفيضانات في الشارع. وعلى الجهة الأخرى من الطريق تراجع سمير وأبناء عمومته إلى الداخل.

تنهَّد سام، ونظر إلى السماء من فوقه ثم نظر إليَّ قائلًا: «انتظري». وخرج.

بعد لحظات عاد وهو يحمل مفكًا كبيرًا ويتبعني على سلم الطوارئ. زلَّت قدمي مرتين على عتبات السلم المعدنية المبللة، وفي كل مرة كان

يمد يده ليقيني من الوقوع، حينها كنت أشعر كما لو أن شيئًا ساخنًا وغير متوقع يخترق أحشائي. عندما وصلنا إلى الطابق الذي تقع فيه شقتي، دفع المفك في إطار نافذة الردهة وشرع يرفعها لأعلى، واستجابت له بسرعة.

«ها هي». سحبها إلى أعلى، ودعمها بيد، ثم استدار نحوي، وأشار إليَّ بالدخول من تحتها، وتقاسيم وجهه تنم عن الامتعاض على نحو ما، «كانت هذه الطريقة سهلة للغاية بالنسبة لفتاة تعيش في هذه المنطقة».

«لكنك لا تبدو لي مثل فتاة تعيش في هذه المنطقة».

«أنا جاد».

«أنا بخير يا سام».

«أنت لا ترين ما أراه. أريدك أن تكوني آمنة».

حاولت أن أبتسم، ولكن ركبتيّ كانتا ترتجفان، وراحتا يديّ تنزلقان على القضيب المعدني. بذلت جهدا لأرفع رجلي وأمرّ إلى الداخل ولكني ترنحت قليلًا.

«هل أنتِ بخير؟».

أومأت. أخذ بيدي ورفعني إلى الأعلى قليلًا ليساعدني على التسلق والدخول إلى شقتي. هبطت على السجادة من النافذة، في انتظار العودة إلى حالتي الطبيعية. كنت قد حُرمت لأيام من نيل قسط نوم جيد، وشعرت بأنني نصف ميتة، كما لو أن الغضب والأدرينالين الذي كان يدعمني في الساعات الماضية قد نفد مفعوله.

دخل سام ورائي وأغلق النافذة، وأخذ يتفحَّص القفل المكسور أعلى الإطار. كانت الردهة مظلمة، وهزيم المطر على السطح يتناهى إلى مسامعي. رحت أرقبه وهو يفتش في جيبه حتى التقط من بين عدد من الأغراض مسمارًا صغيرًا. أخذ المفك واستخدم المقبض للدق على المسمار في إحدى الزوايا لمنع أي شخص من فتح النافذة من الخارج. ثم مشى متثاقلًا إلى حيث أجلس، وأشار بيده، قائلًا:

«هذا من فوائد العمل كباني منازل بدوام جزئي. هناك دائمًا مسمار في مكان ما». ثم أردف «هيا! إذا طاوعت نفسك بالجلوس هناك فلن تنهضي أبد الدهر».

كان شعره تلبّد بفعل المطر، وبشرته تلمع في ضوء الردهة، لما تركته يشدني للوقوف على قدمي. جفلت، ورأى ذلك.

«وركك؟».. أومأت.

تنهَّد. «أتمنى أن تتحدثي معي». كانت عيناه محمرتين من فرط الإرهاق، وهناك خدوش طويلة على ظهر يده اليسرى، فتساءلت عمَّا حدث الليلة السابقة. اختفى في المطبخ وسمعت صوت المياه. ولما عاد كان يحمل حبتين وكوبًا. «لا يجدر بي أن أعطيك تلك العقاقير، ولكنها ستمنحك ليلة خالية من الألم».

أخذتهما منه بامتنان. وجعل يرقبني وأنا أبتلعهما.

«هل تتبع القواعد دومًا؟».

«عندما أرى أنها معقولة». أخذ الكوب من يدي. «هل نحن بخير، لويزا كلارك؟».

أومأت.

تنهد تنهيدة طويلة: «سأتصل بك غدًا».

بعدها، لا أدري ما الذي دفعني إلى فعل ذلك. مددت يدي وأخذت يديه. شعرت بأصابعه تلتف ببطء حول أصابعي. «لا تذهب. لقد تأخر الوقت. والدراجات النارية خطرة».

أخذت المفك من يده الأخرى، وتركته يسقط على السجادة. نظر لي لأطول وقت، ثم مسح وجهه بيده، «لا أعتقد أنني أصلح لكِ الآن».

«إذن، أعدك ألّا أستخدمك في إشباع رغباتي الجنسية هذه المرّة».لم أرفع عيني عن عينيه.

انفرج ثغره عن ابتسامة بطيئة، ولكن ما إن ارتسمت على شفتيه، انزاحت كل همومي، كما لو كنت أنوء بعبء لم أكن أدري به.

لا يمكنك التنبؤ بما يمكن أن يحدث لك حين تسقط من ارتفاع شاهق.

وقدته في صمت إلى غرفة نومي.

ها أنا أستلقي في الظلام في شقتي الصغيرة، وساقي تلتف حول جسم رجل نائم بجانبي، تطوِّقني ذراعه لتثبِّتني تحتها بكل استمتاع، وأحدق في وجهه.

- سكتة قلبية قاتلة، حادث دراجة نارية، مراهق انتحاري، طعنة نافذة في شجار بين أفراد عصابة بحي بيبودي إيستيت. بعض نوبات العمل ليست سوى...

«ششش. كل شيء على ما يرام. نم».

كان قد تمكن بالكاد من خلع زي العمل. لم يبقَ عليه سوى فانلة وسراوله التحتي، قبَّلني، ثم أغمض عينيه وراح في سبات عميق. كنت أتساءل إذا كان يجب أن أطهو له شيئًا، أو أرتب الشقة بحيث أبدو عندما يستيقظ كأنني امرأة قادرة على تصريف أمور حياتها. ولكن بدلًا من ذلك خلعت ملابسي ولم يبقَ عليَّ سوى الملابس الداخلية وانزلقت في الفراش بجانبه. في هذه اللحظات لم أفكر إلّا في أن أكون بجانبه، بشرتي العارية تلامس بشرته، وأنفاسي تختلط بأنفاسه. أستمع إلى آناته، متسائلة في اندهاش كيف يمكن لإنسان أن يكون بهذه الرزانة. تفرست ذلك النتوء الطفيف على قصبة أنفه، تباين ألوان الشعيرات التي تكسو ذقنه، التجعيدة الطفيفة في نهاية رموشه السوداء، غامقة السواد. رحت أستعيد المحادثات التي جرت بيننا، ومررتها من خلال مرشَح جديد، مرشَح يعتبره رجلًا أعزب، وخالًا حنونًا، وأردت أن أضحك على كل تلك الحماقة التي تكتنف الموقف برمته، وخجلت من خطئي.

تحسَّست وجهه مرتين بخفة، مستنشقة رائحة جلده، بقايا الرائحة

النفَّاذة للصابون المضاد للبكتيريا، الأثر الجنسي البدائي لعرق الذكور، وفي المرة الثانية التي أقدمت فيها على فعل ذلك شعرت بيده تضغط على خصري كرد فعل منعكس. انقلبت على ظهري وحدقت في أضواء الشارع، لأشعر للمرة الأولى أنني لست غريبة في هذه المدينة. وأخيرًا، وجدت نفسي أروح...

كنت أول ما فتح عليه عينيه، ولم يلبث أن أدرك بعد لحظة أين هو.

«مرحبًا».

هبَّ من رقدته مجفلًا؛ فتملَّكتني تلك الحالة الحميمية الغريبة التي مرت كالحلم لبضع ساعات.ها هو في سريري، ساقه قبالة ساقي.فقلت وقد تسللت ابتسامة إلى وجهي. «مرحبًا بك».

«كم الساعة الآن؟».

استدرت نحو المنبّه. «الساعة الخامسة والربع». استسلم الوقت لأوامرنا، واستسلم العالم على مضض لشيء منطقي. وفي الخارج، أضاءت مصابيح الصوديوم ظلام الشارع. وصوت سيارات الميني كاب والحافلات الليلية يرعد ويبرق. أما هنا فلا يوجد سواي أنا وهو يضمنا الليل البهيم والسرير الدافئ وصوت تنفسه.

«لا أستطيع حتى أن أتذكَّر أنني جئت إلى هنا». نظر إلى الجانب فبدا وجهه عابسًا في أضواء الشارع الشاحبة. جعلت أرقبه فيما تهادت ذكريات اليوم السابق بهدوء وصمت، حتى قلت لنفسي: أوه، حسنًا.

استدار نحوي برأسه، وفمه على بعد بضع بوصات من فمي. أنفاسه، دافئة وحلوة. «اشتقت إليك، لويزا كلارك».

أردت أن أخبره عندئذ. أردت أن أخبره أنني لا أعرف ما أشعر به. أريده، ولكنني أخاف أن أريده. فلا أريد أن تعتمد سعادتي كليًا على شخص آخر، أو أن تكون رهينة لحظوظ لا أملك السيطرة عليها.

قال لي وقد ثبت عينيه على وجهي، كما لو كان يقرؤني: «كفِّي عن التفكير».

شدَّني إليه، وتجاوبت معه. هذا الرجل يقضي كل يوم هنا، على الجسر بين الحياة والموت. هو يفهم. «أنتِ تفكرين كثيرًا».

انزلقت يده على جانب وجهي، فالتفتُّ نحوه لا إراديًا، ولثمت كفه بشفتيّ. همست: «أعيش الحياة وحسب؟».

أومأ، ثم قبَّلني، قبلة طويلة وبطيئة وحلوة، حتى تقوَّس جسدي بلهيب الرغبة والشوق.

صوته خفيض في أذني. ناداني باسمي وشدني إليه. إنه يجعل الأمر يبدو كأنه شيء ثمين.

وكانت الأيام الثلاثة التالية عبارة عن مزيج مبهم من الليالي المسروقة واللقاءات القصيرة. اضطررت للغياب عن «أسبوع المعالجة على الطريقة المثالية» في مجموعة الدعم النفسي، وما ذلك إلا لأنه كان يأتي إلى الشقة كلما هممت بالمغادرة، لينتهي بنا المطاف بطريقة أو بأخرى في حالة من الفوضى العارمة تختلط فيها الأيدي بالأيدي والسيقان بالسيقان، في انتظار أن يدق منبهي البيضاوي حتى يتمكن من ارتداء ملابسه والهرولة لاصطحاب جاك في الموعد المحدد. وفي مرتين وجدته ينتظرني لدى عودتي من العمل، وبمجرد أن تصبح شفته على ظاهر عنقي ويده الكبيرة على فخذي، تصبح كل مآسي شامروك آند كلوفر في طي النسيان أو على الأقل تنزاح جانبًا لتنضم إلى بواقي فوضى الليلة الماضية.

أردت أن أقاومه، لكنني لم أستطِع. كنت مصابة بالدوار، مشتَّتة الذهن، محرومة من النوم. أصبت بالتهاب المثانة ولم أبال. كنت أدندن طوال طريقي إلى العمل، أمزح مع رجال الأعمال، وأبتسم مبتهجة لشكاوى ريتشارد. سعادتي تلك أغاظت مديري: أستطيع أن أرى ذلك في حركاته، والطريقة التي يفتش بها عن أتفه الهفوات ليقرعني بسببها.

لم أبال بأيٍّ من ذلك. غنَّيت في الحمام، أستلقي على ظهري وأحلم أحلام اليقظة. ارتديت فساتيني القديمة وسترتي الصوفية زاهية الألوان

وأحذيتي اللامعة، وأحطت نفسي بفقاعة من السعادة، دون أن يفوتني أن الفقاعات تظل صامدة لفترة من الوقت قبل أن تنفجر على أي حال.

قال لي: «لقد أخبرت جاك». كانت لديه استراحة لمدة نصف ساعة، فتوقَّف هو ودونا خارج شقتي وقد أحضرا الغداء معهما قبل ذهابي لنوبة عمل متأخرة. جلست بجانبه في المقعد الأمامي لسيارة الإسعاف.

« أخبرته بماذا؟»، كان قد أعد شطائر الموزاريلا والطماطم والريحان. تلذذت بمذاق الطماطم التي زرعها في حديقته. كان يشعر بالجزع عندما كنت آكل طعامي وحدي.

«أخبرته أنك كنت تعتقدين أنني والده. لم أره يضحك هكذا منذ أشهر».

«ولم تخبره بأنني قلت لك إن والده يبكي بعد ممارسة الجنس، أليس كذلك؟».

قالت دونا: «كنت أعرف رجلًا فعل ذلك ذات مرة، لكنه أجهش بالبكاء حقًا، حتى إنني شعرت بالحرج. في المرة الأولى ظننت أنني كسرت قضيبه».

استدرت نحوها، فاغرة الفم.

«تلك حقيقة. مرت علينا حالتان من هذا النوع من قبل، أليس كذلك؟».

«بلى. ستدهشين من إصابات الجماع التي نراها». أومأ إلى شطيرتي التي كانت لا تزال في حضني. «سأخبرك عندما يخلو فمك من الطعام».

«إصابات الجماع. عظيم. لأنه ليس هناك ما يكفي من دواعي القلق في الحياة».

نظر بطرف عينيه وهو يأخذ قضمة من شطيرته، حتى احمرَّ وجهي خجلًا، «ثقي بي. سأعرِّفك».

قالت دونا وهي تقدم لي أحد مشروبات الطاقة الموجودة معها دومًا: «لنكن صرحاء يا زميلي العزيز، لو حصل لكما ذلك لن أكون أنا من سيقوم بإسعافكما!».

أحببت كوني في الكابينة. كان سلوك سام ودونا مشبعًا بالسخرية من فرط ما رأياه من حالات. كانا ظريفين ومتخابثين، وشعرت بأنهما يتلاعبان بي في المنزل، كما لو كانت حياتي، بكل غرابتها، في الواقع طبيعية جدًّا.

تلك هي الأشياء التي تعلمتها في ساعات الغداء الخاطفة والمتعددة تلك:

- كل الرجال أو النساء فوق سن السبعين تقريبًا لا يشكون من آلامهم أو علاجهم، حتى لو كانت أطرافهم متدلية من مكانها.

- نفس هؤلاء الرجال أو النساء المسنين يعتذرون دائمًا تقريبًا عن «التسبب في إثارة ضجة».

- إن مصطلح «Patient PFO»ليس مصطلحًا علميًا بل يعني «حالة سكر وفقدان توازن».

- نادرًا ما تلد الحوامل في سيارة الإسعاف. (ولكم شعرت بخيبة أمل من هذه المعلومة).

- لم يعد أحد يستخدم مصطلح «سائق سيارة إسعاف»، خصوصًا سائقي سيارات الإسعاف.

- دائمًا تكون هناك حفنة من الرجال الذين يجيبون، عندما يسألون عن مدى شعورهم بألم على مقياس من واحد إلى عشرة، «أحد عشر».

ولكن الشعور بالكآبة هو أكثر ما كان يسيطر على سام لدى عودته من نوبة عمل طويلة: متقاعدون يعيشون حياة الوحدة؛ رجال بدناء ملتصقون بشاشة التليفزيون، أجسامهم من الضخامة بحيث لا يقدمون حتى على صعود وهبوط الدرج؛ وأمهات شابات لا يتحدثن الإنجليزية احتجبن في شققهن مع مليون طفل صغير، غير متأكدين من كيفية طلب المساعدة عند الحاجة إليها؛ ومصابين بالاكتئاب وأمراض مزمنة منفرة.

قال إنه يشعر في بعض الأيام وكأن هناك فيروسًا معديًا: عليك فرك بشرتك لتخليصها من الكآبة، وكذلك رائحة المطهّر. وهناك أيضًا حالات

الانتحار، من يقضون نحبهم تحت عجلات القطارات أو في الحمامات في صمت تام دون أن تكتشف جثثهم في كثير من الأحيان لأسابيع أو أشهر حتى تفوح رائحتها المتعفنة، أو يتساءل أحدهم لماذا امتلأ صندوق البريد الخاص بفلان عن آخره.

«ألم يسبق لك أن شعرت بالخوف؟».

كان يستلقي في حمامي الصغير، وقد استحال لون الماء ورديًا باهتًا بفعل الدم الذي سال عليه من جرح أصيبت به إحدى الحالات نتيجة طلق ناري حتى أغرق كل جسمه. كنت مندهشة قليلًا من سرعة اعتيادي على وجود رجل عارٍ بالقرب مني؛ وخصوصًا رجلًا يمكنه أن يتحرك من دون مساعدة أحد.

فقال ببساطة: «لا يمكنك القيام بمهامك الوظيفة إذا شعرت بالخوف».

كان في الجيش قبل انضمامه إلى فريق المسعفين، وبالتالي لم يكن ما يكابده في تلك المهنة تحولًا غير عادي. «إنهم يحبوننا لأننا لا نفزع بسهولة، فقد رأينا كل شيء. أتدرين أن بعض هؤلاء الأطفال السكارى يخيفونني أكثر بكثير من طالبان».

جلست على مقعد بجواره أحدّق في جسده في المياه الملوَّثة ببقايا الدماء. على الرغم من حجمه وقوته، ارتجفت.

لاحظ تعابير الأسى والانزعاج ترتسم على وجهي، فمد يده وأغلق أصابعه حول أصابعي، وقال: « أعرف أنها ليست وظيفة مثالية للعلاقات؛ فلم تستطع صديقتي الأخيرة التأقلم معها، نظرًا للفوضى التي تعم حياتي لساعات وليالٍ».

«صارت المياه وردية اللون».

«أجل. آسف لذلك. كان الدش معطلًا في المحطة. وكان يجب أن أذهب إلى البيت أولًا». نظر إليَّ بطريقة تشي بأنه لم تكن أمامه فرصة للذهاب إلى المنزل أولًا. عندئذٍ سحب الصمام لتصريف المياه، ثم فتح الصنبور لتجديد المياه.

«إذن، من كانت.. صديقتك الأخيرة؟»، حاولت الحفاظ على هدوء نبرة صوتي. فلم أرد أن أكون واحدة من أولئك النساء، حتى لو تبين أنه ليس واحدًا من أولئك الرجال.

«إيونا، وكيلة سفر، فتاة حلوة».

«لكنك لم تكن تحبها».

«لماذا تقولين ذلك؟».

«لا أحد يقول «فتاة حلوة» عن امرأةكان يحبها يومًا. فهذا كمن يقول «سنظل أصدقاء». وهذا يعني أنك لم تشعر بحبها بما فيه الكفاية».

بدا عليه الاستمتاع بالحوار، «إذن، ما الذي كان يتعين عليَّ قوله لو كنت أحبها؟».

«كانت ستبدو ملامح الجدية على تقاسيم وجهك، وكنت لتقول: «كارين. يا له من كابوس»، أو تسكت تمامًا مكتفيًا بقول«لا أريد أن أتحدث عن ذلك الموضوع»».

«ربما كنتِ على حق إن شئت الحقيقة فلم أكن أريد الارتباط العاطفي بعد وفاة شقيقتي. فقد أدى مكوثي مع إلين في الأشهر القليلة الماضية للمساعدة في الاعتناء بها إلى إحساسي بالتعب والإرهاق النفسي الشديد».

رمقني بنظرة خاطفة وأضاف: «السرطان وسيلة غاية في البشاعة للوفاة. انهار والد جاك. بعض الناس هكذا. وبالتالي فقد تصورت أنهم بحاجة إليّ بجوارهم. وللحقيقة، لعلي لم أستطِع التماسك إلا لأنه لا يمكننا أن ننهار جميعًا». جلسنا في صمت مطبق للحظة. لم أتمكن من معرفة ما إذا كانت عيناه قد احمرّتا من أثر الحزن أم من الماء والصابون.

«على أي حال. نعم، نعم. ربما لم أكن صديقًا واقعًا في غرام فتاتي في ذلك الحين. إذن، من كان صديقك؟»، قالها عندما استدار أخيرًا ناظرًا إليّ.

«ويل».

«بالطبع. ألم ترتبطي بأحد منذ ذلك الحين؟».

ارتجفت وأنا أقول: «لا يوجد في حياتي أحد أريد أن أتحدث عنه، خلافه».

«الجميع يفسحون لأنفسهم طريقًا للعودة يا لويزا، فلا تعذبي نفسك».
كانت بشرته دافئة ورطبة، حتى صار من الصعب عليَّ أن أظل قابضة على أصابعه، فأفلتها، وجعل يغسل شعره. جلست ورحت أشاهده، وقد أخذت حالتي المزاجية ترتفع، مستمتعة بعضلات كتفيه المدببة وبريق جلده الرطب. أعجبت بالطريقة التي يغسل بها شعره: بقوة وعنفوان، فيما راح ينفض الماء عن رأسه مثل كلب.

بعدما انتهى حمامه، قلت له: «أوه، نسيت أن أخبرك بأمر مقابلة العمل التي أجريتها لشغل وظيفة في نيويورك».

قال مندهشًا وقد رفع أحد حاجبيه: «نيويورك».

«لن أقبل بها».

«يا للأسف، لكم أردت أي ذريعة للذهاب إلى نيويورك». انزلق ببطء بحيث لم يبقَ سوى فمه فقط فوق الماء. انفرج ثغره عن ابتسامة بطيئة. «ولكنك ستبذلين جهدك للاحتفاظ بالزي الفولكلوري الغريب، أليس كذلك؟».

شعرت بتغير حالتي المزاجية. نزلت حوض الاستحمام بكامل ملابسي لا لسبب إلا لأنه لم يكن يتوقع ذلك مطلقًا، قبَّلته وهو يقهقه ضاحكًا ويبقبق في الماء. انتابني فجأة شعور عارم بالسعادة لصلابته في عالم يتهاوى فيه الناس بكل سهولة.

أخيرًا بذلت جهدًا جبارًا لترتيب الشقة. في يوم العطلة اشتريت كرسيًا وطاولة قهوة ولوحة مؤطَّرة صغيرة علقتها بالقرب من التليفزيون. تضافرت كل هذه الأشياء لتوحي بطريقة أو أخرى بأن هناك إنسانًا يعيش بالفعل في المكان. اشتريت فراشًا جديدًا ووسادتين وعلقت كل ما عندي من ملابس فاخرة في الخزانة، بحيث صرت أشعر كلما فتحتها الآن بتنوع الأنماط والألوان، بدلًا من سراويل الجينز الرخيصة والفستان اللوريكس القصير للغاية. وهكذا تمكنت من تحويل شقتي عديمة الملامح إلى شيء بدا عامرًا على نحو مبهم.

وبتوفيق من آلهة تعديل نوبات العمل، تصادف أن كانت عطلة سام في نفس يوم عطلتي، فقضينا ثماني عشرة ساعة دون انقطاع لم يستمع فيها إلى سارينة الإسعاف، ولم أستمع فيها إلى آلات النفخ الموسيقية أو الشكاوى حول الفول السوداني المجفف. لقد لاحظت أن الوقت الذي قضيته مع سام، مضى أسرع مرتين من الساعات التي أقضيها بمفردي. فكرت في أشياء كثيرة يمكن أن نفعلها معًا، ثم رفضت نصفها نظرًا لكونها «زوجية» للغاية. وتساءلت إذا كان إنفاقنا الكثير من الوقت معًا أمرًا يتصف بالحكمة.

كتبت رسالة أخرى لليلي، قلت فيها: ليلي، أرجو أن تتصلي بي. أعرف أنك غاضبة مني، ولكن لا تبخلي عليّ بمكالمة واحدة. حديقتك تبدو جميلة! أحتاج منك أن تبيِّني لي كيفية الاعتناء بها، وما الذي يتعين عليّ فعله مع شتلات الطماطم، التي استطالت جدًّا (هل هذا طبيعي؟). ربما بعد أن نخرج للرقص؟x نقرت على زر الإرسال وبقيت أحدق في الشاشة الصغيرة حتى رن جرس الباب.

«مرحى». سد المدخل ممسكًا صندوق أدوات في يد وكيسًا في الأخرى.

قلت: «أوه، يا إلهي، تبدو فتى الأحلام المثالي لكل امرأة».

«إنها رفوف»، قالها متصنِّعًا الجدية، «أنت بحاجة إلى رفوف».

«أوه يا حبيبي، واصل الكلام».

«وطعام مطبوخ في المنزل».

«هذا هو الكلام. أهلا وسهلا بك».

ضحك وأسقط صندوق الأدوات من يده في الردهة وقبَّلني، وعندما انفضّ اشتباكنا أخيرًا، سار إلى المطبخ، «ظننت أنه يمكننا الذهاب إلى السينما. أنت تعرفين أن واحدة من أعظم فوائد نظام مناوبات العمل هو القدرة على اللحاق بحفلات الماتينيه، أليس كذلك؟».

تفحَّصت هاتفي.

«بشرط ألا يحتوي الفيلم المعروض على أي مشاهد فيها دماء. لقد مللت الدماء».

عندما نظرت إليه وجدته يراقبني.

«ماذا؟ لا تشغلي بالك بالأوهام؟ وإلا ستفسدين على نفسك الاستمتاع بالجزء الخامس عشر من فيلم «الزومبي آكلي لحوم البشر»!... ما خطبك؟».

اكفهرَّ وجهي وسقطت يداي إلى جانبي، وقلت: «لا أستطيع الاتصال بليلي».

«اعتقدت أنك قلت إنها عادت إلى بيتها؟».

«بلى، لكنها لا ترد على مكالماتي، وأعتقد أنها غاضبة مني حقًا».

«لقد سرق أصدقاؤها أغراضك، ويفترض أن تكوني أنتِ الغاضبة وليس العكس».

بدأ يفرغ حقيبة البقالة؛ خس وطماطم وأفوكادو وبيض وأعشاب، وراح يرصُّها بدقة في ثلاجتي شبه الخاوية. تفرَّس في وجهي وأنا أكتب لها مرة أخرى. «اهدئي. لعلها أضاعت هاتفها، أو تركته في أحد الملاهي، أو ربما نفد رصيدها. أنت تعرفين المراهقين وتصرفاتهم. أو لعلها معتلة المزاج بكل بساطة. في بعض الأحيان لا يحتاجون منا سوى أن نتركهم يديرون شؤونهم بطريقتهم».

أمسكتُ يده وأغلقت باب الثلاجة. «أريد أن أريك شيئًا». لمعت عيناه لبرهة. «ليس ما يدور بخلدك أيها الشرير، ويتعيَّن عليك انتظاره حتى وقت لاحق».

وقف سام على السطح وحدَّق في الزهور من حوله، وقال: «...ولم تكن لديك أي فكرة؟».

«على الإطلاق».

ألقى بكل ثقله على المقعد. جلست بجواره، وراح كلانا يحدق في الحديقة الصغيرة.

قلت: «أشعر بالضيق من نفسي، فقد اتهمتها بتدمير كل ما حولها، في حين كانت ترسم هذه اللوحة الجميلة».

انحنى ليتحسَّس أوراق نبات الطماطم، ثم اعتدل وهو يهز رأسه في أسى. «حسنًا. لذلك سوف نتحدَّث معها».

«حقا؟».

«أجل، ولكن الغداء أولًا، ثم السينما، ثم سنذهب حتى باب بيتها؛ وبهذه الطريقة لن تستطيع تحاشيك». أخذ يدي ورفعها إلى شفتيه، « لا تقلقي هكذا. فالحديقة تشي بالخير، فهي تبين أن ما في رأسها ليس فقط عقلًا طائشًا».

ترك يدي ورنوت إليه بعينين نصف مغمضتين.

«كيف يمكنك دائمًا جعْل كل شيء أفضل؟».

«كل ما هنالك أنني لا أحب أن أراكِ حزينة».

لم أستطع أن أقول له إنني لم أكن حزينة عندما كنت معه. لم أستطع أن أقول له إنه رفعني في سماء السعادة لدرجة أنني خشيت السقوط في هاوية التعاسة من جديد. فكرت كيف أنني أعجبت بوضعه الطعام في ثلاجتي، كيف كنت أتفحص هاتفي في اليوم عشرين مرة في انتظار رسائله، وكيف استحضرت جسده العاري في خيالي أثناء دقائق العمل الهادئة، ثم كان عليَّ التفكير بجد في طلاء الأرض أو إيصالات البقالة فقط لأخرج نفسي من حالة الهيام البادية على وجهي.

قال صوت تحذيري: تمهَّلي، لا تقتربي أكثر من اللازم.

رقَّت عيناه. «لديك ابتسامة حلوة يا لويزا كلارك. إنها واحدة من عدة مئات من الأشياء التي أحبها فيكِ».

تركت نفسي أرنو إليه مرة أخرى برهة من الوقت. هذا الرجل، فكرت. ثم هويت بيدي على ركبتيّ أصفعهما صفعًا شديدًا، قائلة وقد دبت فيّ روح الحيوية والنشاط. «هيا بنا، لنذهب إلى السينما».

كانت السينما خالية من الرواد تقريبًا. جلسنا جنبًا إلى جنب في الصفوف الخلفية على كرسي كان أحدهم قد خلع مسند ذراعه، وأخذ سام يطعمني الفشار من علبة كبيرة من الورق المقوَّى، وحاولت عدم التفكير في وزن يده المستريحة على ساقي العارية، لأنني عندما فعلت فقدت مسار أحداث الفيلم.

كان الفيلم المعروض فيلمًا كوميديًا أمريكيًا تدور أحداثه حول اثنين من رجال الشرطة المختلفين عن بعضهما، واللذين يجدان أنفسهما يفشلان في القبض على المجرمين. لم يكن الفيلم مضحكًا جدًا، ولكنني ضحكت على أي حال. في تلك الأثناء كانت تظهر أصابع سام أمامي حاملة حبات الفشار المملحة، والتي أخذتها منه واحدة بعد الأخرى، ثم، كنوع من الاستدراك، أبقيت على أصابعه بين أسناني. نظر لي وهز رأسه ببطء.

انتهيت من الفشار، همست في أذنه: «لن يرانا أحد».

رفع حاجبه، وقال متذمرًا: «لا يليق بسني فعل أمور كهذه». ولكن عندما أدرت وجهه قبالة وجهي في الهواء الساخن المظلم، وبدأت في تقبيله، أسقط الفشار من يده وانزلقت ببطء على ظهري.

ثم رن هاتفي. كان هناك هسيس رفْض من الشخصين الجالسين أمامنا. «آسفة. أعتذر لكما!». (نظرًا لأنه لم يكن هناك سوانا نحن الأربعة في السينما). انكمشت في حجر سام وأجبت. كان الرقم الظاهر على الشاشة غريبًا.

«لويزا؟».

أخذت ثانية حتى أميِّز صوتها.

«لحظة من فضلك»، لويت وجهي امتعاضًا أمام سام، وشققت طريقي للخارج.

«آسفة، سيدة ترينر. كان عليَّ فقط أن... أما زلت معي؟ مرحبًا؟».

كان البهو خاليًا، فكان أشبه بمنطقة مهجورة.

«أوه، شكرًا لله، لويزا؟ كنت أتساءل إذا كان بإمكاني التحدث إلى ليلي».

وقفت ضاغطة الهاتف على أذني.

«لقد فكرت فيما جرى، وشعرت بالأسف الشديد. لا بد أنني بدوت...» وتردَّدت. «انظري، كنت أتساءل إذا كنت تعتقد أنها ستوافق على رؤيتي».

«سيدة ترينر...».

«أود أن أشرح لها. في العام الماضي أو نحو ذلك لقد... حسنًا، لم أكن نفسي. لقد كنت أعيش على هذه الأقراص التي جعلت مني امرأة بلهاء معتوهة، وكنت في غاية الذهول لما فوجئت بك على عتبة بابي، وعندئذٍ لم أستطِع أن أصدِّق ببساطة ما كنتما تقولانه لي. بدا لي كل ذلك مستبعدًا جدًّا. لكنني... حسنًا، لقد تحدَّثت إلى ستيفن وأكد لي حقيقة الأمر، فعكفت هنا لأيام أحاول استيعاب ما جرى حتى توصَّلت إلى أن... ويل لديه ابنة. لديَّ حفيدة. دأبت على ترديد تلك الكلمات. في بعض الأحيان أعتقد أنه لم يكن سوى حلم».

استمعت إلى نبرة غير معتادة من الانفعال في كلماتها؛ فقلت لها: «أعرف، فهذا ما شعرت به أنا أيضًا».

«لا أستطيع التوقف عن التفكير بها. لكم أود لقاءها مجددًا. هل تعتقدين أنها ستوافق على رؤيتي مرة أخرى؟».

«سيدة ترينر، لم تعد ليلي تقيم معي. ولكن أعتقد أنها لن تمانع في لقائك مجددًا». مررتُ أصابعي بين خصلات شعري. «نعم، بالطبع سوف أتصل بها وأبلغها بمكالمتك».

لم أتمكَّن من التركيز على بقية الفيلم. في النهاية، أدركت أنني كنت ببساطة أحدِّق في شاشة متحرِّكة، حتى إن سام اقترح أن نغادر. وقفنا في موقف السيارات بجوار دراجته وأخبرته بما قالته لي السيدة ترينر.

«ممتاز»، قالها كما لو كنت قد فعلت شيئًا يدعو للفخر. «هيا بنا نذهب».

***

انتظرني على الدراجة في الطريق فيما رحت أطرق على الباب. رفعت

رأسي، وقد قرَّرت ألّا أدع تانيا هوتون ميلر تخيفني هذه المرة. رنوت إلى الوراء، فأومأ لي سام مشجعًا. فُتِح الباب.

كانت تانيا ترتدي فستانًا من الكتان بلون الشوكولاته وتنتعل صندلًا يونانيًا. نظرت إليّ من أعلى لأسفل مثلما فعلت عندما التقينا لأول مرة، كما لو أن ملابسي قد فشلت في أن تنال إعجابها. (كان هذا مزعجًا قليلًا لأنني كنت أرتدي فستاني القطني المقلَّم المفضل). ارتسمت ابتسامة على شفتيها لثانية فقط، ثم لم تلبث أن تلاشت. «لويزا».

«آسفة لأنني جئت من دون موعد مسبق، سيدة هوتون ميلر».

«هل حدث شيء؟».

غمزت بعيني، قائلة: «حسنًا، نعم، في الواقع» دفعت شعري من جانب وجهي، «لقد تلقيت مكالمة من السيدة ترينر، والدة ويل. أنا آسفة لإزعاجك بهذا الخبر، لكنها تريد حقًا الاتصال بليلي، وبما أنها لا ترد على هاتفها، فقد تساءلت إذا لم يكن لديك مانع أن تتفضلي وتطلبي منها الاتصال بي؟».

جعلت تانيا تحدِّق في وجهي من تحت حاجبيها المرسومين بحرفية.

حافظت على تعابير محايدة على وجهي، «أو ربما يمكننا الكلام معها مباشرة».

خيَّم الصمت لفترة وجيزة. «لماذا تعتقدين أنني سأطلب منها الرد على مكالماتك؟».

أخذت نفَسًا، وحاولت انتقاء كلماتي بعناية، «أعرف أنك لا تكنين مشاعر طيبة لأسرة ترينر، لكنني أعتقد أنهم ضمن اهتمامات ليلي. لا أعرف إذا كانت قد أخبرتك بذلك قبلا ولكن لقاءهما الأول لم يجر على ما يرام في الأسبوع قبل الماضي، والسيدة ترينر تريد حقًا فرصة لتصحيح الوضع».

«يمكنها أن تفعل ما تريد يا لويزا. لكنني لا أعرف لماذا تنتظرين مني التدخل».

حاولتُ أن أبقي صوتي مهذبًا، «إممم... لأنك أمها؟».

«أمها؟ لم تكلف نفسها الاتصال بي لأكثر من أسبوع».

وقفت متسمِّرة في مكاني. شعرت بشيء بارد وصلب يستقر في معدتي، «ماذا تقولين؟».

«ليلي. لم تكلف نفسها الاتصال بي. اعتقدت على الأقل أنها قد تأتي وتسلم عليَّ بعد عودتنا من الإجازة ولكن، لا، يبدو أن هذا أصعب من أن تفهمه، كعادتها دائمًا». فرَدت إحدى يديها لفحص أظافرها.

«سيدة هوتون ميلر، كان من المفترض أن تكون معك».

«ماذا؟».

«ليلى. يفترض أنها عادت للعيش معك لدى عودتك إلى المنزل من الإجازة. لقد تركت شقتي... قبل عشرة أيام».

الفصل الثامن عشر

وقفنا في مطبخ السيدة تانيا هوتون ميلر شديد النظافة والتنظيم، وأخذت أحدق في ماكينة صنع القهوة اللامعة ذات الـ 108 أزرار مختلفة، التي ربما يساوي ثمنها ثمن سيارتي، وتدور في رأسي كل تلك الأحداث التي زخر بها الأسبوع الماضي مرات.

«كان ذلك في نحو الساعة الثانية عشرة والنصف. أعطيتها عشرين جنيهًا وطلبت منها أن تترك نسختها من المفتاح».

شعرت بغثيان وألم في معدتي، وأخذت أذرع المطبخ جيئة وذهابًا في توتر بطول طاولة الإفطار الكبيرة، «كان عليَّ التأكد من مكانها، ولكنها كانت تذهب وتأتي كما يخطر لها. كما... كما أننا حدث بيننا خلاف وقتها».

وقف سام عند الباب يحك حاجبيه وينظر، «ولم تسمعا شيئًا عنها منذ ذلك الحين».

«لقد راسلتها أربع مرات، ولكني ظننت أنها لا تجيب لغضبها مني».

لم تقدِّم لنا تانيا ميلر القهوة، واكتفت بالوقوف عند المدخل ونظرت في ساعتها، كما لو كانت تنتظر منا الذهاب. لم تبدُ بأي حال كأم علمت لتوِّها أن ابنتها مفقودة. وكنت أسمع بين الحين والآخر صوت ضجيج المكنسة الكهربائية.

«سيدة هوتون ميلر، ألم يتواصل معها أي شخص على الإطلاق؟ ألا يمكنك التأكد من خلال هاتفك إذا كانت قد قرأت رسائلها أم لا؟».

قالت بصوت هادئ على غير المعتاد حقًا: «لقد أخبرتك سابقًا، أخبرتك أن تلك هي ليلي، ولكنك لم تصغي إليَّ».

«أعتقد أن علينا...».

رفعت يدها لتوقف سام عن إكمال عبارته «ليست تلك المرة الأولى، لقد اختفت قبل ذلك لأيام، في الوقت الذي كان عليها أن تكون فيه في مدرستها الداخلية. وقد ألقيت عليهم باللوم طبعًا، لأن معرفتهم لمكان وجودها كان مسؤوليتهم هم، ولم يتصلوا بنا إلّا عقب اختفائها بأربع وعشرين ساعة، وقد طلبنا تدخل الشرطة حينها. وكان من الواضح أن إحدى الفتيات قد كذبت للتغطية عليها، ولم تكن مسؤوليتي قطعًا معرفة من كان هناك ومن لم يكن هناك، فلمَ ندفع كل هذا المبلغ الكبير للمدرسة الداخلية اللعينة إذن. وقد أصر فرانسيس على مقاضاتهم حينها، وتم استدعاؤه من اجتماعه السنوي الخاص بمجلس الإدارة بسبب ذلك الأمر، وكم كان ذلك محرجًا لي».

دوَّى صوت ارتطام من الأعلى وبدأ أحدهم في البكاء، ذهبت تانيا إلى باب المطبخ قائلة «لينا! خذيهم إلى المتنزه بالله عليك!»، ثم عادت إلى المطبخ لتقول: «أتعلمان أنها كانت تشرب حتى تسكر، وأنها سرقت قرطَيْ الألماس ماركة Mappin& Webb، ما يساوي آلاف الجنيهات، وليست لدي أدنى فكرة عما فعلته به. لم تكن لتعترف بذلك، ولكنني أعلم أنها الفاعلة. كما أنها أخذت كاميرا رقمية أيضًا».

فكرت في مجوهراتي المفقودة وشعرت بعدم ارتياح.

«إن ذلك كله متوقع منها كما أخبرتكما، والآن هلا عذرتماني، عليَّ أن أذهب الآن إلى الأولاد، إنهما يمران بيوم عصيب».

«ولكنك ستبلغين الشرطة، أليس كذلك؟ إنها في السادسة عشر، ولا نعرف عنها شيئًا منذ عشرة أيام».

«لن يهتموا بالأمر، لن يهتموا بها بمجرد أن يعرفوا هوية المفقود المبلّغ عنه». رفعت تانيا إصبعها الرفيعة قائلة:

«إنها فتاة مطرودة من مدرستين بسبب كثرة التغيُّب، تلقت تحذيرًا بسبب تعاطيها للمخدرات، والسرقة من المتاجر. ما الوصف المستخدم في هذه الحالة؟ إن ابنتي لديها «سجل» في الشرطة. وحتى أكون صريحة معكم، حتى إذا ما عثرت الشرطة على ابنتي وأعادتها، فإنها ببساطة ستعيد الكرة مرات ومرات، فذلك هو طبعها».

شعرت بضيق في صدري كما لو كان هناك شيء ما جاثم فوقه يمنعني من التنفس بصورة طبيعية، أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟ هل للفتى الذي كان يحوم حول شقتي علاقة باختفائها؟ أم لهؤلاء الذين كانوا في صحبتها بشقتي في تلك الليلة المشؤومة؟ كيف غفلت عنها إلى هذه الدرجة؟

«لنتصل بالشرطة على أيٍ حال، فهي لا تزال صغيرة للغاية».

«كلا، لا أرغب أن تتدخل الشرطة في هذا الأمر، إن فرانسيس يمر بوقت حرج في عمله هذه الفترة، هو يقاتل من أجل الحفاظ على مقعده في مجلس الإدارة، وإذا تنامى إلى علم أحدهم أن اسمه مرتبط بأمر له علاقة بالشرطة ستكون الضربة القاضية».

زمَّ سام شفتيه، واستغرق دقيقة قبل أن يقول:

«سيدة هوتون ميلر إن ابنتك حسَّاسة، أعتقد أن الوقت قد حان لتدخل أحدهم».

«إذا ما أقدمت على الاتصال بالشرطة، سوف أشرح لهم الأمر كما شرحته لكما تمامًا».

«سيدة هوتون ميلر...».

قالت: «كم عدد المرات التي قابلتها فيها يا سيد فيلدنج؟ هل تعرفها أكثر مني؟ هل سهرت لوقت متأخر منتظرًا إياها لتعود إلى المنزل كما فعلت أنا؟ هل راح النوم من عينيك بسببها؟ هل كان عليك توضيح وتبرير سلوكها المشين لمعلميها ورجال الشرطة كما فعلت أنا؟ هل وجب عليك الاعتذار لأصحاب المتاجر عن سرقتها لهم كما فعلت؟ هل سددت بطاقاتها الائتمانية؟».

«أكثر الصغار فوضى أكثرهم تعرضًا للخطر».

«إن ابنتي موهوبة جدًا، لا بد أنها مع أحد أصدقائها الآن، تماما كما كانت من قبل. أراهنكم أن ليلي ستظهر خلال يوم أو يومين مقبلين إلى هنا في منتصف الليل سكرانة أو ستطرق باب لويزا، أو ستتوسَّل من أجل الحصول على أموال، وحينها ستتمنون لو لم تظهر. سوف يجلبها أحدهم إلى هنا وستعرب عن عميق أسفها وحزنها، وبعد بضعة أيام، سوف تجلب مجموعة من الأصدقاء إلى المنزل أو تسرق شيئًا ما. وستتكرَّر تلك الحكاية التي لا تنتهي مطلقًا».

أزاحت شعرها الذهبي عن وجهها، كانت هي وسام تنظران إلى بعضهما بعضًا ثم أردفت: «كان عليَّ استشارة طبيب نفسي للتكيف مع الفوضى التي أحدثتها ابنتي في حياتي. يكفيني الصعوبة التي أواجهها في التعامل مع شقيقيها و... مشاكلهما السلوكية. ولكن من بين الأشياء التي تعلمتها في الطب النفسي أنك عند نقطة محددة عليك الاهتمام بنفسك. وليلي كبيرة بما يكفي لاتخاذ قراراتها الخاصة...».

قلت: «إنها مجرد طفلة».

«أجل مجرد طفلة، وقمتِ بطردها من شقتك بعد منتصف الليل». استمرت تانيا هوتون ميلر في النظر إلى عينيّ نظرة المحق في قوله، «ليس كل شيء إما أبيض أو أسود على النحو الذي نريده».

قلت لها: «ولكنك لست قلقة عليها، أليس كذلك؟».

«في الواقع كلا، لقد عشت هذا الموقف مرات كثيرة سابقًا. تخلَّي عن عقدة دور المنقذ الذي تلعبيه يا لويزا، ابنتي ليست في حاجة إلى الإنقاذ. ولو كانت في حاجة إلى من ينقذها لا أعتقد أنكِ الشخص المناسب لذلك».

أحاطني سام بذراعه قبل أن يمكنني فتح فمي. كان ردي حاضرًا ولكنني لم أتفوَّه بشيء لأنها كانت قد انصرفت. وجذبني: «هيا تعالي، هيا لنذهب من هنا».

قدنا سيارتنا حول ويست إند لعدة ساعات متمهّلين حتى نتمكن من النظر باحثين بين مجموعات الشباب المعربدين، والفتيات المترنحات، وأمعنا النظر بين النائمين في الطرقات بلا مأوى، ثم ركنا السيارة ومشينا جنبًا إلى جنب عبر القناطر المظلمة تحت الكباري. طرقنا أبواب الحانات سائلين إذا كان أحدهم قد رأى الفتاة التي في الصورة على هاتفي. ذهبنا إلى الملهى الذي أخذتني للرقص فيه، وإلى ملهيين آخرين قال سام إنهما شهيران بجذب المراهقين شاربي الخمور. مررنا على محطات الحافلات، ومطاعم الوجبات السريعة، وكلما ذهبنا إلى أماكن أكثر ازداد شعوري بسخافة فكرة محاولة العثور عليها بين آلاف الأميال التي تعج بالبشر في منتصف لندن. يمكنها أن تكون في أي مكان، وبدا لي أنها في كل مكان. بعثت لها برسالتين أخبرها فيهما أننا نبحث عنها، وحين عدت إلى شقتي اتصل سام بعدد من المستشفيات للتأكد أنها ليست في واحد منها.

وفي النهاية جلسنا على أريكتنا وتناولنا الخبز المحمص، وصنع لي كوبًا من الشاي وجلسنا في صمت.

«أشعر أنني أسوأ أم في العالم، على الرغم من أنني لست أمًا بعد».

انحنى إلى الأمام واضعًا ذقنه فوق ركبتيه وقال:

«لا يمكنك أن تلومي نفسك».

أغلقت عينيّ: «بلى يمكنني، أي نوع من الأشخاص يطرد مراهقة في السادسة عشر من عمرها من شقته في وقت متأخر من الليل من دون أن يطمئن إلى أين ذهبت بعد ذلك.أعني أن كونها اختفت في وقت سابق، لا يعني بالضرورة أنها بخير الآن، أليس كذلك؟ ستكون واحدة من هؤلاء المراهقين الذين يهربون ويختفون في ظروف غامضة ولا نسمع عنهم مطلقًا حتى يعثر كلبٌ على رفاتهم في غابة من الغابات».

«لويزا».

«كان ينبغي أن أكون أقوى من ذلك. كان يجب أن أفهمها أفضل، كان

يجب أن أفكر أكثر في كونها لا تزال صغيرة. كانت. أوه يا إلهي، إذا أصابها مكروه لن أسامح نفسي مطلقًا، ففي العالم الآن شخص مسالم بريء يقوم بتمشية كلبه وليس لديه أدنى فكرة عما يمكن أن يحدث لحياته...».

وضع سام يده على ساقي: «لويزا، توقفي عن ذلك، إنك تدورين في حلقة مفرغة، لن يفيد كل هذا التوتر. ربما تكون تانيا هوتون ميلر محقة، وسوف تظهر ليلي أو تدق جرس بابك ونشعر كم كنا حمقى جميعًا وننسى ما حدث حتى تعيد الكرة ثانية».

«ولكن لمَ لا تجيب على هاتفها؟ لا بد أنها تعلم أني قلقة عليها».

«ربما كان ذلك هو سبب تجاهلها لك، ربما تستمتع بقلقك عليها قليلًا. انظري، ليس أمامنا الكثير لنفعله هذه الليلة. وعليَّ الذهاب لأن نوبة عملي صباحية». ثم قام بتنظيف الأطباق ووضعها في الحوض، واستند ثانية على خزانات المطبخ مواجهًا إياي.

«آسفة يا سام، ليست تلك أحداث ممتعة لعلاقة لا تزال في بدايتها».

«هل أفهم من ذلك أننا في علاقة الآن؟».

احمرَّت وجنتاي، «لا أقصد...».

«أنا أمازحك»، ثم مد يده وجذبني نحوه، «أنا أستمتع حقًا بمحاولاتك المقصودة لاستغلالي في ممارسة الجنس».

كانت رائحته طيبة، كانت رائحته طيبة حتى مع وجود آثار بسيطة لرائحة المخدر في ملابسه. قبَّل وجنتي قبل أن يقول: «سوف نعثر عليها». ثم غادر.

بعد أن غادر صعدت إلى سطح البناية، وجلست في الظلام أستنشق رائحة الياسمين الذي زرعته على حافة خزان المياه متحسِّسة بيدي بنعومة رؤوس زهرة الأوبريسية الأرجوانية التي نمت داخل الأصص. نظرت عبر المتراس إلى شوارع المدينة ولم تكن ساقاي ترتجفان. بعثت لها برسالة أخرى، ثم تأهَّبت للدخول إلى الفراش، شاعرة هذه المرة بالصمت الغامر في شقتي!

تفحصت هاتفي للمرة المليون من دون جدوى، ثم تفحصت بريدي الإلكتروني لعل وعسى، ولكنه لم يحمل شيئًا هو الآخر، سوى رسالة من نيشن:

تهانينا! لقد أخبرني العجوز جوبنك هذا الصباح أنه سيمنحك الوظيفة! أراك في نيويورك يا صديقتي!

الفصل التاسع عشر

ليلي.

كان بيتر ينتظر هناك مرة ثانية، وحين نظرت خارج نافذتها وجدته واقفًا مستندًا إلى سيارته. وما إن رآها حتى أشار إليها قائلًا: «إنك مدينة لي».

فتحت ليلي النافذة محدِّقة عبر الطريق حيث كان سمير يضع صندوقًا من البرتقال الطازج «اتركني لحالي يا بيتر».

«تعلمين ما سيحدث..».

«لقد أعطيتك ما يكفي، اتركني وشأني، اتفقنا؟».

«حركة غير موفقة يا ليلي». رفع أحد حاجبيه ثم انتظر فترة كافية لتشعر فيها ليلي بعدم ارتياح، كان يعلم تمامًا أن لويزا ستصل في غضون نصف الساعة، ولذلك ظل يحوم في الجوار كثيرًا، ولكنه في النهاية استقل سيارته ثانية، وانطلق على الطريق الرئيسي من دون النظر إليها. وعندما انطلق أخرج يده من شباك السائق حاملًا هاتفه المحمول عاليًا في الهواء، لتتلقى ليلي رسالة تقول: حركة غير موفقة يا ليلي.

لعبة الصراحة أو ما تعرف بلعبة لف الزجاجة، لعبة بريئة كانت تلعبها ليلي وأربع فتيات أخريات من مدرستها جئن إلى لندن في إجازة. كن قد قمن بسرقة أقلام أحمر شفاه من أحد المتاجر، واشترين تنورات قصيرة للغاية من متجر توب شوب، وذهبن إلى الملاهي الليلية مجانًا، نظرًا لأنهن كن شابات جميلات ولم يكن حرَّاس الملاهي الليلية يطرحون الكثير من

الأسئلة إذا كان الحضور أربع أو خمس فتيات جميلات وصغيرات، وهناك على بار المشروبات التقين ببيتر وأصدقائه.

وانتهى بهم الحال في شقة أحدهم بماريليبون في الساعة الثانية صباحًا. لا تستطيع أن تتذكر تمامًا كيف وصلوا إلى هناك. كانوا يجلسون في دائرة يدخنون ويشربون الخمر. وكانت ليلي لا ترفض أي شيء يقدَّم لها. قاموا بتشغيل أغانٍ بصوت المطربة ريانا. وانبعثت رائحة المعطر فيبرز من المقعد الوثير، ثم ذهبت نيكول الحمقاء لتتقيَّأ في الحمام. كان الوقت يمر: الثانية والنصف، الثالثة والربع، الرابعة...لم تعد قادرة على التركيز في الساعة. حتى اقترح أحدهم أن يلعبوا لعبة الصراحة.

قام أحدهم بلف الزجاجة، التي صدمت منفضة السجائر مما تسبَّب في سقوط الرماد وأعقاب السجائر على السجادة. وأشارت الزجاجة إلى فتاة لم تكن ليلي تعرفها اعترفت صراحة بأنها قامت بمكالمة جنسية مع صديقها السابق، بينما كانت جدتها نائمة في الفراش المجاور لها في نفس الغرفة. تمايل الجالسون في حركات مصطنعة، أما ليلي فقد ضحكت على ما سمعت لتوّها.

قال أحدهم: «إنه المكان المناسب حقًا للحدث».

كان بيتر ينظر إليها طيلة الوقت، وقد أغرمت به في البداية: كان الأكثر وسامة بين الشبان الذي رأتهم بفارق كبير. بل الأكثر وسامة بين الرجال أيضًا. وحين نظر إليها رفضت أن تبعد عينيها عن عينيه هي الأخرى، ليلي لم تكن لتتصرف مثل باقي الفتيات.

«لف الزجاجة!».

هزت كتفها لا مبالية حين أشارت الزجاجة لها: «أقبل التحدي، أنا دائمًا أقبل التحدي».

قالت جيميا: «لم تكن ليلي لتقول لا لأي شيء». وتساءلت ليلي عما إذا كانت جيميا تومئ لشيء من الطريقة التي نظرت بها إلى بيتر حين قالت ذلك.

«حسنا. أنت تعرفين معنى ذلك».

«أحقًا؟».

«لا يمكنك القيام بذلك!»، وضعت جيميا يدها فوق وجهها على نحو درامي.

«هل ستقولين الحقيقة، إذن».

«كلا، أنا أكره الحقيقة». ماذا إذن؟ كانت تعلم أن هؤلاء الفتية سوف يظهرون الخوف. فوقفت في لا مبالاة: «أين. هنا؟».

«أوه، يا إلهي، ليلي».

قال أحد الأولاد: «قومي بلف الزجاجة!».

لم تكن ليلي متوترة على الإطلاق. كانت مشوَّشة قليلًا فقط، ولكنها أحبت الوقوف هناك لا مبالية، بينما تصفق الفتيات الأخريات ويولولن ويتصرفن على نحو أحمق. كن جميعًا متصنّعات. من نوع الفتيات الحمقى اللاتي يصطحبن أحدهم إلى ملعب الهوكي ليتحدثن عن السياسة وعن دراسة في الحقوق وعلم الأحياء البحرية، بينما يتصرفن كأي فتاة تافهة مراهقة في حضور الفتيان للفت أنظارهم، يحركن شعورهن ويضعن أحمر شفاه، كاشفات بتلقائية الأجزاء المثيرة من أجسادهن.

«بيتر..».

«أوه بيتر يا إلهي، إنه أنت يا صاح».

أخذ الفتيان في الصفير والصياح لإخفاء خيبة أملهم، أو ربما ارتياحهم، من أن الاختيار لم يقع على أي منهم. وقف بيتر على قدمه، مضيقًا عينيه اللتين تشبهان عيني القطة وهو ينظر في عينيها. كان مختلفًا عن الآخرين: تنم نبرته عن أنه أكثر صلابة منهم.

«هنا؟».

هزت كتفها قائلة: «لا أمانع».

«الغرفة المجاورة». قال مشيرًا إلى غرفة النوم.

تحركت بحرص بين أرجل الفتيات الجالسات حتى وصلا معًا إلى الغرفة المجاورة. جذبتها واحدة من الفتيات من كاحلها، مخبرة إياها أن تعدل عن الفكرة، ولكنها أبعدت يدها. مشت بقليل من التيه والتبختر شاعرة بأعينهم التي تلاحقها منذ أن نهضت. أقبل التحدي. أنا دائما أقبل التحدي.

أغلق بيتر الباب خلفهما وأخذت هي في التحديق حولها. كان الفراش مجعدًا وغير مستوٍ، يتدلى منه لحاف منقوش فظيع يمكنك التنبؤ من مظهره أنه لم يُغسل منذ خمسة عقود، مخلفًا رائعة عفن في الهواء. وهناك كومة من الغسيل المتسخ في أحد الأركان، ومنفضة سجائر متخمة بالأعقاب على جانب الفراش. ساد الصمت الغرفة، وكان هذا هو الحال تمامًا خارجها.

رفعت ذقنها، وأزاحت شعرها للوراء من على وجهها قائلة: «هل ترغب في القيام بذلك حقًا؟».

ابتسم ابتسامة ساخرة مجيبًا: «أعلم أنك ستتراجعين».

«من قال إنني أتراجع؟».

ولكنها في الواقع لم تكن ترغب في فعل ذلك. لم تعد قادرة على رؤية تقاسيم وجهه الوسيم بعد الآن، لا ترى الآن سوى عينيه الباردتين اللامعتين، والتواءة فمه البغيضة. وضع يده على سحاب بنطلونه.

وقفا هناك لدقيقة.

«لا بأس إذا لم تكن لديك رغبة في القيام بالأمر، سوف نخرج لهم ونقول إنكِ خائفة».

«لم أذكر مطلقًا أنني لن أقوم بذلك».

«ما قولك إذن؟».

أخذت تفكر، وبدأ صوت طنين في الاعتمال بمؤخرة رأسها، وتمنت لو لم تأتِ إلى هنا.

قام بالتثاؤب بشكل مسرحي قائلًا: «بدأت في الشعور بالملل يا ليلي».

كان هناك صوت طرقات شديدة على الباب، ثم أتى صوت جيميا قائلًا: «ليلي، ليس عليك القيام بذلك هيا، يمكننا الذهاب إلى المنزل».

قال ساخرًا مقلدًا صوت جيميا: «ليس عليك القيام بذلك».

أخذت تحسبها في رأسها. ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث، دقيقتان على الأسوأ؟ دقيقتان من عمرها وسوف ينتهي الأمر ولن يسخر أحد من خوفها. سوف تريه، سوف تريهم جميعًا.

كان يحمل في إحدى يديه زجاجة ويسكي جاك دانييلز، أخذتها منه وتجرعت منها مرتين وأغلقت عينها ثم ناولته الزجاجة ثانية وأمسكت حزام بنطلونه.

صور للحدث، وإلّا فهو لم يحدث مطلقًا.

كانت تسمع صوت صفير الفتيان في الخارج يخترق أذنها، بينما يخترق الألم رأسها وهو يجذبها من شعرها نحوه. ولكن الأوان قد فات الآن، كان الأوان قد فات كثيرًا.

وبمجرد أن رفعت رأسها لأعلى سمعت صوت كاميرا هاتفه تلتقط صورة.

لم يكف عن ابتزازها، لم يكتفِ بالقرطين اللذين أخذهما، وخمسين جنيهًا نقدًا، ثم مائة جنيه بعدها. استمرت طلباته بعدها لأسابيع، مرسلًا لها رسالة تقول: ترى ماذا يمكن أن يحدث إذا وضعت هذه الصورة على الفيسبوك؟

كانت ترغب في البكاء كلما رأت تلك الصورة، كان يرسلها لها مرات ومرات: عيناها، ونظرتها الثاقبة، الملطخة بالمسكارا، وذلك الشيء في فمها. وحين كانت لويزا تعود إلى المنزل كانت تدس هاتفها أسفل وسائد الأريكة، إن الهاتف يحمل صورة إشعاعية سامة يجب أن تبعدها عن الأنظار.

ترى ما الذي سيقوله أصدقائي عني.

لم تتحدث إليها باقي الفتيات عقب ما حدث. لقد علمن بالأمر لأن بيتر قد أراهن الصورة، في الواقع لقد أراها لكل شخص قابله بمجرد أن عادوا إلى الحفلة متفاخرًا بنفسه وهو يعدل من سحاب بنطلونه. وكان عليها التظاهر بأنها لا تبالي. حدقت الفتيات فيها ثم أشحن بوجوههن عنها، وقد علمت بمجرد أن التقت عيناها بعيونهن أن قصصهن عن مغامراتهن الجنسية مع أصدقائهن غير المعروفين كانت من نسج خيالهم لا أكثر. كانوا جميعا مزيفين ومصطنعين. كانوا يكذبون بشأن كل شيء.

وها هم لم يقولوا عنها إنها فتاة شجاعة، ولم يعجبوا بها لكونها جريئة. كانت ليلي وحسب، ليلي القذرة التي وضعت عضوًا ذكريًا في فمها. كانت معدتها تؤلمها من مجرد التفكير في الأمر. احتست المزيد من الويسكي وأخبرتهم أن يذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

نلتقي في ماكدونالدز عند ساحة توتانهام كورت رود.

في ذلك الوقت كانت أمها قد غيرت أقفال المنزل، فلم يعد في مقدورها أخذ الأموال من حقيبتها بعد الآن، كما أنهم قد أوقفوا تعاملاتها مع الحساب الادخاري.

لم يعد لديَّ شيء آخر أقدمه لك.

هل تحسبينني مغفلًا، أيتها الفتاة الثرية الصغيرة أنت؟

لم تكن أمها تحب قرطها الماسي ماركة Mappin& Webb مطلقًا، وعلقت ليلي آمالها على أنها لن تلحظ اختفاءه. حين أهداها فرانسيس صاحب الوجه الغبي ذلك القرط، افتعلت تعبيرات مصطنعة على وجهها من المفاجأة والاندهاش، ولكنها، بعد ذلك تمتمت معلقة أنها لا تفهم لماذا يهديها قرطًا ألماسيًا على شكل قلب، في حين أنه يعلم أن هذا الشكل شائع كثيرًا بين السيدات، وأن الأقراط المتدلية ستتناسب أكثر مع وجهها.

نظر بيتر إلى قرط الألماس اللامع الذي وضعته ليلي في يده باستهجان كما لو كانت أعطته عملة معدنية زهيدة، ثم دسه في جيبه. كان يأكل

ساندويتش بيج ماك حينها، وتلطخ بعض المايونيز على جانب فمه. مما أضاف إلى الشعور بالغثيان الذي كان ينتاب ليلي في كل مرة تراه فيها.

«هل ترغبين في القدوم لرؤية رفاقي؟».

«كلا».

«هل ترغبين في الحصول على مشروب؟».

هزت رأسها نافية ثم قالت: «اسمع، هذا آخر شيء يمكن أن أقدمه لك، إن هذا القرط يساوي الآلاف».

كشر لها قائلًا: «أنا أرغب في الحصول على أموال نقدية المرة المقبلة، أعلم جيدًا أين تسكنين أيتها الفتاة وأعرف أن بإمكانك الحصول على أموال».

شعرت أنها أصبحت أسيرة قبضته التي تعتصرها ولن تتحرر منها أبدًا، كان يبعث لها برسائل في أوقات غريبة ومتأخرة. يوقظها من نومها، ويحرمها من الراحة. إنها تلك الصورة التي لم تفارق مخيلتها مرات ومرات. توقفت عن الذهاب إلى المدرسة، كانت تسكر مع غرباء وترتاد الملاهي الليلية إلى أوقات متأخرة لتبقى بداخلها لساعات أطول مما كانت ترغب حقًا. كانت تفعل أي شيء كي لا تبقى بمفردها فريسة لأفكارها، ولصوت رنين الرسائل في هاتفها. انتقلت للعيش في مكان لا يمكنه أن يعثر عليها فيه، ولكنه عثر عليها، كان يركن سيارته لساعات خارج منزل لويزا، تاركًا لها بذلك رسالة صامتة. فكرت لمرات قليلة أن تخبر لويزا، ولكن ماذا يمكن للويزا أن تفعل حيال ذلك؟ كانت لويزا نفسها تعيش في بعض الأحيان أوقاتًا كارثية. وأتت عليها أوقات همّت فيها بفتح فمها راغبة في الحديث، ولكن لم تكن الكلمات تطيعها، وحين بدأت لويزا في الثرثرة عن لقاء جدتها أو ما إذا كانت قد أكلت شيئًا، أدركت ليلي أنها بمفردها فيما تواجه.

كانت ليلي تستلقي مفكرة ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان والدها

هناك، كانت تتصوره في مخيلتها. كان سيخرج ويجذب بيتر من رقبته في عنف ويأمره ألّا يقترب من فتاته الصغيرة ثانية. كان سيضمها إليه ويخبرها أن كل شيء على ما يرام، وأنها في أمان.

ولكنه لم يكن ليفعل ذلك، لأنه كان مجرد رجل مشلول غاضب لم يرغب في الاستمرار في حياته. ربما كان سيكتفي بالنظر إلى صورتها اللعينة باشمئزاز.

ولكن لا يمكنها أن تلقي باللوم عليه.

في المرة الأخيرة، التي ذهبت إليه فيها ولم يكن معها ما تقدمه إليه، أخذ يصرخ في وجهها على الرصيف خلف شارع كارنابي ستريت، ناعتًا إياها بالتافهة، الساقطة، والعاهرة الغبية. في الوقت الذي أوقف فيه سيارته كانت هي تحتسي كأسًا مضاعفًا من الويسكي، نظرًا لشعورها بالخوف من لقائه. وحين بدأ في الصراخ في وجهها متهمًا إياها بالكذب، بدأت في البكاء.

«لقد طردتني لويزا، وطردتني أمي، ليس لديَّ شيء لأقدمه لك».

مر عليهما العابرون المتعجلون متجنبين النظر إليهما. لم يتوقف أحد، ولم يتفوَّه أحد بأي شيء، فوجود رجل يصيح في وجه فتاة ثملة ليلًا في ميدان سوهو لم يكن بالمشهد الخارج عن المألوف. توعَّدها، واستدار كما لو كان سيرحل، إلا أنها كانت تعرف أنه لن يغادر. وحينها توقفت سيارة سوداء ضخمة في منتصف الشارع وعادت تجاههما، وكان نور مصابيحها الأبيض عاليًا. ليهبط زجاج نافذتها الإلكتروني ببطء: «ليلي؟».

استغرق منها الأمر بضع ثوان للتعرف إلى الشخص الذي كان بداخلها. إنه السيد جارسايد الذي كان يعمل مع زوج أمها سابقًا، ربما كان رئيسه في العمل، أو شريكه، فهي لا تدري، ولكنه نظر إليها ثم انتقل بنظره إلى بيتر قائلًا: «هل أنت بخير؟».

حدقت إلى بيتر، ثم أومأت.

لم يصدقها، كان كل شيء باديًا على محيًاها. أوقف سيارته أمام سيارة بيتر وعاد أدراجه ببطء مرتديًا بذلته السوداء. كانت مشيته مهيبة وكأن لا شيء يمكن أن يخيفه. وتذكرت ليلي حديث أمها عن أنه يمتلك طائرة مروحية هيلوكبتر، «هل تحتاجين أن أقلك إلى المنزل يا ليلي؟».

رفع بيتر هاتفه إلى أعلى عدة بوصات حتى يرهبها. فتحت فمها لتتحدَّث ولم تمنع نفسها من الكلام: «إن لديه صورة فاضحة لي على هاتفه وقد هددني بأن يريها لكل الناس، إنه يريد أموالًا، وقد أعطيته كل ما أملك ولم يتبق معي شيء. لقد قدمت له كل ما أستطيع تقديمه ولم يتبقَ معي شيء. أرجوك ساعدني».

اتسعت عينا بيتر في ذهول، لم يتوقع منها ذلك. ولكنها لم تكن تأبه لما يمكن أن يحدث، فقد بلغ منها اليأس مبلغه، كانت متعبة ولم تعد قادرة على ذلك الحمل بمفردها.

نظر السيد جارسايد إلى بيتر لدقيقة، وتحرك بيتر على نحو من كان يفكر في الركض إلى سيارته.

قال السيد جارسايد: «هل ما قالته صحيح؟».

ابتسم بيتر ابتسامة متكلفة متبجّحة قائلًا: «وجود صور فتيات على هاتفي ليس جريمة».

«أنا على دراية بذلك ولكن ابتزازك لها هو الجريمة». كان صوت السيد جارسايد هادئًا وواضحًا، كما لو كان من المعتاد مناقشة أمر صورة فاضحة في قارعة الطريق، دس يده في جيبه الداخلي قائلًا: «ما الذي تريده مقابل الانصراف من هنا؟».

«ماذا؟».

«هاتفك. ما المبلغ الذي تريده مقابل هاتفك؟».

انحبست أنفاس ليلي، وكانت تنقل نظراتها بينهما. ووقف بيتر مشدوهًا غير مصدق.

«سوف أقدم لك مبلغًا نقديًا مقابل هاتفك، شريطة ألا تكون لديك نسخة أخرى من الصورة في مكان آخر».

«ولكنني لا أعرض هاتفي للبيع».

«يتوجَّب عليَّ أن أخبرك إذن أيها الفتى الصغير، أنني سوف أبلغ الشرطة وسوف نحدد هويتك من أرقام سيارتك. فأنا لدي أصدقاء كثيرون في الشرطة. لدي أصدقاء في مناصب مرموقة للغاية هناك». قالها مبتسمًا ابتسامة ليست في الواقع ابتسامة على الإطلاق.

وفي الجهة المقابلة من الشارع خرج مجموعة من الأشخاص من أحد المطاعم يضحكون. نظر بيتر لها ثم عاد بنظره إلى السيد جارسايد قائلًا رافعًا ذقنه: «خمسة آلاف جنيه».

دس السيد جارسايد يده في جيبه مخرجًا حافظة نقوده وهو يهز رأسه: «لا أظن ذلك» ثم أخرج منها حزمة من النقود قائلًا: «أعتقد أن ذلك سيفي بالغرض، ومن الواضح أنه تمت مكافأتك قبل ذلك بإسهاب. الهاتف من فضلك؟».

بدا بيتر وكأنه منوَّم مغناطيسيًا، تردَّد للحظة واحده ثم أعطى هاتفه للسيد جارسايد، تأكد السيد جارسايد من وجود الشريحه بداخله، ثم دسه في جيبه، وفتح باب السيارة موجِّهًا حديثه إلى ليلي: «أعتقد أن الوقت قد حان لتغادري يا ليلي».

صعدتْ إلى السيارة كما لو كانت طفلة مطيعة، ودوَّى من خلفها صوت غلق باب السيارة. ثم انطلقا بالسيارة بهدوء وسلاسة على الطريق الضيق، تاركين بيتر خلفهما مصدومًا- كان في إمكانها رؤيته في مرآة السيارة الجانبية- بدا كما لو كان غير مصدقٍ ما حدث هو الآخر.

«هل أنتِ بخير؟»، سألها السيد جارسايد ولم ينظر إليها وهي تجيبه.

«هل...هل هذا كل شيء؟».

نظر إلى جانب الطريق ثم إلى الأمام ثانية قائلًا: «أجل، أعتقد ذلك».

لم تستطِع تصديق الأمر، لم تستطع تصديق أن الكابوس الذي ظل يطارها لأسابيع قد انتهى بهذه البساطة. استدارت نحوه فجأة في قلق: «أرجوك لا تخبر ماما أو فرانسيس».

قطَّب حاجبيه قليلًا ثم قال: «إذا كان ذلك ما تريدين».

تنهدت ليلي تنهيدة ارتياح طويلة قائلة بهدوء: «شكرًا لك».

ربت على ركبتها «أيتها الفتاه السيئة، عليك أن تنتقي أصدقاءك يا ليلي». ثم رفع يده على عصا ناقل السرعة الأوتوماتيكي قبل أن تدرك أن يده كانت تربُت عليها.

لم يتأثر تمامًا حين أخبرته أن ليس لديها مكان تأوي إليه، قاد سيارته إلى فندق في بايسووتر ثم تحدث إلى موظفة الاستقبال بهدوء، ومنحته بدورها مفتاحًا لواحدة من الغرف. وكم شعرت ليلي بالارتياح لأنه لم يقترح عليها أن تذهب معه إلى منزله حتى لا تضطر أن تشرح موقفها لكل شخص تقابله هناك.

«سوف أمر عليك في الغد حين تفيقين في الصباح». ثم وضع محفظته في جيبه.

جرت نفسها متثاقلة إلى غرفة رقم 311، وألقت بنفسها على الفراش بكامل ملابسها لتنام أربع عشرة ساعة متواصلة.

اتصل بها ليخبرها أنه سيلتقي بها على الإفطار. أخذت حمامًا، وأخرجت ملابس نظيفة من حقيبة ظهرها، وحاولت كيَّها، حتى يبدو مظهرها أكثر جاذبية، هذا إن أفلحت في كيِّها كما ينبغي، فقد كان هذا الجزء من المهام من اختصاص لينا.

حين نزلت من غرفتها، كان هو هناك بالفعل، ممسكًا جريدة في يده، وأمامه فنجان من القهوة كان قد احتسى نصفه بالفعل. بدا أكبر عمرًا عن ذي قبل، فقد خف شعر مقدمة رأسه، وظهرت بعض التجاعيد في رقبته، كانت المرة الأخيرة التي رأته فيها في واحدة من لقاءات الشركة، حيث احتسى فرانسيس الكثير من الخمر وكانت أمها تهمس معنِّفة إياه بعصبية

حين لا يكون هناك أحد بالقرب منهما، وكان السيد جارسايد يلمحهما، ويرفع حاجبيه إلى ليلي كما لو كان يقول: «يا لهما من والدين، أليس كذلك؟».

جلست في الكرسي الذي أمامه فأخفض الصحيفة التي في يده قائلًا: «كيف حالك اليوم؟».

شعرت بالحرج كما لو كانت قد قدمت بالأمس عرضًا تمثيليًا مبالغًا فيه، أو كما لو كانت أحدثت جلبة وضجيجًا وصخبًا على لا شيء يذكر: «أفضل بكثير، شكرًا لك».

«هل نمت جيدًا».

«نعم، نمت جيدًا، شكرًا لك».

تفحَّصها لدقيقة من فوق نظارته قائلًا: «ترتدين بطريقة رسمية تمامًا».

ابتسمت له. لم تكن تدري ماذا يمكنها أن تفعل غير ذلك. كم كان غريبًا عليها أن تجلس هناك مع زميل زوج أمها في العمل. قدَّمت لها النادلة قهوة واحتستها. نظرت إلى بوفيه الإفطار، متسائلة عما إذا كان عليها أن تدفع مقابل هذا، شعر بعدم ارتياحها فقال: «تناولي شيئًا ما، لا تقلقي، فثمن ذلك مدفوع».

تساءلت في نفسها عما إذا كان سيخبر والديها بما حدث، وفكرت ماذا فعل بهاتف بيتر. تمنت لو كان قد أبطأ من سرعة سيارته السوداء الضخمة عند جسر نهر التايمز وألقى بالهاتف في المياه. لم تكن ترغب في رؤية تلك الصورة ثانية قط. نهضت وجلبت لنفسها كرواسان وبعض الفاكهة فقد كانت تتضوَّر جوعًا.

جلس هناك يقرأ بينما تأكل، وفكرت سرًا كيف يبدوان من بعيد، ربما يبدوان كأي أب وابنته. وتساءلت هل لديه أبناء بالفعل أم لا.

«ألا يجب أن تكون في العمل؟».

ابتسم سامحًا للنادلة بصب مزيد من القهوة في فنجانه: «لقد أخبرتهم أن عندي اجتماعًا مهمًا». ثم قام بطي جريدته بعناية ووضعها جانبًا.

تحرَّكت بعدم ارتياح في مقعدها قائلة: «أنا في حاجة للحصول على عمل».

اعتدل في جلسته قائلًا: «عمل؟ أي نوع من الأعمال؟».

«لا أدري، لقد أفسدت اختباراتي المدرسية».

«وما رأي والديكِ في ذلك؟».

«إنهما لا... إنهما لا يستطيعان... إنهما غير راضيَين عني هذه الفترة، لقد مكثت مع مجموعة من الأصدقاء».

«ألا يمكنكِ العودة إليهم».

«كلا فأصدقائي غير مسرورين مني كذلك».

قال متنهِّدًا: «أوه يا ليلي». ثم نظر عبر النافذة لدقيقة مفكِّرًا في أمر ما، ثم نظر في ساعته الباهظة الثمن. ثم فكر لدقيقة أخرى، واتصل بأحدهم في مكتبه ليخبره أنه سيتأخَّر.

انتظرت لتعرف ما سيقوله لها بعد ذلك.

«هل انتهيتِ من إفطارك؟»، ثم وضع جريدته في الحقيبة مردفًا: «هيا بنا لنضع خطة».

لم تتوقَّع أن يصعد معها إلى غرفتها، وشعرت بالحرج من حالة الغرفة المزرية: فقد تركت المناشف الرطبة على الأرض، وتركت التليفزيون مفتوحًا ببرامجه الصباحية المملة. حاولت ترتيب الغرفة بسرعة، واضعة المناشف في الحمام، وباقي أغراضها المتناثرة في حقيبتها. وتظاهر كما لو كان لا يلاحظها، محدِّقًا خارج الشرفة، ثم استدار لها حين جلست على الكرسي، وكأنه لم يرَ الغرفة إلا لتوه.

قال: «ليس فندقًا سيئًا، لقد اعتدت على المكوث فيه عندما لا أتمكن من القيادة إلى وينشستر».

«هل تسكن هناك؟».

«بل زوجتي تعيش هناك، أجل. وأبنائي الآن قد كبروا بما يكفي». وضع حقيبته على الأرض ثم جلس على حافة الفراش. نهضت ليلي محضرة

بطاقة الملاحظات التي على الطاولة الجانبية للفراش، حتى تكتب فيها إذا ما أرادت تدوين بعض الملاحظات. أصدر هاتفها صوتًا معلنًا قدوم رسالة: ليلي اتصلي بي...لويزا1x

وضعت هاتفها في الجيب الخلفي لبنطالها، ووضعت دفتر الملاحظات على حجرها.

«ما رأيك إذن؟».

«إنكِ في موقف صعب يا ليلي. أنتِ صغيرة للغاية للحصول على وظيفة، حتى أكون صريحًا معك. لست واثقًا من إمكان إيجاد وظيفة لكِ».

«أنا أجيد القيام ببعض الأمور، وجادة في عملي تمامًا، وأجيد أعمال البستنة والحدائق».

«الحدائق! حسنا ربما يمكنك الحصول على عمل في مجال البستنة، إذا كان ذلك سيوفر لك الدعم الذي تحتاجينه لنفسك. هل لديكِ مراجع وظيفية؟ هل حصلت على أي وظائف أو أعمال في العطلات السنوية؟».

«كلا، كان أبواي يمنحاني مصروفًا».

«إممم»، قام بالنقر على ركبته، «إن علاقتك بوالدك صعبة، أليس كذلك؟».

«إن فرانسيس ليس والدي».

«أجل أنا على دراية بذلك، وأعلم أنك قد غادرت المنزل منذ بضعة أسابيع، إن الموقف كله حزين، حزين للغاية، لا بد أنك تشعرين بالعزلة».

شعرت بذلك الاحتقان والتضخم في لوزتيها، وظنت أنه كان يبحث عن منديل حين دس يده في جيبه، ولكنه حينها أخرج الهاتف. هاتف بيتر. فتحه وأخذ يقلب فيه، وما إن رأت انعكاس صورتها حتى توقفت أنفاسها في صدرها. نقر على الصورة ليكبر حجمها. فاحمرّت وجنتاها، أخذ يحدِّق في الصورة لما بدا لها أعوامًا وأعوامًا: «لقد كنت فتاة سيئة حقًا، أليس كذلك؟»

شدّت ليلي قبضتها على ملاءة فراش الفندق وهي تشعر بتوتر، ناظرة إلى السيد جارسايد، ووجنتاها تحترقان، أما هو فعيناه لم تغادر الهاتف.

«فتاة سيئة للغاية»، قالها بصوت ناعم ناظرًا إليها في نهاية الأمر، «أعتقد أن الشيء الأول الذي نحتاج إلى القيام به هو التوصل إلى طريقة يمكنك من خلالها تسديد ما تدينين لي به سواء كان ثمن الهاتف أم تكاليف الفندق».

«ولكنك لم تخبرني أنك...».

«أوه ليلي، بربك، كيف يصدر ذلك من فتاة ذكية ولمّاحة مثلك؟ لا بد أنك تعرفين أن لا شيء مجاني هنا». ثم نظر إلى الصورة قائلًا، «ولا بد أنك اكتشفت ذلك مما حدث لك... من الواضح أنك تجيدين ذلك تمامًا».

شعرت ليلي بالغثيان وكأن إفطارها قد عاد إلى حلقها ثانية.

«وكما ترين، أنا قادر على مساعدتك كثيرًا، يمكنني أن أوفر لكِ مكانًا لتقيمي فيه حتى تقفي على قدميك، وحتى تتمكني من بدء حياتك العملية. ولست في حاجة إلى القيام بالكثير مقابل ذلك مجرد Quid pro quo إنها عملية مقايضة، ألم تدرسي اللغة اللاتينية في المدرسة، شيء مقابل شيء».

نهضت بغتة ممسكة بحقيبة ظهرها. أمسك ذراعها بيده بسرعة، وباليد الأخرى دس الهاتف في جيبه ببطء، «ليلي، دعينا لا نتعجَّل في ذلك، إنك بالطبع لا ترغبين في أن أري تلك الصورة لوالديك، أليس كذلك؟ فالله وحده الأعلم بردة فعلهما تجاه كل ذلك».

توقَّفت الكلمات في حلقها.

ربَّت على ملاءة الفراش إلى جواره قائلًا: «سوف أفكر بحرص بشأن خطوتك المقبلة، والآن لماذا لا نقوم...»

جذبت ليلي ذراعها من يده بعنف وفتحت باب الغرفة بقوة وهرعت خارجها في خطوات سريعة متلاحقة عبر الردهة.

زخرت لندن بمظاهر الحياة الصاخبة في تلك الساعات من اليوم. مشت في الشارع حيث كانت السيارات تتدافع برفق جنبًا إلى جنب مع الحافلات على الطريق، وتتحرَّك سيارات الأجرة الميني كاب يمينا ويسارًا، وكان الرجال في بذلاتهم يتخذون طريقهم عائدين إلى منازلهم أو جالسين في مقصوراتهم في العمل، متجاهلين عمال النظافة الذين يؤدون أعمالهم

من حولهم في صمت. سارت مطأطئة رأسها حاملة حقيبتها فوق كتفيها، وحين كانت تتناول وجبتها في وقت متأخر في مطاعم البرجر، كانت تحرص على أن ترفع غطاء سترتها فوق رأسها وأن يكون معها جريدة للتظاهر بالقراءة: فهناك دائمًا ذلك الشخص الذي سيجلس على طاولتك محاولًا التحدث. هيا عزيزتي، أنا أحاول فقط أن أكون لطيفًا معك.

ظلت تفكر في أحداث ذلك الصباح، ما الذي فعلته ليحصل لها كل ذلك؟ ما نوع الإشارات التي ترسلها لهم حتى تحصل على مثل هذه الردود؟ ما الخطأ فيها الذي يجعل الجميع يفترض أنها عاهرة؟ وكلما تذكَّرت الكلمات التي استخدمها معها تتملك منها رغبة في البكاء. شعرت بنفسها تنكمش داخل غطائها كارهة إياه، وكارهة نفسها.

استعانت ببطاقتها الدراسية لاستقلال عربات مترو الأنفاق ذهابًا وإيابًا حتى خيم السكون على المكان، والآن أصبح من الأفضل لها أن تصعد فوق الأرض ثانية. أمضت ما تبقى من الوقت في التمشية في أضواء مصابيح ميدان بيكاديللي، متَّخذة طريقها عبر ماريليبون رود، حول حانات كامدن التي تفتح أبوابها لوقت متأخر من الليل، استمرت في السير كما لو كانت هناك وجهة تقصدها، ولم تكن تتمهل إلا حين تبدأ قدماها في إعلان شعورها بالألم من كثرة السير ومن الرصيف غير الممهَّد.

وحين تمكن التعب منها طلبت من المارّين مساعدات. أمضت ليلة واحدة في منزل صديقتها نينا، ولكن نينا طرحت عليها الكثير من الأسئلة،كما أن صوتها وهي تتحدَّث مع والديها في الأسفل، الذي سمعته ليلي بينما كانت تزيل الوسخ العالق في شعرها وهي تستحم، جعلها تشعر بأنها أكثر الناس وحدة على سطح الأرض. غادرت بعد الإفطار، على الرغم من أن والدة نينا أشارت لها أنه يمكنها البقاء لليلة أخرى، ناظرة نحوها بعين أم قلقة. أمضت ليلتين على أريكة إحدى الفتيات التي قابلتها في واحد من الملاهي الليلية، ولكن كان هناك ثلاثة رجال يشاركونها الشقة، ولم تشعر بالارتياح لنومها وجلوسها بكامل ملابسها، ولاضطرارها

لمشاهدة التليفزيون وصوته مطفأ ليلًا حتى مطلع الفجر. أمضت ليلة في نزل جيش الخلاص، مصغية إلى فتاتين تتجادلان في المقصورة المجاورة، وكانت تحتضن حقيبتها إلى صدرها تحت البطانية. قالوا إن في مقدورها الاستحمام، ولكنها لم تحب ترك حقيبتها في الخزانة بينما تستحم. تناولت الحساء المجاني وغادرت. مشت كثيرًا لمسافات طويلة، وأنفقت آخر نقودها على قهوة رخيصة وسندويتش بيض ماكمافين، حتى أصبحت أكثر تعبًا وأكثر إرهاقًا وتضوَّرت جوعًا لدرجة لم تعد قادرة معها على التفكير بشكل سليم أو اتخاذ رد فعل سريع حين قال لها الرجال عند باب المقهى كلمات بذيئة مثيرة للاشمئزاز، أو حين قال لها عامل المقهى إنها قد طلبت فنجان الشاي منذ وقت طويل وعليها المغادرة.

وفجأة تساءلت في نفسها عمَّ يفكر فيه والداها في تلك اللحظة، وما الذي سيقوله لهما السيد جارسايد حين يريهما الصورة. كانت تتخيل تعبيرات وجه أمها من هول الصدمة، وهزّ فرانسيس لرأسه ببطء، وكأن تلك ليلي الجديدة التي يراها في الصورة لم تفاجئه.

كم كانت غبية.

كان ينبغي عليها أن تسرق الهاتف.

كان يينبغي عليها أن تسحق الهاتف.

كان ينبغي عليها أن تسحق بيتر.

لم يكن عليها الذهاب إلى شقة ذلك الولد الأحمق، والتصرف على هذا النحو الأحمق لتدمر حياتها الحمقاء على هذا النحو، وكانت عادة عند هذه النقطة من التفكير تبدأ في البكاء وتضع غطاء سترتها فوق رأسها وحول وجهها ثم...

الفصل العشرون

«تقولين ماذا حدث لها؟».

كنت قادرة من خلال الهاتف على استشعار دهشة السيدة ترينر في صمتها وعدم تصديقها لما أقول (وربما أكون شخصًا مفرطًا في الحساسية) إذا قلت إنني سمعت صدًى بعيدًا لآخر شيء عزيز عليها ولم تستطع الحفاظ عليه.

«ألم تحاولي الاتصال بها؟».

«اتصلت ولم تجبني مطلقًا».

«ألم تتصل بوالديها؟».

أغلقت عينيّ، وكم كرهت قول ذلك.

«ليست تلك المرة الأولى التي تتغيَّب فيها، لقد فعلت ذلك من قبل. إن السيدة هوتون ميلر واثقة من أن ليلي ستظهر في أي لحظة».

«ولكنك لست واثقة من ذلك».

«هناك مشكلة يا سيدة ترينر، أنا لست أمًا ولكن... أنا على أي حال، أفضِّل القيام بأي شيء بدلًا من الجلوس ساكنة، لذا فإنني سأعود وأجوب الشوارع مرة أخرى بحثًا عنها. أنا فقط أردت أن تكوني على علم بحقيقة ما يحدث هنا».

صمتت السيدة ترينر لدقيقة قبل أن تقول بصوت يحمل قدرًا غريبًا

من الإصرار: «لويزا، قبل أن تنهي المكالمة، هل تمانعين في إعطائي رقم هاتف السيدة هوتون ميلر؟».

اتصلت بالعمل طالبة الحصول على إجازة مرضية، وبدت لي عبارة ريتشارد الباردة: «حسنًا، حسنًا، أتفهّم ذلك» منذرة بالشر أكثر من نوبات صراخه الغاضبة لي حين أطلب إجازة. قمت بطباعة صور لها، صورة لليلي أخذتها من صفحتها على الفيس بوك، وواحدة من صور السيلفي التي التقطناها معًا. أمضيت الصباح وأنا أجوب وسط لندن.

أوقفت سيارتي إلى جوار الأرصفة، تاركة أضواء مصابيحها مضاءة، بينما أبحث عنها سريعًا داخل الحانات، ومحلات الوجبات السريعة، والملاهي الليلية القاتمة الإضاءة، حيث رمقني عمال النظافة والعاملون في المكان بنظرات متشككة.

- هل رأيتم هذه الفتاة؟
- ومن يرد أن يراها؟
- هل رأيت هذه الفتاة؟
- هل أنت من الشرطة؟ لا أرغب بالتورط في مشاكل.

وقد وجد البعض أنه من المسلي أن يلفت انتباهي قائلًا أوه تلك الفتاة! أجل، ماذا كان اسمها؟... كلا لم أرها من قبل مطلقًا. يبدو كأنها لم تعبر أمام أحد، ولم يرها أحد. وكلما اتسعت مساحة بحثي وسافرت إلى أماكن أبعد، ازداد القنوط واليأس في داخلي. فهل هناك مكان أفضل من لندن للاختفاء فيه؟ إنها عاصمة صاخبة يمكنك أن تدخل فيها إلى واحد من ملايين الأبواب وتختفي بين الجموع والحشود اللامتناهية هناك. كنت أحدق في البنايات حولي متسائلة إذا كانت ترقد على واحدة من الأرائك هناك مرتدية بيجامتها. كانت ليلي تتعرف إلى الناس بسهولة ولم تكن تخشى طلب أي شيء، يمكنها أن تكون بصحبة أي شخص الآن.

ورغم ذلك...

لم أكن أدري الدافع الذي كان يحثني على الاستمرار في البحث، ربما كانت أعصاب تانيا هوتون ميلر الباردة التي تبدو لي مجرد نصف أم، أو ربما شعوري بالذنب كوني أخفقت في القيام بالأشياء التي انتقدتُ تانيا هوتون ميلر عليها. أو ربما كان لمعرفتي بمدى هشاشة بنت صغيرة في مثل عمرها.

وأعتقد أن السبب الحقيقي في الأغلب، هو ويل. مشيت، وقدتُ سيارتي وسألت المارة ودخل في مخيلتي في عدد لا حصر له من الحوارات عندما بدأت ساقي تؤلمني وجلست في سيارتي أتناول واحدًا من السندويتشات والشوكولا بالبندق، وتناولت عددًا من المسكنات لتساعدني على الصمود.

أين يمكنها أن تذهب يا ويل ؟

ماذا كنت ستفعل في هذا الموقف؟

كما أنني، مرة ثانية، آسفة لأنني خذلتك.

بعثت رسالة إلى سام تقول، هل من أخبار جديدة؟ وشعرت بغرابة لتحدُّثي معه بينما أجري حوارًا في رأسي مع ويل، كان شعورًا غريبًا بعدم الإخلاص. ولكنني لم أكن على يقين أي منهما لم أكن مخلصة له حينها حقًا.

كلا، لقد اتصلت بجميع أقسام الطوارئ في مستشفيات لندن، وليست هناك أي أخبار. ماذا عنك؟

أنا متعبة قليلًا.

هل هي ساقك؟

مجرد بعض الآلام التي سيقضي عليها مسكن نورفين الذي تناولته.

هل ترغبين أن أجيء إليك عقب انتهاء نوبتي ؟

أعتقد أنني في حاجة إلى الاستمرار في البحث.

لا تذهبي إلى مكان لست موجودًا فيه.

«هل بحثت في المستشفيات؟» سألتني شقيقتي في اتصال لها من جامعتها أثناء الخمس عشرة دقيقة استراحة خلال محاضراتها عن التغيرات في آلية القيمة المضافة الأوربية.

«قال لي سام إن اسمها لم يرد في أي من المستشفيات الجامعية، ولديه أشخاص في كل مكان يبحثون عنها». نظرت ورائي بينما أتحدث معها كما لو كنت أتوقع وجود ليلي بين حشود الناس القادمة تجاهي.

«منذ متى وأنت تبحثين عنها؟».

«منذ بضعة أيام». لم أخبرها أنني بالكاد أستطيع النوم، «لقد...لقد أخذت إجازة من العمل».

«كنت أعلم ذلك! كنت أعلم أنها سوف تتسبَّب لك في مشاكل. وهل وافق مديرك في العمل على منحك إجازة؟ وبالمناسبة، ماذا حدث في فرصة العمل الأخرى؟ تلك التي في نيويورك؟ هل أجريت المقابلة الشخصية؟ أرجوك لا تخبريني أنكِ نسيتِ».

استغرقت دقيقة لأفهم ما تتحدث عنه، «أوه أجل، تلك الوظيفة، لقد حصلتُ عليها».

«ماذا؟».

«لقد أخبرني ناثان أنهم اختاروني بالفعل».

كانت شوارع ويستمنستر تعجّ بالسائحين، المتسكِّعين حول الأكشاك المبهرجة، يلتقطون صورًا علوية لمجلس البرلمان بهواتفهم المحمولة وكاميراتهم باهظة الثمن. راقبت رجل المرور وهو قادم تجاهي وتساءلت إذا كان هناك ما يمنع وقوفي في المكان الذي أقف فيه نظرًا لكونه مكانًا سياحيًا. رفعتُ له يدًا مشيرة إلى أنني كنت على وشك الانصراف.

سادت فترة صمت طويلة على الجهة الأخرى من الهاتف.

«انتظري... إنك لا تقولين إنك...».

«لا يمكنني حتى التفكير في الأمر الآن يا ترين، إن ليلي مفقودة وأنا في حاجة إلى العثور عليها أولًا».
«لويزا؟ استمعي إليَّ لدقيقة. عليكِ قبول هذه الوظيفة».
«ماذا؟».
«تلك هي فرصة حياتك. هل يمكنك تخيل ما الذي يمكنني فعله حتى تُتاح لي فرصة الذهاب إلى نيويورك...مع وظيفة مضمونة؟ ومكان للعيش فيه؟ وأنت تقولين: لا أستطيع التفكير في الأمر».
«إن الأمر ليس بهذه البساطة».
كان رجل الشرطة متوجهًا نحوي هذه المرة مباشرة بالفعل.
«أوه يا إلهي، هذا هو الأمر. هذا ما كنت أحاول أن أخبرك إياه يا لو. إنكِ في كل مرة تُتاح لكِ الفرص للمُضي قدمًا في حياتك لا تقدمين إلا على تدمير مستقبلك. كما لو كنتِ... كما لو كنتِ لا ترغبين في أن يكون لك مستقبل».
«إن ليلي مفقودة يا ترين».
«إنها فتاة في السادسة عشر من عمرها لا تعرفينها إلا بالكاد، لديها والدان وعلى الأقل اثنان من الأجداد، اختفت لبضعة أيام وكانت قد أقدمت على ذلك من قبل بالفعل. هي تتصرف مثلما يتصرف الكثير من المراهقين في عمرها. وأنت تتحجَّجين بذلك لإضاعة أهم فرصة يمكن أن تأتي في حياتك على الإطلاق؟ أنت لا ترغبين حقًا في القيام بهذا، أليس كذلك؟».
«ما الذي يعنيه ذلك بحق الجحيم؟».
« من الأسهل عليك البقاء عالقة في عملك البائس والشكوى منه، ومن الأسهل عليك البقاء في مكانك وعدم خوض المخاطر متظاهرة بأن كل شيء بائس يحدث في حياتك هو أمر خارج عن سيطرتك».
«لا يمكنني المغاردة وترك كل شيء في خضم هذه الأحداث».
«إنكِ المسؤولة عن حياتك يا لو، وتتعاملين كما لو كنت محاصرة دائمًا

بأحداث خارجة عن سيطرتك. بماذا تفسرين ذلك، شعور بالذنب؟ هل تشعرين أنك تدينين لويل بشيء ما؟ هل هو نوع من التوبة؟ هل تتخلِّين عن حياتك لأنك لم تتمكني من إنقاذ حياته؟».

«إنك لا تفهمين».

«بل أنا أفهم كل شيء تمامًا. أنا أفهمك أكثر من فهْمك لنفسك. إن ابنته ليست مسؤوليتك. هل تسمعينني؟ لا شيء من ذلك مسؤوليتك. وإذا لم تذهبي إلى نيويورك، وهي فرصة لا أستطيع حتى التحدث عنها، لأن الحديث عنها يخلق لديَّ رغبة في قتلك، لن أتحدث معك ثانية ما حييت...».

كان رجل الشرطة قد وصل بالفعل عند نافذة سيارتي. أنزلت الزجاج، يرتسم على وجهي ذلك التعبير العالمي حين تكون شقيقتك انطلقت في الكلام على الجهة الأخرى من الخط وإنك حقًا آسف لذلك، ولكن لا تستطيع مقاطعتها. نقر على ساعته، وأومأتُ له مؤكدة على الذهاب.

«هذا هو كل شيء يا لو، فكري في الأمر، إن ليلي ليست ابنتك».

أنهت شقيقتي المكالمة، وأنا أحدِّق في هاتفي. شكرت رجل المرور، ثم رفعت نافذة السيارة. وحينها تبادرت إلى ذهني عبارة: وإنه لم يكن والدي.

قدت سيارتي إلى الزاوية وتوقفت إلى جوار محطة البنزين، محدّقة في الشكل المرسوم A_Z على دواسة سيارتي/ محاولة تذكر اسم الطريق الذي ذكرته لي ليلي سابقًا، بيمور، بيكرست، بيكروفت. حاولت حساب المسافة إلى سانت جونس وود، هل سيستغرق ذلك خمس عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام؟ لا بد أنه نفس المكان.

استخدمت هاتفي في البحث عن اسم عائلته مع اسم الشارع، وقد وجدته بالفعل. منزل رقم خمسة وستون. تقلصت معدتي من فرط الإثارة. أدرت محرك السيارة وانطلقت متجهه نحو الطريق الرئيسي ثانية.

وعلى الرغم من أن ميلًا واحدًا كان المسافة الفاصلة بين منزل والدة ليلي ومنزل صديقها السابق، فإن الفارق بين المكانين كان شاسعًا حقًا. كان الشارع الذي يحتضن منزل عائلة هوتون ميلر يحتوي على منازل موحدة اللون مصنوعة إما من الجص الأبيض أو القرميد الأحمر، وتحيط به أشجار خشب الطقسوس وسيارات ضخمة يبدو أنها لا تتسخ مطلقًا، أما الطريق إلى مارتين فقد كان بعيدًا عن الأرستقراطية كل البعد، في أحد أطراف لندن، حيث المنازل من طابقين، ترتفع أسعارها إلا أن مظهرها الخارجي لا يعكس هذا الارتفاع على الإطلاق.

قدت سيارتي ببطء، ووجدت في النهاية مكانًا يمكنني ترك سيارتي فيه بالقرب من منزل صغير على الطراز الفيكتوري المميز والمنتشر عبر لندن. حدقت فيه مُلاحِظة الرسم المقشر على الباب الأمامي، ووجود علبة تلوين مخصصة للأطفال على الدرج الأمامي للمنزل. صليت إلى الله أن تكون ليلي بالداخل، آمنة بين تلك الجدران.

خرجت من سيارتي، وأغلقتها، قبل أن أتجه إلى الباب الأمامي.

كنت قادرة على سماع صوت بيانو في الداخل، لحن متقطع يتم تكراره مرة تلو الأخرى، وأصوات غير مفهومة. ترددت للحظة، قبل أن أدق جرس الباب، فتوقف عزف الموسيقى.

سمعت صوت خطوات في الردهة، ثم انفتح الباب، لأجد أمامي رجلًا أربعينيًا، يرتدي قميصًا عليه مربعات، وجينزًا، وكانت ذقنه غير حليقة.

«نعم؟».

«أتساءل...هل ليلي هنا؟».

«ليلي؟».

ابتسمتُ ومددت له يدي لمصافحته، «أنت مارتين ستيل أليس كذلك؟»، تفحَّصني بحرص قبل أن يجيب: «ربما أكون هو، ومن أنتِ؟».

«أنا صديقة ليلي، وأحاول الوصول إليها وافترضت أنها ربما تكون هنا. أو أنك ربما تعلم مكانها».

تجهَّم قائلًا: «ليلي؟ ليلي ميلر؟».

«أجل هي».

حك فكه بيده، ونظر خلفه نحو الردهة، «هل يمكنك الانتظار لدقيقة رجاء؟»، مشى في الممر وسمعته يعطي تعليمات للجالس على البيانو. وحين عاد سمعت صوت أحدهم يعزف السلم الموسيقي بتردد في بداية الأمر ثم بثقة أكبر.

أغلق مارتين ستيل الباب خلفه نصف إغلاق حين عاد، ومد رأسه لدقيقة، كما لو كان يحاول فهم ما قلته لتوي، «آسف، أنا مرتبك قليلًا هنا. هل أنت صديقة ليلي مارتين؟ وأتيت إلى هنا للسؤال عنها؟ لماذا؟».

«لأن ليلي قالت إنها قدمت إلى هنا لزيارتك، وقالت إنك كنت زوج أمها».

«ليس رسميًا، ولكن أجل، كان ذلك منذ وقت طويل مضى».

«وقالت إنك موسيقي وكنت تصحبها إلى الحضانة، أليس كذلك؟ ولكنكما لا تزالان على تواصل، لقد حكت لي عن مدى قربكما، وكيف كان ذلك يزعج والدتها».

«آنسة لويزا كلارك، أنا لم أقابل ليلي منذ كانت في الخامسة من عمرها، كان رأي تانيا أنه من الأفضل لنا جميعًا بعد الانفصال أن نقطع كل العلاقات».

حدَّقت فيه قائلة: «تقول لي إذن إنها لم تأتِ إلى هنا؟».

فكَّر متذكرًا لدقيقة: «لقد أتت إلى هنا منذ بضعة أعوام ولكن التوقيت لم يكن مناسبًا، كنا قد أنجبنا طفلنا للتو، قد بدأت العمل في التدريس، وللأمانة، لم أفهم حينها ماذا كانت تريد مني».

«ألم ترها أو تتحدث إليها إذن منذ ذلك الحين؟».

«لم يحدث بعد تلك الزيارة القصيرة. لمَ تسألين هل هي بخير؟ هل تواجه مشكلة ما؟».

كان صوت البيانو لا يزال صادحًا في الداخل دو ريه مي فا صول لا سي. علوًا وانخفاضًا.

قلت وأنا أغادر: «كلا، إنها بخير. اعذرني، آسفة على إزعاجك».

أمضيتُ ليلة أخرى أجوب فيها شوارع لندن متجاهلة مكالمات شقيقتي الهاتفية والإيميل الذي أرسله ريتشارد بيرسيفال منوّهًا على أنه شخصي وعاجل. استمريت في القيادة حتى احمرَّت عيناي من ضوء المصابيح وأدركت أنني فقدت تركيزي وأبحث في مكان كنت قد بحثت فيه من قبل، وأنني لم تعد لديَّ نقود لتزويد السيارة بالوقود.

وصلت إلى منزلي في منتصف الليل وأنا أعد نفسي بأن أحضر بطاقتي الائتمانية، وأصنع كوبًا من الشاي، وأريح عينيَّ لنصف ساعة ثم أعاود البحث ثانية. خلعت حذائي وحضّرت بعض الخبز المحمَّص الذي لم أستطِع تناوله. وبدلًا منه تناولت مسكنين آخرين للألم، وأغمضت عيني على الأريكة والأفكار تتصارع في رأسي. ما الذي يفوتني هنا؟ لا بد أن هناك مفتاحًا ما. لم أعد قادرة على التفكير من شدة الإرهاق، واعتصر معدتي الشعور بالتوتر والقلق. ما الشوارع التي أغفلتها؟ هل هناك احتمال أن تكون ذهبت إلى مكان ما خارج لندن؟

لم يكن أمامي خيار آخر، وقررت أن أبلغ الشرطة. من الأفضل أن يروني حمقاء وأبالغ على أن أخاطر أن يحدث لها شيء ونحن لا نعلم. تمدَّدت وأغلقت عيني لخمس دقائق.

استيقظت عقب ثلاث ساعات على صوت الهاتف يرن. جلست منتصبة، لا أعلم أين أنا. ثم حدقت في الشاشة الوامضة إلى جواري، ورفعتها إلى أذني.

«مرحبا؟».

«لقد وجدناها».

«ماذا؟».

«أنا سام، لقد وجدنا ليلي، هل يمكنك القدوم؟».

في أجواء تلك الليلة التي خسرت فيها انجلترا مباراة لكرة القدم، لم يلحظ المارة سيئو المزاج والسكارى المصابون، وجود جسد تلك الفتاة الهزيلة النائمة بين مقعدين في إحدى الزوايا وتغطّي وجهها بسترتها. لم يكتشفوا وجودها إلا حين ذهبت ممرضة للتأكد فردًا بفرد من أنهم قد وصلوا للمستهدفين من المصابين الذين يحتاجون للإسعاف، وحين هز أحدهم الفتاة استيقظت واعترفت بتردد أنها تبقى هنا لأنه مكان آمن ودافئ.

كانت الممرضة تستجوبها، حين كان سام يساعد سيدة عجوزًا تعاني من مشكلات في التنفس ولمحها على المقعد. فطلب سريعًا من الممرضة ألّا تسمح لتلك الفتاة بالمغادرة وهرع إلى الهاتف للاتصال بي قبل أن تتمكّن ليلي من رؤيته. أخبرني ذلك كله حين كنا نهرع إلى قسم الطوارئ. كانت ساحة الانتظار أخيرًا شبه خالية، وذهب الأطفال الذين يعانون من الحمّى بأمان مع آبائهم، وعاد السكارى إلى ديارهم من أجل الحصول على قسط من النوم. لم يتبقَ هناك في هذا الوقت المتأخِّر من الليل سوى المصابين من حوادث الطرق والمصابين بطعنات.

«لقد أحضروا لها بعض الشاي، يبدو وإنها منهكة، أعتقد أنها سعيدة لمجرد وجودها داخل مكان منتظرة هكذا».

لا بد أن القلق بدا صارخًا على وجهي لأن سام بادر قائلًا: «لا بأس، لن يتركوها تغادر».

كنت بين المشي والركض والهرولة عبر الممر، وكان سام يمشي إلى جواري يلاحق خطواتي. وها هي هناك، تبدو أصغر حجمًا مما كانت عليه، وشعرها معقوص إلى الخلف بشكل فوضوي، وتمسك بين يديها الرقيقتين كوبًا بلاستيكيًا. وكانت ممرضة تجلس إلى جوارها وتعمل على كومة من الملفات، وحين رأتني أنا وسام، ابتسمت بدفء وغادرت. وقد لاحظت أن أظافر ليلي كانت متسخة إلى درجة السواد.

والتقت عيناي بعينيها الداكنتين: «ليلي؟ ماذا حدث؟».

نظرت إليَّ ثم إلى سام، وكانت عيناها تحملان قدرًا من الخوف.

«لقد كنا نبحث عنكِ في كل مكان. لقد كنا...يا إلهي، ليلي، أين كنت؟».

همست: «آسفة».

حركت رأسي، محاولة إخبارها أن ذلك لا يهم. أن لا شيء يهم على الإطلاق مقابل سلامتها، وأنها هنا بخير وأمان.

مددت لها ذراعيَّ، تقدمت خطوة إلى الأمام، واحتضنتني برفق. أغلقتُ عينيّ وضممتها بقوة، شاعرة ببكائها الصامت وبكائي أنا الأخرى. كل ما كان بوسعي فعله هو أن أشكر الله على عودتها، وأن أردد تلك الكلمات في صمت: ويل، ويل لقد وجدناها يا ويل.

الفصل الحادي والعشرون

في ليلتنا الأولى في المنزل نامت ليلي في فراشي لثماني عشرة ساعة متواصلة، استيقظت فقط في المساء لتناول بعض الحساء ودخول الحمام، ثم نامت ثماني ساعات أخرى. نمتُ على الأريكة وأقفلت الباب الأمامي بالأقفال خشية أن تختفي ليلي ثانية. مر علينا سام مرتين، مرة قبل نوبة عمله وأخرى بعدها ليحضر لنا اللبن وليطمئن على حالها، ومشينا في هدوء إلى الصالة متهامسَين كما لو كنا نتناقش في شأن فاضح.

اتصلت بتانيا هوتون ميلر لأخبرها أن ابنتها قد عادت بأمان، فصاحت بانتصار: «لقد أخبرتك ولكنك لم تستمعي لي». فأغلقت الهاتف قبل أن تتمكن من قول شيء آخر، أو قبل أن أقول أنا أي شيء.

اتصلت كذلك بالسيدة ترينر التي أطلقت تنهيدة ارتياح طويلة لدى سماعها بالخبر، وصمتت لبعض الوقت، ثم قالت: «شكرًا لك». ثم أردفت قائلة على نحو بدا من أعماق قلبها: «متى يمكنني القدوم لرؤيتها؟».

قمت أخيرًا بفتح الرسالة الإلكترونية الواردة من ريتشارد بيرسيفال التي قال فيها: بناء على تلقيك ثلاثة إنذارات من قبل، أخطرك أنه، نظرًا لغيابك المتكرر عن العمل، وفشلك في أداء المهام المنوطة بك في العقد المبرم، قد تقرر فصلك نهائيًا من شامروك آند كلوفر (فرع المطار). وطلب مني إعادة الزي الخاص بالعمل (بما في ذلك الباروكة) أو سأدفع ثمنها كاملًا.

فتحت رسالة أخرى من ناثان يقول فيها أين أنت بحق الجحيم؟ هل قرأت رسالتي الأخيرة؟

فكرت في عرض السيد جوبنك وأغلقت حاسوبي متنهدة.

وفي اليوم الثالث استيقظت من نومي على الأريكة ولم أجد ليلي في المنزل. قفز قلبي بين ضلوعي حتى رأيت النافذة المؤدية إلى سطح البناية مفتوحة صعدت عبر سلم الحريق لأجدها جالسة على السطح، تتأمَّل المدينة.

«مرحبا»، قلتها وأنا أتخذ طريقي عبر السطح صوبها.

قالت ملاحظة: «لديك طعام في ثلاجتك».

«إنه المسعف سام».

«وهل قمت بريّ كل الزهور؟».

«هو أيضا من كان يقوم بذلك».

أومأت كما لو كان ذلك متوقَّعًا. واتخذت مجلسي على المقعد إلى جوارها وجلسنا في صمت مستأنسَتين لبعض الوقت، نستنشق عبير اللافندر، الذي تفتَّحت أزهاره الأرجوانية من خلال براعمه الخضراء. كل شيء في حديقة سطح البناية الصغيرة يتنفَّس الآن بالحياة، البتلات والأوراق المتهامسة مضفية لونًا وروحًا وعبيرًا إلى الإسفلت الرمادي لسطح البناية.

«آسفة لاستيلائي على فراشك».

«إنتِ بحاجة إليه».

«إنك تعلِّقين كل ملابسك الآن». ثم قامت بثني ساقيها أسفلها واضعة بعض خصلات شعرها خلف أذنها، ويدا وجهها لا يزال شاحبًا، «تعلقين الملابس اللطيفة».

«حسنًا، أعتقد أنكِ دفعتني إلى التفكير في أنه لا يجب عليَّ إخفاؤها في الصناديق بعد الآن».

رنت نحوي بجانب عينها، وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة جعلتني بشكل ما أتمنى لو لم تبتسمها على الإطلاق. أنذر الهواء حولنا بطقس حار، وبدت الأصوات في الشارع مكتومة بسبب حرارة الشمس التي بدأت أشعتها في التسلل بالفعل عبر النوافذ. وفي الأسفل سارت شاحنة لوري مقعقعة متخذة طريقها ببطء عبر الطريق وصوت بوقها المزعج يختلط بأصوات المارة في الشارع.

قلت بهدوء حين اختفت الشاحنة في الطريق: «ليلي، ما الذي يحدث؟»، حاولت ألّا أبدو كأنني إستجوبها.

«أعلم أنه ليس من حقي سؤالك، فأنا لست واحدة من أسرتك الفعلية، ولست أي شيء على الإطلاق، ولكن أرى أن هناك خطبًا ما... وأشعر... أشعر كأننا... حسنًا، أشعر أننا متقاربتان وأريدك أن تثقي بي. أريدك أن تشعري أن بإمكانك التحدث إليَّ».

استمرّت في التحديق إلى يدها.

«لن أصدر أي حكم عليكِ، ولن أفشي ما ستقولين لي لأي شخص. أنا فقط... حسنًا، عليك أن تعلمي أنكِ حين تخبرين شخصًا ما بالحقيقة، فإن ذلك يساعدك. أعدك، أن الأمور ستتحسَّن».

«أخبر من؟».

«أخبريني أنا، ليس هناك ما يمكنك إخفاؤه عني يا ليلي حقًا».

حدَّقت بي، ثم أشاحت بنظرها بعيدًا قبل أن تقول بنعومة: «لن تفهميني».

ولكنني كنت أعلم بداخلي أنني سأتفهَّمها، أعلم ذلك.

ساد الهدوء المكان على نحو غريب، أو ربما لم أعد قادرة على سماع أي شيء خارج حيز البوصات القليلة التي تفصل بيني وبينها. قلت لها: «سوف أحكي لك قصة، لا يعرف بأمرها سوى شخص واحد في العالم، لأنني شعرت لسنوات وسنوات أنني لا أستطيع مشاركتها مع أحد. لكنني

حين شاركته قصتي تلك تغيَّر كل شعوري حيالها وشعوري تجاه نفسي كذلك. إليكِ إذن الاتفاق، ليس عليكِ أن تخبريني بشيء على الإطلاق، ولكنني أثق بك بما يكفي لأحكي لك قصتي على أي حال، على أمل أن يساعد ذلك في شيء».

انتظرت لدقيقة، ولكن ليلي لم تعترض، ولم تحرك عينيها في ضجر، أو تقول إن ذلك سيكون مملًا. وجدتها وقد اكتفت بلف ذراعها حول ركبتيها، وبدت مصغية. أصغت لي وأنا أحكي لها عن تلك الفتاة المراهقة التي ذهبت، في إحدى الليالي الصيفية الرائعة، إلى مكان لتحتفل بشكل مبالغ فيه قليلًا في مكان حسبته آمنًا، وكيف أنها كانت محاطة حينها بصديقاتها وعدد من الأولاد اللطيفين الذين بدوا، كما لو كانوا من عائلات محترمة ويعرفون القواعد والآداب، وكيف كان الأمر ممتعًا، وصاخبًا ومجنونًا، حتى أدركت في لحظة ما أن الفتيات قد تغيَّرن معها كثيرا وبدون كالغريبات، واتضح لها أن الضحكات العالية والنكات كانت موجَّهة إليها. وأخبرتها دوْن الاستغراق في الكثير من التفاصيل كيف انتهت تلك الليلة: بقدوم شقيقتها إلى المكان في صمت لتساعدها في العودة إلى المنزل بعد أن فقدت فردة من حذائها، وبعد أن أصيب جسدها بالجروح والندوب في أماكن خفية. وأصبحت تلك الساعات التي أمضتها، وما تستدعيه من ذكريات ومشاعر مرتبطة بها بمثابة حفرة كبيرة سوداء تبتلعها بلا رحمة، لتذكرها في كل يوم كم كانت غبية وغير مسؤولة، وأنها قد جلبت كل ذلك لنفسها. وحكيت لها كيف أن هذه الفتاة قد سمحت لتلك الفكرة السلبية أن تصبغ كل ما تفعله في حياتها لسنوات، وكل ما تفكر فيه، وكل ما تظن نفسها قادرة على فعله. وكيف أن كل ما كانت تحتاجه حينها هو أن تسمع أحدهم يقول لها عبارة في بساطة: كلا لم يكن ذلك خطأك، لم يكن خطأك حقًا.

انتهيت من قصتي وكانت ليلي لا تزال تراقبني، وبدت تعبيرات وجهها خالية من أي رد فعل واضح.

قلت لها بحرص: «لا أدري ما الذي حدث، أو يحدث معك يا ليلي، وربما لا تكون له علاقة على الإطلاق بما حكيته لك. أود فقط أن تعلمي أنه مهما بلغت درجة سوء ما حدث لكِ يمكنك أن تشاركيني إياه. وأنه ليس هناك شيء على وجه الأرض سيجعلني أغلق بابي في وجهك ثانية».

ظلَّت محافظة على صمتها، وحدَّقتُ أنا نحو الشرفة متعمِّدة عدم النظر لها.

«أتدرين لقد قال لي والدك شيئًا لن أنساه مطلقًا، قال: «لا تسمحي لشيء بعينه أن يمثِّلكِ».

رفعت رأسها متنبهة: «أبي».

أومأت لها قائلة: «أيًا كان ما حدث لكِ حتى ولو لا ترغبين في البوح به، عليكِ أن تفهمي أن والدكِ كان محقًا في قوله. ليس عليكِ أن تسمحي لتلك الأسابيع أو الأشهر القليلة الماضية أن تحدِّد حياتك. لقد رأيت فيك من خلال الفترة القليلة التي قضيتها معك كم أنت ذكية، ومرحة، وطيبة، وبارعة، وأنك إذا ما تمكنت من تجاوز ما حدث أيًا كان وتركه وراء ظهرك، ستنعمين بمستقبل مشرق».

«كيف لكِ أن تعرفي ذلك؟».

«لأنكِ تشبهينه تمامًا، حتى إنكِ ترتدين سترته».

قرَّبت ذراعها ببطء من وجهها، واضعة الصوف الناعم تحت ذقنها، مفكِّرة.

اعتدلت في جلستي على المقعد وفكرت إن كنت قد بالغت في حديثي عن ويل.

ولكن ليلي أخذت نفسًا عميقًا، وأخبرتني بصوت هادئ عن المكان الذي كانت فيه، أخبرتني عن ذلك الفتى، وعن ذلك الرجل، وعن صورة الهاتف التي تطاردها، وعن الأيام التي قضتها في الشوارع. أجهشتْ بالبكاء حين بدأتْ في البوح بما في قلبها، وانكمشت على نفسها، وتغضَّنت

ملامح وجهها وهي تبكي كما لو كانت طفلة في الخامسة من عمرها، فاقتربتُ منها ووضعتُ يدي على شعرها بينما تحكي، وبدأت الكلمات في الجيشان، متسارعة الوتيرة، مفعمة بالمشاعر يقطعها البكاء والنحيب، وحين وصلت في حكيها إلى اليوم الأخير لها كانت بين ذراعي، تبتلعها السترة التي ترتديها، ويبتلعها خوفها وشعورها بالذنب والحزن.

قالت باكية: «أنا آسفة، آسفة للغاية».

احتضنتُها وقلت لها بحرارة: «ليس عليك أن تتأسفي».

أتى سام لزيارتنا تلك الليلة. كان مبهجًا ولطيفًا وطبيعيًا في تعامله مع ليلي، وقد طهى لنا معكرونة بالكريمة، ولحمًا مقدَّدًا مع الفطر، وحين أعربت عن عدم رغبتها في الخروج جلسنا معًا لنشاهد فيلمًا كوميديًا عن أسرة ضلَّت طريقها في الغابة، وقد كانت أحداث الفيلم متطابقة على نحو غريب مع ما يحدث لنا. ابتسمت وضحكت وصنعت لنا الشاي، ولكن بداخلي اعتمل غضبٌ لم أجرؤ على إظهاره.

وبمجرد أن أوت ليلي إلى فراشها، أشرت لسام للذهاب إلى مخرج الحريق. وصعدنا معًا إلى سطح البناية حتى أضمن أن حديثنا لن يكون مسموعًا لأحد، وحين جلست على المقعد الحديدي أخبرته بما حكت لي ليلي في نفس ذلك المكان منذ بضع ساعات مضت، وقلت: «إنها تعتقد أن تلك الصورة سوف تطاردها إلى الأبد يا سام، فالهاتف لا يزال لديه».

لا أظن أنني قد تملكني هذا القدر من الغضب العارم من قبل في حياتي. لقد أمضيت تلك الأمسية بطولها أمام شاشة التليفزيون الذي لم أكن أشاهده في الواقع، مسترجعة أحداث الأسابيع القليلة الماضية في ضوء معرفتي الجديدة بما حدث لليلي: فكرت في تلك الأوقات التي كان يحوم فيها ذلك الفتى حول المنزل، وكيف كانت ليلي تخبِّئ هاتفها تحت وسادات الأريكة خشية أن أرى الصورة، وكيف كانت تجفل في بعض الأحيان حين تتلقَّى رسالة. فكرت في كلماتها المتلعثمة - وهي تصف

شعورها بالارتياح حين ظنت أنها أنقذت من ذلك الموقف - والرعب الذي تملك منها بعد ذلك مما تعرضت له. فكرت في حقارة رجل وجد فتاة في عمر أولاده في ورطة واتخذ من ذلك فرصة له.

أشار لي سام بالجلوس، لكنني لم أكن قادرة على البقاء في مكاني، رحت أذرع سطح البناية جيئة وذهابًا، ضامةً قبضة يدي في غضب، ورقبتي متصلِّبة من فرط التوتر. كنت كمن أصابه مس من الجنون. أردت العثور على السيد جارسايد. وقف سام خلفي وقام بتدليك نقاط في كتفي، وفكرت في أن تلك كانت طريقته لتهدئتي.

«أريد أن أقتله».

«حسنًا، يمكننا أن نخطِّط لذلك».

استدرت ناظرة إلى سام لمعرفة ما إذا كان يمزح، وانتابني قدر من خيبة الأمل حين وجدته يمزح بالفعل.

كان الطقس يزداد برودة مع نسيم المساء، وتمنيت أن لو كنت قد أحضرت معي معطفًا: «ربما علينا أن نبلغ الشرطة، إن ذلك ابتزاز أليس كذلك؟».

«سوف ينكر الأمر، هناك مليون مكان يمكنه أن يخفي فيه الهاتف، وإذا كانت أمها صادقة فلن يصدق أحد ليلي بسبب ما يسمونه بركيزة المجتمع، لن يصدقها أحد بسبب ماضيها، فذلك هو طبع البشر».

«ولكن كيف يمكننا أخذ ذلك الهاتف منه؟ لن يمكنها عيش حياتها الطبيعية وهي تعلم أنه هناك في الخارج ومعه تلك الصورة». كنت أرتعد، فخلع سام سترته ووضعها على كتفي، كانت تحمل دفأه، وحاولت ألّا أبدو ممتنة له بالقدر الذي أشعر به بالفعل.

«لا يمكننا الذهاب إلى مكتبه فسوف يعلم والداها بالأمر هكذا، هل نبعث له برسالة إلكترونية؟ هل نطلب منه أن يعطينا الهاتف وإلّا؟».

«من الصعب أن يلحظ رسالتنا من الأساس، أو ربما لن يردّ عليها، ويمكن أن يستخدم ذلك كدليل ضدنا».

أطلقت أنينًا طويلًا وقلت: «ليس هناك أمل، ربما يكون عليها التعايش مع الأمر وحسب. ربما يمكننا أن نقنعها أنه سينسى الأمر كله كما أن ذلك في مصلحتها أيضًا. وأنه ربما يتخلَّص من الهاتف بنفسه؟ أليس كذلك؟».

«هل تعتقدين أنها ستتقبَّل هذا الأمر؟».

قمت بفرك عينيَّ قائلة: «كلا، لا أستطيع تحمُّل هذا الأمر، لا أستطيع تحمُّل فكرة أن يهرب بفعلته هكذا ببساطة. إن ما فعله حقارة واستغلال وشرّ وقذارة». ثم وقفتُ محدقة في المدينة من تحتي أشعر بالقنوط الذي بدأ في التسلل إلى داخلي. كان في مقدوري رؤية مستقبل ليلي: ستتحوَّل إلى سلوك دفاعي شرس، في محاولة منها للهروب من شبح الماضي. إن ذلك الهاتف هو المفتاح الرئيسي لسلوكها، إنه النافذة لمستقبلها.

فكِّري، قلت لنفسي فكري في ما كان سيفعله ويل في هذا الموقف. لم يكن سيترك هذا الرجل يذهب بفعلته هكذا منتصرًا. يجب أن أخطِّط وأضع إستراتيجية مثلما كان سيفعل. راقبت حركة سير العربات وهي تزحف ببطء أسفل بناية منزلي. وفكرت في سيارة السيد جارسايد السوداء العملاقة وهي تجوب شوارع سوهو. فكرت في رجل يتحرَّك بصمت وسهولة في دروب الحياة، واثقًا من أن جميع الطرق ممهَّدة أمامه.

«سام، هل لديكَ عقار قادر على إيقاف القلب؟».

نظر نحوي لدقيقة مشدوهًا: «أخبريني أنكِ تمزحين».

«كلا، اسمع، إن لديَّ فكرة».

لم تقل أي شيء في البداية، فأخبرتها: «ستكونين بأمان، وبهذه الطريقة لن يعرف مخلوق آخر أي شيء عن الأمر». وما كان محركًا لي بصورة أكبر في الواقع هو، أنها لم تطرح عليَّ السؤال الذي بقيت أردده على نفسي منذ أن شرحت خطتي لسام. وكيف تعلمين أن ذلك سوف ينجح بالفعل؟

قال سام: «لقد رتَّبت كل شيء يا حبيبتي».

«ولكن لا أحد آخر يعلم أنه...»

«لا أحد يعلم أي شيء، فقط أنه يضايقك».

«ولكن ألن تتعرّض لمشاكل؟».

«لا تقلقي بشأني».

شدَّت أكمام قميصها إلى أسفل متمتمة: «لن تتركاني معه بمفردي على الإطلاق».

«ولا لدقيقة واحدة».

عضَّت على شفتيها، ثم نظرت إلى سام، ونظرت إليّ، وبدا أن الأمور أخذت تهدأ بداخلها: «حسنًا، لننفذ تلك الخطة».

قمت بشراء هاتف رخيص، واتصلت بمكان عمل زوج أم ليلي، وحصلت على هاتف السيد جارسايد المحمول من سكرتيرته عن طريق كذبة مقنعة.وفي تلك الليلة التي انتظرت فيها وصول سام، بعثت برسالة نصية إلى هاتف جارسايد.

السيد جارسايد، أنا آسفة على ما فعلته معك، لقد انتابتني حالة من الخوف، أرغب في تسوية الأمر معك. ليلي.

تركها لنصف ساعة قبل أن يرد على الرسالة، ربما ليزيد من شعورها بالتوتر.

وما الذي يجعلني أتحدث معك ثانية يا ليلي؟ لقد كنت وقحة للغاية بعد كل ما فعلته لأجلك.

تمتم سام: «حقير».

أعلم ذلك، وأنا آسفة حقًا. إنني في حاجة إلى مساعدتك.

إن الدنيا أخذ وعطاء يا ليلي، لا شيء بلا مقابل.

أعلم ذلك، ولكنك فاجأتني بطلبك، وكنت في حاجة إلى بعض الوقت للتفكير، دعنا نلتقي، وسوف أمنحك ما تريد. ولكن عليك أن تعطيني الهاتف أولًا.

لا أظن أنك في موقف من يملي شروطه يا ليلي.

نظر إليَّ سام، ونظرت له ثم بدأت في الكتابة.

حتى ولو علمت أنني... فتاة شقية وسيئة للغاية؟

توقف.

بدأت الآن تثيرين اهتمامي.

تبادلت أنا وسام النظرات ثم قلت له: «كم يشعرني ذلك بالغثيان».

كتبت له: موعدنا غدًا مساءً إذن، سوف أرسل لك العنوان حين أتأكد من خروج صديقتي.

وحين تأكدنا أنه لن يقوم بالرد ثانية، وضع سام الهاتف في جيبه، بحيث لا تراه ليلي، ثم احتضنني لوقت طويل.

كنت متوترة للغاية في صباح اليوم التالي، وليلي كانت أكثر توترًا مني. لم نتناول الكثير على فطورنا، وسمحت لليلي بالتدخين في الشقة، بل شعرت برغبة أنا الأخرى في الحصول على سيجارة. شاهدنا فيلمًا معًا، وقمنا ببعض الأعمال اليومية الروتينية بشكل سيئ، وفي تمام السابعة والنصف حين عاد سام كان رأسي يطن لدرجة أنني كنت بالكاد أستطيع أن أفعل شيئًا.

سألته: «هل أرسلت له العنوان؟».

«أجل».

«دعني أرى».

كانت الرسالة على الهاتف ببساطة عنوان منزلي يعقبه، اسم ليلي.

وقد رد عليها قائلًا: لديّ اجتماع في وسط المدينة وسوف أكون هناك بعد الثامنة مباشرة.

سألني سام: «هل أنت بخير؟».

شعرت بألم في معدتي، وشعرت أنني بالكاد أستطيع التنفس: «لا أريد

أن أسبب لك مشاكل، أعني... ماذا لو انكشف الأمر؟ سوف تُطرد من عملك!».

هز سام رأسه نافيًا: «لن يحدث ذلك».

«لم يكن عليَّ أن أقحمك في هذه الفوضى، أنت شخص رائع للغاية، وأشعر أنني أرد لك ذلك بإقحامك في مخاطرة كتلك».

«سنكون جميعًا بخير، حاولي التنفس بصورة طبيعية». قالها مبتسمًا محاولًا طمأنتي، ولكنني لاحظت علامات الإرهاق أسفل عينيه.

نظر من خلف كتفي، فاستدرت لأجد ليلي وقد ارتدت قميصًا أسود وشورتًا قصيرًا وجوربين شفافين أسودين، ووضعت مساحيق تجميل على نحو جعلها تبدو غاية في الجمال والإغراء: «هل أنتِ بخير حبيبتي؟».

أومأت بالإيجاب، وقد تحوَّل لونها الزيتوني الطبيعي الذي يشبه لون بشرة ويل إلى اللون الشاحب، وبدا أن وجهها تضخّم من فرط التوتر.

«سوف يكون كل شيء على ما يرام، لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق، اتفقنا على كل شيء أليس كذلك؟»، بدا صوت سام هادئًا مطمئنًا.

كنا قد راجعنا ما ستقوله وتفعله عشرات المرات، كنت أرغب أن تصل ليلي إلى نقطة لا تقف وتفكر في ما ستقول، بل أن تردِّد كل شيء من دون تفكير.

«أعرف دوري تمامًا».

«حسنًا»، ثم صفق بيده قائلًا: «إنها الثامنة إلا الربع الآن هيًّا لنستعد».

كان دقيقًا للغاية في مواعيده، وقد توقَّعت ذلك. في تمام الثامنة رنَّ هاتف منزلي الداخلي، فأخذت ليلي نفَسًا عميقًا، قمتُ بالشد على يدها قبل أن تجيب عليه أجل، أجل لقد ذهبت، يمكنك الصعود. وقد بدا أنه لم يتوقَّع أن ليلي تضمر له أي شيء.

سمحت له ليلي بالدخول، كان يمكنني مشاهدة الموقف من خلال شق في باب غرفة نومي، ورأيت يدها وهي ترتعد بينما فتحتْ له باب الشقة.

حرَّك جارسايد يده بين خصلات شعره، وأدار نظره في الردهة. كان يرتدي بذلة أنيقة رمادية اللون، وقام بدس مفتاح سيارته في جيبها الداخلي. كنت أحدق فيه، في ملابسه باهظة الثمن، وعينه الخرزيتين المولعتين اللتين قامتا بمسح الشقة بمجرد دخوله. شعرت بتوتر في فكّي، أي نوع من الرجال الذي يفرض نفسه على فتاة تصغره بأربعين عامًا؟ أي نوع من الرجال الذي يبتز طفلة زميله في العمل؟

بدا عليه عدم الارتياح وهو يقول: «لقد أوقفت سيارتي خلف البناية، هل سيكون ذلك مكانًا آمنًا؟»

قالت ليلي مزدردة ريقها: «أعتقد ذلك».

«تعتقدين ذلك؟»، قالها متخذًا خطوة إلى الوراء باتجاه الباب، وقد بدا بوضوح أنه من نوع الرجال الذي يرى أن سيارته جزء مصغّر من نفسه، «وماذا عن صديقتك تلك؟ تلك التي تمتلك المكان، ألا يمكن أن تعود في أي لحظه؟».

حبست أنفاسي، وشعرت بيد سام ثابتة على ظهري.

ابتسمت ليلي في محاولة لطمأنته، «أوه... كلا، لا يزال أمامها وقت طويل للغاية كي تعود، تفضل بالدخول، هل ترغب في الحصول على مشروب ما، سيد جارسايد؟».

نظر إليها كما لو كان يراها للمرة الأولى، ثم قال: «تتحدثين بشكل رسمي للغاية» ثم دخل وأغلق الباب خلفه، «هل لديك سكوتش؟».

«سوف أتحقق من ذلك، تفضل هنا».

اتخذت طريقها نحو المطبخ، وتبعها خالعًا سترته الرمادية، وما إن دخلا غرفة المعيشة، مر سام من جواري تاركًا غرفة النوم إلى الردهة بحذائه الثقيل وأغلق باب الشقة من الداخل، ثم وضع المفاتيح في جيبه.

جفل جارسايد، واستدار ليجده واقفًا عند باب الشقة وقد انضمَّت إليه دونا. وقفا هناك خلف باب الشقة يرتديان زي عملهما. نظر لهما جارسايد، ثم عاد بنظره إلى ليلي بنظرة محاولًا فيها الاستفهام عما يحدث هنا.

وأنا في طريقي للخروج من باب غرفة النوم، قلت له: «مرحبًا سيد جارسايد، أعتقد أن هناك شيئًا لديك يجب أن تعيده إلى صديقتي هنا».

وجدته قد تصبَّب عرقًا في لحظة، ولم أكن أدري أن ذلك يمكن أن يحدث بتلك السرعة. اتجه بنظره إلى ليلي التي كانت قد وقفت خلفي بمجرد خروجي من الغرفة فلم يظهر سوى نصفها.

تقدم سام إلى الأمام، ولم تستطع رأس السيد جارسايد الوصول لمستوى أعلى من كتف سام بقليل، وقال له: «الهاتف من فضلك».

«لا يمكنك تهديدي».

قلت له وقلبي يكاد أن يقفز من صدري: «إننا لا نهددك، إننا نريد الهاتف وحسب».

«أنتم تهددوني بإغلاقكم باب الخروج».

قال سام: «أوه كلا سيدي، إن التهديد الحقيقي سيكون في إخبارك أنك إذا لم تعطنا الهاتف، قد نختار أنا وزميلتي أن نقوم بتقييدك وحقنك بمادة الدايبرونال dihypranol التي ستبطئ من ضربات قلبك حتى يتوقّف في النهاية، فمادة الدايبرونال من المواد التي لا تترك أي أثر في الدم. إن ذلك هو التهديد الحقيقي، ولا أحد سيشك في طاقم المسعفين الذين تم الاتصال بهم وأتوا خصيصًا لإنقاذك».

عقدت دونا ذراعيها فوق صدرها وهزت رأسها بأسى: «كم هو مؤسف الأسلوب الذي يتساقط به رجال الأعمال الذين لا يزالون في منتصف أعمارهم موتى مثل الذباب».

قل سام: «إنهم يعانون من كل أنواع المشاكل الصحية، يشربون الكثير من الخمور، ويأكلون كثيرًا، ولا يمارسون التمارين الرياضية».

ردّت دونا: «أنا واثقة من أن هذا الرجل النبيل ليس مثلهم».

«تأملين ذلك، ولكن من يعلم؟».

بدا أن السيد جارسايد قد تقلص حجمه لعدة بوصات.

«ولا تفكر حتى في تهديد ليلي، إننا نعرف أين تعيش يا سيد جارسايد. وكل المسعفين زملاؤنا لديهم نفس هذه المعلومة في حالة احتاجوا لها. وسوف تندهش مما يمكن أن يحدث إذا أغضبت أحد المسعفين».

«هذا شنيع». وكان وجهه خاليًا من أي لون.

«صحيح، هذا شنيع حقًا»، ثم مددت له يدي، «الهاتف من فضلك».

نظر جارسايد حوله مرة أخرى، ثم دس يده أخيرًا في جيبه وأخرج الهاتف.

ناولته لليلي: «افحصيه يا ليلي».

أشحت بنظري بعيدًا عن الهاتف، حتى لا أجرح مشاعرها بينما تفحّصه، وقلت: «قومي بمسح الصورة، فقط امسحيها». وحين أعدت النظر إلى الهاتف كانت الشاشة فارغة بالفعل في يدها. وقد أومأت في إشارة إلى أنها قد مسحتها بالفعل. أشار لها سام أن تلقي له بالهاتف. فرماه على الأرض ودهسه حتى تهشم إطاره البلاستيكي تمامًا. دهسه بعنف بالغ لدرجة أن الأرض كانت تهتز، ووجدت نفسي أجفل، أنا والسيد جارسايد، في كل مرة يهبط فيها سام بحذائه الثقيل على الهاتف فوق الأرض.

توقف سام أخيرًا وقام بحذر بالتقاط الشريحة التي انزلقت بعيدًا. تفحَّصها، ثم حملها في وجه الرجل العجوز سائلًا: «هل تلك هي النسخة الوحيدة؟».

أومأ السيد جارسايد، وكان العرق المتصبّب قد بدأ في تغيير لون ياقة قميصه إلى اللون الغامق.

قالت دونا: «قطعًا، إنها النسخة الوحيدة، فرجال الأعمال الناجحون والمسؤولون في مجتمعنا مثله لن يغامروا بأن تكون هناك نسخة أخرى قد تظهر في أي وقت وتتسبب لهم في مشاكل، أليس كذلك؟ تخيلوا ماذا يمكن أن تقول عائلة السيد جارسايد إذا ما انكشف سره الصغير القذر؟».

تحول فم السيد جارسايد إلى خط رفيع مستقيم وهو يقول: «لقد أخذتم الآن ما تريدون، دعوني أرحل الآن».

«كلا أريد أن أوضح أمرًا قبل ذلك»، ارتجف صوتي بينما كنت أحاول كظم شعوري بالغضب، «أنت أيها الرجل الضئيل المثير للشفقة إذا...».

تحول فم السيد جارسايد إلى ابتسامة ساخرة، ابتسامة من النوع الذي يرتسم على وجه رجل لم يتعرَّض للتهديد من قِبَل امرأة وقال: «أوه، اصمتي أنت أيتها الحقيرة التافهة...».

غضب عارم لمع كالشرر في عيني سام قبل أن يندفع نحوه، فردتُ ذراعي محاولة منعه من التقدم والوصول إليه، وقبضتي الأخرى تراجعت استعدادًا للكمة بوجّهتها إلى وجه السيد جارسايد. ترنح إلى الخلف من أثر الضربة، وارتطم الجزء العلوي من جسده بالباب، وتعثرتُ أنا غير متوقعة قوة الضربة وأثرها. وحين عدل من نفسه، أصابتني صدمة حين رأيت الدماء تتدفق من أنفه.

قال مستهجنًا مشيرًا بأصابعه: «أخرجوني من هنا، الآن».

غمز لي سام، ثم فتح الباب، وابتعدت دونا عن الطريق سامحة له بالمرور، ثم مالت نحوه قائلة: «هل أنت واثق أنك لست في حاجة إلى ضمادة قبل أن تذهب؟».

حافظ جارسايد على إيقاع خطوته وهو يغادر، ولكن بمجرد أن أغلقنا الباب خلفه، كان في مقدورنا سماع صوت حذائه الثمين يهرول راكضًا عبر الممر. وقفنا في صمت حتى اختفت أصوات خطواته تمامًا. ثم أطلق كل منا زفيرًا في آن واحد.

قال سام بعد دقيقة: «الكمة لطيفة يا محمد علي، هل ترغبين في إلقاء نظرة على هذه اليد التي لكمته؟».

لم يكن في مقدوري الكلام، كنت منحنية لأسفل من فرط الألم الذي أصاب أصابعي حتى ظننت أنها تهشّمت.

قالت دونا وهي تربِّت على ظهري: «إن الأمر مؤلم أكثر مما يتخيله المرء، أليس كذلك؟»، ثم توجَّهت بحديثها إلى ليلي، «لا تقلقي حبيبتي،

أيًا كان ما قاله لك ذلك الرجل العجوز، فهو لا يساوي شيئًا الآن. لقد ذهب بلا رجعة».

قال سام: «أجل ذهب بلا رجعة».

قالت دونا ضاحكة: «أعتقد أنه قد تبوَّل على نفسه، وأنه سوف يبتعد عن المكان الذي توجدين فيه بأميال. انسِ الأمر، حبيبتي». واحتضنتْ ليلي بخفة، ثم ناولتني أجزاء الهاتف المهشم حتى أتخلص منها ثم قالت: «لقد وعدت أبي بالمرور عليه قبل انتهاء نوبتي، أراكم لاحقًا»، ثم لوَّحت لنا وهي تغادر بخطوات سعيدة ومبتهجة عبر الممر.

بدأ سام في البحث في حقيبته عن ضمادة ليدي، توجَّهت أنا وليلي إلى غرفة المعيشة، حيث ألقتْ بنفسها على الأريكة، وقلت لها: «كم كنتِ بارعة».

«وأنتِ كذلك كنتِ بلطجية!».

أخذت أتفحَّص مفاصل يدي، وحين نظرت إليها رأيت ابتسامة صغيرة ارتسمت أخيرًا على فمها: «لم يكن يتوقع ما حدث».

«ولا أنا أيضًا، إذ لم أضرب أي شخص من قبل. بالطبع، ليس عليكِ أن تعتبريني مثالًا للأخلاق الحميدة».

ابتسمتُ، ابتسامة مترددة، حين دخل سام حاملًا بعض الضمادات في يده، وقالت: «لم أعتبرك مثالًا لأي شيء من قبل».

قال رافعًا حاجبيه: «هل أنتِ بخير يا ليلي؟».

أومأت بالإيجاب.

«رائع، هيا لننتقل إلى القيام بشيء أكثر إثارة، من يرغب في تناول معكرونة كاربونارا؟».

حين تركت ليلي الغرفة، أطلق سام نفسًا طويلًا ونظر إلى السقف كما لو كان يراجع نفسه.

سألته: «ماذا هناك؟».

«أشكر الله أنكِ مَن لكمه أولًا، وإلا كنت قتلته».

بعد مرور بعض الوقت، وحين أوت ليلي إلى الفراش، انضممت إلى سام في المطبخ للمرة الأولى منذ أسابيع طويلة مضت مستشعرة بذلك السلام الذي حلّ على منزلي. «إنها أكثر سعادة الآن بالفعل، فقد علّقت معترضة على نوع معجون الأسنان الجديد، وتركت منشفتها على الأرض كعادتها، وهذا يعني بلغة ليلي أنها قطعًا أفضل حالًا الآن.

كم كان وجوده في مطبخي يشعرني بالسعادة والارتياح. راقبته لدقيقة، مفكرة كيف سيكون شعوري حين أستيقظ من نومي لأجده إلى جواري وألفّ يدي حول خصره: «شكرا لك، شكرًا لك على كل شيء».

استدار ماسحًا يده في فوطة المطبخ، وقال: «لقد كنتِ بارعة أنت أيضًا أيتها الملاكِمة»، ثم مد يده حول خصري وجذبني إليه وتبادلنا القبلات. كان هناك شيء لذيذ وشهي للغاية في قبلاته، إنها نعومة قبلاته في مقابل قوّته وخشونته. سلمت نفسي له لدقيقة، ولكن...

قال مبعدًا نفسه: «ماذا؟ ما الخطب؟».

«أفكر في أنه أمر غريب».

«أكثر غرابة من هذه الليلة؟».

«لست قادرة على التوقف عن التفكير في عقار الدايبرونال. ما المقدار الذي تحتاجه بالفعل لقتل شخص به؟ إنه يبدو...أمرًا مخادعًا حقًا».

رد قائلًا: «ليس عليك أن تشعري بالقلق».

«أجل أتفهم ذلك منك، ولكن ماذا لو كرهك أحدهم حقًا؟ هل يمكنه أن يدس لك ذلك العقار في طعامك؟ هل يمكن لمجموعة من الإرهابيين الحصول على تلك المادة؟ أعني ما الكمية التي سيحتاجونها لذلك حقًا؟».

«لو، لا يوجد عقار بهذا الاسم».

«ماذا؟».

قال مبتسمًا بفعل الصدمة التي ارتسمت على ملامحي: «لقد اخترعت الأمر كله، ليس هناك ما يسمى الدايبرونال، إنه من اختراعي. ولكن المثير للسخرية حقًا، أنني لا أظن أنني امتلكت عقارًا كانت له فاعليته من قبل».

الفصل الثاني والعشرون

كنت آخر من وصل إلى مجموعة الدعم النفسي ذلك اليوم، فقد تعطَّلت سيارتي ثانية وكان عليَّ انتظار الحافلة. وحين وصلت إلى هناك كانت علبة البسكويت على وشك الانتهاء، وهو الأمر الذي يشير إلى أن موضوع النقاش الحقيقي في الجلسة على وشك البدء.

قال مارك، بينما كنت أتمتم باعتذاري عن التأخير: «سوف نتحدَّث اليوم عن الإيمان بالمستقبل. ولا بد أن أخبركم أنا أمامنا ساعة واحدة فقط للنقاش اليوم، نظرًا لاجتماع طارئ للكشافة، تقبلوا اعتذاري يا رفاق».

حدَّق مارك في كل واحد فينا «بنظرته المتعاطفة الخاصة» التي كان يحرص أيَّما حرص عليها في كل جلسة من جلساتنا. وفي بعض الأحيان كان يحدِّق بي لفترة طويلة لدرجة تجعلني أشك في أن هناك شيئًا ما يتدلَّى من فتحة أنفي. وبعدها نظر إلى أسفل كما لو كان يستجمع أفكاره، أو ربما كان يحب قراءة عباراته الافتتاحية من سيناريو معدّ مسبقًا.

«حين يختطف منا الموت أحباءنا، فإننا قد نجد صعوبة في وضع خطط لحياتنا. وينتاب البعض شعور في بعض الأحيان أنهم قد فقدوا الثقة والإيمان بالمستقبل، ويبدأون في الإيمان بالخرافات».

قالت ناتاشا: «أجل، فقد ظننت حينها أنني سأموت».

وعلّق ويليام: «ولكنك ستموتين بالفعل».

وقال مارك: «إن ذلك لا يساعد في شيء يا ويليام».

«كلا، لقد سيطرت عليَّ فكرة أنني مصابة بالسرطان لثمانية عشر شهرًا عقب وفاة أولاف. لقد ذهبت لزيارة الطبيب عشرات المرات مقتنعة أنني مصابة بالسرطان، سرطان المخ، سرطان البنكرياس، سرطان الرحم، بل حتى سرطان الإصبع الصغيرة».

قال ويليام: «ليس هناك ما يُسمى سرطان الإصبع الصغيرة».

قالت ناتاشا بعصبية: «وكيف لك أن تعرف؟ ويليام أنت العلّامة هنا الذي لديه إجابة عن كل سؤال، ولكن عليك في بعض الأحيان أن تبقي فمك مغلقًا، اتفقنا؟ كم هو ممل أن يكون لديك تعليق سخيف على كل شيء يقوله أفراد المجموعة. لقد ظننت أنني أعاني من سرطان في إصبعي الصغيرة، وأرسلني طبيبي لإجراء فحوصات واكتشفت أنني سليمة. أجل، ربما يكون خوفًا مبالغًا فيه، ولكن ليس عليك أن تقلل من شأن أي شيء أقوله لأنك تفكر بشكل مختلف. لأنك أيًا كان تفكيرك، فلست على دراية بكل شيء، اتفقنا؟».

قال ويليام بعد فترة صمت قصيرة: «أنا أعمل في قسم الأورام».

ردت ناتاشا بعد جزء من الثانية: «لا يزال ذلك لا يغيِّر شيئًا، أنت في قسم للمعاناة والاستفزاز المتعمدين. وألم في المؤخرة».

قال ويليام: «هذا صحيح».

حدقت ناتاشا في الأرض صامتة، وربما فعلنا كلنا الشيء نفسه. للحظات وضعت ناتاشا وجهها بين كفيها لدقيقة، ثم رفعت رأسها ناظرة إليه: «لست كذلك حقًا يا ويليام، أنا آسفة. أعتقد أنني أمر بيوم عصيب، لم أتعمَّد أن أنفجر فيك على هذا النحو».

«ولكن ليس هناك ما يسمى بسرطان الإصبع الصغيرة رغم ذلك».

قال مارك، بينما كنا نحاول تجاهل سباب ولعنات ناتاشا له سرًا، «حسنًا إذن... أتساءل إذا كان هناك بينكم من وصل إلى مرحلة التفكير في مستقبله

في غضون خمس سنوات. أين ترى نفسك خلال خمس سنوات؟ ماذا ستفعل حينها؟ هل تواجهك مشكلة في تخيل المستقبل الآن؟».

قال فريد: «سأكون سعيدًا لو استطعت الحفاظ على قدرتي الجنسية».

سأل صانيل: «ألا تجعلك كل تلك العلاقات الجنسية عبر الإنترنت تحت ضغط؟».

صاح فريد: «تلك! إنها جميعًا مضيعة للأموال. لقد أمضيت أسبوعين في الموقع الأول في مراسلة تلك السيدة من لشبونة - الكاذبة حتى النخاع - وحين اقترحت عليها أخيرًا أن نلتقي لننتقل بعلاقتنا إلى الإطار التقليدي القديم، حاولت أن تبيع لي شقة في فلوريدا. وبعد ذلك بعث لي رجل يدعى بوفّد آدونيس Buffed Adonis برسالة خاصة ليحذرني منها، ويخبرني أنها في الواقع فتاة ذات ساق واحدة من بورتوريكو وتُدعى راميرز».

«وماذا عن المواقع الأخرى يا فريد؟».

«السيدة الوحيدة التي أعربت عن رغبتها في لقائي كانت تشبه جدتي الكبيرة إلسي، التي كانت تحتفظ بمفاتيحها في لباسها الداخلي. أعني أنها كانت لطيفة وطيبة وكل شيء، لكنها كانت قديمة للغاية، كانت أثرية بالفعل».

قال له مارك: « لا تيأس يا فريد، ربما أنك فقط تبحث في المكان الخاطئ».

«تعني أبحث عن مفاتيحي؟ أوه كلا أنا أعلقها إلى جوار الباب».

أعربت دونا عن رغبتها في التقاعد خارج البلاد في غضون الخمس سنوات المقبلة: «إن البرد قارس هنا، وبدأ في التسلل إلى مفاصلي».

أما ليان فقد أعربت عن رغبتها في الانتهاء من دراساتها العليا في الفلسفة. وحينها تبادلنا جميعًا النظر إلى بعضنا بعضًا، ذلك النوع من النظرات المتعمدة، التي تحدث حين لا يرغب أحدهم في الاعتراف بأننا ظنناها تعمل في سوبر ماركت، أو أحد محلات الجزارة.

فقال لها ويليام مازحًا: «انظروا مَن يحضر معنا الجلسات، إنه إيمانويل كانط».

وحين لم يضحك أحد على مزحته، وأدرك أنه ليس هناك من ينوي الضحك عليها، جلس مرة أخرى على مقعده، وربما لم يكن هناك غيري من سمع ناتاشا تتمتم: «ها ها ها»، مقلدة شخصية نيلسون في مسلسل عائلة سيمبسون.

لم يرغب صانيل في التحدث في بداية الأمر، ولكنه قال بعد ذلك، إنه عندما فكر مليًا وجد أنه يرغب في غضون الخمس سنوات المقبلة في أن يكون متزوجًا: «أشعر أنني قد أقصيت نفسي عن الحياة طيلة العامين الماضيين، وكنت لا أسمح لأي شخص بالاقتراب مني بسبب ما حدث. كنت أتساءل، ما الهدف من الاقتراب من أحدهم إذا كنت ستفقده في النهاية؟ ولكنني في اليوم التالي بدأت في التفكير في ما أريده حقًا من الحياة، وأدركت أنني أبحث عن الحب. لأننا ينبغي علينا المضي قدمًا، أليس كذلك؟ ينبغي أن نفكِّر في مستقبلنا بشكل ما».

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها صانيل يتحدَّث فيها بشكل مطوَّل منذ أن انضممت إلى المجموعة.

قال مارك: «إن ذلك إيجابي للغاية يا صانيل، شكرًا لمشاركتنا إياه».

استمعت إلى جاك وهو يتحدَّث عن حلمه في الالتحاق بالجامعة، وأن يتلقَّى تدريبًا كرسَّام للكارتون، وتساءلت ترى أين سيكون والده حينها، هل سيستمر بكاؤه على زوجته الراحلة؟ أم سيعيش في سعادة مع نسخة أحدث منها؟ أشك في الخيار الثاني. وفكَّرت في سام متسائلة ما إذا كان في امتناعي عن تسمية ما بيننا بالعلاقة الجادة شيء من الحكمة، ولكن لو لم يكن القائم بيننا علاقة حقيقية كاملة ماذا يمكن أن أسميه إذن؟ وكلما فكَّرت مليًا أدركت تلك الحقيقة، وإذا ما سألني سام، لن أمتلك إجابة تصف ما بيني وبينه. ولم أمنع نفسي عن التفكير في الأشياء المشتركة بيننا،

بخلاف السقوط عن سطح البناية؟ وكنت قبل ذلك بيومين قد ذهبت إلى محطة الإسعاف أنتظر سام، ووقفت دونا إلى جوار سيارتها تتحدَّث معي لدقيقة إلى أن ينتهي سام من جمْع أغراضه، قالت: «لا تتلاعبي به».

استدرتُ لأستبين ما إذا كنتُ قد سمعتها بشكل صحيح.

كانت تراقب إحدى سيارات الإسعاف وهي تفرغ حمولتها، ثم حكَّت أنفها قبل أن تقول: «إنه شخص جيد، جيد إلى حد كبير، كما أنه يحبك حقًّا».

لم أدرِ ماذا يمكن أن أقول لها.

«أجل، إنه يحبك، لقد تحدَّث عنكِ طويلًا، وليس من عادته أن يتحدَّث عن أي شخص. لا تخبريه أنني أخبرتك، إنني فقط... إنه شخص جيد، وأردتك أن تعرفي ذلك». ثم رفعت حاجبيها وأومأت، كما لو كانت تؤكِّد على شيء ما لنفسها.

قالت دافني: «لقد انتبهت لتوِّي أنكِ لا ترتدين زي الفتاة الراقصة».

سادت الهمسات المؤكدة.

«هل تمت ترقيتك؟».

انقطع حبل أفكاري وعدت من شرودي: «أوه... كلا... بل تم فصلي من العمل؟».

«وأين تعملين الآن؟».

«لم أجد عملًا بعدُ».

«ولكن ملابسك...».

كنت أرتدي فستاني الأسود ذا الياقة البيضاء حينها، «أوه هذا مجرد فستان».

«لقد ظننتك تعملين في واحدة من الحانات حيث الزي الرسمي يشبه ما ترتديه السكرتيرات. أو ربما الخادمات الفرنسيات المثيرات».

«ألا تتوقَّف عن ذلك التفكير مطلقًا يا فريد؟».

«أنتِ لا تفهمين الأمر، إن عبارة «استخدمه وإلا فقدته» تعني الكثير لشخص في مثل عمري، فربما لم يتبقَ لقضيبي سوى عشرين انتصابًا».

«بعضنا لم يتمتع بعشرين انتصابًا من الأصل».

توقَّفنا حتى نمنح فريد ودافني بعض الوقت حتى يفرغا من القهقهة.

قال مارك: «وماذا عن مستقبلك؟ يبدو أن ذلك سيغير الكثير من أمور حياتك».

«حسنا لقد تلقيت عرضًا آخر للعمل».

«أحقًا ذلك؟»، وبدا أن هناك حالة من الاحتفاء، فتورَّدت وجنتاي.

«أوه، إنني لن أقبل ذلك العرض، ولكن لا بأس. أشعر كأنني أتقدَّم بحياتي على نحو ما، لمجرد حصولي على عرض وظيفي».

سأل ويليام: «وماذا كانت تلك الوظيفة؟».

«عملٌ ما في نيويورك».

حدَّقوا بي جميعًا.

«هل حصلت على عرض عمل في نيويورك؟».

«أجل».

«عمل مدفوع الأجر؟».

قلت بهدوء: «نعم،كما وفَّروا لي إقامة».

«ولن يكون عليكِ ارتداء ذلك الزي الأخضر الغبي اللامع؟».

ضحكت قائلة: «لا أرى أن ملابسي كانت سببًا كافيًا يدفعني للهجرة».

ولكن لم يضحك أحد سواي، بقوا جميعًا محدقين بي ومشدوهين، وكان فم ليان مفتوحًا قليلًا بالفعل، وسأل مشدوهًا:

«نيويورك؟نيويورك؟».

«أنتم لا تعرفون القصة كاملة، لا يمكنني الذهاب الآن، إن ليلي تعتمد عليَّ».

قال جاك متجهِّمًا: «ابنة رئيسك السابق في العمل».

«حسنًا لقد كان أكثر من مجرد رئيس في العمل، ولكن أجل هي ابنته».

مالت دافني إلى الأمام وهي تسألني: «ولكن أليست لها عائلة يا لويزا؟».

«إن الأمر معقَّد».

تبادلوا النظرات فيما بينهم.

وضع مارك جهاز الآي باد على حجره قائلًا: «إلى أي مدى تشعرين أنكِ قد استفدت حقًا من هذه الجلسات يا لويزا؟».

استلمت العرض من نيويورك، وكان عبارة عن حزمة من الوثائق والأوراق التي تضم أوراق الهجرة ونماذج التأمين الصحي مشبوكة معًا بأوراق سميكة كريمية اللون تحمل عرضًا رسميًا من السيد ليونارد إم جوبنك للعمل لدى أسرته. كنت قد أغلقت على نفسي الحمام لأتمكن من قراءته، ثم قرأته للمرة الثانية، وقمت بتحويل قيمة الراتب المحدَّد في العقد إلى جنيهات، وتنهدت قليلًا واعدة نفسي أن أقوم بالبحث عن العنوان على جوجل.

وبعد أن قمت بالبحث عن العنوان على جوجل، تمالكت نفسي، ونهضت، وسحبت «السيفون» حتى تسمع ليلي صوته (في حالة إذا ما تساءلت عمّا كنت أفعله هناك)، وغسلت يدي (بدافع العادة)، وأخذت كل الأوراق إلى غرفة نومي وقمت بدسها جميعًا في درج أسفل فراشي واعدة نفسي ألا أنظر لها ثانية.

في تلك الليلة قامت ليلي بالدق على باب غرفتي بعد منتصف الليل بقليل.

هل يمكنني البقاء هنا؟ لا أرغب حقًا في الذهاب إلى منزل ماما.

يمكنك البقاء هنا بقدر ما تشائين.

تمدَّدت على الجهة الأخرى من فراشي وكوَّرت نفسها. راقبتها وهي تذهب في النوم، وقمت بتغطيتها.

إن ابنة ويل في حاجة إليَّ. الأمر بتلك البساطة. إنها في حاجة إليَّ ولا أستطيع التخلي عنها، أيًا كان ما قالته لي أختي، فأنا مدينة لويل. وها هي الطريقة التي ستشعرني أنني لم أكن بلا فائدة تمامًا. لا يزال بإمكاني القيام بشيء من أجله.

كما أن ذلك الظرف يثبت أنه في مقدوري الحصول على فرصة عمل مناسبة. وهذا في حد ذاته تقدم. كما أن لديَّ أصدقاء هنا، ولديَّ هنا من يمكن أن أسميه حبيبي، وهذا يُعد تقدمًا أيضًا.

تجاهلت اتصال ناثان، وقمت بمسح رسالته الصوتية التي تركها لي. سوف أشرح له الأمر بعد يوم أو اثنين.

كان سام في عمله حين عدت إلى المنزل يوم الثلاثاء، بعث لي برسالة نصية يقول فيها إنه سيتأخر في العمل. ثم بعث لي برسالة أخرى في الثامنة والربع يخبرني أنه ليس واثقًا من الموعد الذي سينتهي فيه من عمله، ويتمكن من الحضور. شعرت بخواء طيلة اليوم، وأنا أقاوم شعوري بالجمود لعدم وجود عمل أذهب إليه، والقلق الذي يعتريني حيال الفواتير التي تنتظر سدادها، ولكوني عالقة في النهاية داخل هذه الشقة بصحبة فتاة مثلي ليس لديها مكان تذهب إليه، ولا أرغب في التخلي عنها.

في التاسعة والنصف انطلق صوت جرس الباب الخارجي، كان سام واقفًا عند الباب الأمامي للمنزل ولا يزال يرتدي زي العمل. ظهر سام وقد بدا عليه الإرهاق والتعب الشديدان، كما بدا أن هناك ما يسوء، فقد كانت الطاقة المنبعثة منه غريبة عنه كلية.

«ظننتك لن تأتي، ما الخطب؟ هل أنت بخير؟».

«لقد تم عرضي على مجلس التأديب في العمل».

«ماذا؟!».

«زملاء لي رأوا سيارتي في الخارج في تلك الليلة التي قابلنا فيها جارسايد، وأخبروا مركز القيادة. ولم أتمكن من منحهم جوابًا مقنعًا في ما يخص سبب وجودي في مكان غير مسجَّل على النظام».

«وماذا حدث إذن؟».

«اختلقت قصة، وقلت لهم إن أحدهم خرج راكضًا يطلب المساعدة، واكتشفت بعد ذلك أن الأمر كان مجرد مزحة. والحمد لله، غطَّتني دونا في تلك الكذبة. ولكنهم غير راضين عني».

«إن الأمر ليس بهذا القدر من السوء بالتأكيد، أليس كذلك؟».

«واحدة من فريق تمريض الطوارئ قد سألت ليلي كيف تعرفني، فأجابتها بأنه قام بتوصيلنا مساءً إلى المنزل بعد سهرة في ملهى ليلي».

لطمتُ بيدي على فمي: «وما الذي يعنيه ذلك؟».

«إنهم يحقِّقون، ولكنهم إذا ما وجدوا شيئًا ضدي قد يتم إيقافي عن العمل، أو ما هو أسوأ من ذلك». وعقد حاجبيه على نحو لم أره من قبل.

«كل ذلك بسببنا يا سام، يا إلهي».

هز رأسه نافيًا: «لم تكن تعرف».

كنت على وشك أن أتقدم لأحتضنه، أردت أن ألفّ ذراعي حول خصره واضعة وجهي على وجهه. ولكن هناك شيئًا منعني: خيال مفاجئ لويل وهو يدير وجهه بعيدًا وقد ارتسمت عليه علامات حزن كبير. تردَّدت، وبعد ثوانٍ بدت طويلة حقًا اكتفيت بمد يدي وملامسة ذراعه. نظر نحو يدي، متجهمًا قليلًا، وانتابني ذلك الشعور غير المريح بأنه قد قرأ شيئًا مما دار بذهني.

وجدتني أحاول جاهدة التخفيف عنه، وقلت: «يمكنك التخلِّي عن هذا العمل وتربية الدجاج، وبناء منزلك، لديك خيارات أخرى! رجل مثلك، يمكنه القيام بأي شيء».

ابتسم نصف ابتسامة لم تنعكس في عينيه، واستمر في التحديق إلى يدي.

وقفنا هناك لدقيقة بلا كلام قبل أن يقول: «من الأفضل أن أرحل». قالها وكان يحمل في يده طردًا قائلًا: «لقد ترك أحدهم هذا إلى جوار الباب الأمامي».

أخذت منه الطرد، ينتابني شعور بأنني قد خذلته، فقلت: «ابقَ قليلًا من فضلك، دعني أطهو لك إحدى وجباتي السيئة. هيا ادخل».

«من الأفضل أن أعود إلى منزلي».

وانقلب إلى الخارج قبل أن أتمكن من قوْل أي شيء آخر.

راقبته من النافذة وهو يمشي متيبِّسًا صوب دراجته النارية، وشعرت بسحابة من الذكريات تظلِّل رأسي ثانية. لا تقتربي كثيرًا. ثم تذكَّرت نصيحة مارك في نهاية جلستنا الأخيرة وهو يقول: لتفهمي أن عقلك الحزين القلق والمتوتر يتسبب ببساطة في زيادة معدل هرمون الكورتيزول لديك. ومن الطبيعي تمامًا أن تشعري بالخوف من التقرّب إلى أحدهم. كنت أشعر في بعض الأحيان أن لديَّ شخصيتين كرتونيتين في عقلي تتشاجران طيلة الوقت.

وفي غرفة المعيشة توقفت ليلي عن مشاهدة التليفزيون وسألت: «هل كان ذلك المسعف سام؟» ثم عادت إلى التليفزيون ثانية، ولكن لفت الطرد انتباهها فقالت: «ما هذا؟».

« لقد كان في الخارج، إنه موجَّه لكِ».

حدَّقت في الطرد بتشكك، كما لو كانت تخاف من احتمال احتوائه على مفاجأة غير سارة. ثم قامت بإزاحة الورق الذي يغلف الطرد لينكشف عنها ألبوم صور مصنوع من الجلد، وكُتب على غلافه: «إلى ليلي ترينر».

فتحت ليلي الألبوم ببطء، وهناك في صفحته الأولى، المغطاة بمنديل رقيق، كانت صورة بالأبيض والأسود لطفل صغير، وقد كُتب تحتها.

كان والدك يزن حينها 9 أرطال، وقد كنت غاضبة جدًا لكونه ضخمًا هكذا، حيث إن طبيبي قد أخبرني أنني سألد طفلًا صغيرًا لطيفًا! كان طفلًا شقيًا للغاية، وظللت أركض خلفه في كل مكان لشهور. ولكنه حين كان يبتسم... أوه كانت النساء العجوزات يعبرن الطريق ليداعبن وجنتيه (وكان يكره ذلك بالطبع).

جلست إلى جوارها، قلبت ليلي صفحتين وكان هناك ويل في إحدى الصور مرتديًا زي مدرسته الأزرق الملكي وقبعة، وينظر متجهمًا نحو الكاميرا. وكُتب أسفل الصورة:

كان ويل يكره قبعة المدرسة تلك كثيرًا، إلى درجة أنه قام بإخفائها في السلة الخاصة بالكلب، أما القبعة الثانية فقد قال إنه «فقدها» في بحيرة، وفي المرة الثالثة هدَّده والده أن يحرمه من المصروف، ولكنه ببساطة راح يتاجر في بطاقات كرة القدم حتى استعاد مصروفه ثانية. حتى المدرسة نفسها لم تكن قادرة على إرغامه على ارتدائها، أعتقد أنه كان يتلقَّى عقابًا بالاحتجاز أسبوعيًا في المدرسة حتى بلغ الثالثة عشر.

لمست ليلي وجهه وتمتمت:

«لقد كنتُ أشبهه حين كنت صغيرة».

فأجبتها: «أجل، فهو والدك».

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم قلبت الصفحة التالية:

«انظري، انظري إلى هذه الصورة».

وفي الصورة التالية كان ويل يبتسم مباشرة إلى الكاميرا، كانت نفس صورة التزلج التي رأيتها معلَّقة في غرفته في أول يوم التقيته. حدَّقت في وجهه الجميل وظلَّلت عليَّ سحابة الحزن المعتادة. «انظري، انظري إلى تلك الصورة»، كان وجه ويل فيها مغطًّى بالوحل عقب مباراة للركبي، وصورة أخرى يرتدي فيها زيًا تنكريًا لشيطان، قافزًا من فوق كومة قش. وصفحة أخرى فيها مجموعة من الصور المضحكة له، كانت صورًا لويل مازحًا... ضاحكًا... إنسانًا. وتذكَّرت الورقة المطبوعة التي منحني إياها مارك حين تخلَّفت عن حضور جلسة المثالية، التي كتب فيها: من المهم ألّا تجعل من الأموات قديسين، ليس هناك من يستطيع السير في ظل القديس.

كم أردت أن تلتقي بوالدك قبل الحادث الذي تعرَّض له. صحيح أنه

كان شديد النشاط والطموح، والمهنية لكنني ما زلت أذكر تلك الأوقات التي كان يقع فيها من كثرة الضحك، والأوقات التي كان يرقص فيها مع كلبه، أو يعود إلى المنزل تغطّيه الكدمات بسبب طيش ما. ذات مرة لطّخ وجه شقيقته بطبق من كعك ترافيل الكرز (الصورة على اليمين) نظرًا لأنها تحدَّته وقالت إنه لن يستطيع الإقدام على ذلك، أردت أن أغضب منه لأن صنع تلك الكعكة استغرق مني وقتًا طويلًا، ولكنك لا تستطيعين حقًا الغضب من ويل لمدة طويلة.

كلا لا يمكنك ذلك حقًا. أخذت ليلي تقلب بين الصور، وكانت جميعًا مقرونة بملحوظات تحكي ذكرى كل صورة. ويل الذي أراه الآن، ليس ويل الذي تناولت الصحف خبر وفاته في عنوانَين، وتم ذكر اسمه بحرص في نعي للوفيات، ونشرت صورة نمطية له مع الخبر الذي يسرد قصته الحزينة مع جدال طويل، إن ويل الذي في هذه الصور شخص حي، ثلاثي الأبعاد. حدَّقت في كل صورة، مستشعرة كل غصة في حلقي.

وقعت بطاقة على الأرض، وحين التقطتها قرأت ما كُتب عليها رسالة من سطرين. فقلت لليلي: «إنها ترغب في القدوم لزيارتك».

لم تكن ليلي قادرة على رفع عينيها عن ألبوم الصور.

«ما رأيك يا ليلي؟ هل أنت مستعدة لذلك؟».

استغرقت دقيقة حتى تجيبني: «لا أعتقد ذلك. أعني أن ذلك سيكون لطيفًا، ولكن...».

تغيّر مزاجها. أغلقت الغطاء الجلدي للألبوم ووضعته جانبًا إلى جوار الأريكة واستدارت إلى التليفزيون ثانية. وبعد دقائق قليلة، ومن دون أن تنطق كلمة واحدة، انتقلت إلى جواري على الأريكة وأراحت رأسها على كتفي.

في تلك الليلة، بعد أن ذهبت ليلي إلى الفراش، بعثتُ برسالة إلكترونية إلى ناثان.

«آسفة يا ناثان، لا يمكنني قبول تلك الوظيفة. إنها قصة طويلة، ولكن ابنة ويل تعيش معي الآن، وقد حدث الكثير من التطورات في الفترة الأخيرة، ولا أستطيع السفر والتخلي عنها. عليَّ أن أقوم بما أراه صوابًا. سأحاول أن أشرح لك الأمر باختصار...

ثم أنهيت رسالتي بعبارة

شكرًا جزيلًا لأنك فكرت بي.

ثم بعثت برسالة إلى السيد جوبنك أشكره فيها على عرضه، وأعرب عن بالغ أسفي لعدم قدرتي على قبوله، نظرًا لتغير في الظروف. أردت أن أكتب له الكثير في رسالتي ولكن ذلك الألم الرهيب الذي كان في معدتي ربما سحب كل طاقتي المتبقية من أصابعي.

انتظرت لمدة ساعة ولم يردّ أحد منهما على رسالتي، وحيدة عدت إلى غرفة المعيشة الخاوية لأطفئ الأنوار. كان ألبوم الصور قد اختفى.

الفصل الثالث والعشرون

«حسنًا، حسنًا... ها هي موظَّفة العام قد شرَّفت».

وضعت الحقيبة التي تحتوي زي العمل والباروكة على المنضدة. وكانت جميع طاولات شامروك آند كلوفر مشغولة بالزبائن بالفعل في وقت الإفطار. حدَّق بي بعين نصف مغمضة رجلٌ أربعيني بينما يعدل من وضع نظارته بيده المكتنزة، وقد أشار رأسه الثقيل إلى بداية مبكِّرة ليوم عصيب. ووقفت فيرا في الجانب الآخر من الحانة تحرِّك الطاولات وأرجل الزبائن بعصبية كي تنظف تحتها، كما لو كانت تطارد فئرانًا.

كنت أرتدي قميصًا رجاليّ الطراز أزرق اللون، كان من السهل الشعور بالثقة عند ارتداء ملابس رجالية. وحين تحقَّقت وجدت أن الذي يحدثني من بعيد كان ريتشارد، «ريتشارد... أود التحدث معك بشأن ما حدث الأسبوع الماضي».

ازدحم المطار حولنا بالمسافرين غير الرسميين، فقد كان عدد البذلات هناك أقل من المعتاد، كما عجّ المكان بعدد لا حصر له من الأطفال الصغار الذين لا يتوقّفون عن البكاء. وخلف الصندوق لاحت لافتة إعلانية جديدة تقدم العرض التالي: «ابدأ رحلتك من نقطة انطلاقة جيدة! احصل على قهوة، وكرواسون، ومشروب إضافي!»، تحرك ريتشارد بخفة حول البار، واضعًا أكوابًا من القهوة وقوالب من الحبوب المغلَّفة بغطاء بلاستيكي فوق صينية، وقد انعقد حاجباه من فرط التركيز.

«لا يهم، هل الزي نظيف؟».

ثم توجه نحو الحقيبة البلاستيكية وأخرج زي العمل، وأخذ يقلّبه ويتفحصه بعناية تحت أضواء الحانة، وقد حمل وجهه نصف تكشيرة، كمن لمح بعض العلامات المزعجة في الثوب أو ما شابه. توقّعت أن يقوم بشمِّه.

«بالطبع نظيف».

«لا بد أن يكون في وضع مناسب للموظفة الجديدة التي سترتديه».

«لقد قمت بغسله أمس».

وقد لاحظت أنهم يلعبون موسيقى بلحن مختلف لمقطوعة مزامير بان الكلتية، حيث قل استخدام آلة الهارب فيها، واستُخدم الفلوت بكثافة.

«صحيح، هناك بعض الأوراق التي في حاجة إلى توقيعك، سوف أحضرها لكِ لتوقّعيها هنا، وهذا كل ما في الأمر».

«ألا يمكننا القيام بذلك في مكان أكثر خصوصية؟».

لم ينظر ريتشارد بيرسيفال تجاهي وهو يقول: «أنا مشغول للغاية، آسف، لديَّ مئات الأمور اليوم وليس معي إلا موظَّف واحد». عبر من جانبي بتحفز وعصبية، وقام بعد صناديق بطاطس سكامبي فرايز المتبقية، «ستة... سبعة... فيرا هل يمكنك خدمة العميل الجالس هناك من فضلك؟».

«أجل، حسنًا، هذا ما أود التحدث معك بشأنه. كنت أتساءل ما إذا كانت هناك أي وسيلة...».

«ثمانية... تسعة... الباروكة».

«ماذا؟».

«أين الباروكة؟».

«أوه، ها هي». وضعت يدي داخل حقيبتي وأخرجتها. كنت قد صففتها قبل أن أضعها في الكيس. استقرَّت وكأنها حيوان دهسته سيارة على الطريق، منتظرة لتصيب رأس شخص آخر بالحكة.

«هل قمت بغسلها؟».
«غسل الباروكة؟».
«أجل، فليس صحيًا أن يستخدمها شخص آخر من دون غسلها أولًا».
«إنها مصنوعة من أكثر أنواع الألياف الصناعية رداءة، أكثر رداءة حتى من الألياف التي يصنع بها شعر الدمية باربي. لقد وجدت أنها سوف تتلف من دون شك إذا ما وضعتها في أي غسالة».
«إذا لم تكن الباروكة في حالة مناسبة للاستخدام من قبل الموظف الذي سيحل محلك، سوف أقاضيك لتدفعي ثمن باروكة بديلة».
حدَّقت فيه قائلة: «سوف تقاضيني من أجل باروكة؟».
رفع الباروكة، ثم وضعها ثانية في الحقيبة: «إن ثمنها ثمانية وعشرون جنيهًا وأربعون قرشًا، أجل سوف أحصل على ثمنها بالطبع وأعطيك إيصالًا».
«أوه يا إلهي، أنت حقًا ترغب في الحصول على ثمن الباروكة».
ضحكتُ ثم وقفت في منتصف المطار المزدحم، بينما أقلعت طائرة، وفكرت في ما أصبحت عليه حياتي منذ بدأت العمل مع ذلك الرجل. أخرجت محفظة نقودي من حقيبتي وقلت له «حسنًا، هل قلت ثمانية وعشرين جنيهًا وأربعين قرشٍ؟ أتدري سوف أجعلها ثلاثين جنيهًا، لتتضمن المصروفات الإدارية».
«لست في حاجة إلى...».
قمت بعدّ المبلغ، ووضعتُ النقود بحدّة على الطاولة أمامه، «أتدري يا ريتشارد، أنا شخص محبٌ للعمل. إنك لو نظرت لمرة واحدة بعيدًا عن أهدافك اللعينة لأدركت أنني شخص أراد حقًا أن يبلي بلاءً حسنًا. لقد عملت بكد، وارتديت زيك المرعب، على الرغم من أنه تسببت في جعل شعري مكهرَبًا، ودفع الأطفال ليسخروا مني في الشارع. نفَّذت كل ما كنت تطلبه مني، بما في ذلك تنظيف مراحيض الرجال، وهو الأمر الذي أثق تمام

الثقة أنه غير مشمول في بنود عقدي، الذي كان يمكنني الاعتراض عليه وبشدة بموجب قانون العمل هنا. عملت لنوبات إضافية، بينما كنت تبحث عن من يعمل على البار في الحانة بسبب تعاملك الذي جعل كل من يدخل عبر هذا الباب يشعر بالغربة في المكان، كما أنني تمكنت من رفع مبيعات الفول السوداني المحمَّص البشع، الذي كانت رائحته كرائحة الفساء».

«ولكنني لست إنسانًا آليًا، أنا بشر ولديَّ حياتي وقد طرأت عليها تغيرات جعلتني لفترة أبتعد عن صورة الموظف الذي تتمناه، وأتمناه أنا أيضًا. وقد أتيت إلى هنا اليوم حتى أطلب منك استعادة وظيفتي، بل ربما أرجوك لاستعادتها، إن لديَّ التزامات وأرغب في العودة للعمل. إنني في حاجة إلى العمل. ولكنني أدركت أنني لا أرغب في هذا العمل تحديدًا، إنني أفضِّل العمل بالمجان على أن أمضي يومًا آخر واحدًا في تلك الحانة البائسة المزرية المدمرة للروح. أفضِّل تنظيف المراحيض بالمجان على العمل معك ثانية».

«لذا، شكرًا لك يا ريتشارد لأنك ساعدتني على اتخاذ أول قرار إيجابي أتخذه في حياتي منذ وقت طويل». ألقيت بمحفظة نقودي داخل الحقيبة، ودفعت بالباروكة تجاهه، وتحرَّكتُ لأنصرف وأنا أقول: «يمكنك أن تضع وظيفتك في نفس المكان الذي يمكنك أن تضع فيه هذا الفول السوداني».

ثم استدرت نحوه ثانية: «أوه، وبالنسبة لكل الأشياء التي تضعها على شعرك، تلك المثبتات وكريمات الشعر تجعلك بشعًا، تجعلك أشبه بشخصية Action Man الكرتونية».

اعتدل رجل الأعمال على مقعده أمام البار مصفِّقًا لي. وذهبت يد ريتشارد لا إراديًا إلى شعره.

حدَّقت إلى رجل الأعمال، ثم إلى ريتشارد: «انس أمر الملحوظة الأخيرة، فهي وضيعة».

ثم غادرت.

وما لبثت أن اتجهت نحو الحشود، وقلبي لا يزال يدق بقوة من فرط الانفعال، حتى سمعت صوته ينادي: «لويزا، لويزا!».

كان ريتشارد آتيًا بين المشي والهرولة. فكرت في تجاهله، ولكنني توقفت في النهاية مع إصراره.

«ماذا؟ هل نسيت قطعة من شرائح الفول السوداني؟».

توقَّف لاهثًا قليلًا ثم تفحص نافذة المتجر لثوانٍ قليلة كما لو كان يفكر ثم واجهني قائلًا: «أنتِ محقة، اتفقنا؟ أنتِ محقة».

حدَّقت فيه.

«شامروك آند كلوفر، مكان مريع، وأعلم أنني لست أعظم من عمل فيه. ولكن كل ما يمكنني قوله لك إنني مع كل أمر بائس كنت أعطيه لك، كان المكتب الرئيسي للشركة يعتصرني في المقابل مائة مرة. علاوة على أن زوجتي تكرهني لتغيبي الدائم عن المنزل، والموردين يكرهونني لأنني اقتطعت من هامش ربحهم في كل أسبوع بسبب ضغوط حاملي الأسهم. ويتهمني مديري الإقليمي بأنني ضعيف الأداء، ويتوعَّدني إذا لم أرفع من مستوى مبيعات المكان سوف يقوم بنقلي إلى فرع العبّارة النهرية بشمال ويلز. وهو الأمر الذي لو حدث فلسوف تهجرني زوجتي بسببه. ولن أستطيع لومها على ذلك».

«كم أكره إدارة الآخرين، ومهاراتي الاجتماعية لا تتعدَّى مهارة عمود إنارة يقف وحيدًا في الشارع، وهذا هو سبب عدم قدرتي على تكوين صداقات مع أي شخص. إن فيرا باقية هنا لأن لديها قدرة كبيرة على التحمُّل، وأشك في أنها تسعى خلف منصبي. لذا، فأنا آسف حقًا. وأود أن أعيدك إلى عملك، لأنك، بصرف النظر عن أي شيء قلته لك سابقًا، ماهرة للغاية. كما أن العملاء يحبونك».

تنهَّد متأملًا الحشود الصاخبة حولنا. «لكن، أتعلمين شيئًا يا لويزا؟ يجب عليك الابتعاد مادام بوسعك ذلك. فأنت جميلة وذكية وتعملين

بكد، ويمكنك الحصول على فرصة أفضل من هذه بكثير. فلولا أن لديّ رهنًا عقاريًا أقوى بالكاد على تسديده، وأنتظر مولودًا، وأسدد دفعات سيارة الهوندا سيفيك اللعينة التي تجعلني أشعر أنني أبلغ من العمر 120 عامًا، لكنت غادرت هذا المكان أسرع من هذه الطائرات المحلقة». مد يده نحوي ممسكًا بشيك أجر العمل. «إليك أجر إجازتك. الآن اذهبي. أنا جاد يا لويزا، ارحلي من هنا». نظرت إلى الظرف البنّي في يدي. كان المسافرون يزحفون ببطء حولنا، متوقفين لدى نوافذ الخدمة، ومستفسرين عن جوازات سفرهم الغائبة عن أنظارهم، غير مدركين لما يحدث بينهم. لكنني كنت أعرف، بشكل حتمي لدرجة الضجر، ما كان سيحدث.

«ريتشارد؟ شكرًا جزيلًا لك، ولكن... هل لا يزال بإمكاني الحصول على العمل؟ حتى لو كان لفترة قصيرة؟ إني في حاجة ماسة له».

نظر إليَّ ريتشارد كما لو كان غير مصدق لما سمع، ثم تنهَّد: «سوف تساعدينني كثيرًا إذا ما عدتِ للعمل ولو لمدة شهرين. أنا في مأزق هنا، في الواقع، يمكنك البدء في العمل من الآن، ويمكنني أن أولي تجار الجملة أمر اختيار أنواع البيرة الجديدة».

بدَّلنا أماكننا كما لو كنا نرقص رقصة فالس بائسة.

قلت له: «سوف أتصل بمنزلي لأخبرهم».

فقال: «هيا افعلي»، حدَّقنا لبعضنا بعضًا لدقيقة طويلة، ثم ناولني الحقيبة البلاستيكية التي كانت تحتوي الزي، «أعتقد أنك ستحتاجين لهذا».

أصبح بيني وبين ريتشارد شكل من أشكال التعامل الروتيني، فأصبح يعاملني بقدر أكبر من الاحترام، ولم يعد يطلب تنظيف مراحيض الرجال، سوى في الأيام التي يتغيَّب فيها نوح، عامل النظافة الجديد، ولم يعد يعلِّق إذا ما وجد أنني أمضيت وقتًا أطول من اللازم في التحدث مع العملاء (على الرغم من ارتسام علامات الألم والغيظ على وجهه). وفي المقابل أصبحت أكثر ابتهاجًا ودقة في العمل وأكثر حرصًا على رفع معدلات البيع

قدر المستطاع. كما أنني شعرت بمسؤولية غريبة تجاه الفول السوداني خاصته.

وفي أحد الأيام أخذني ريتشارد جانبًا، وعلى الرغم من أن ذلك الحديث كان سابقًا لأوانه قليلًا، ليخبرني أن المكتب الرئيسي يسعى إلى ترقية أحد الموظفين الدائمين إلى منصب مساعد إداري وإذا ما استمرت الأمور على النحو الذي تسير عليه فإنه يميل إلى ترشيح اسمي (لا يمكنني المخاطرة بترشيح فيرا فقد تضع منظفات الأرضية في كوب الشاي الخاص بي للحصول على مكاني) شكرته على ذلك، وحاولت أن أبدو أكثر ابتهاجًا مما أبدو عليه.

وفي الوقت ذاته، كانت ليلي قد طلبت من سمير الحصول على فرصة للعمل معه، وقال إنه يمكنه اختبارها لنصف يوم تعمل فيه مجانًا كنوع من الاختبار. صنعتُ لها قهوتها في السابعة والنصف، وتأكَّدتُ من ارتدائها لملابسها ومغادرتها الشقة استعدادًا لبدايتها الجديدة في تمام الثامنة. وحين عدتُ إلى المنزل مساءً، كان من الواضح أنها قد حصلت على الوظيفة مقابل 2.73 جنيه في الساعة، وهو أقل أجر قانوني يمكنه أن يدفعه لها. أمضت معظم يومها في تحريك الصناديق في المخزن الخلفي، ووضع الأسعار على العلب، بينما كان سمير وابن عمه يشاهدان مباراة لكرة القدم على الآي باد. كانت متسخة وبدا عليها الإرهاق، ولكنها للغرابة سعيدة: «إذا ما استمريت معه لمدة شهر قال إنه سوف يفكر في أن يجعلني أعمل على الصندوق».

كان لديَّ تغيير في نوبة العمل، لذا في مساء يوم الخميس اصطحبت ليلي إلى منزل والديها في سانت جون وود، وانتظرتها في السيارة بينما ذهبت هي لجلب بعض أغراضها وملابس إضافية ولوحة كاندينسكي التي وعدتني بها وقالت إنها ستبدو جيدة في شقتي. ظهرت ليلي عقب مرور عشرين دقيقة، مستشيطة غضبًا، ومن خلفها خرجت تانيا عند الباب

الأمامي عاقدة ذراعيها فوق صدرها، تراقب ليلي في صمت، بينما فتحت حقيبة السيارة وألقت بداخلها حقيبة سفر مكتظة، وبحرص أكبر وضعت اللوحة. ثم جلست إلى جواري في المقعد الأمامي محدِّقة أمامها في الطريق. وبمجرد أن أغلقت تانيا الباب خلفها، كان هنالك احتمال ضئيل في أنها قامت بمسح دموعها.

وضعت المفتاح في موضعه استعدادًا لإدارة محرِّك السيارة.

لاحظتُ الارتعاشة الخفيفة في صوتها حين قالت: «عندما أكبر، لن أشبه أمي في أي شيء».

انتظرت دقيقة، ثم أدرتُ السيارة وقدتها في صمت عائدة أدراجي إلى شقتي.

ألا يمكننا تخيل مكان الصور في منزلي الجديد معًا الليلة؟ يمكنني فعل ذلك مع قليل من الهروب من الواقع!

لا أعتقد أنه من المناسب ترك ليلي وحدها.

هل يمكنك إحضارها معك؟

كلا، من الأفضل ألا نفعل ذلك، آسفة يا سام X

وجدت ليلي في تلك الليلة جالسة على سلم الطوارئ، نظرت إلى الأعلى مع صوت فتح النافذة ولوَّحت لي بالسيجارة: «اعتقدت أنها سخافة مني أن أستمر في التدخين داخل شقتك في حين أنكِ لا تفعلين ذلك».

فتحت النافذة على مصراعيها، وصعدتُ بحرص، جلست على إحدى الدرجات المعدنية إلى جوارها. وغمرت حرارة شهر أغسطس مرآب السيارات أسفلنا، وتعالت رائحة الإسفلت الساخن في الهواء الثقيل. ودوَّى بوق مزعج لسيارة غطاء محركها مفتوح. اعتدلت في جلستي على الدرج الذي احتفظ معدنه بدفء شمس الظهيرة وأغمضت عينيّ.

قالت ليلي: «ظننتُ أن كل الأمور ستسير على نحو جيد».

فتحتُ عينيّ ونظرتُ إليها.

«ظننت إذا أبعدتُ بيتر عن طريقي سوف تحل مشاكلي. ظننت أنني إذا ما وجدت أبي سوف أجد ما أنتمي إليه، والآن وقد اختفى بيتر من حياتي ومعه جارسايد، وعرفت كل شيء عن والدي، وها أنت إلى جواري في حياتي. ولم تتغير الأمور كما توقعت».

كنت على وشك أن أقول لها ألّا تكن سخيفة، وأنها قطعت شوطًا طويلًا في وقت قصير، وأنها قد حصلت على وظيفتها الأولى، والعمر لا يزال أمامها، والمستقبل مشرق.. تلك الإجابات النموذجية للبالغين. ولكنني شعرت بأنها ستكون مملة ومصطنَعة.

في نهاية الطريق احتشد مجموعة من العاملين حول طاولة معدنية أمام باب الحانة. وفكرت في أن المكان في وقت لاحق ليلًا سيعج بمحبي موسيقى الجاز، والمشرَّدين من المدينة، والمترنحين من السكارى على الرصيف، ومكالماتهم الصاخبة التي تخترق نافذتي المفتوحة. قلت لها: «أعلم ما تعنين، لقد انتظرت طويلًا حتى أعود إلى طبيعتي بعد موت والدك. ولكنني أعرف أن كل شيء يسير ببطء، أو ربما لا يسير أصلًا. فما زلت أعمل في تلك الوظيفة المزرية، وما زلت أعيش في نفس الشقة التي لا أشعر أنني سأجد بين جدرانها منزلًا دافئًا لي يومًا ما. تعرَّضت لحادث كاد أن يودي بحياتي، ولكنني -رغم نجاتي منه- لم تتغير نظرتي للحياة، ولم أشعر بمزيد من الامتنان لها أو لأي شيء. أتردَّد على مجموعة علاج نفسي تضم مجموعة من البائسين مثلي. ولم أحقِّق أي شيء على الإطلاق».

فكرت ليلي قائلة: «ولكنكِ ساعدتني».

«هذا هو الأمر الوحيد الذي أتمسك به هذه الأيام».

«كما أن لديكِ حبيبًا الآن».

«إنه ليس حبيبي».

«طبعًا حبيبك يا لويزا».

راقبنا حركة سير مرور السيارات المتحركة صوب المدينة. سحبت ليلي نفسًا أخيرًا من سيجارتها، ثم أطفأتها على الدرج المعدني.

قلت لها: «وذلك هو هدفي الثاني».

نظرت بعينين تحمل قدرًا من الشعور بالذنب: «أعلم، سوف أتوقَّف عن التدخين أعدك بهذا».

بدأت الشمس في المغيب من فوق أسطح البنايات، ويندمج وهجها البرتقالي مع هواء بعد الظهيرة الرمادي اللون.

«أتعلمين يا ليلي، أعتقد أن بعض الأمور تستغرق وقتًا أطول من غيرها. أعتقد أننا سنصل يومًا ما».

شبّكت ذراعها في ذراعي وأراحت رأسها فوق كتفي. راقبنا غروب الشمس الهادئ والظلال الممتدة تزحف تجاهنا، وفكّرت في خط أفق مدينة نيويورك، وأنه ليس هناك من هو حر حقًا. فربما كل أشكال الحرية سواء كانت شخصية أم مادية تأتي على حساب شيء آخر أو شخص آخر.

اختفت الشمس، وتحوَّل لون السماء البرتقالي إلى الأزرق الداكن. حين وقفنا، مشت ليلي بيدها معدِّلة تنورتها، ثم نظرت إلى العلبة التي في يدها. أخرجت السجائر المتبقية منها بحزم وقامت بقطعها إلى نصفين، ثم ألقت بها في الهواء لتتحوَّل إلى رقائق متناثرة من التبغ والورق الأبيض. نظرت إليَّ ورفعت يدها قائلة بانتصار: «لقد أقلعت الآن رسميًا عن التدخين».

«بهذه البساطة».

«ولمَ لا؟ لقد قلت إن بعض الأمور قد تستغرق وقت أطول من غيرها، وكانت تلك خطوتي الأولى في الطريق الطويل، وماذا عنكِ؟».

«يا إلهي، ربما سوف أقنع ريتشارد أن يسمح لي بالتوقف عن ارتداء تلك الباروكة النايلون البشعة».

«ستكون تلك بمثابة خطوة جديدة ممتازة. على الأقل من اللطيف ألّا تتعرَّضي لصدمة كهربية كلما أمسكت بمقبض من مقابض شقتك».

كانت ابتسامتها معدية، أخذت من يدها علبة السجائر قبل أن تلقي بها في مرآب السيارة هي الأخرى، وتراجعت حتى تتمكن من العبور من النافذة. توقَّفت واستدارت نحوي، كما لو كانت تذكرت شيئًا لتوِّها: «أتدرين، ليس عليك الشعور بالحزن لأنك ما زلت مرتبطة به».

حدَّقتُ بها.

«إن أبي أصبح الآن مجرد فكرة». ثم هزت كتفها ودلفت إلى الشقة عبر النافذة.

استيقظت في صباح اليوم التالي لأجد أن ليلي قد ذهبت إلى عملها بالفعل. وقد تركت لي ملحوظة بأنها سوف تحضر معها خبزًا في موعد الغداء، فليس عندنا ما يكفي منه. شربت قهوتي، وتناولت فطوري ثم ارتديت ملابسي الرياضية لأمشي قليلًا (ملحوظة: إن ممارسة الرياضة أمر جيد لروحك وجسدك على حد سواء!) وحين رن هاتفي، وجدته رقمًا لا أعرفه.

«مرحبا!».

استغرقت دقيقة: «ماما؟».

«انظري من نافذتك!».

ذهبت عبر غرفة المعيشة ونظرت إلى الخارج عبر النافذة لأجد ماما تلوِّح لي بحماسة.

«ماذا؟ ما الذي تفعلينه هنا؟ وأين أبي؟».

«إنه في المنزل».

«هل جدي بخير؟».

«جدك بخير».

«ولكنك لم تأتِ إلى لندن بمفردك من قبل، إنك حتى لم تتجاوزي حدود محطة البنزين من دون أبي».

«حسنًا، كان ذلك قبل أن أتغير، أليس كذلك؟ هل يمكنني الصعود؟ لا أود استهلاك كل رصيد هاتفي الجديد».

فتحت لها الباب الخارجي، وهرعت إلى غرفة المعيشة أنظِّف مخلَّفات وأطباق ليلة أمس، وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى باب شقتي كنت واقفة هناك، فاتحة ذراعي مستعدة لتحيتها واستقبالها.

كانت ماما ترتدي معطفها المشمع الجميل ذا القبعة وتتدلى حقيبة يدها من كتفها إلى خصرها (يصعب على السارقين هكذا خطفها) وانسدل شعرها على هيئة موجات ناعمة على رقبتها. كانت مشرقة، وتحددت شفتاها بعناية بلون شفاه وردي، كانت كما دائمًا تمثل العمود الصلب الذي تقوم عليه عائلتنا - التي تعود جذورها إلى عام ١٩٨٣- من الألف إلى الياء.

«لا أصدق أنك أتيت إلى هنا بمفردك».

«أليس هذا رائعًا؟ في الواقع أشعر أنني طائشة. لقد أخبرت شابًا صغيرًا في المترو أن تلك المرة الأولى منذ ثلاثين عامًا التي أركب فيها مترو الأنفاق من دون أن يكون بصحبتي من يمسك بيدي، فقام من جانبي وجلس على بعد أربعة مقاعد، وانتابتني نوبة ضحك هستيري. هلا شغَّلتِ الغلاية لنصنع بعض الشاي؟»، قامت بخلع معطفها وهي تنظر إلى الجدران من حولها، «لقد طليتها باللون الرمادي... حسنًا هذا لطيف».

«إنه اختيار ليلي». وأخذت أفكر ما إذا كان قدومها إلى هنا بمفردها مجرد مزحة، وأنني سأجد أبي بعد قليل عند الباب الأمامي ساخرًا لأني مغفَّلة صدقت أن جوسي يمكنها أن تأتي إلى هنا، أو تذهب إلى أي مكان بمفردها. وضعت الكوب أمامها قائلة: «لا أفهم. لمَ أتيتِ إلى هنا من دون أبي؟».

أخذت رشفة من الشاي ثم قالت: «أوه، إن هذا جميل. أنت دائمًا صاحبة أفضل فنجان شاي». ثم وضعت فنجانها على الطاولة وتحته وضعت غلافًا ورقيًا، «حسنًا، لقد استيقظت هذا الصباح وأنا أفكِّر في

كل الأشياء التي عليّ القيام بها - غسيل الملابس، تنظيف النوافذ الخلفية للمنزل، تغيير ملاءة السرير لجدك، وشراء معجون أسنان- وفجأة وجدتني أشعر أنني لا أرغب في القيام بأي من ذلك. كلا، لا أستطيع القيام بها. لن أهدر يوم السبت الرائع في القيام بنفس الأمور التي كنت أفعلها منذ ثلاثين عامًا، سوف أخوض مغامرة اليوم».

«مغامرة».

«وهكذا فكرت أن نذهب إلى عرض ما».

«عرض».

«أجل، عرض يا لويزا، هل تحوَّلتِ إلى ببغاء؟ لقد قالت لي السيدة كوزنز، وهي من وسطاء التأمين، إن هناك منفذًا في ميدان ليستر سكوير يبيع تذاكر رخيصة للعروض في الأيام غير مكتملة العدد. وفكرت في أنكِ ربما ترغبين في القدوم معي».

«وماذا عن ترينا؟».

لوَّحت ماما بيدها قائلة: «أوه، إنها مشغولة للغاية. فما رأيكِ؟ هل سنذهب لنرى إذا باستطاعتنا الحصول على بعض التذاكر؟».

«سيكون عليَّ إخبار ليلي».

«اذهبي وأخبريها إذن، سأنتهي من فنجان الشاي، وعليكِ أن تفعلي شيئًا بخصوص شعرك هذا، ثم ننطلق. فلديَّ تذكرة سفر ليوم واحد! يمكنني أن أقضي اليوم كله بين محطات المترو وعرباته».

حصلنا على تذاكر لعرض بيلي إليوت[1] بنصف الثمن. وكان أمامنا هذا العرض أو عرض تراجيديا روسية، قالت ماما إنها ترى أن الروس غريبون، بعدما قدَّم لها أحدهم حساء الشمندر باردًا، وحاول أن يقنعها بأن تلك هي الطريقة الروسية لتقديمه.

جلست ماما إلى جواري مستغرقة في عالم آخر طيلة العرض، وكانت

(1) Billy Elliot فيلم بريطاني من إنتاج سنة 2000.

تلكزني بين الحين والآخر متمتمة بتعليقات: «ما زلت أتذكر إضراب عمال المناجم الحقيقي يا لويزا. كانت أيامًا عصيبة على الأسر الفقيرة. مارجريت تاتشر! هل تتذكرينها؟ أوه، لقد كانت امرأة مريعة. إلا أنها كانت دائمًا تحمل حقيبة لطيفة». وحين طار بيلي الصغير في الهواء، مدفوعًا بطموحه على ما يبدو، أخذت ماما في البكاء بلا صوت، وقامت بمسح أنفها بمنديل أبيض نظيف.

شاهدت معلمة الرقص في العرض، السيدة ويلكينسون، معلمة الصبي، التي فاق طموحها حدود القيود التي تفرضها عليها المدينة. وحاولت ألا أرى أي شيء من حياتي بين أحداث العرض. لقد كنتُ امرأة لديها وظيفة وما يمكن أن نطلق عليه حبيبًا، تجلس لتشاهد عرضًا سينمائيًا في دار ويست إند السينمائية ظهيرة يوم السبت. جمعت هذه الحقائق باعتبارها انتصارات صغيرة أمام عدو لا أعرفه.

خرجنا من العرض إلى ضوء الظهيرة مبهورتين ومستنزفتين عاطفيًا. قالت ماما وهي تدس حقيبتها بحزم أسفل ذراعها (بعض العادات بحاجة إلى نضال طويل لكي نتخلص منها) «حسنًا، لنحتسي الشاي في أحد الفنادق، هيا، لنجعل يومنا مميزًا».

لم نستطِع الدخول إلى أي من الفنادق الكبرى، ولكننا وجدنا فندقًا بالقرب من هايماركت يقدم اختيارات من الشاي لاقت إعجاب ماما، اختارت طاولة في المنتصف وأخذت تعلق على القاصي والداني في المكان، مبدية ملاحظاتها على ملابسهم، وما إذا كانوا وافدين من «الخارج»، وافتقارهم إلى الحكمة لاصطحابهم أطفالهم الصغار معهم، أو كلابهم الصغيرة التي تبدو أشبه بالفئران.

«حسنًا، انظري إلينا». كانت تقول هذا التعبير بين الحين والآخر، حين ينفد الكلام منا ونصمت، «أليس هذا لطيفًا؟».

طلبنا شاي الإفطار الإنجليزي (ماما: هذا مجرد شكل أنيق من الشاي

العادي، أليس كذلك؟ ليس فيه أي من النكهات الغريبة؟) ثم طلبنا «طبق شاي ما بعد الظهيرة الفاخر»، وتناولنا ساندويتشات صغيرة الحجم، التي لم تكن بنفس جودة الساندويتشات التي تصنعها ماما، وتناولنا بعض الكعكات المغلفة برقائق ذهبية. تحدَّثت ماما نصف الساعة عن بيلي إليوت، وأنه علينا أن نكرِّر الأمر مرة كل شهر على الأقل، وراهنت على أن بابا سوف يحب ذلك إذا استطاع أن يأتي معنا.

«كيف حال أبي؟».

«أوه إنه بخير. أنت تعرفين أباك».

أردت أن أسألها، ولكنني خشيتُ ذلك، فحين نظرت إليها كانت تنظر إليَّ نظرة ذات دلالة، ثم قالت: «كلا يا لويزا، أنا لم أحلق ساقيّ. وكلا هو ليس سعيدًا بذلك. ولكن هناك أمورًا في الحياة أكثر أهمية».

«وماذا قال عن قدومك إلى هنا اليوم؟».

ضحكت قائلة: «لم يصدق الأمر، لقد أخبرته بينما كنت أقدِّم له الشاي هذا الصباح، فنظر إليَّ ضاحكًا. وللحق ضايقتني كثيرًا ضحكته، لدرجة أنني ذهبت وارتديت ملابسي وغادرت».

اتسعت عيناي وأنا أقول: «لم تخبريه؟».

«لقد أخبرته بالفعل. وها هو يبعث لي برسائل على هاتفي طيلة اليوم، الأحمق!». وحدَّقت في شاشة الهاتف ثم دسته ثانية في جيبها ثانية.

جلستُ وراقبتها وهي تتناول بشوكتها قطعة أخرى من الكعك من طبقها، وأغلقت عينيها في استمتاع وهي تقضمها وتقول: «مذاقها رائع».

ابتلعت ريقي وأنا أسألها: «ماما إنك لا تخططين للانفصال عن أبي... أليس كذلك؟».

فتحت عينيها عن آخرهما وهي تقول: «أنا فتاة كاثوليكية صالحة يا لويزا، إننا لا ننفصل، بل نعذِّب رجالنا إلى الأبد!».

دفعت الفاتورة، وتوجه كلتانا إلى حمام السيدات، وكان عبارة عن

حجرة كالكهف من الرخام بلون خشب الجوز، فيها ورد باهظ الثمن تحرسه عاملة نظافة صامتة تقف إلى جوار الأحواض. غسلت ماما يديها مرتين بعناية، وقامت باستنشاق الروائح المختلفة لأنواع الصابون المصفوفة فوق الحوض، وتغيرت ملامح وجهها في المرآةِ وفقًا لما يروق لها: «لا ينبغي عليَّ قول ذلك، بوصفي معارضة للمجتمع الذكوري والسلطة الذكورية، ولكنني أتمنى أن ترتبط أيٌّ منكما برجل صالح».

ووجدتني أقول لها: «لقد قابلتُ واحدًا منهم».

استدارت نحوي وزجاجة الصابون في يدها: «أحقًا؟».

«إنه رجل إسعاف».

«حسنًا هذا رائع، رجل إسعاف! إنه مفيد كالسبَّاك تمامًا. متى سنقابله إذن؟».

تلعثمت قائلة: «تقابلينه؟ لست واثقة أنه..».

«أنه ماذا؟».

«حسنًا، أعني أن الوقت لا يزال مبكرًا على ذلك، لست واثقة من أن ما بيننا نوع...».

مسحت ماما أحمر الشفاه من فوق شفتيها ونظرت إلى المرآة ثم قالت: «هل ما بينكما من أجل المتعة الجنسية فقط؟ هل هذا ما تودِّين قوله؟».

«ماما!» وحدَّقتُ إلى عاملة النظافة.

«حسنًا، ما الذي تقولينه إذن؟».

«أنا فقط لستُ واثقة من كوني مستعدة للدخول في علاقة جادة بعد».

«لماذا؟ وماذا وراءك غير ذلك؟ هل ستجمِّدين تلك المبايض في الفريزر؟».

قلت في عجالة مغيِّرة الموضوع: «لماذا لم تأتِ ترينا إذن؟».

«لم تجد جليسة لتوم».

«ولكنكِ قلتِ إنها مشغولة».

ثبتت ماما عينيها في صورتي المنعكسة في المرآة، وضغطت على شفتيها لإصلاح أحمر الشفاه الجديد الذي وضعته، ثم ألقت به في حقيبتها وقالت: «يبدو أن ترينا غاضبة منك حاليًا يا لويزا». ثم رمقتني بنظرة متفحِّصة ذات مغزى وهي تقول: «هل تشاجرتما أو حدث بينكما شيء ما؟».

«لا أدري لم تصرّ دائمًا على أن يكون لها رأي في كل شيء أفعله في حياتي». وبدا صوتي عابسًا كصوت فتاة في الثانية عشرة من عمرها.

ثبَّتت ماما عينيها عليَّ.

فأخبرتها بكل شيء. جلست على أحد الأحواض، وجلست ماما على أحد الكراسي الخفيفة هناك، حكيت لها عن عرض العمل الذي تلقَّيته وسبب عدم قدرتي على قبوله، وكيف فقدت ليلي وعثرت عليها ثانية، وكيف أنها أخيرًا بدأت في التغير. «لقد رتَّبت لها لقاء مع السيدة ترينر، ومن ثم فإننا نخطو خطوات للأمام. ولكن ترينا لا تسمعني، على الرغم من أنه لو كان توم ابنها مَن يمر بنصف ما تمر به ليلي لطلبت مني عدم الذهاب والتخلي عنه».

شعرت بالارتياح للتحدث مع أمي، فهي من بين كل البشر ستكون قادرة على فهم الشعور بالمسؤولية: «ولهذا السبب تقاطعني ترينا».

وجدت ماما تحدِّق بي.

«أوه يا إلهي، يا إلهي، هل فقدت عقلك يا لويزا؟».

«ماذا؟».

«وظيفة في نيويورك بكل هذه المميزات وما زلت عالقة هنا تعملين في ذلك العمل الشنيع داخل المطار؟ هل سمعتِ ذلك؟»، قالتها محدِّثة عاملة النظافة عند المراحاض: «لا أصدق أن تلك ابنتي. يا إلهي، لا أدري ماذا حدث للعقل الذي ولدتِ به».

حركت عاملة النظافة رأسها يمينًا ويسارًا في أسى قائلة: «لا فائدة».

«ماما! أنا أفعل الصواب!».
«لمن؟».
«لليلي!».
«وهل تعتقدين أنك المخلوق الوحيد القادر على مساعدة تلك الفتاة للنهوض على قدميها ثانية؟ حسنًا، هل تحدثت مع صاحب العمل في نيويورك وسألته عما إذا كان باستطاعتك إرجاء قبول العرض لبضعة أسابيع؟».
«هذا غير متاح».
«وكيف لكِ أن تعرفي؟ لم تسألي، فلن تعرفي. أليس ما أقوله صحيحًا؟».
وأومأت عاملة النظافة ببطء.
«أوه يا إلهي. إنني حين أفكر في الأمر..».
ناولتْ عاملة النظافة ماما منشفة أخذت تحركها بقوة للتهوية على عنقها، «اسمعيني يا لويزا، إن لديَّ ابنة واحدة بارعة عالقة في المنزل تثقلها المسؤوليات التي أعيت كاهلها بسبب اختيار خاطئ اتخذته في صغرها، ليس لأنني لا أحب توم، أبدًا، ولكن قلبي ينفطر كلما فكرت في ما كان يمكن أن تصبح عليه ترينا لو كانت أجّلت قرار الحمل لوقت لاحق. وها أنا عالقة في رعاية والدك وجدك، ولا بأس في ذلك، فأنا أجد طريقي بنفسي. ولكن لا يجب أن يكون ذلك أقصى ما تفعلينه وتتطلّعين إليه في الحياة، هل تسمعينني؟ ليس حفنة من التذاكر بنصف الثمن وكوبًا من الشاي بين الحين والآخر. يجب أن تخرجي إلى العالم! أنت الوحيدة في أسرتنا التي تتمتع بفرصة حقيقية لذلك! وتقولين لي إنك قد أضعت فرصة العمر من أجل فتاة بالكاد تعرفينها!».
«ماما لقد فعلت الصواب».
«ربما كان ذلك الصواب، وربما لم يكن هذا الموقف يحتاج إلى التعامل معه بأسلوب إما/ أو».

قالت عاملة النظافة: «إذالم تسألي، فلن تعرفي».

«تلك السيدة أجابتك! عليكِ بالرجوع إلى الرجل النبيل الأمريكي الذي قدم لك العرض، وأن تسأليه عما إذا كان ممكنًا تأجيل حضورك لبعض الوقت... لا تنظري إليَّ هكذا يا لويزا. فأنا لطيفة معك للغاية، ولم أدفعك حين كان عليَّ القيام بذلك. عليك التخلص من وظيفتك المقيتة التي بلا مستقبل تلك، وأن تبدئي في العيش!».

«لقد ضاعت الوظيفة يا ماما».

«ضاعت؟ بهذه البساطة؟ هل قمت بسؤاله حقًا؟».

هززت رأسي نافية.

نفخت أمي في ضيق وعدَّلت من وضع الوشاح حول عنقها، وأخرجت جنيهين من محفظة نقودها ووضعتهما في يد عاملة النظافة، ثم قالت لها: «حسنًا، عليَّ القول بأنك قمت بعمل رائع! إن الأرضية برّاقة وشديدة النظافة، وتفوح منها رائحة مذهلة!».

فابتسمت العاملة لها بدفء، وفي لمح البصر، رفعت إصبعها في إشارة لأن تنتظر ثانية واحدة، وخرجت من الباب وذهبت صوب خزانتها وفتحتها بحزمة من المفاتيح. ثم عادت واضعة في يد أمي قطعة من الصابون المعطَّر.

شمت أمي رائحتها وتنهَّدت: «حسنًا، إنها برائحة الجنة. قطعة صغيرة من الجنة بين يديّ».

فقالت العاملة: «إنها لك».

«لي أنا؟».

أغلقت العاملة يد ماما على قطعة الصابون.

«حسنًا، أنت أطيب فتاة رأيتها هنا، ما اسمك؟».

«ماريا».

«وأنا جوسي يا ماريا، وسوف أحرص على القدوم إلى لندن ثانية،

واستخدام مرحاضك في المرة المقبلة. هل ترين ذلك يا لويزا؟ من يمكنه أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث حين تكسرين القواعد قليلًا؟ يا لها من مغامرة! كما أنني حصلت على أجمل قطعة صابون من صديقتي الجميلة الجديدة ماريا!»، ثم قامتا بضرب كفّيهما في الهواء كما لو كانتا صديقتين قديمتين تفترقان، وغادرنا الفندق.

لم أستطِع إخبارها، لم أستطِع إخبارها بأن موضوع تلك الوظيفة يطاردني منذ اللحظة التي أستيقظ فيها حتى أغمضُ عينيّ محاولة النوم. وأن أيًّا كان ما أقوله لهم مبررة رفضي لها، لن ينفي شعوري بالألم على إهداري لفرصة العيش في نيويورك. وأنني مهما قلت في نفسي إن الفرص لا تزال أمامي، في أماكن أخرى، ستظل هذه فرصة لا يمكن تعويضها أبدًا وسأحملها معي، كحقيبة رخيصة ندمتُ على شرائها، في كل مكان.

بعد أن قمت بتوديعها، وهي في عربة القطار متجهة إلى أبي الذي لا شك أنه يستشيط غضبًا، وبعد أن قمت بإعداد طعامًا لليلي من بقايا الطعام الذي تركه سام في الثلاجة، تفحّصت بريدي الإلكتروني ووجدت رسالة من ناثان.

لا يمكنني القول إنني أوافقك على ما تفعلين، ولكنني متفهم له. أعتقد أن ويل سيكون فخورًا بكِ، أنت شخص طيِّب يا كلارك X

الفصل الرابع والعشرون

تلك هي الأمور التي تعلمتها من الأمومة، على الرغم من كوني بلا أبناء. تعلمت أن أيًا كان ما تفعله معهم قد يحتمل الخطأ ولا يؤتي ثماره المرغوبة رغم حسن نيَّاتك. فإذا كنت قاسيًا ومهملًا وضيق الصدر سوف تترك ندوبًا لا تُمحى فيهم. وإذا كنت ودودًا مدللًا ومتعاونًا ومشجعًا وتمتدحهم على أقل إنجازاتهم الممكنة - كالنهوض من الفراش في الوقت المحدَّد، أو التمكن من عدم التدخين طيلة اليوم - فسوف تفسدهم بأشكال عدة. وإذا كنت مجرد والد بالممارسة، كما هو الحال معي، سينطبق عليك ما سبق، ولكن من دون أن تتمتع بالسلطة الطبيعية التي تؤول إليك حين تعتني بشخص آخر وتطعمه كوالد فعلي.

دارت كل هذه الأفكار في رأسي، وأنا أصطحب ليلي في يوم العطلة بالسيارة لتناول الغداء. وقلتُ محدِّثة نفسي، ربما يكون كل ما نقوم به خطأً فادحًا، ولكن على الأقل سوف نتحمَّل النتائج معًا.

ولأن ليلي كانت منشغلة في التحديق في هاتفها وتضع سماعات أذنها، فقد استغرق منها الأمر أربعين دقيقة كاملة حتى ترفع رأسها وتنظر من نافذة السيارة. وعقدت حاجبيها بينما اقتربنا من لافتة على جانب الطريق، «ليس ذلك هو الطريق لمنزل والديك».

«أعلم ذلك».

«إلى أين نحن ذاهبتان؟»

«لتناول الغداء كما أخبرتك».

نظرت إليَّ محدِّقة بما يكفي لتدرك أنني لن أوضح لها أكثر من ذلك، ثم حدَّقت من النافذة لفترة قبل أن تقول: «يا إلهي، إنك تضايقينني بعض الأحيان».

بعد مرور نصف الساعة توقفنا عند كراون آند كارتلار، وهو فندق من القرميد الأحمر يقع وسط فدان من الحدائق يبعد عن جنوب أكسفورد بنحو عشرين دقيقة. خرجت ليلي من السيارة وأغلقت الباب بانفعال يكفي لتوصيل رسالة أن ذلك لا يزال يثير ضيقها.

تجاهلتها، ووضعت أحمر شفاه ناعمًا، وتوجَّهت إلى المطعم سامحة لها أن تتبعني.

كانت السيدة ترينر جالسة هناك على الطاولة، وما إن رأتها ليلي حتى تذمَّرت قائلة:

«لماذا تفعلين ذلك ثانية؟».

أجبتها وأنا أحثها على التقدم: «لأن الأمور قد تغيَّرت يا ليلي».

نهضت السيدة ترينر ما إن رأتنا، وبدا واضحًا أنها ذهبت إلى صالون تجميل، حيث حصلت على قصة شعر جميلة. كما كانت تضع القليل من مساحيق التجميل أيضًا. وساعدها هذان الأمران على جعلها تبدو كالسيدة ترينر القديمة التي أعرفها: رابطة الجأش، شخص يفهم أن المظهر، ولو لم يكن كل شيء، فإنه على الأقل أساس لشيء ما.

«مرحبًا سيدة ترينر».

تمتمت ليلي من دون أن تمد يدها لمصافحتها: «مرحبًا». ولكنها تقدمت على الأقل إلى جواري.

لاحظت السيدة ترينر ذلك، ولكنها ابتسمت ابتسامة صغيرة، وجلست واستدعت النادل. وضعت منديلها على حجرها وقالت: «إن هذا المطعم كان واحدًا من المطاعم المفضلة لوالدك، في الأوقات النادرة التي كان

يوافق فيها على مغادرة لندن، كنا نلتقي هنا، فالطعام هنا جيد. بمستوى الخمس نجوم».

نظرت إلى قائمة الطعام- شرائح سمك الطربوت مع بلح البحر مع طعام البحر، صدور بط مدخن مع الملفوف الأسود والكسكس- وكان كلي أمل أنه مادام أن السيدة ترينر هي من رشّحت هذا المطعم فستقوم بدفع الحساب.

قالت ليلي من دون أن ترفع رأسها عن القائمة: «إن الأمر مربك قليلًا هنا».

نظرتُ إلى السيدة ترينر.

«هذا ما قاله ويل تمامًا. ولكن الطعام شهي هنا. أعتقد أنني سوف أختار السمان».

قالت ليلي وهي تغلق قائمة الطعام الأنيقة: «وأنا أفضل سمك القاروص».

حدَّقت في القائمة التي أمامي ولم أجد بينها طبقًا واحدًا يمكنني التعرف عليه. ما هو طبق «الروتاباغا»؟ وما هو «الرافيولي بنخاع العظم وعشبة السامفير»؟ وفكرت إذا كان باستطاعتي طلب ساندويتش.

ظهر النادل إلى جواري سائلًا: «هل أنتم مستعدون للطلب؟» وانتظرت حتى فرغتا هما من طلباتهما ثم لمحت كلمة كنت أعرفها من الوقت الذي أمضيته في فرنسا «هل يمكنني تناول طبق joues de boeuf confites[1]؟»

«مع بطاطس النوكي والهليون؟ بالطبع سيدتي».

فكرت في نفسي. اللحم، أجل يمكنني تناول اللحم.

تحدَّثنا عن أمور بسيطة بينما كنا ننتظر المقبِّلات. وأخبرت السيدة ترينر أنني ما زلت أعمل في المطار، ولكنهم يفكرون في ترقيتي، وحاولت أن

---

(1) طبق مكون من لحم وجنتي العجل، مطهوّة ببطء.

أجعل ذلك يبدو اختيارًا مهنيًا إيجابيًا بدلًا من طلب المساعدة. وأخبرتها أن ليلي حصلت على عمل، وحين سمعت عن طبيعة عمل ليلي لم تصبها القشعريرة، وهو الأمر الذي كنت أخشى أن يحدث في واقع الأمر، واكتفت بالإيماء. «هذا يبدو معقولًا تمامًا، ليس هناك عيب أن تعمل في أي شيء في بداية حياتك».

قالت ليلي بحزم: «ولكن ليس لهذا أي مستقبل، إلا إذا سمحوا لي بالانتقال إلى صندوق النقدية».

«وليس لتوزيع الجرائد مستقبل أيضًا، ولكنِ والدك عمل فيها لمدة عامين قبل إنهاء دراسته، إن مثل هذه الأعمال تعلِّم المرء الالتزام».

قلت: «ويحتاج الناس دائمًا إلى الفرانكفورتر[1] المعلَّب، صحيح؟».

«هل يحتاجونها حقًا؟»، سألت السيدة ترينر وقد بدت عليها الدهشة وعدم التصديق.

ثم نظرنا إلى طاولة مجاورة، حيث رأينا سيدة مسنة ويساعدها في الجلوس، بقدر كبير من الضجة، رجلان من عائلتها.

قلت لها: «لقد حصلنا على ألبوم الصور».

«أوه، بالفعل، لقد تساءلتُ... هل... هل أعجبك يا ترى؟».

رمشت عين ليلي وهي تقول لها: «لقد كان لطيفًا، شكرًا لك».

أخذت السيدة ترينر رشفة من الماء: «لقد أردت أن أريكِ جانبًا مختلفًا من حياة ويل. أشعر في بعض الأحيان، كأن حياته قد تلخَّصت في الفترة التي سبقت موته. لقد أردت فقط أن أظهر لكِ كيف كان أكثر من مجرد رجل قعيد على كرسي متحرك، وكيف كان أكبر وأغنى من طريقة موته».

سادت فترة صمت قصيرة.

ردَّدتْ ليلي: «لقد كان لطيفًا، شكرًا لكِ».

---

(1) نوع من النقانق المدخنة تؤكل باردة أو ساخنة.

وصل طعامنا، والتزمت ليلي الصمت ثانية. تحرك الندل حولنا بخفة وسرعة، مالئين أكواب المياه كلما نقص منها سنتيمتر واحد. وقدَّموا لنا سلة خبز، وتم رفعها وإعادة تقديمها ثانية بعد خمس دقائق. وقد عجَّ المطعم بأشخاص مثل السيدة ترينر: متأنِّقين ولبقين وحسَني المظهر والحديث ممن يجدون في هذا المكان وجبة غداء راقية، لا ساحة للصخب والضوضاء والمحادثات العالية. سألتْ السيدة ترينر عن عائلتي وتحدَّثت بلطف عن أبي، «لقد أدَّى عملًا رائعًا في القلعة».

قلت: «لا بد أن الأمر غريب، ألا يستطيع المرء العودة إلى هناك». لكنني جفلت مفكرة فيما إذا كنت قد تجاوزت حدودًا مجهولة بالنسبة لي.

ولكن السيدة ترينر اكتفت بالتحديق إلى مفرش السفرة أمامها قائلة: «بلى». ثم أومأت وابتسمت ابتسامة بسيطة، ثم شربت بعض المياه.

استمرت المحادثة بيننا على هذا النحو طيلة تناولنا للمقبِّلات (سلمون مدخن لليلي، وطبقي سلطة لي وللسيدة ترينر)، أخذنا نتبادل أطراف الحديث ونصمت، ونعاود ونصمت، كمن بدأ لتوِّه تعلُّم قيادة السيارة. وشعرت بقدر من الارتياح حين رأيتُ النادل يقترب بالأطباق الرئيسية. وتبدَّدت ابتسامتي، بمجرد أن وضع طبقي أمامي. لم يبدُ كلحم العجل. بل بدا أشبه بأقراص بنية لزجة داخل صلصة بنية ثقيلة.

قلت للنادل: «آسفة، لقد طلبت طبق لحم العجل».

استمر محدقًا لي لدقيقة قبل أن يقول: «هذا هو يا سيدتي».

حدَّق كلانا إلى الطبق.

ثم قال: «ألم تطلبي طبق لحم الوجنتين؟».

«وجنتين!».

ثم نظر كلانا إلى الطبق، وشعرت بقليل من غثيان في معدتي.

«آه بالطبع، طبق لحم الوجنتين، شكرًا لك».

طبق لحم الوجنتين، خفت أن أسأله أي وجنتين يقصد، فلم يكن

السؤال ليصنع فارقًا على أي حال. ابتسمتُ للسيدة ترينر وبدأتُ أتناول بطاطس النوكي.

تناولنا الطعام في صمت تقريبًا. فقد نفدت المواضيع التي يمكن مناقشتها مني والسيدة ترينر. لم تتحدَّث ليلي كثيرًا، وحين كانت تنطق بشيء كان مستفزًا وشائكًا، كما لو كانت تختبر جدتها. أخذت تلعب وتحرِّك قدميها لاهية، مجرد فتاة مراهقة تتناول العشاء مع اثنتين من البالغات. تناولت طبقي على مهل، محاولة تجاهل الصوت الذي يطن في رأسي قائلًا: إنك تأكلين لحم رأس ثور، لحم رأس حقيقية.

وبعد أن فرغنا من الطعام طلبنا القهوة. وبمجرد أن انصرف النادل وضعت السيدة ترينر منديل الطاولة أمامها قائلة: «لا أستطيع القيام بالمزيد من ذلك حقًا».

رفعت ليلي رأسها ناظرة إليَّ ثم اتجهت بنظرها إلى السيدة ترينر التي أردفت قائلة:

«إن الطعام رائع، وكم هو لطيف أن أسمع عن أخبار عملكما، لكن ذلك لن يساعدنا في شيء حقًا، أليس كذلك؟».

فكرت في ما إذا كانت ستتركنا وترحل، أو أن ليلي ضغطت عليها بشكل زائد. ورأيت الدهشة مرتسمة على وجه ليلي هي الأخرى، وأدركت أنها تفكر فيما أفكر فيه. ولكن بدلًا من ذلك أبعدت السيدة ترينر فنجانها، وانحنت للأمام على الطاولة قائلة: «ليلي، أنا لم آتِ إلى هنا لأبهرك بالطعام الفاخر، لقد أتيت إلى هنا لأعتذر لكِ، أنا آسفة عما حدث في المرة السابقة، كم هو صعب أن أوضح لكِ شعوري ذلك اليوم، ولكن هذا اللقاء غير الموفَّق لم يكن خطأك، وأود أن أعتذر على أن تعرفك على هذا الجانب من عائلتك لم يكن... كما ينبغي أن يكون».

اقترب النادل بالقهوة فرفعت يدها من دون أن تلتفت إليه قائلة: «هلَّا تركتنا لدقيقتين من فضلك؟».

عاد بالصينية، وبقيت أنا صامتة، وقد بدا التوتر على وجه السيدة ترينر، وبدا الانزعاج على صوتها: «ليلي، لقد فقدت ابني - والدك - وربما أكون قد فقدته حتى قبل أن يموت. وقد أخذ معه بموته كل شيء كانت تقوم عليه حياتي، أي دوري كأم، وفقدت عائلتي، وعملي، وفقدت ثقتي بكل شيء. شعرت كما لو كنت سقطت في حفرة مظلمة لا قاع لها. ولكنني حين اكتشفت أن ويل كانت له ابنة، وأنني لديَّ حفيدة، شعرتُ أنني ربما لم أخسر كل شيء».

ابتلعت ريقها.

«لن أقول لكِ إنكِ قد أعدتِ لي جزءًا منه، لأني بذلك سأظلمك. فأنت شخص كامل بذاتك لا تشبهين سوى نفسك. إن وجودك في الحياة يعني أن هنالك شخصًا يمكنني أن أعتني به. آمل أن تمنحيني فرصة ثانية يا ليلي، لأنني سأحب - آه - بل سأحب للغاية أن نمضي الوقت معًا. لقد أخبرتني لويزا أنك تتمتعين بشخصية قوية. لقد ورثت ذلك من عائلتك بالمناسبة، لذا فربما نتجادل ونختلف في بعض الأحيان، كما كنت أفعل مع والدك. ولكن عليك أن تعرفي، أن هذا ما أردت أن أخبرك به بمجيئنا هنا».

أمسكتْ يد ليلي بين كفيها وتابعت: «أنا سعيدة للغاية لأنني وجدتك. لقد غيّرتِ كل شيء في حياتي لمجرد أنكِ هنا. إن ابنتي، عمتك جورجينا، سوف تطير إلى هنا الشهر المقبل للقائك، وقد سألتني إذا كان من الممكن أن نسافر كلتانا إليها في سيدني لنمكث معها لبعض الوقت. وأنا أحمل لكِ خطابًا منها في حقيبتي».

انخفض صوتها وهي تقول: «أعلم أننا لن يمكننا مطلقًا أن نعوِّضك عن أبيك، وأعلم أنني لستُ، حسنًا، إنني ما زلت في طور تجاوز محنة فقدانه، ولكن... هل تعتقدين... ربما... يمكن أن تكون في حياتك مساحة لجدّة صعبة المراس مثلي؟».

حدَّقت ليلي بها.

«هل يمكنكِ على الأقل... منحنا فرصة؟».

تهدَّج صوت السيدة ترينر أثناء نطقها العبارة الأخيرة.

سادت فترة صمت طويلة، وكنت أسمع خفقات قلبي تدق في أذنيّ. نظرت ليلي إليَّ، وبعد ما بدا دهرًا، انتقلت بنظرها إلى السيدة ترينر: «هل ترغبين... هل ترغبين أن آتيَ وأبقى معكِ؟».

«إذا أردتِ ذلك، أجل، سوف أحب ذلك كثيرًا».

«متى؟».

«متى يمكنك القدوم؟».

لم تقع عيناي على السيدة ترينر إلّا ووجدتها رابطة الجأش هادئة الوجه، كانت تلك اللحظة الأولى التي أرى فيها وجهها متغضِّنًا متوسِّلًا كمن أوشكت على البكاء. تسللت يدها الأخرى عبر الطاولة في هدوء. وبعد لحظة من التردد، أمسكت ليلي يدها وتشابكت أصابعهما معًا كناجيتين من حطام سفينة، بينما وقف النادل حاملًا صينيته، غير واثق من الوقت المناسب للتحرك لتقديم ما عليها ثانية.

«سوف أعيدها لكِ في ظهيرة الغد».

وقفتُ في مرآب السيارات بينما جلست ليلي في سيارة السيدة ترينر لاهية. وكانت قد تناولت طبقين من البودنغ (ووعاء الشكولاتة الذائبة خاصتها وخاصتي، حيث كنت قد فقدت شهيتي حينها تمامًا) وكانت تتفحَّص خصر سروالها بلا مبالاة.

«هل أنتما واثقتان من ذلك؟» لم أكن واثقة إلى أيّ منهما كنت أوجِّه سؤالي. ولكنني كنت على يقين من مدى هشاشة ذلك الوفاق الودي الجديد بينهما، وكيف أنه من السهل أن يتأجَّج الأمر ويسير في الاتجاه غير المأمول له.

«سنكون بخير».

قالت ليلي صائحة: «ليس لديَّ عمل غدًا يا لويزا، فابن عم سمير يتولَّى العمل يوم الأحد».

انتابني شعور غريب لأني أتركهما معًا وأنصرف، حتى لو كانت ليلي سعيدة. كانت لديَّ رغبة في أن أقول لها: «لا تدخِّني»، «لا تستخدمي ألفاظًا نابية»، أو ربما أردت أن أقول لهما: «ما رأيكما في أن نفعل ذلك في وقت لاحق؟». ولكن ليلي كانت قد جلست على المقعد المجاور لمقعد السيدة ترينر في سيارتها الجولف ولوَّحت لي بيدها من دون أن تنظر خلفها.

لقد انتهى الأمر. وذهبت السيدة ترينر لتركب سيارتها.

«سيدة ترينر، هل يمكنني أن أسألك عن أمر ما؟».

توقفت: «ناديني كاميلا، أعتقد أن ما بيننا الآن قد تجاوز الرسميات».

«حسنًا كاميلا، هل سبق وتحدَّثت إلى والدة ليلي؟».

قالت: «آه، أجل، لقد أعربت لها عن رغبتي في تمضية الكثير من الوقت مع ليلي في المستقبل، وإنني مدركة إلى أنها لا تراني الأم التي تصلح كمربية، ولكنني أخبرتها صراحة أن كلتينا لم يبرع في ذلك الدور، وأن في مصلحتها أن تفكر بعناية وتأنٍّ، ولو لمرة، وأن تقدم سعادة ابنتها على سعادتها الشخصية».

فتحت فمي قليلًا في اندهاش، وقلت لها حين تمكَّنت من التحدث: «في مصلحتها، كلمة ممتازة في هذا الموقف».

انتصبت قامتها قبل أن تقول: «أليس كذلك؟»، ثم رأيتُ تلك اللمعة في عينيها وهي تقول: «لا أخشى من أي تانيا هوتون ميلر في هذا العالم، وأعتقد أنني وليلي سنبلي بلاءً حسنًا معًا».

هممت بالعودة إلى سيارتي ولكن السيدة ترينر هي من أوقفتني هذه المرة قائلة: «شكرًا لك يا لويزا».

أمسكتْ بذراعي بينما كنت أقول: «ولكنني لم أفعل...».

«بلى فعلتِ الكثير وأنا أعلم أن ما قدمته كثير لدرجة أن اللسان يعجز عن شكرك، وأتمنى لو أتمكن من فعل شيء من أجلكِ يوم ما».

«لست في حاجة إلى ذلك، أنا بخير».

نظرت إلى عينيَّ مباشرة، وابتسمت ابتسامة صغيرة، لاحظت فيها أن أحمر شفاهها رائع، «حسنًا، سوف أتصل بكِ غدًا قبل إعادة ليلي إلى المنزل».

وضعت السيدة ترينر حقيبتها تحت ذراعها وتوجَّهت إلى حيث تنتظر ليلي.

راقبت السيارة الجولف وهي تختفي، ثم اتصلت بسام.

حلَّق صقر بكسل في السماء الزرقاء فوق الحقل. عرضت على سام مساعدته في إنهاء العمل، ولكن كان كل ما تمكنا من إنجازه هو صف واحد (اقتصر دوري على مناولته القرميد). وقد اقترح عليَّ بسبب حرارة الشمس الحارقة أن نتناول كوبين باردين من البيرة بينما نستريح، وبشكل ما بعد أن استلقينا على العشب جنبًا إلى جنب، أدركنا أنه من المستحيل أن ننهض لاستكمال العمل ثانية. حكيت له قصة طبق لحم الوجنتين وراح يضحك لدقيقة كاملة، وقد حاول أن يظهر الجدية على ملامحه حين اعترضت قائلة إنهم لو كانوا فقط أطلقوا عليها اسمًا آخر، أعني أن الأمر أشبه بمن يخبرك أنك تأكل مؤخرات دجاج أو ما شابه. والآن، ها أنا مستلقية إلى جواره، مستمتعة بصوت الطيور وهمس العشب المتراقص، أراقب الشمس البرتقالية تذوب في الأفق، وأحاول ألّا أفكِّر في شعوري بالقلق من أن تستخدم ليلي أسماء الأعضاء التناسلية أثناء حديثها، وأفكر في أن الحياة ليست على هذه الدرجة من السوء.

قال سام: «في بعض الأحيان أفكِّر في عدم بناء منزل على الإطلاق، وأن أكتفي بالاستلقاء هكذا على العشب حتى أشيخ».

قلت وأنا أعبث بالعشب: «إنها فكرة جيدة، إلّا أنني لا أعتقد أن أمطار يناير الغزيرة سوف تروق لك».

شعرت بصوت ضحكته المكتومة.

كنت قد أتيت إليه من المطعم مباشرة، وأنا في حالة من انعدام الاتزان النفسي، غير المفهوم في الواقع، بسبب غياب ليلي. لم أرغب في المكوث في الشقة بمفردي. وحين دلفت من البوابة المؤدِّية إلى حقل سام، بقيت جالسة داخل السيارة أراقبه. بدا سعيدًا بوحدته، يضع الإسمنت فوق كل قرميدة ويضغط عليها فوق بعضها بعضًا، مجفِّفًا العرق المتصبِّب من جبهته بقميصه باهت اللون، وشعرت بشيء من السكون داخلي. لم يذكر شيئًا عن محادثاتنا الأخيرة الغريبة الأطوار، وكم كنت ممتنة لذلك.

مرَّت سحابة واحدة عابرة السماء الزرقاء فوقنا. حرَّك سام ساقه بالقرب من ساقي، لاحظت أن حجم قدمه ضعف حجم قدمي.

«أفكر فيما إذا كانت السيدة ترينر، قد حصلت على تلك الصور ثانية خصيصًا من أجل ليلي».

«أي صور؟».

«تلك الصور ذات الأطر التي أخبرتك عنها. لم تكن لديها ولا صورة منها حين قمت أنا وليلي بزيارتها في منزلها، لدرجة أنني تفاجأت حين أرسلت الألبوم، فقد ظننت أنها ربما قامت بالتخلص منها».

استغرق صامتًا في التفكير، فأكملت:

«ظننت أن ذلك غريب. ولكنني حين فكرت في الأمر، وجدت أنني أنا الأخرى لا أملك صورًا لويل. ربما نحتاج إلى بعض الوقت حتى نصبح قادرين على رؤيتهم ينظرون إلينا وفي أعيننا ثانية ولو من مجرد صورة. كم استغرقت من الوقت لتضع صورة شقيقتك إلى جوار فراشك ثانية؟».

«لم أغيِّر مكانها مطلقًا، أحب أن أجدها هناك دائمًا، خاصة أنها... تحمل نفس النظرة التي اعتادت أن تنظر بها. كانت تنظر نحوي... في عيني مباشرة، مثلما تفعل أي شقيقة كبرى. وحين أجد أن هناك ما يسوء أنظر إليها مباشرة وأسمع صوتها يقول سام، أيها الأحمق، تعامل مع الأمر»، ثم استدار نحوي وقال: «كما أنه من الجيد لجاك أن يراها حوله. إنه في حاجة إلى أن يشعر أنه لا بأس من التحدث عنها».

«ربما أعلِّق صورة لويل في مكان ما، فمن اللطيف أن تجد ليلي صورًا لوالدها في الشقة».

خرجت الدجاجات، وعلى بعد عدة أقدام نزلت اثنتان منها إلى بحيرة وحل ثم راحتا تنفضانه عن ريشهما بقوة مخلّفتين سحبًا صغيرة من التراب. لم أكن أعلم أن للدواجن شخصيتها، فمن بينها كستنائي اللون المتسلِّط، والودود المحب ذو العرف المرقَّط، والصغير الحجم الذي يتم التقاطه من الشجرة كل مساء، ووضعه في الفراش داخل الحظيرة.

«هل ترى أن أبعث لها برسالة نصية، لأطمئن؟».

«على من؟».

«على ليلي».

«دعيهما، ستكونان بخير».

«أعلم أنك محق. كان أمرًا غريبًا. كنت أراقبها في المطعم وكانت تشبهه أكثر مما تخيلت. وأعتقد أن السيدة ترينر - كاميلا - قد رصدت هذا التشابه هي الأخرى. رأيتها تنظر خلسه إلى حركات ليلي، كما لو كانت تتذكَّر فجأة ما كان يفعله ويل. خاصة تلك الحركة التي رفعت فيها ليلي حاجبًا من حاجبيها، كانت تشبهه إلى درجة لا يمكن تصورها، لدرجة أن كلتينا لم تستطِع إنزال أعيننا عنها.

«ما الذي ستفعلينه الليلة إذن؟».

تمطّطت وأنا أشعر بالعشب يداعب عنقي: «أوه، لا أمانع أن تختار أنت لنا ما نفعله، وربما أفضّل التمدد هنا على العشب، وإذا كنت ستقرر الاستلقاء فوقي بلطف، فلن أمانع».

انتظرته ليضحك، ولكنه لم يفعل.

«إذن... هل يمكننا... التحدث عنَّا؟».

«عنَّا؟».

سحب ورقة نحيلة من العشب من بين أسنانه، «أجل، لقد فكرت... حسنًا، إنني أفكر في الطريقة التي ترين بها علاقتنا».

«إنك تجعلنا نبدو أشبه بمسألة حسابية».

«إنني فقط أحاول أن أطمئنّ أنه ليس هناك المزيد من سوء الفهم بيننا يا لويزا».

راقبته وهو يمسك ورقة نبات جديدة، ثم قلت له: «أعتقد أننا بخير، حسنًا، لن أتهمك بأن لديكَ طفلًا بائسًا هذه المرة، وصفٌ من الصديقات الوهميات».

«ولكنك ما زلت تقيّدين علاقتنا وتضعين لها حدودًا».

قال عبارته بلطف، ولكنها كانت أشبه بالصفعة بالنسبة لي.

اعتدلتُ واستندتُ على مرفقي حتى أتمكن من النظر إليه وهو مستلقٍ: «أنا هنا معك، أليس كذلك؟ وأنت أول شخص أتصل به مع نهاية يومي. ونتقابل كلما سنحت الفرصة. لا يمكنني أن أصف ذلك بتقييد للعلاقة».

«أجل إننا نلتقي، ونمارس الجنس، ونتناول بعض الوجبات اللطيفة معًا».

«أعتقد أن ذلك هو حلم أي رجل في العلاقة مع امرأة».

«ولكنني لست أي رجل يا لو».

نظرنا إلى بعضنا بعضًا لدقيقة في صمت، ولم أعد أشعر بالارتياح وأنا أتبنى هذا الموقف الدفاعي.

تنهَّد قائلًا: «لا تنظري إليَّ على هذا النحو، أنا لا أتحدث عن الزواج أو شيء من هذا القبيل، كل ما أود قوله هو إنني لم ألتقِ امرأة مثلك لا ترغب بالتحدث سوى في أقل القليل عن حياتها وما يحدث فيها». ظلَّل عينيه من الشمس بيده ناظرًا إليَّ: «لا بأس إذا لم ترغبي في أن تكون علاقتنا طويلة الأمد. حسنًا لا بأس، إنها ليست كذلك، ولكنني أرغب فقط في معرفة ما يدور في رأسك. فمنذ أن ماتت إلين، وأدركت أن الحياة قصيرة. ولا أرغب..».

«لا ترغب في ماذا؟».

«في إهدار الوقت على شيء لن يصل بي إلى أي مكان».

«إهدار الوقت».

«إنه اختيار سيئ للكلمة، إنني لا أجيد مثل هذه الأمور». واعتدل جالسًا.

«ولكن لـمَ يجب أن تكون علاقتنا في شكل محدَّد أو شيء بعينه. إننا نستمتع بوقتنا معًا، لماذا لا نترك الأمور لتسير كما هي وننظر إلى أين ستصل بنا؟».

«لأنني بشر، حسنًا؟ ويصعب عليَّ أن أدخل في علاقة مع فتاة لا تزال مغرمة بشبح، ناهيك عن أنها تتصرف كما لو كانت لا تريد مني سوى الجنس». ثم وضع يده على وجهه قائلًا: «أوه يا إلهي، لا أصدق أنني قلت ذلك صراحة».

تهدَّج صوتي قليلًا حين تمكَّنت من التكلم: «أنا لستُ مغرمة بشبح».

لم ينظر إليَّ هذه المرة، وقام بحك وجهه قائلًا: «إذن اجعليه ينصرف يا لو».

ثم نهض واقفًا على قدميه، متجهًا إلى عربة القطار، وأنا أحدق في الفراغ الذي خلَّفه وراءه.

عادت ليلي في مساء اليوم التالي وقد لوَّحتها الشمس قليلًا. دلفت إلى الشقة ثم إلى المطبخ الصغير حيث كنت أفرغ حمولة الغسالة، وأفكر في الاتصال بسام، ثم ألقيت بنفسي على الأريكة. وحين وقفت عند الطاولة وجدتها وضعت قدمها على طاولة القهوة، وقامت بتشغيل التليفزيون.

سألتها بعد أن مرت دقيقة: «كيف سار الأمر إذن؟».

«جيد».

انتظرت أن تحكي المزيد، أن تترك ريموت التحكم من يدها، وتنتبه إليَّ بدلاً من التمتمة. تلك العائلة مستحيلة. ولكنها كانت ببساطة تغيِّر القنوات.

«ما الذي فعلته هناك؟».

«ليس الكثير، تحدثنا قليلًا، وفي الواقع قمنا بالاعتناء بالحديقة». استدارت واضعة ذقنها أسفل يدها على طرف الأريكة قائلة: «لو، هل تبقَّى لديك القليل من الحبوب بالمكسرات، إنني أتضوَّر جوعًا».

الفصل الخامس والعشرون

هل يمكننا التحدث؟

بالطبع. ما الذي تودّين قوله؟

أنظر في بعض الأحيان إلى الأشخاص من حولي، وفي حياتهم وأفكر متسائلة لماذا كتب علينا أن نترك أثرًا من الأذى خلفنا. ليس أبوك وأمك وحدهما من دمرا حياتك يا سيد لاركن[1]. نظرت حولي كشخص ارتدى لتوه نظارة جديدة، وتمكن من أن يرى بوضوح شديد أن كل شخص حوله يحمل في داخله أثر عذاب الحب في روحه، سواء كان حبًا ضائعًا، أم حبًا سُلب منه، أو حبًا انتهى به المطاف إلى واحد من القبور الموحشة.

وها أنا أرى الآن بوضوح أن ويل قد فعل ذلك بنا جميعًا. ربما لم يقصد ذلك، ولكن رفضه للحياة كان ببساطة السبب في ترك ذلك الأثر. لقد أحببت رجلًا خلق لي عالمًا جديدًا ولكنه لم يحبني كفاية ليبقى معي في هذا العالم. وأخشى الآن حب رجل ربما يبادلني الحب في حال... في أي حال؟ أخذت أقلب الأفكار في رأسي في الساعات الصامتة بعد أن انسحبت ليلي إلى غرفتها بصحبة شاشاتها الرقمية المشتتة.

لم يتصل بي سام، وكيف لي أن ألومه على ذلك. ما الذي يمكنني قوله

(1) إشارة إلى السطر الأول من قصيدة فيليب لاركن الشهيرة: This Be The Verse.

له على أي حال؟ الواقع هو أنني لم أكن أرغب في التحدث عن حقيقة علاقتنا لأنني لم أكن أعرف ما هي.

لا يتعلَّق الأمر بكوني لا أحب رفقته، على العكس، فأنا أتمتع بتلقائية بلهاء معه، صوت ضحكتي البلهاء، ونكاتي السخيفة والصبيانية، شغفي الجيَّاش المدهش حتى بالنسبة لي. إنه يمنحني الكثير من كل شيء، ولكن... ولكن.

التورط في علاقة ملزمة مع سام كان أشبه بتكبّد المزيد من الخسارة، فأغلب العلاقات التي نشهدها حولنا تنتهي نهاية تعيسة، ولا أراني أكثر حظًا من غيري، خاصة بعد ما مررت به عبر العامين الماضيين، أرى أن فرصتي في كسر هذه القاعدة ضعيفة للغاية. ربما يمكننا التحدث عن الحب، ويمكننا أن نسمح لأنفسنا بالغرق فيه للحظات قليلة، ولكن الحب في ذاته لا يعني سوى المزيد من الألم. المزيد من الأسى، والأذى، الأذى لي، والأسوأ من هذا، الأذى له.

من يمتلك القوة الكافية لذلك؟

عدتُ إلى نوبات الأرق ثانية، فلم أكن أحظى بقدر كاف من النوم. قمت بضبط منبهي، وعلى الرغم من قيادتي بسرعة فائقة، وصلت متأخرةً إلى حفل عيد ميلاد جدي الثمانين. وكان أبي قد أحضر إلى الباحة المظلة الكبيرة القابلة للطي التي كنا استخدمناها في تعميد توماس، نُصبت في آخر الحديقة مرخية الأطراف، عبر الباب المفتوح المؤدي إلى الممشى الخلفي، دخل عدد من الجيران جالبين معهم بعض الكعكات أو الأمنيات الطيبة. جلس جدي في منتصف المكان على كرسي حديقة بلاستيكي يومئ برأسه إلى الحضور من الأشخاص الذي لم يعد قادرًا على التعرف إليهم، كان فقط يحدق بين الحين والآخر إلى نسخته المطوية من مجلة السباق[1].

Racing post (1)

تولَّت ترينا مسؤولية صب الشاي من براد ضخم ومناولة الناس الأكواب.

قالت: «حصلتِ على ترقية إذن، وما الذي تعنيه تلك الترقية؟».

«حسنًا، لقد حصلت على لقب وظيفي. وأنا الآن مسؤولة عن حساب صندوق النقدية في نهاية نوبة العمل، ومسؤولة عن عدد من المفاتيح في المكان». تذكرت ريتشارد بيرسيفال حين قال وهو يمنحني إياها بكل فخر واعتزاز كما لو كان يمنحني الكأس المقدسة: تلك مسؤولية كبيرة يا لويزا، استخدميها بحكمة. وأردت أن أسأله في الواقع حين ردد استخدميها بحكمة ما الأغراض الأخرى التي يمكنني أن أستخدم فيها مجموعة من المفاتيح الخاصة بحانة؟ كي أحرث حقلًا مثلًا؟

«وهل هناك زيادة في الراتب؟»، ناولتني فنجانًا وأخذت رشفة منه.

«جنيه زيادة في كل ساعة».

«إممم»، وكانت غير متأثرة.

«كما أنني لم يعد عليَّ ارتداء الزي بعد الآن».

أخذت تتفحَّص بذلة فيلم ملائكة تشارلي Charlie›s Angels التي كنت أرتديها بهذه المناسبة، «حسنًا، أعتقد أن ذلك أمر جدير بالذكر».

ما الذي كان يمكنني قوله خلاف ذلك؟ لقد كانت وظيفة. تقدُّم في الحياة من نوع ما. لم أخبرها عن تلك الأيام التي كنت أشعر فيها بعذاب نفسي رهيب، وأنا أعمل في مكان مجبرة فيه على أن أراقب الطائرات تهبط في مدرج الطائرات، وتستجمع طاقتها مثل طير كبير يعاود التحليق في السماء ثانية. لم أخبرها كيف أن ارتداء القميص الأخضر ماركة بولو في كل يوم كان يشعرني أنني فقدت شيئًا كبيرًا.

«أخبرتني ماما أن لديكِ حبيبًا».

«ليس حبيبًا بالمعنى المتعارَف عليه».

«لقد ذكرتِ ذلك أيضًا، ما العلاقة بينكما إذن؟ هل تمارسان الجنس فقط بين فترة وأخرى؟».

«كلا، إننا صديقان مقرَّبان».

«هل هو بدين إذن».

«كلا ليس بدينًا. إنه رائع».

«إنه قبيح إذن».

«قلت لك إنه رائع. ثم إن هذا ليس من شأنك. علاوة على أنه ذكي. وقبل أن...».

«لا بد أنه متزوج إذن».

«كلا ليس متزوجًا، يا إلهي، ترينا هلَّا أعطيتني فرصة لأشرح لك الأمر؟ أنا معجبة به، ولكنني لست واثقة من الدخول في علاقة جادة بعد».

«وهل هذا بسبب الطابور الطويل من الرجال العزاب الجذابين الآخرين الذين ينتظرون إشارة منك؟».

حدَّقت فيها.

قالت: «كل ما أود أن أقوله إنه هدية من السماء».

«متى ستظهر نتيجة اختباراتك؟».

«لا تغيّري الموضوع»، تنهَّدت وهي تفتح علبة جديدة من اللبن، «ستظهر بعد أسبوعين».

«ما المشكلة؟ سوف تحصلين على الدرجات الكاملة، وأنت تعلمين ذلك».

«ولكن ما فائدة ذلك؟ أنا عالقة».

تجهَّمت.

«ليس هناك فرص عمل في ستورتفولد، ولا يمكنني تحمل الإيجار في لندن ناهيك عن تكبد مصاريف مكان لرعاية الأطفال من أجل توم قبل أي شيء. وليس هناك مبتدئ يتقاضى راتبًا مرتفعًا بالدولار، حتى لو كان حاصلًا على درجات دراسية عالية».

صبت كوبًا آخر من الشاي. أردت أن أعترض على كلامها، لكنني كنت أدرك مدى صعوبة سوق العمل، «ما الذي ستفعلينه إذن؟».

«أعتقد أنني سوف أبقى هنا، وربما أعتمد على المواصلات حال حصولي على عمل. وآمل أن توجّهات ماما النسوية الجديدة لن تمنعها من اصطحاب توم من المدرسة». وابتسمت ابتسامة ملغزة.

لم أرَ شقيقتي محبطة من قبل، حتى لو تملك منها الشعور بالإحباط قبل ذلك كانت لا تظهره وتمضي في طريقها مثل المحراث الذي لا يكل أو يمل، كما أنها أشد المناصرين لمدرسة «الخروج المبكر من الاكتئاب». كنت أحاول تدبُّر ما يمكنني قوله لها حين شعرنا باضطراب مفاجئ عند طاولة الطعام. نظرنا لنجد بابا وماما هناك يتجادلان عند كعكة شوكولا. كانا يتحدَّثان بصوت خفيض وأسلوب شخصين لا يرغبان أن يدرك الآخرون أنهما يتجادلان، ولكن ذلك لم يكن كافيًا لوقف الجدال أو إخفاء حدته.

توجَّهت صوبهما: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أشار بابا نحو الطاولة قائلًا: «لم تُحضَّر في المنزل».

«ماذا؟».

«الكعكة، إنها ليست مصنوعة في المنزل، انظري إليها».

نظرتُ إليها ووجدتها كعكة كبيرة شديدة البذخ مغطاة بطبقة من الشوكولا، وقد زينت بقطع من الشوكولا وُضعت بين الشموع.

حرَّكت ماما رأسها في سخط: «كان لديَّ مقال لأكتبه».

«مقال! أنتِ لستِ في المدرسة لكتابة مقالات! إنكِ دائمًا تصنعين كعكة منزلية لعيد ميلاد الجد».

«إنها كعكة لطيفة من واتروز، ولا يمانع أبي كونها غير منزلية».

«بلى إنه يمانع، هو والدك نعم، ولكنه يمانع. إنك تمانع، أليس كذلك؟».

انتقل جدي بعينه بينهما محركًا رأسه نافيًا بحركة خفيفة. وقد ازدادت حدة المناقشة حتى بدأت في التنامي إلى مسامع من حولنا. وبدأ الجيران ينظرون إلى بعضهم بعضًا، فبرنارد وجوسي كلارك لا يتجادلان مطلقًا.

قال بابا منفعلًا: «إنه يقول ذلك فقط حتى لا يجرح مشاعرك».

«وإذا كانت مشاعره، وهو صاحب الشأن، لم تُجرح يا برنارد، ما الذي يتعبك هنا؟ إنها كعكة شوكولا، إنني لم أتجاهل عيد ميلاده».

«إنني أريدك فقط أن تعطي الأولوية لعائلتك يا جوسي! هل هذا طلب كبير؟ هل إعداد كعكة منزلية أمر صعب لهذه الدرجة؟».

«أنا هنا بشحمي ولحمي! وهناك كعكة عيد ميلاد بالفعل عليها شموع! وها هي الساندويتشات! إنني لا أحصل على حمام شمس في جزر الباهاما!»، وضعت ماما كومة الأطباق التي كانت في يدها بعنف على الطاولة أمامها وعقدت ذراعيها أمام صدرها.

همَّ أبي بالحديث ثانية ولكنها ألجمته برفع يدها قائلة: «إنك تحاول إذن يا برنارد أن تظهر بمظهر الرجل المخلص الوفي، الذي يهتم بأدق تفاصيل العائلة، أليس كذلك؟».

«أوه، كلا..». قالتها ترينا وهي تتحرك خطوة بالقرب مني.

«أخبرني إذن، هل اشتريت بيجامة بابا الجديدة؟ هل قمت بذلك؟ هل أنت من قام بتغليفها؟ كلا، إنك حتى لا تعرف مقاسه اللعين، ولا تعرف مقاس ملابسك الداخلية اللعينةكذلك، لأنني أنا من أشتريها لك. أخبرني هل كان عليك الاستيقاظ في السابعة من صباح اليوم لشراء الخبز اللازم للساندويتشات لأن هناك رجلًا أحمق عاد مساء أمس من الحانة، وقرر تناول لفتين من الخبز وترك ما تبقى منه ليفسد؟ كلا لقد اكتفيت بالجلوس على مؤخرتك لقراءة صفحة الرياضة. وها أنت لا تطيقني منذ أسابيع فقط لأنني تجرأت على تخصيص عشرين بالمائة من حياتي لنفسي، وأن أجرب شيئًا جديدًا في الحياة قبل أن تنتهي وينفد عمري. وبينما ما زلت أغسل ملابسك، وأعتني بأبي، وأغسل الأطباق، تقف أنت هنا لتحاسبني على شراء كعكة لعينة لعيد الميلاد بدلًا من صنعها في المنزل. حسنًا يا برنارد، يمكنك أن تأخذ تلك الكعكة التي جعلت منها رمزًا للإهمال وعدم الاكتراث وأن تحشرها..». ثم رفعت صوتها: «تحشرها في داخل...

حسنًا...إن مطبخي هناك! وبداخله أدوات صنع الكعك اللعينة! ويمكنك أن تصنع كعكتك اللعينة بنفسك!».

وبقولها لتلك العبارة، قلبت طبق الكعكة في الهواء، ليدور ويسقط مقلوبًا أمام أبي بالضبط. ثم مسحت يدها في مريلتها وغادرت الحديقة صوب المنزل.

وما إن وصلت إلى الباحة الأمامية للمنزل حتى قامت بخلع المريلة من فوق رأسها وألقتها على الأرض، «أوه نسيت! ترينا من الأفضل أن تخبري والدك عن مكان كتب الوصفات، فإنه يعيش في هذا المنزل منذ ثمانية وعشرين عامًا، ومن غير المتوقع أن يعرف مكانها بمفرده».

عقب هذا الحدث، لم يستمر حفل عيد ميلاد جدي طويلًا. انصرف الجيران، متهامسين فيما بينهم، شاكرين لنا بتصنّع على الحفل اللطيف، وأعينهم متجهة نحو المطبخ. فقد انتابهم نفس شعوري بالطرد من المكان.

قالت ترينا بينما كنا ننظف الطاولات: «إن الموقف يزداد احتقانًا بينهما منذ أسابيع، فهو يشعر بأنه مهمَل، وهي لا تفهم لماذا لا يمنحها المساحة التي تحتاجها».

نظرت حيث كان أبي يلتقط مناديل وعلب بيرة فارغة عن الأرض بعصبية، وقد بدا بائسًا تمامًا. وفكرت في ماما حين كانت برفقتي في فندق لندن فرحة بحياتها الجديدة.

«ولكنهما قد كبرا في السن! ومن المفترض أن يكونا قد تجاوزا مثل هذه المشاكل الآن!».

رفعت شقيقتي حاجبيها.

«هل تعتقدين أنهما...؟».

ردت ترينا مقاطعة «بالطبع لا». ولكنها لم تبدُ مقتنعة، ما تقوله كفاية.

ساعدت ترينا في تنظيف المطبخ ولعبت مع توم سوبر ماريو لمدة عشر دقائق. ومكثت ماما في غرفتها، وبدا انهماكها في كتابة مقالها، أما جدي

فقد عاد إلى قواعده سالمًا أمام القناة الرابعة الخاصة بالسباقات. وتوقَّعت أن يكون أبي قد توجَّه إلى الحانة ثانية، ولكنني ما إن خرجت عبر الباب الأمامي مغادرةً وجدته جالسًا في شاحنة عمله على مقعد السائق.

طرقت على النافذة فجفل. وقمت بفتح الباب ودخلت إلى جواره معتقدة أنه يستمع إلى نتيجة مباراة ما، ولكن المذياع كان صامتًا.

أطلق تنهيدة طويلة: «أراهن على أنك ترينني عجوزًا أحمق».

أجبته مداعبة: «لست عجوزًا أحمق يا أبي، بل إنك لست عجوزًا».

جلسنا في صمت نراقب صبية عائلة إليز يجوبون الطريق ذهابًا وإيابًا بدراجاتهم، وجفل كلانا حين أخذ الولد الصغير المنحدر بسرعة شديدة وانزلق في منتصف الطريق بدراجته.

«أريد أن تبقى الأمور كما كانت، هل هذا طلب كبير؟».

«لا شيء يظل على حاله يا أبي».

بدا على وشك البكاء وهو يقول: «إنني أفتقد زوجتي».

«أتدري، يمكنك الاستمتاع بكونك متزوجًا من شخص لا يزال يحمل قدرًا من الشغف بالحياة في داخله. إن ماما تشعر بالحماسة. تشعر كما لو كانت ترى العالم بعين جديدة، كل ما عليك فعله هو أن تمنحها قدرًا من المساحة لذلك».

اتخذ فمه شكل خط مستقيم.

«إنها لا تزال زوجتك يا أبي وهي تحبك».

استدار أخيرًا لمواجهتي قائلًا: «ولكن ماذا لو قررت أنني لم أعد شخصًا مناسبًا لها؟ ماذا لو تسببت كل هذه الأشياء في تغيير تفكيرها و..».

وازدرد ريقه قبل أن يقول: «وقررت أن تتركني وحيدًا؟».

اعتصرتُ يده، وفكرت قليلًا ثم اقتربت منه واحتضنته قائلة: «لن نسمح لذلك أن يحدث».

ظلت الابتسامة الواهنة التي ابتسمها عالقة في ذهني طيلة طريق عودتي إلى المنزل.

عادت ليلي في الوقت الذي كنت سأغادر فيه لحضور اجتماع مجموعة الدعم النفسي. كانت مع كاميلا مرة أخرى، ثم عادت إلى المنزل بأنامل متَّسخة بسبب أعمال البستنة والاعتناء بالحديقة اللتين تقومان بها معًا. وأشارت ليلي مبتهجة إلى أنهما قامتا بزراعة صف كامل من النباتات في حديقة جارة هناك، وأنها سعدت بذلك لدرجة أنها منحت ليلي ثلاثين جنيهًا. «في الواقع لقد أهدتنا زجاجة نبيذ أيضًا، لكنني قلت إن جدتي هي من يجب أن تحتفظ بها». وقد لاحظت الثقة والتلقائية في كلمة «جدتي» التي قالتها.

«أوه، كما أنني تحدثت إلى عمتي جورجينا عبر سكايب مساء أمس. أعني أن التوقيت كان صباحًا هناك نظرًا لكونها في أستراليا. ولكن كان شيئًا لطيفًا. سوف ترسل لي رسالة عبر بريدي الإلكتروني محمَّلة عن آخرها بصور لها ولأبي حين كانوا صغارًا، وقالت إنني أشبهه كثيرًا. إنها جميلة للغاية، ولديها كلب يُدعى جاكوب ينبح فرحًا حين تلعب على البيانو.

وضعت وعاءً مليئًا بالسلطة والجبن والخبز أمام ليلي. وفكرت هل عليَّ إخبارها أن ستيفن ترينر قد اتصل بها للمرة الرابعة في غضون أسابيع قليلة، آملًا في إقناعها بالقدوم لرؤية المولود الجديد. فقد قال لي: «إننا عائلة مترابطة الآن، وديلا الآن أكثر ارتياحًابعد إنجابها المولودة بأمان». وفكرت في أنه ربما يجدر بي إرجاء هذا الحديث لوقت لاحق. وذهبت لأخذ مفاتيحي.

«أوه لويزا، نسيت أن أخبرك قبل أن تذهبي، سوف أعود للالتحاق بالمدرسة ثانية».

«ماذا؟».

«سوف ألتحق بالمدرسة التي بالقرب من بيت جدتي، هل تتذكرينها؟ تلك المدرسة التي أخبرتك عنها سابقًا؟ التي أحببتها حقًا؟ إنها مدرسة داخلية أسبوعية، وسوف أمضي عطلات نهاية كل أسبوع مع جدتي».

كنت قد نسيت أن أوزع صوص السلطة بشكل جيد «أوه».

«آسفة لقد أردت إخبارك ولكن كل شيء حدث بسرعة كبيرة. كنت أتحدَّث مع جدتي عن الأمر، وحين عدت إليها ثانية وجدتها اتصلت بإدارة المدرسة وقالوا إنهم يرحبون بعودتي ثانية، ولن تصدقي ما اكتشفته، إن صديقتي هولي لا تزال هناك! لقد تحدثت إليها عبر الفيس بوك وقالت إنها لا تطيق صبرًا حتى أعود إلى المدرسة ثانية. إنني لم أحكِ لها كل شيء عما حدث، وربما لن أحكي لها، ولكنني سعيدة بكل ما يجري. فقد عرفتني هولي قبل أن تسوء الأمور، وهي تحبني كما أنا... أتفهمين قصدي؟».

استمعت إليها وهي تتحدَّث بحماسة مقاومة الشعور القاسي بأنه تم تجاهلي، «ومتى سيتم كل ذلك؟».

«حسنًا، إنني في حاجة إلى الوجود هناك في بداية سبتمبر، وترى جدتي أنه سيكون أفضل لو انتقلت للعيش معها في أقرب فرصة، ربما الأسبوع المقبل».

شعرت بدوار، «الأسبوع المقبل؟ وما رأي أمك في ذلك؟».

«ماما سعيدة لعودتي إلى المدرسة، خاصة أن جدتي هي مَن سيتحمل التكاليف. كان عليها أن تعلمهم باسم آخر مدرسة التحقت بها وأني لم أتمكن من حضور الامتحان، وكما تعلمين فإنها لا تحب جدتي، ولكنها قالت لا بأس. قالت: «لا بأس إذا كان ذلك سيجعلك سعيدة بالفعل يا ليلي، وآمل ألا تعاملي جدتك كما تعاملي أي شخص آخر».

تهكَّمت ليلي وهي تنقل كلام تانيا مقلِّدة صوتها، ثم أردفت: «لقد لاحظت عين جدتي حين قالت لي ماما ذلك، وكيف أن حاجبيها ارتفعا تلقائيًا، ولكن كان يمكنك التنبؤ بسهولة بما كانت تفكر فيه. هل أخبرتك أن جدتي قامت بصبغ شعرها؟ لقد صبغته باللون البني الفاتح، وتبدو أجمل الآن. على الأقل لم تعد تشبه مرضى السرطان».

«ليلي!».

«ليست هناك مشكلة، فقد ضحكت جدتي حين قلت لها ذلك». ثم ابتسمت وقالت: «كان ذلك نفس التعليق الذي سيقوله أبي لو كان حيًا».

تمتمتُ حين تمالكت أنفاسي: «حسنًا، يبدو أن كل الأمور تسير معك الآن بشكل جيد».

رمقتني بنظرة، « لا تقوليها على هذا النحو».

«آسفة، ولكنني سأفتقدك».

أشرق وجهها بابتسامة جميلة، «لن تفتقديني يا ساذجة لأنني سأكون هنا في العطلات، لن يمكنني تمضية ما تبقى من عمري كله في أكسفورد شاير مع كبار السن وإلا سيصيبني الجنون. ولكنه أمر رائع. أشعر أنها... أنها من عائلتي. لا أشعر بغرابة معها. فكرت في أنني لن أندمج معها، ولكن هذا لم يحدث»، ثم احتضنتني بقوة قائلة: «يا لو... سوف تظلين صديقتي مهما حدث، بل إنك شقيقتي التي لم تلدها أمي».

احتضنتها أنا الأخرى محاولة الحفاظ على ابتسامتي.

«ثم إنك على أي حال في حاجة إلى خصوصيتك»، وأخرجت علكة من فمها وأخذت تطويها كما لو كانت قطعة من الورق قائلة: «إن سماع صوتك أنت والمسعف الجذَّاب سام تحاولان ممارسة الحب في الممر لافت للنظر».

إن ليلي ذاهبة؟

ذاهبة إلى أين ؟

للعيش مع جدتها. أشعر بغرابة. إنها سعيدة بذلك للغاية. آسفة. لم أعنِ التحدث في أمور متعلقة بويل طيلة الوقت، لكنني لا أستطيع التحدث سوى معك.

حزمت ليلي حقيبتها مبتهجة. أفرغت غرفة نومي الثانية من أي أثر لكونها كانت تعيش معي هنا، في ما عدا لوحة كاندينسكي والفراش القابل للطي، وكومة من المجلات ذات الأغلفة البراقة وعلبة فارغة لمزيل العرق.

قمت بتوصيلها إلى محطة القطار، وأنا أصغي إلى ثرثرتها التي لا تتوقف، وأحاول أن أخفي شعوري بعدم الاتزان. كانت كاميلا ترينز ستنتظرها في محطة الوصول.

«عليك أن تأتي لزيارتنا، عندي غرفة في المنزل وهي لطيفة للغاية. وهناك حصان قريب من المنزل، أشار لي الفلاح أنه يمكنني ركوبه. أوه، كما أن هناك حانة لطيفة للغاية كذلك».

نظرت إلى لوحة مواعيد الرحيل، وهبَّت فجأة على أطراف أصابعها قائلة: «إنه موعد قطاري، الآن، أين الرصيف رقم أحد عشر». وبدأت في الركض سريعًا بين الحشود، وحقيبتها تتدلى من كتفها، وساقاها رفيعتان في سروالها الضيق. وقفت متجمدة في مكاني وأنا أراقبها تغادر بخطواتها المتسارعة.

استدارت فجأة ورأتني واقفة عند المدخل، لوَّحت لي وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، وتطاير شعرها حول وجهها وصاحت: «يا لو، لقد أردت أن أخبرك، أن مضيك في حياتك لا يعني أن حبك لأبي قد قل، وإني على ثقة من أنه كان ليخبرك بذلك هو أيضًا».

ثم ابتلعتها الحشود، مخلفة وراءها ابتسامة تشبه ابتسامته تمامًا.

لم تكن ملكك أبدًا يا لو

أعلم. ولكنها كانت الشخص الذي يشعرني بأن لحياتي قيمة.

شخص واحد فقط يمكنه أن يشعرك بأن لك قيمة.

منحت نفسي دقيقة لاستيعاب ما قال.

هل يمكننا أن نلتقي رجاء؟

لديَّ نوبة عمل ليلًا.

هل يمكننا أن نلتقي بعدها؟

ربما في وقت لاحق من الأسبوع. سوف أتصل بك.

كانت كلمة «ربما» تحمل الكثير في طياتها، ورغم أنها في الأصل تعني الاحتمالية فإنها حملت شيئًا نهائيًا فيها، وهو غلق الباب بيننا ببطء. حدقت في هاتفي بينما تتحرك الحشود في محطة القطار من حولي شاعرة أن شيئًا ما بداخلي قد تغيَّر أيضًا. وكان أمامي إما الذهاب إلى المنزل والبكاء على شيء آخر ضاع مني، أو النظر إلى الأمر بوصفه حرية غير متوقَّعة اكتسبتها. وشعرت كما لو كان هناك ضوء أضاء أمامي: السبيل الوحيدة حتى لا أشعر بالوحدة والخذلان هو أن أستمر في التحرك.

ذهبت إلى المنزل. أعددت قهوة لنفسي، وجلست أحدِّق في الجدار الرمادي. ثم فتحت حاسوبي المحمول.

عزيزي السيد جوبنك

أدعى لويزا كلارك وقد تفضلت وعرضت عليَّ فرصة للعمل لديكم الشهر الماضي، ورفضتها. وأقدر تمامًا بأنه ربما يكون هناك من حصل على ذلك العمل، ولكنني إن لو لم أقل لك ما أود قوله سأندم طيلة حياتي.

لقد أردت تلك الوظيفة حقًا، ولو لم تكن ابنة الشخص الذي كنت أعمل معه قد وقعت في مشاكل لكنت قبلت عرضك بلا أدنى تردد. لا أود أن ألقي باللوم عليها في ما يتعلق بقراري، فقد شعرت أن واجبي أن أساعد في ترتيب أمور خارجة عن إرادتها. ولكن كل ما أردت قوله، هو إنك إذا ما كنت في حاجةإلى شخص ما ثانية في أي يوم من الأيام، آمل أن تضعني في الاعتبار.

أعلم أنك رجل مشغول وليس لديك متسع من الوقت، لذلك لن أستفيض في تفاصيل، ولكنني كنت في حاجة إلى أن تعرف حقيقة الموقف.

وافر احترامي

لويزا كلارك

لم أكن واثقة مما أقوم به، لكنني على الأقل أقدمت على فعل ما. وما

إن ضغطت على أيقونة إرسال، حتى منحني ذلك التصرف البسيط شعورًا بالقيمة. ذهبت سريعًا إلى الحمام وقمت بتشغيل الدش، خالعة ملابسي، متعثرة في سروالي وأنا أخلعه من قدمي في عجالة لأغطس في المياه الساخنة. وقمت بغسل شعري بالصابون وأنا أخطط لما سأفعله. سوف أذهب إلى محطة الإسعاف، وسوف أعثر على سام وسوف...

دق جرس الباب، فشتمت في سري وجذبت منشفة.

قالت ماما: «لقد حصلتُ عليها».

استغرق الأمر دقيقة حتى أستوعب أن ماما هي التي تقف أمامي، حاملة حقيبة في يدها. شددت المنشفة حولي بإحكام وشعري يقطر ماء على السجادة: «حصلتِ على ماذا؟».

دخلت وأغلقت الباب خلفها: «إن والدك لا يكف عن التذمر بشأن أي شيء أقوم به. ويتعامل معي كما لو كنت عاهرة لمجرد رغبتي في الحصول على وقت قليل لنفسي، لذلك فقد أخبرته أنني سوف آتي إلى هنا للحصول على استراحة قصيرة».

«استراحة؟».

«لويزا، ليس لديك أدنى فكرة عما يحدث، كل هذا التذمر والشكوى، وأنا بشر ولست حجارة، أليس كذلك؟ كل الناس تتغير، لِمَ لا يمكنني التغير أنا الأخرى؟».

بدا الأمر كما لو جئت في منتصف محادثة كانت قد بدأت منذ ساعة بالفعل. ربما في حانة ما، أو ربما استمرت لساعات.

«حين بدأت كورس الوعي النسوي، كنت أظن أنه يحمل الكثير من المبالغات. وسألت نفسي هل حقًا يمارس الرجل سيطرة ذكورية متعنِّتة ضد النساء؟ حتى ولو على مستوى اللاوعي؟ ووجدت أن الواقع يحمل ما هو أكبر بكثير مما تم طرحه. إن والدك، ببساطة، لا يطيق أن يرى فيّ أي شخص له دور بعيدًا عن المطبخ والفراش».

«أوه...».

«أليس ذلك بكثير؟».

«ربما».

«دعينا نناقش الأمر ونحن نحتسي فنجانين من الشاي»، قالتها ماما وهي تمضي في طريقها نحو المطبخ، «هذا يبدو أفضل، ولكنني لست واثقة من هذا اللون الرمادي، أين أجد الشاي؟».

جلست ماما على الأريكة تحكي، بينما برد فنجانها، وجلستُ إلى جوارها مصغية إليها تتكلم عن شعورها بالإحباط والخذلان محاولة تجاهل الوقت. سيصل سام إلى نوبة عمله في غضون نصف ساعة. وسوف يستغرق الأمر عشرين دقيقة للوصول إلى محطة الإسعاف. وصوت أمي يرتفع.

«هل تدركين كم هو مزعج أن يتم إخبارك أنك لن تكوني قادرة على التغيير لما تبقى من حياتك؟ لمجرد أنه ليس هناك حولك من يرغب في ذلك التغيير. هل تعلمين مدى قسوة وبشاعة ذلك الشعور؟».

أومأت بحماسة مصدقة على كلامها. أعرف ذلك الشعور، أعرفه حقًا، «ولكني واثقة من أن بابا لم يعنِ أن تنتابك تلك المشاعر، ولكن أصغي إليَّ، أنا...».

«بل إنني اقترحت عليه أن يحضر كورسًا مسائيًا، في أي شيء يحبه، كتصليح الأغراض القديمة أو الرسم أو أي شيء. إنني حتى لا أمانع أن ينظر إلى السيدات العاريات! لقد اعتقدت أن في مقدورنا أن نكبر معًا! أن أكون تلك الزوجة التي أحاول أن أصيرها، ذلك النوع الذي لا يمانع من أن ينظر زوجها إلى نساء عاريات في سبيل الثقافة... ولكنه لا يردد سوى: «ولماذا قد أرغب في القيام بذلك من الأساس؟»، يتصرف كمن انقطع عنه الطمث. فضلًا عن أنه لا يكف عن الكلام بشأن حلاقة شعر ساقيَّ! يا إلهي! يا له من منافق. أتعلمين منذ متى لم يتخلص من الشعر الذي في أنفه يا لويزا؟».

«كلا».

«سوف أخبرك! في مقدوره مسح طبقه بشعر أنفه. إنني لمدة الخمسة عشر عامًا الماضية، كنت أطلب من الحلاق أن يقوم بتهذيب شعر أنفه قليلًا، كما لو كان طفلًا صغيرًا، ولكن هل كان لديَّ أي اعتراض على وجود شعر كثيف في أنفه؟ كلا! لأن الله خلقه كذلك. إنه بشر! في ما يتعلق بشعر أنفه وكل الأمور الأخرى. ولكنني إذا ما تجرأت يومًا ولم تكن بشرتي في نعومة مؤخرة طفل رضيع يعاملني كما لو كنت قرد شمبانزي مثيرًا للاشمئزاز!».

أشارت الساعة إلى السادسة وعشر دقائق. سوف يتوجَّه سام إلى عمله في تمام السادسة والنصف. تنهَّدت وجذبت منشفتي حول خصري.

«إممم... حسنًا... إلى أي مدى ستبقين هنا في اعتقادك؟».

«حسنًا، لا أدري». ثم أخذت رشفة من فنجانها، «إن الخدمة الاجتماعية الآن تقوم بإعداد وتقديم وجبة الغداء لجدّك، لذلك لا يتعيَّن عليَّ الوجود هناك طيلة الوقت. ربما يمكنني البقاء هنا لبضعة أيام. لقد حظينا بوقتٍ لطيفٍ معًا المرة الماضية، أليس كذلك؟ يمكننا الذهاب ورؤية ماريا في حمّام الفندق، ألن يكون ذلك لطيفًا!».

«لطيف».

«حسنًا، لنقوم بإعداد الفراش الإضافي إذن، أين الفراش الإضافي الذي لديكِ؟».

وما إن وقفنا حتى رن الجرس الخارجي للمنزل، فتحت الباب متوقِّعة مندوب توصيل بيتزا قد أخطأ العنوان، ولكن وقفت هناك ترينا وتوم، ومن خلفهما وقف بابا واضعًا يديه في جيبه مثل مراهق متمرِّد.

لم تنظر إليَّ ترينا، بل عبرت من جانبي قائلة: «ماما هذا سخيف، لا يمكنك الهروب هكذا من بابا، كم تبلغين من العمر؟ أربعة عشر عامًا؟».

«أنا لم أهرب يا ترينا، إنني أمنح نفسي مساحة للتنفُّس».

«حسنًا سوف نبقى هنا حتى تحلا تلك المشاكل السخيفة بينكما، هل تعرفين يا لويزا أنه ينام في شاحنته منذ ذلك اليوم؟».

استدرت نحو ماما قائلة: «ماذا؟ لم تخبريني بذلك».

رفعت ذقنها قائلة: «لم تمنحيني فرصة لأخبرك بسبب ثرثرتك».

وقف كل من بابا وماما هناك لا ينظران نحو بعضهما بعضًا.

قالت ماما: «ليس لديَّ ما أقوله لوالدك الآن».

قالت ترينا: «اجلسا أنتما الاثنين». فتحركا نحو الأريكة متبادلَيْن نظرات من الامتعاض لبعضهما بعضًا. ثم استدارت نحوي قائلة: «لنصنع بعض الشاي أولًا، ونجلس لنحل ذلك معًا كعائلة».

قلت مستشعرة فرصتي: «فكرة رائعة! هناك لبن في الثلاجة، والشاي هناك، أنتم في بيتكم، عليَّ الذهاب لمدة نصف ساعة لأمر ما». وقبل أن يعترض أحد ارتديت سروالي الجينز وقميصي وركضت خارج الشقة بمفاتيح سيارتي.

رأيته بمجرد أن دخلت إلى موقف سيارات محطة الإسعاف. كان متوجهًا نحو سيارة الإسعاف، وتتدلى حقيبته الطبية من كتفه، وشعرت بشيء داخلي يترنح. إنني أعلم تفاصيل هذا الجسد الممشوق تمامًا، كما أعرف التقاسيم الناعمة لهذا الوجه. استدار وتعثرت خطوته كما لو كنت آخر من يتوقع رؤيته. ثم توجَّه ثانية نحو السيارة فاتحًا أبوابها الخلفية.

مشيت تجاهه: «هل يمكننا أن نتحدث؟».

قام برفع أسطوانة أوكسجين بسهولة كما لو كانت علبة مثبِّت شعر، وقام بوضعها في مكانها مؤمِّنًا على موقعها: «بالطبع، ولكن سيكون ذلك في وقت آخر، لأنني في طريقي إلى مهمة».

«الأمر لا يحتمل الانتظار».

لم تتغير تعبيرات وجهه، وانحنى لالتقاط لفافة من الشاش.

«انظر، أردت فقط أن أوضح لك... ما كنا نتحدث عنه سابقًا. إنني مغرمة بك، مغرمة بك حقًا. أنا فقط... خائفة».

«إننا جميعًا خائفون يا لو».

«ولكنك لست خائفًا من شيء».

«بلى أنا أيضًا أشعر بالخوف، ولكن من أمور لا تلاحظينها».

أطرق نحو حذائه، ثم لاحظ قدوم دونا راكضة نحوه، «آه، يا إلهي، عليَّ الذهاب الآن».

قفزت إلى مؤخرة سيارة الإسعاف قائلة: «سوف آتي معك، وسأستقل تاكسيًا من أي مكان تذهب إليه».

«كلا».

«آه، هيا بربك».

«هل ترغبين في تسبّب المزيد من المشاكل لي مع الإدارة؟».

ألقت دونا بنفسها في مؤخرة سيارة الإسعاف وهي تقول: «هناك تقارير عن طعن شاب».

«علينا أن نذهب يا لويزا».

إنني أفقده، إنه يضيع مني، يمكنني الشعور بذلك من نغمة صوته والطريقة التي يحدثني بها من دون النظر إليَّ مباشرة. هممت بالنزول من السيارة لاعنة تأخّري الدائم. ولكن دونا أمسكت بمرفقي وأشارت نحو مقدمة السيارة ثم قالت: «بالله عليك يا سام، لقد أصبحت مثل الدب الذي يعاني من ألم في رأسه طيلة الأسبوع ومزاجك سيئ، سوف ننزلها في أي مكان قبل أن نصل إلى وجهتنا».

مشى سام سريعًا نحو الباب الآخر من السيارة فاتحًا إياه وملقيًا نظرة على مكتب فريق الإدارة، «إنها تصلح في دور مستشارة علاقات ممتازة»، ثم أصبح صوته أكثر صلابة وهو يقول: «هذا إن كنا في علاقة من الأساس كما تعلمين».

لم أستطع قول شيء. صعد سام إلى مقعد السائق ونظر نحوي كما لو كان سيقول شيئًا ما، ولكنه غيَّر رأيه. بدأت دونا في ترتيب معداتهم، وقام هو بتشغيل المحرك وتشغيل الضوء الأزرق.

«إلى أين ستتجه؟».

«سوف نتجه جميعًا إلى العزبة، وسوف يستغرق الوصول إليها سبع دقائق مع تشغيل صفارة إنذار السيارة، وأنت سوف تتجه إلى الشارع الرئيسي الذي يبعد دقيقتين عن كينجسبيري».

«أمامي خمس دقائق إذن؟».

«وطريق عودة طويل».

«حسنًا» قلتها بينما ننطلق بالسيارة ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عما يمكنني قوله بعد ذلك.

الفصل السادس والعشرون

«هذا إذن ما أود قوله» قلتها، بينما انطلق سام متمايلًا بسيارة الإسعاف على الطريق مطلقًا صوت صفارتها مما اضطرني إلى رفع صوتي.

كان انتباهه منصبًا على الطريق الذي أمامه، ثم قال محدِّقًا إلى بيانات شاشة الحاسوب على لوحة القيادة، «ماذا لدينا يا دونا؟».

«حالتا طعن. وسقوط شاب من على السلم».

قلت له: «هل هذا حقًا الوقت المناسب للتحدث؟».

« يعتمد ذلك على ما ستقولين».

فقلت: «سام، إن الأمر لا يتعلَّق بعدم رغبتي في تكوين علاقة جادة معك، أنا فقط ما زلت أشعر بشيء من التشوّش والارتباك».

قالت دونا: «الجميع يعاني من ذلك الارتباك، فكل رجل أواعده يستهل علاقتنا بالحديث عما يعانيه من مشاكل فقدان الثقة»، ثم نظرت إلى سام، «أوه، آسفة لا تؤاخذني على التدخل».

لم يرفع سام عينيه عن الطريق الذي أمامه وهو يقول: «لحظة من فضلك، لقد نعتّني في ما مضى بالنذل، لأنك قررتِ أنني أنام مع نساء أخريات، وها أنت الآن تبعدينني عنك بطول ذراع، نظرًا لأنك ما زلت مرتبطة بشخص آخر. إن ذلك...».

«لقد رحل ويل، وأنا أعلم ذلك، ولكنني لا أستطيع تجاوز الأمور

بنفس قدرتك يا سام. بالكاد أشعر أنني أصبحت قادرة على الوقوف على قدميَّ مرة أخرى بعد فترة طويلة من... لا أدري... لقد كنت في حالة من الفوضى العارمة».

«أعلم أنكِ كنتِ في فوضى، وأنا من قام بترتيبها منذ اليوم الأول الذي نقلتك فيه إلى المستشفى».

«كل ما أنا واثقة منه الآن، أنني أحبك كثيرًا. أحبك لدرجة أنني أشعر أن الأمور إذا ساءت بيننا سوف تعم حياتي الفوضى ثانية. ولست واثقة من أنني قوية بما يكفي للتعامل معها».

«وكيف يمكن لذلك أن يحدث؟».

«ربما تتركني، ربما تغير رأيك، فأنت رجل وسيم، وقد تسقط سيدة أخرى من فوق بناية وتهبط عليك وربما يروق لك الأمر، ربما تتعرض لمرض، أو تسقط من فوق دراجتك النارية، وحينها سأغدو وحيدة ثانية بعد تعلقي بك».

قالت دونا: «الوقت المقدر للوصول دقيقتان».

«يمكنك قول ذلك عن أي شخص، ما الجديد إذن؟ هل نجلس ولا نفعل أي شيء مترقبين وقوع حادث ما؟ هل تلك هي الطريقة التي يجب أن نعيش بها حياتنا؟»، ثم انحرف بالسيارة إلى اليسار بحدة لدرجة أنني تمسكت في مقعدي.

«ما زلت غير متزنة يا سام أشعر وكأنني مثل حلوى الدونتس، أريد حقًا أن أصبح كعكة مكتملة، ولكنني ما زلت دونتس».

«يا إلهي، لو! كلنا كحلوى الدونتس! هل تظنين أنني حين كنت أشاهد شقيقتي والسرطان يفترسها لم أكن أعلم أن قلبي سينفطر ويتمزق إربًا في كل يوم من حياتي، ليس من أجلها فحسب، لكن من أجل ابنها كذلك؟ أتظنين أنني لا أعرف ذلك الشعور؟ هناك إجابة واحدة، ويمكنني أن أقولها لك لأنني أراها في كل يوم. أنت ما زلت على قيد الحياة. وعليك أن تقتحميها، أن تلقي بنفسك في كل منحى، منها وألّا تفكري في الجراح التي ألمت بك».

قالت دونا مصدِّقة: «أوه هذا جميل».

«أنا أحاول يا سام، وليست لديك فكرة عن الشوط الذي قطعته».

وصلنا، إذ لاحت أمامنا لافتة كتب عليها عزبة كينجسبيري. قاد سام السيارة عبر مدخل ضخم عابرًا موقف السيارات ومنه إلى فناء مظلم حيث تذمر سام قائلًا بهدوء: «اللعنة، كان علينا إنزالك».

قالت دونا: «لم أرغب في مقاطعتكما».

عقدتُ ذراعي قائلة: «سوف أنتظر هنا حتى تعود».

قفز سام من مكانه في السيارة حاملًا حقيبة أدواته، «لا فائدة من ذلك، ليس مطلوبًا مني أن أفعل المستحيل حتى أقنعك بالبقاء معي. أوه، اللعنة، إن العلامات اللعينة مفقودة، يمكن أن يكون الشاب في أي مكان هنا».

حدقت إلى المباني بلونها الأحمر الغامق، كان هنالك ما يقارب عشرين سلمًا في تلك المباني ولن ترغب في السير بين أيٍّ منها من دون رفقة حراس شخصيين ضخام الجثث.

هزت دونا كتفها: «في المرة الأخيرة التي أتيت فيها إلى هنا -كانت حالة أزمة قلبية- ولم أستطع الوصول إلى الحالة قبل أربع محاولات في أماكن خاطئة، وكانت البوابة مغلقة. وتعيَّن علينا حينها العثور على أحد الحراس لفتح البوابة قبل أن نتمكن من استدعاء وحدة نقل المريض، وحين وصلنا إليه كان قد مات بالفعل».

«كما كان هناك تبادل لإطلاق النار بين عصابتين هنا الشهر الماضي».

قالت دونا: «هل تريدني أن أستدعي الشرطة لمرافقتنا؟».

«كلا، لا وقت لذلك».

ساد المكان هدوء مخيف، على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز الثامنة. كانت تلك واحدة من العقارات في المدينة التي كان باستطاعة أطفالها منذ بضع سنوات مضت أن ينعموا باللعب بدراجاتهم، أو يختبئوا للعب الغميضة حتى وقت متأخر من الليل. أما الآن فيوصد سكانها الأبواب

على أنفسهم بإحكام قبل حلول الظلام بوقت طويل، ويؤمِّنون نوافذهم بالحديد. وقد انطفأت نصف مصابيح الصوديوم، والمتبقية متذبذبة وتضيء بشكل متقطع، كما لو كانت غير متأكدة إذا كانت قادرة على أن تسطع في هذا المكان بأمان.

وقف كل من سام ودونا الآن خارج السيارة يتحدَّثان بصوت خفيض. ثم فتحت دونا باب المقعد المجاور لمقعد السائق، ووصلت إليه ثم ناولتني سترة عاكسة للضوء، «ارتديها وتعالي معنا، فهو لا يظن أن تركك هنا بمفردك آمن».

«ولماذا لا يمكنه...».

«أنتما، بربكما، سوف أتجه بحثًا عنه من هذا الطريق، وأنت يا دونا ابحثي في هذا الاتجاه، اتفقنا؟».

حدقت فيها. وتحرَّكت دونا، وكان جهازها اللاسلكي يطن في يدها وهي تقول: «سوف نرتب الأمر بعد ذلك».

تبعتُ سام سائرة خلفه بينما نقطع الممرات الإسمنتية واحدًا تلو الآخر.

قال متمتمًا: «منزل سافرناك، كيف لنا بحق الجحيم أن نعرف أي هذه المنازل هو منزل سافرناك؟» قام بتشغيل جهاز اللاسلكي، «غرفة التحكم، هل يمكنكم إرشادنا إلى العنوان؟ فلا إشارات على تلك المباني، وليس لدينا أدنى فكرة عن مكان المريض».

رد الصوت معتذرًا: «آسف إن خريطتنا لا تظهر أسماء البنايات بشكل فردي».

قلت له: «هل تريدني أن أذهب في هذا الاتجاه؟»، سنكون بذلك قد غطينا ثلاثة ممرات، إن هاتفي معي». توقفنا عند بيت درج تفوح منه رائحة البول ورائحة دهون قديمة من علب وجبات سريعة ملقاة. كانت الممرات مظلمة تخلو من أي ضوء ما عدا وميض بعض أجهزة التليفزيون من داخل النوافذ المغلقة التي تشي بوجود حياة داخل تلك الشقق الصغيرة. توقَّعت

أن يكون هناك أي ضجيج ما من أي نوع، أو أي إشارة تقودنا إلى المصاب، ولكن المكان ساده صمت رهيب.

«كلا ابقي بالقرب مني، اتفقنا؟»

رأيت أن مجرد وجودي قد تسبب له بالشعور بالتوتر، وفكرت في أن أرحل وحسب، ولكنني لم أشأ أن أتحسَّس الطريق إلى الخارج بمفردي.

توقَّف سام في نهاية الممر، ثم استدار هازًا رأسه وزامًا شفتيه. وجاء صوت دونا عبر اللاسلكي «لا شيء هنا». وبعدها سمعنا صيحة.

قلت متبعة الصوت: «من هنا»، وعلى الجانب الآخر من المربع السكني رأينا شكلًا مكوَّمًا. إنه جسد ملقى على الأرض تحت أضواء الصوديوم.

قال سام: «ها هو إذن» وبدأنا نركض نحوه.

لقد أخبرني ذات مرة، أن السرعة هي كل شيء في عمله. إنها أول شيء يتعلمه المسعف، تلك الثواني الفارقة التي يمكن أن تنقذ حياة أحدهم. فكل ثانية فارقة، خاصة إذا كان المريض ينزف أو تعرَّض لأزمة قلبية أو جلطة. هرعنا عبر الممرات الإسمنتية ومنها عبر السلالم التي تفوح منها رائحة نتنة، ثم عبرنا العشب الممزَّق وصولًا إلى الجسد المكوَّم.

وحين وصلنا كانت دونا بالفعل إلى جوارها.

ألقى سام بحقيبته، وهو يقول: «أنا واثق أنهم أبلغوني أنه رجل».

وبينما تفحصت دونا إصابتها، قام بالاتصال بمركز التحكم.

قال المتحدث على الجانب الآخر: «أجل، إنه شاب في أواخر فترة المراهقة، له مظهر المتحدرين من البحر الكاريبي».

أغلق سام جهاز اللاسلكي خاصته: «لا بد أنهم أخطأوا السمع، في بعض الأيام يكون الصوت أشبه بهمسات باللغة الصينية».

كانت فتاة في السادسة عشر، شعرها مضفور بعناية وساقاها مفتوحتان كما لو كانت قد سقطت منذ وقت قصير. وتساءلت عما إذا كان ذلك نفس شكلي حين سقطت من فوق البناية.

«هل يمكنك سماعي يا حبيبتي؟».

لم تتحرك. تفحص سام حدقتيها ونبضها وتنفسها. كانت تتنفس، ولم يكن هناك أثر لأي إصابات. ولكن بدا أنها لا تستجيب تمامًا. قام بفحصها مرة أخرى، مدققًا النظر في معدَّاته.

«هل لا تزال حية؟».

التقت عينا سام بعيني دونا. اعتدل واقفًا ثم نظر حوله مفكرًا. ثم نظر باتجاه نوافذ المكان، بدت النوافذ كمن ينظر إلينا بأعين خالية من الود. ثم طلب منا التحرك بعيدًا وقال بهدوء «هناك أمر غير طبيعي هنا، انتظرا سوف أجري عليها اختبار إسقاط اليد، بينما تذهبان أنتما إلى السيارة وتديران المحرك، إذا كان ما أفكر فيه صحيحًا سيكون علينا الخروج من هنا».

تمتمت دونا وهي تجوب بنظرها: «كمين مخدرات؟».

«ربما. أو ربما له علاقة بحوادث الشغب، كان علينا أن نطابق الموقع، أنا على ثقة أن هذا هو المكان الذي تم إطلاق النار فيه على آندي جبسون».

حاولت أن أحافظ على درجة صوت منخفضة وأنا أقول: «ما هو اختبار إسقاط اليد ذلك؟».

«سوف أقوم برفع يدها وإسقاطها من فوق باتجاه وجهها، إذا كانت واعية وتمثل فسوف تحرك يدها بحيث لا تسقط على وجهها، إنهم دائما يفعلون ذلك، إن الأمر أشبه بانعكاس. ولكن إذا كان هناك من يراقبنا من فوق فلا نريده أن يدرك أننا كشفنا الأمر، لويزا تصرّفي كما لو كنت ستذهبين لإحضار المزيد من المعدات من السيارة، اتفقنا؟ سوف أجري هذا الاختبار بمجرد أن تخبريني أنك داخل السيارة، وإذا وجدتِ أحدًا بالقرب منها لا تكملي طريقك، بل استديري وعودي إليَّ ثانية. دونا قومي بلمِّ أدواتك، واستعدي. سوف تذهبين خلفها. وإذا ما رأوا اثنين منا يغادران سيفهمون».

أعطاني مفاتيحه، وقمت بحمل إحدى الحقائب كما لو كانت حقيبتي،

واتجهت مسرعة نحو سيارة الإسعاف. وأدركت فجأة وجود أعين تراقبني في الخفاء، وسمعت دقات قلبي تتقافز وحاولت ألّا تتغير تعبيرات وجهي أو تشي بشيء، وأن أحرص في خطواتي.

شعرت وأنا أسير داخل الممر وكأنه لا ينتهي، وما إن وصلت إلى سيارة الإسعاف حتى تنفست الصعداء، وصلت إلى المفاتيح، وقمت بفتح الباب، وقبل أن أصعد سمعت صوتًا ينادي «يا آنسة». حدَّقت خلفي ولم أجد شيئًا «يا آنسة».

وهنا ظهر شاب من خلف عمود إسمنتي وتبعه شاب آخر يضع غطاء سترته فوق رأسه مخفيًا معظم وجهه، أخذت خطوة إلى الخلف باتجاه السيارة وقلت محاولة أن يبدو صوتي ثابتًا «إنني أجلب بعض الدعم ليس معي أي مخدرات، عليكما التراجع، اتفقنا؟».

«إنه إلى جوار الصناديق يا آنسة، إنهم لا يرغبون أن تصلوا إليه، وهو ينزف بغزارة هناك، وهذا هو سبب تظاهر ابنة عم إيمكا هناك. إنها تصطنع حتى تشتت انتباهكم وتنصرفوا».

«ماذا؟ ماذا تعني؟».

«إنه إلى جوار الصناديق، عليك مساعدته يا آنسة».

«ماذا؟ أين هي تلك الصناديق؟».

ولكن الفتى نظر بحذر خلفه، وحين استدرت لسؤاله ثانية، كانا قد اختفيا.

حدَّقت حولي محاولة استكشاف المكان الذي كان يقصده ثم رصدته بالفعل، هناك عند مواقف السيارات، الحافة البارزة لحاويات قمامة بلاستيكية ذات لون أخضر فاتح. مشيت متحسِّسة طريقي عبر ممر الطابق الأرضي مبتعدة عن الميدان الرئيسي حتى رأيت ممرًا بعيدًا عن منطقة النفايات. هرعت إلى هناك، ووجدت خلف واحدة من صفائح القمامة ساقين مفتوحتين داخل سروال رياضي مضرجٍ بالدماء، والنصف العلوي من جسده بين الحاويات فجثمت إلى جانبه، ليرفع الصبي رأسه ويتأوّه بهدوء.

«مرحبا؟ هل تسمعني؟».

«لقد أصابوني».

كان الدم ينزف بغزارة مما بدا جرحَيْن في ساقه، «لقد أصابوني..».

أمسكت بهاتفي واتصلت بسام وكان صوتي خفيضًا ملحًا: «أنا عند الصناديق على يمينك، رجاءً تعال بسرعة».

كان بإمكاني رؤيته ينظر حوله ببطء حتى تمكن من رؤيتي وتحديد مكاني. وظهر إلى جانبه شخصان مسنان، سامريان من عهد مضى، وكان باستطاعتي رؤيتهما يسألانه عن الفتاة المسجاة على الأرض والقلق مرتسم على ملامحهما. وضع سام بلطف بطانية على الفتاة التي تصطنع الإغماء وطلب منهما مراقبتها، ثم مضى سريعًا في اتجاه سيارة الإسعاف كما لو كان سيحصل على مزيد من المعدات، أما دونا فلم يكن هناك أثر لها.

فتحت الحقيبة التي أعطاني إياها سام، وأخرجت لفافة من الشاش ووضعتها على ساق الصبي، ولكن الدماء كانت تتدفق بغزارة. «حسنًا، هناك من سيأتي لمساعدتك وسوف ننقلك إلى سيارة الإسعاف حالًا»، بدوت كممثل في فيلم سيئ، ولكن لم تكن لديَّ فكرة عن شيء آخر يمكنني قوله. هيا يا سام.

تألم الشاب، «عليك إخراجي من هنا». وضعت يدي على ذراعه محاولة أن أبقيه هادئًا. هيا يا سام، هيا، أين أنت بحق السماء؟ ثم سمعت صوت محرك سيارة الإسعاف ووجدتها تتحرك مسرعة في اتجاهي من بين مواقف السيارات، ثم توقفت فجأة وخرجت منها دونا في لمح البصر، وهرعت تجاهي عبر باب السيارة الخلفي ثم قالت: «ساعديني في حمله ولنذهب من هنا».

لم يكن هناك وقت لجلب المحفَّة وحمله عليها، ففي مكان ما بالأعلى سمعت صياح وصوت خطوات أقدام متسارعة. قمنا بحمل الصبي على أكتافنا حتى وصلنا إلى السيارة ووضعناه سريعًا داخلها، وأغلقت دونا الباب بسرعة وهرعت أنا إلى المقعد الأمامي وقلبي يخفق بشدة، وأغلقتُ

الباب. كنت قادرة على رؤيتهم الآن، عصبة من الرجال يركضون نحونا من الطابق العلوي، ويحملون في أيديهم... ماذا؟ مسدسات؟ وسكاكين؟ شعرت بهلع، وأخذت أبحث بعينيَّ عن سام وها هو يركض عبر المساحة المفتوحة، وعينه نحو الأعلى، فقد رآهم هو الآخر.

رأتهم دونا قبله، ورأت ذلك المسدس المرفوع في يد الرجل. أخذت تسب وتشتم بصوت مرتفع وهي تأخذ سيارة الإسعاف سريعًا في الاتجاه الآخر المعاكس، وتلف حول موقف السيارات، متجهه مباشرة نحو المنطقة العشبية حيث كان سام يسرع في طريقه تجاهنا. كان يمكن تمييزه ورؤيته وهو يقترب في زيه الأخضر الفسفوري.

صحت من نافذتي: «سام!».

حدق فيَّ، ثم نظر إليهم قائلًا بصوت يعلو على صوت المحرك الهادر: «اتركوا سيارة الإسعاف وشأنها، تراجعوا، إننا نؤدي عملنا وحسب».

قالت دونا لاهثة: «ليس هذا الوقت المناسب يا سام، ليس الآن».

استمروا يركضون تجاهنا بأقصى سرعة، حتى إن واحدًا منهم قفز برشاقة من فوق جدار متخذًا طريقه إلى أسفل عبر الدرج، وأردت الخروج سريعًا من ذلك المكان.

استمر سام في مشيه نحوهم رافعًا يده وفاتحًا راحته وهو يقول: «اتركوا سيارة الإسعاف وشأنها يا شباب اتفقنا؟»، كان صوته واثقًا وهادئًا، ولكنه لم يهزم أيًا من الخوف الذي حملته داخلي. ثم تمكنت من خلال المرآة الخلفية من رؤية الرجال يسيرون وقد توقفوا عن الركض الآن، وجزء بعيد مني قال مفكرًا أوه، شكرًا لله وكان الصبي في المقصورة الخلفية لا يزال يتألم.

قالت دونا وهي تستدير: «هيا يا سام، تعال إلى هنا، ويمكننا أن نحصل على...».

ثم دوى صوت رصاص.

دوَّى الصوت مرتفعًا مخترقًا ذلك الصمت الرهيب الذي يسود المكان لدرجة أنني شعرت أن رأسي تمدد وانكمش مع الصوت حين جفلت. وفي لمح البصر دوى صوت رصاص آخر...

صرخت فزعة. وصاحت دونا: «اللعنة...».

ثم صاح الصبي: «إننا في حاجة إلى الخروج من هنا يا رجل!».

نظرت إلى الخلف آملة أن يدلف سام إلى السيارة. تعال يا سام الآن من فضلك. ولكن سام كان قد اختفى. كلا، لم يختفِ. كان هناك شيء مكوَّم على الأرض: جاكت فسفوري لامع. بقعة خضراء على الأرض الإسمنتية رمادية اللون.

توقف كل شيء.

كلا.

توقَّفت سيارة الإسعاف رويدًا رويدًا، ثم خرجت منها دونا وركضت خلفها. كان سام جاثمًا على الأرض دون حراك مضرَّجًا بدمائه التي كوّنت بركة من حوله. ومن بعيد احتمى الشخصان المسنان خلف باب منزلهما الآمن، وقفزت الفتاة التي كانت قبل ذلك ملقاة دون حراك على ساقيها سريعًا وهرعت تجاهنا بسرعة شخص رياضي عبر العشب. وكان الرجال لا يزالون قادمين في طريقهم نحونا. شعرت بمرارة في فمي.

«لو اسحبيه!» أخذنا نجر سام تجاه مؤخرة السيارة. كان ثقيلًا كما لو كان يقاوم متعمدًا، أخذت في جذبه من ياقته وأسفل ذراعه حتى انقطعت أنفاسي. تحول وجه سام إلى الأبيض الشاحب، وظهرت هالات كبيرة سوداء أسفل عينه النصف مغمضة، كما لو كان لم ينم منذ مئات السنين، وشعرت بدمائه على بشرتي، كيف لم أعرف مدى دفء دمائه من قبل؟ كانت دونا بالفعل داخل السيارة تحاول رفعه، كنا ندفعه إلى الداخل بكل السبل وبما أوتينا من قوة، شعرت بغصة في حلقي وحاولت أن أرفعه بكل عزم وأقول «ساعدني!»، كما لو كان هناك من سيساعدني بالفعل!

ثم أخيرًا كان داخل السيارة، وساقه في الزاوية الخاطئة منها، وانغلقت أبوابها بقوة من خلفي.

انتابني هلع مع صوت ارتطام فوق سطح سيارة الإسعاف، صرخت وانحنيت. كان هناك جانب مني يفكر هل تلك هي النهاية إذن؟ هل تلك الطريقة التي سألقى بها حتفي، مرتدية سروالي الجينز السيئ، وأبعد عدة أميال عن والدي اللذين يتجادلان حول كعكة عيد ميلاد في حضور شقيقتي؟كان الصبي المتمدد في خلفية السيارة يصرخ بصوت ملؤه الهلع والخوف. وحينها تحركت سيارة الإسعاف بسرعة منعطفة نحو اليمين بينما اقترب الرجال من جهة اليسار. رأيت يدًا ترتفع، وظننت أنني سمعت دوي إطلاق. أخفضت رأسي ثانية بشكل غريزي.

«اللعنة!» أخذت دونا تتأرجح وتنعطف بالسيارة ثانية.

رفعت رأسي، وكنت أرى المخرج. انعطفت دونا إلى أقصى اليمين، ثم إلى أقصى اليسار وكانت السيارة تقريبًا قد مالت على جانبها بالكامل وتسير على عجلتين. انكسرت المرآة الجانبية بسبب ارتطامنا بسيارة، وتحرك أحدهم باتجاهنا ولكن دونا انعطفت واستمرت في السير من دون توقف. سمعت صوت قبضةً غاضبةً تضرب على جانب السيارة قبل أن نتمكن من الخروج على الطريق ويركض خلفنا مجموعة من الشباب الغاضبين المهزومين الذي تحول ركضهم إلى مجرد هرولة حين فقدوا الأمل في اللحاق بنا.

«يا إلهي».

شغَّلت دونا الضوء الأزرق، وهي تتحدث في جهازها إلى فريق المستشفى ببعض العبارات التي لم أتبينها، كنت أجفف وجه سام الذي تحول إلى اللون الرمادي، ويتصبب عرقًا، وعيناه زجاجيتان. كان ساكنًا تمامًا.

صحتُ لدونا: «ما الذي يمكنني فعله؟»، «ما الذي يمكنني فعله؟»هدَّأت دونا من سرعة السيارة ثم استدارت برأسها قليلًا: «اعثري على الجرح. هل يمكنك رؤيته؟».

«إنه في معدته، هناك ثقبان في معدته، والكثير من الدماء، يا إلهي، إنه

ينزف بغزارة». رفعت يدي وقد غطَّتها الدماء، شعرت أن أنفاسي متهدِّجة كما لو كنت على وشك أن أفقد وعيي.

«أريدك أن تهدئي يا لويزا الآن، اتفقنا؟ هل هو يتنفس؟ هل هناك نبض؟».

تفحصته وشعرتُ بارتياح بداخلي وأنا أقول لها: «أجل».

«لا يمكنني التوقف، إننا قريبون للغاية. قومي برفع ساقه، حسنا؟ اثني ركبتيه واجعليهما بالقرب من صدره، والآن افتحي قميصه، قومي بتمزيقه المهم أن تصلي إلى الجرح، هل يمكنك وصفه لي؟».

المعدة التي كنت أشعر بقوتها ونعومتها ودفئها حين يحتضنني، مضرجة الآن بالدماء ومثقوبة وفي حالة من الفوضى، تهدج صوتي وأنا أقول «يا إلهي...».

«لا تدخلي في نوبة فرع يا لويزا الآن، هل تسمعينني؟ لقد أوشكنا على الوصول، عليك أن تضغطي على الجرح، هيا خذي لفافة من الشاش من حقيبتي، خذي أكبر واحدة، أو أيا كان لتوقفي النزيف، اتفقنا؟».

عادت لتركز انتباهها على الطريق وهي تقود سيارة الإسعاف عبر شارع ذي اتجاه واحد. تأوَّه الفتى المتمدد على المحفة بصوت خفيض، ثم غاب في آلامه. وكانت السيارات أمامنا تفسح لنا الطريق المضاء بمصابيح الصوديوم مع صوت صفارة السيارة، وتتمايل في حركات متموجة على الإسفلت. صوت سيارة الإسعاف، إنه نفس الصوت الذي لا ينتهي، صاحت دونا في جهازها اللاسلكي «لقد أصيب المسعف، أكرر لقد أصيب المسعف، طلقة نارية وإصابة في المعدة، الوقت المقدَّر لوصولنا ثلاث دقائق، سنحتاج إلى عناية طارئة».

بيد مرتجفة أخذت الضمادات، وقمت بتمزيق قميص سام محاولة الثبات في جلستي مع تمايل السيارة. كيف يمكن أن يكون ذلك هو الشخص الذي كان يتجادل معي منذ خمس عشرة دقيقة؟ كيف يمكن لشخص في قوته وصلابته أن ينهار هكذا أمامي؟».

«سام؟ هل يمكنك أن تسمعني؟»، كنت الآن بالقرب منه على ركبتيّ، وتحول لون سروالي إلى الأحمر القاتم. كانت عيناه مغلقتين، وحين فتحهما بدا وأنهما تنظران نحو شيء بعيد. اقتربتُ بوجهي منه حتى أكون في مجال رؤيته، وللحظه التقت عيناي بعينه ورأيته يرمش كما لو كان يقول لي إنه يسمعني.

أمسكت بيده بين يدي، على النحو الذي أمسك به يديَّ حين أسعفني في سيارة أخرى، منذ مليون عام مضت. «سوف تكون بخير، هل تسمعني؟ ستكون بخير».

لا شيء. لم يبدُ أنه تمكن من سماع صوتي.

«سام؟ انظر إليَّ يا سام».

لم أجد أي رد.

شعرت كأنني قد عدت إلى تلك الغرفة في سويسرا، حيث ابتعد وجه ويل عن وجهي، وأنا أفقده.

«كلا! لا يمكنك فعل ذلك، أتسمعني؟»، ثم اقتربتُ بوجهي من وجهه لتصل له كلماتي ملء أذنيه، «سام، ابقَ معي، هل تسمعني؟»، وكانت يدي تضغط على الجرح كما طلبت مني دونا، وجسدي فوق جسده يتمايل بفعل حركة السيارة. كان هناك صوت نحيب في أذني، وأدركت أنه نحيبي أنا. أدرت وجهه بيدي نحو وجهي حتى أجبره على النظر إليَّ، «ابق معي يا سام! هل تسمعني يا سام؟ سام لا تتركني! سام، سام»،لم ينتبني خوف كهذا. تملكني الخوف وأنا أنظر إلى عينيه بنظرتهما الثابتة، وشعوري بدمائه المتدفقة دون توقف.

انغلاق الباب.

«سام!».

توقّفت سيارة الإسعاف.

قفزت دونا إلى مؤخرة السيارة، وقامت بفتح كيس بلاستيكي نظيف وأخرجت منه عقارًا مخدّرًا، وحشوة بيضاء، وحقنة، وحقنت شيئًا ما في

ذراع سام. وبيد مرتعدة علّقت له محلولًا ووضعت قناع الأوكسجين على وجهه. كان جسدي يرتعد بعنف. أمرتني دونا قائلة بينما تتحرك خارجا وأنا أكمش جسدي فاسحة لها الطريق «ابقي هنا، استمري في الضغط، هذا عظيم». ثم اقتربت بوجهها من وجهه، «هيا، هيا صديقي، هيا يا سام، إننا هنا». كنت أسمع صوت صفارات سيارة الإسعاف، بينما كانت تعمل على إسعافه محركة يدها بخفة بين المعدات وهي تحدّثه، «ستكون بخير يا صديقي القديم، تماسك يا صديقي، اتفقنا؟»، كانت الشاشة تظهر ضوءًا أخضر وأسود يتناوبان. وسمعت صور الصفير ثانية.

ثم انفتح الباب وظهر عدد كبير من المسعفين بأحذيتهم المضيئة بالنيون الأخضر. وكان هناك مسعفون بملابس خضراء، وآخرون بمعاطف بيضاء، حملوا الصبي الذي كان لا يزال يشكو ويتوعد، ثم حملوا سام بلطف من أمامي. وبينما كنت أنهض انزلقت بفعل الدم الذي غطى أرضية السيارة، استندت على يدي لأعدّل وضعي، وتلوّنت يدي بلون أحمر.

تراجعت أصواتهم. ولمحت وجه دونا الشاحب يعتريه قلق عارم. وتنامت إلى سمعي صيحة بتعليمات محددة: «إلى غرفة العمليات مباشرة». وقفت بمفردي خلف سيارة الإسعاف، أراقبهم وهم يركضون حاملين سام بخطوات تدب بثقل على الإسفلت. وانفتح باب المستشفى ليبتلعهم داخله، وحين انغلق ثانية، لم يكن هناك غيري يقف في صمت في موقف السيارات.

الفصل السابع والعشرون

إن ساعات الانتظار التي نمضيها في المستشفى ذات طابع مطاطي غريب. تبدو أنها لا تنتهي. ولكنني كنت أتغلب على طولها أثناء انتظاري لويل حين كان يجري فحوصاته الطبية بقراءة المجلات، وتفحّص الرسائل على هاتفي، والنزول لاحتساء قهوة في ساحة المستشفى ذات الأسعار المرتفعة، أو القلق بشأن رسوم إيقاف سيارتي في الموقف. حتى إنني كنت أشكو، من دون أن أعني ذلك حقًا، من المدة التي تستغرقها تلك الفحوصات.

أما الآن، فإنني جالسة على كرسي بلاستيكي صغير وقد أصاب عقلي الخدر، نظرتي مثبتة إلى الحائط، لا أدري منذ متى وأنا أمكث هناك. جلست غير قادرة على التفكير، فاقدة الشعور. فقط أنا والكرسي البلاستيكي، ومشمع الأرضية أسفل حذائي الرياضي الملطخ بالدماء.

كانت الإضاءة فوق رأسي ساطعة على نحو قاسٍ، يظهر أن الممرضات اللاتي كن يهرولن من حولي لا يلاحظن وجودي. واحدة منهن بعد أن دلفت إلى المستشفى، كانت طيبة بما يكفي لتريني مكان المرحاض حتى أغسل يديّ من الدماء، ولكن دماء سام كانت لا تزال بين أظافري بلونها الأحمر القاتم مشيرة إلى فاجعة حدثت منذ وقت غير بعيد. جزء منه في جزء مني. جزء منه في مكان لا يجدر أن يكون فيه.

حين أغلقت عيني سمعت كل الأصوات، صوت الرصاصة المدوية

التي أصابت سقف سيارة الإسعاف، وصدى صوتها، وصوت صفارة سيارة الإسعاف الذي لا يفارقني يتكرر مرات ومرات. رأيت نظرته في اللحظة القصيرة التي نظر إليّ فيها ولم يكن فيها أي شيء، لم تحمل نظرته أي انزعاج بل ذهول من أنه ملقى وغير قادر على الحراك.

لم تفارق عينيَّ تلك الجروح، ولكنني لم أرها ثقوبًا صغيرة في بطنه مثل تلك التي نراها في الأفلام عقب إطلاق الرصاص، ولكنني رأيتها ثقوبًا تنبض بالحياة، ولا تتوقف عن دفع الدم خارج جسده كما لو كانت ترغب في التخلص منه.

جلست بلا حراك على الكرسي البلاستيكي، لأنني لا أعلم ماذا عساي أفعل غير ذلك. في مكان ما في نهاية هذا الممر توجد غرفة العمليات، وهو بداخلها الآن، حيًا أو ميتًا لا أدري. إنه يرقد هناك موصولًا بالأسلاك، ويحيط به عدد من زملائه يحاولون إنقاذه، وربما يقوم أحدهم الآن بجذب قطعة القماش الخضراء فوق...

أغرقت رأسي بين يدي أستمع إلى صوت أنفاسي تدخل صدري وتخرج منه. بدت رائحة جسدي غير مألوفة: رائحة الدماء والمطهّر اللاذع أضفت مرارة إلى خوفي الدفين. وكنت ألاحظ بين الحين والآخر أن يدي ترتعد، ولم أكن أدري هل كان ذلك بسبب ضغط دمي المنخفض، أو إرهاق، أو بسبب شعوري بالجوع الشديد.

بعثت لي شقيقتي برسالة نصية تقول:

أين أنت؟ إننا ذاهبون لتناول البيتزا، إنهما يتحدثان، ولكننا في حاجة إلى وجودك لتلعبي دور الأمم المتحدة في تلك المحادثات.

لم أرد على رسالتها. لم أدرِ ماذا أقول.

وتلقيت منها رسالة أخرى:

إنه يتحدث عن ساقيها المشعرتين مرة أخرى، رجاء تعالي، قد يسوء الأمر بينهما. إن لديهما طاقة كبيرة على الاستمرار في الشجار.

أغمضت عينيَّ وحاولتُ استرجاع شعوري وأنا أستلقي إلى جوار سام على العشب، وكيف مد رجله وكانت أطول كثيرًا من رجلي. استرجعت الرائحة المطمئنة لقميصه، ونبرة صوته الرخيمة المنخفضة، والشمس على وجهي. والشمس على وجهه. وهو يقترب بوجهه من وجهي ويقبّلني، والسعادة التي كانت تفضحها ملامحه عقب كل قبلة. تذكرت طريقته في المشي، وكيف كان يمشي متزنًا، وكيف كان رجلًا صلبًا -أكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتي صلابة -كما لو أنه ليس هناك ما يهزمه.

شعرت بوصول الرسالة فأخرجت هاتفي من جيبي وقرأت رسالة شقيقتي: أين أنت؟ ماما قلقة عليك. وجدت أن الساعة الحادية عشرة إلّا الربع مساءً. لم أستطع تصديق أنني نفس الشخص الذي استيقظ هذا الصباح وقام بتوصيل ليلي إلى محطة القطار. اعتدلت في جلستي على المقعد وفكرت لدقيقة ثم أخذت أصابعي تتنقل بين المفاتيح على الشاشة.

إنني في مستشفى سيتي هوسبيتال، لقد وقعت حادثة، وأنا بخير، سوف أعود حين أستطيع.

انتظرت للحظة، ثم ضغطت إرسال.

وأغلقت عيني، أدعو وأفكر.

انتبهت مع صوت فتح الباب، ورأيت ماما مسرعة عبر الممر مرتدية معطفها، وفاتحة ذراعيها بالفعل تجاهي.

«ما الذي حدث بحق السماء؟». كانت ترينا خلفها تجر توم مرتديًا منامته ذات القبعة ورافعًا قبعتها فوق رأسه. وما إن رأتني قالت: «لم تشأ ماما القدوم بمفردها من دون أبي، ولم أرغب في المكوث هناك بمفردي». نظر إليَّ توم والنعاس يملأ عينيه وأشار لي بالتحية بتكاسل.

جلست ماما إلى جواري وهي تقول: «لم يكن لدينا أدنى فكرة عما حدث لكِ، لماذا لم تخبرينا؟».

«ما الذي يحدث هنا؟».

«لقد تعرض سام للإصابة بطلق ناري».

«طلق ناري؟ حبيبك المسعف؟».

قالت ترينا: «أُصيب بمسدس؟».

وحينها نظرت ماما إلى سروالي الجينز، محدقة إلى بقع الدماء الحمراء في ذهول ثم رنت بنظرها إلى بابا.

«كنت معه».

ضغطت ماما على فمها، «هل أنت بخير؟»، ثم غيرت السؤال إلى: «هل... هل هو بخير؟».

وقف أربعتهم دون حراك أمامي ترتسم على ملامحهم الصدمة والقلق. ولكنني قد انتابني فجأة شعور بالارتياح لكونهم هنا إلى جواري، بينما تقدم أبي لاحتضاني، قلت: «لا أدري». ثم انخرطت في البكاء.

جلسنا على الكراسي البلاستيكية لما بدا كأنه أعوام عديدة لا تنتهي. ذهب توم في النوم على حجر ترينا، وبدا وجهه شاحبًا أسفل إضاءة ممر المستشفى، وكانت لعبته المحشوّة على شكل قطة تضغط على المنطقة الناعمة بين رقبته وذقنه. جلس كل من بابا وماما إلى جواري، وكان كل منهما يقوم من وقت لآخر بالتربيت على يدي أو على جانب من وجهي قائلين إن كل شيء سيكون على ما يرام. استندتُ على أبي تاركة دموعي تنهمر على وجهي في صمت، وكانت ماما تمسح دموعي بمنديلها دائم النظافة والحضور. وكانت تذهب بين حين وآخر لإحضار بعض المشروبات الساخنة لنا.

قال بابا في المرة الأولى التي ذهبت فيها ماما: «لم تقدم على فعل ذلك من نفسها منذ عام كامل مضى». ولم أدرِ هل كان يقول ذلك بدافع الشكوى أم بدافع الإعجاب.

كان الكلام بيننا قليلًا، فلم يكن لدينا الكثير لنقوله. وكان الدعاء يتردَّد في ذهني بلا توقُّف أرجوك اجعله بخير حال، أرجوك اجعله بخير حال، أرجوك اجعله بخير حال.

كان ذلك ما تفعله بنا الكارثة: تبعد عن رأسنا كل الضوضاء البيضاء التي تجعلنا نفكر بأسلوب «هل كان عليّ أن»، وأسلوب «ماذا لو». كل ما أردته في تلك اللحظة هو سام. أريد أن أشعر بذراعه حولي، أريد سماع صوته يتحدَّث أليّ، أريد أن أجلس في كابينة سيارة الإسعاف إلى جواره. أريده أن يصنع لي السلطة من خضار زرعه في حديقته، أن أشعر بدفئه، أن يعلو وينخفض صدره وهو يتنفَّس أثناء نومه إلى جواري. لماذا لم أكن قادرة على إخباره بذلك؟ لماذا أهدرت الكثير من الوقت في القلق بشأن ما هو غير مهم؟

وحين دخلت ماما من باب الممر البعيد تمسك في يدها حاملًا كرتونيًا يحتوي على أربعة أكواب من الشاي الساخن، انفتح باب غرفة العمليات وظهرت دونا ولا تزال آثار الدماء على زيها. وقفت في مكاني. مسحت على شعرها ودنت مقتربة منا بحركة بطيئة وقد بدا عليها الإرهاق الشديد وتعبيرات وجهها مميتة، شعرت أنني على وشك أن يصيبني الإغماء قبل أن تقول: «إن هذا الرفيق عنيد وقوي، قويٌّ حقًا».

تنهدت بعمق غير مصدقة، بينما لمست ذراعي قائلة: «لقد أبليت بلاءً حسنًا يا لو» ثم أطلقت هي الأخرى تنهيدة طويلة مرتعدة: «لقد أبليت بلاءً حسنًا الليلة حقًا».

أمضى سام ليلته في العناية المركزة، ثم تم نقله في الصباح إلى وحدة العناية الخاصة. اتصلت دونا بوالديه، وقالت إنها ستمر على منزله بعد أن تحظى بقسط من النوم لإطعام حيواناته. ذهبنا معًا لرؤيته عقب منتصف الليل ولكنه كان نائمًا، ولا يزال شاحبًا، وعلى وجهه قناع يخفي معظمه. أردت الاقتراب منه أكثر، ولكن خشيت لمسه وكل هذه الأسلاك والأنابيب والشاشات مربوطة به.

«هل سيكون بخير حقًا؟».

أومأت دونا، وجاءت ممرضة لتفحص مستوى ضغطه وتقيس نبضاته.

«لقد كنا محظوظين أن البندقية كانت من النوع القديم، فمعظم الصغار الآن يستخدمون البنادق نصف الأوتوماتيكية، ولو كانت من هذا النوع لأوْدت بحياته». ثم قامت بحك عينها «من المرجح أن يتم تداول الخبر في الأخبار، إذا لم يجد جديد. ولكن هناك خبرًا آخر عن مقتل أم وصغيرها على طريق آثينا رود، لذا فمن الممكن ألّا تجذب قصتنا انتباه الأخبار».

انتقلتُ بنظري منه إليها قائلة: «هل ستستمرين؟».

«أستمر؟».

«أعني هل ستستمرين في عملك كمسعفة؟».

حرّكت وجهها بما يوحي باستغرابها وعدم فهمها للسؤال قبل أن تجيب، «بالطبع، إنه عملي». ثم ربتت على كتفي مردفة: «اذهبي واحصلي على قسط من النوم يا لو، فهو على الأرجح لن يفيق قبل صباح الغد على أي حال. إنه تحت تأثير الفنتانيل بنسبة ثمانية وسبعين بالمائة الآن».

كان والداي في انتظاري حين عدت إلى الرواق، لم يقولا أي شيء، أومأتُ لهما، فاحتضنني أبي وربتت ماما على ظهري. «هيا لنذهب إلى المنزل حبيبتي، هيا لترتدي ملابس نظيفة».

اتضح لي أن هناك نبرة صوت معينة يستخدمها صاحب العمل الذي اضطر منذ بضعة أشهر مضت أن يستمع إلى سبب عدم قدومك إلى العمل حين سقطت من فوق سطح بناية، وتطلبين منه الآن تبديل نوبات العمل لأن الرجل الذي ربما يكون، أو لا يكون، حبيبك قد تعرض لإطلاق نار مرتين في معدته.

«أنت... أعني هو، قد تعرّض إلى ماذا؟».

«تعرض لإطلاق رصاص مرتين، لقد خرج من العناية المركزة ولكنني أود أن أكون إلى جواره حين يفيق في الصباح. فكنت أتساءل هل يمكنني تبديل نوبة العمل معك؟».

سادت فترة صمت قصير.

«حسنا... أوه... لا بأس» ثم تردد قبل أن يردف: «هل أُصيب فعلًا؟ بمسدس حقيقي؟».

أجبت بصوت هادئ يغلب عليه الضحك: «يمكنك القدوم وفحص الثقوب بنفسك».

ناقشنا بعض التفاصيل اللوجستية... مكالمات نحتاج إلى القيام بها، زيارات من المكتب الرئيسي، وقبل أن أنهي المكالمة صمت ريتشارد لدقيقة قبل أن يقول: «لويزا، هل حياتك على هذا النحو دائمًا؟».

فكرت في حياتي قبل عامين ونصف العام فقط من الآن، وكيف كانت تقتصر على المسافة القصيرة التي كنت أقطعها من منزل والدي إلى المقهى الذي أعمل فيه، وطقوس ليلة يوم الثلاثاء وأنا أشاهد باتريك يركض أو أتناول عشاءً خفيفًا مع والديَّ. نظرت إلى كيس القمامة في زاوية الغرفة الذي يحمل حذائي الملطخ بالدماء قبل أن أجيبه: «ربما، على الرغم من أنني أعتقد أنها مجرد مرحلة».

بعد تناول وجبة الإفطار غادر والدايَّ إلى منزلهما، ودت أمي لو تبقى ولكنني طمأنتها أنني بخير، وأنني لا أعرف أين يمكن أن أكون خلال الأيام القليلة المقبلة فلن يكون هناك فائدة من بقائها. وكذلك ذكرتها أنه في المرة الأخيرة التي تُرك جدي فيها بمفرده التهم قدرين من مربى التوت وإناء لبن كامل الدسم.

أمسكتْ وجهي بكلتا يديها: «أنت بخير حقًا رغم كل شيء». قالتها كما لو كانت تطرح سؤالًا، على الرغم من وضوح كل شيء.

«ماما.. أنا بخير».

هزت رأسها وهي تلتقاط حقيبة يدها وتقول: «لا أدري يا لويزا، أنت تختارين المصائب بعناية».

اندهشت من صوت ضحكتي المرتفع. ربما صدرت مرتفعة على هذا النحو كردة فعل على الصدمة، ولكن ما أعجبني حقًا حينها هو؛ شعوري بأنني لم أعد خائفة من شيء بعد الآن.

وأنا أستحم حاولت عدم النظر إلى لون المياه الوردي التي جرت على ساقيَّ بفعل آثار الدماء. وتوجَّهت إلى متجر سمير لشراء باقة الزهور الأكثر نضارة لديه، وعدت إلى المستشفى في العاشرة صباحًا. وقد أخبرتني الممرضة أن والدي سام قد جاءا منذ عدة ساعات مضت بالفعل. كان والداه قد توجَّها قبل مجيئهما إلى عربة القطار برفقة جاك ووالده من أجل إحضار أغراض سام.

قالت الممرضة: «لم يكن واعيًا حين حضروا ولكنه الآن يدرك الأمور أكثر، وهذا أمر معتاد مع من يخرجون من غرفة العمليات، فالبعض يتعافى أسرع من غيره».

أبطأت خطوتي حين وصلنا إلى الباب، رأيته عبر الزجاج، مغمضًا عينيه، تمامًا كما كان الليلة الماضية وكل الأسلاك والشاشات كما هي، ويرقد إلى جوارها بلا حراك. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال شاحبًا للغاية، فإن وجهه بدا مألوفًا أكثر.

«هل أنت واثقة من أنه لا مانع من دخولي إليه؟».

«أنت لويزا، أليس كذلك؟ لقد كان يسأل عنك»، قالتها مبتسمة وهي تداعب أنفها، «ناديني إذا سئمت من هذا الرجل، إنه لطيف وجميل».

دفعت الباب بهدوء، ففتح عينيه واستدار برأسه قليلًا نحوي. نظر إليَّ نظرة كما لو كان يحتضنني فيها وشيء ما بداخلي شعر بالارتياح بغتة.

«بعض الأشخاص سيفعلون أي شيء ليتفوقوا عليَّ في عدد الإصابات». قلت له مبتسمة وأنا أغلق الباب خلفي.

جاء صوته واهنًا للغاية: « أجل بالفعل، لكنني تفوقت في هذه اللعبة». وابتسم نحوي ابتسامة متعبة.

وقفت متململة أنتقل بوزني من ساق إلى أخرى، لقد كرهت المستشفيات، وعلى استعداد للقيام بأي شيء لعدم دخولها ثانية.

«تعالي هنا».

وضعت باقة الزهور على الطاولة ومشيت نحوه، حرك ذراعه مشيرًا إليَّ أن أجلس إلى جواره على الفراش. جلست إلى جواره، ولأنني شعرت بعدم الارتياح للنظر إليه من أعلى هكذا استلقيت إلى جواره بحرص ألّا أتسبب له بأي ألم. وضعت رأسي على كتفه، وشعرت بثقل رأسه يستند إلى رأسي، ثم قام بتحريك ذراعه بلطف لاحتضاني. بقينا إلى جوار بعضنا بعضًا هكذا في صمت لفترة دون حديث مكتفيين فقط بالاستماع لأصوات الممرضات وحركتهن بالخارج.

همست له: «ظننتك مت».

«من الواضح أنه كانت هناك امرأة رائعة جالسة في مؤخرة سيارة الإسعاف تمكنت من إبطاء تدفق دمي».

«مجرد امرأة ما».

«أظن ذلك».

أغلقتُ عينيّ مستشعرة دفء بشرته على جلدي، ورائحة المواد الكيميائية غير المحببة المنبعثة من جسده. لم أفكر في أي شيء. سمحت لنفسي فقط بالشعور بتلك اللحظة، تلك المتعة العميقة التي لا مثيل لها لوجودي إلى جواره، لشعوري بجسده إلى جوار جسدي، لشعوري بتلك المساحة التي يشغلها من الفراغ المحيط بي. حركت رأسي وقمت بتقبيل جلده الناعم في جانب ذراعه وشعرت بأنامله تداعب شعري برقّة.

«لقد أخفتني كثيرًا أيها المسعف سام».

سادت فترة صمت طويلة، كنت قادرة فيها سماع كل ما يدور في رأسه من أفكار اختار ألّا يبوح بها. ثم قال في النهاية: «أنا سعيد لأنك هنا».

بقينا إلى جوار بعضنا بعضًا لفترة صمت أطول، وحين دخلت الممرضة إلى الغرفة رافعة حاجبًا مستنكرة قربي الشديد من عدد مهم من الأنابيب والأسلاك الموصَّلة بسام، نهضت على مهل وأطعت أمرها في الخروج والحصول على وجبة إفطار حتى تنتهي هي من عملها. قمت بتقبيله،

وحين قمت بالتربيت على شعره ارتفعت عيناه قليلًا نحوي ورأيت فيهما، بسعادة وامتنان، شيئًا مما أعنيه حقًا بالنسبة له، «سوف أعود إليكَ بعد انتهاء نوبتي».

«ربما تلتقين بوالديَّ مصادفة». قالها كما لو كانت تحذير.

«لا تقلق سوف أحرص على عدم ارتداء قميصي المكتوب عليه ألفاظ نابية».

ضحك ثم تأوَّه، إذ آلمه الضحك.

كنت أتحرك حوله بينما كانت الممرضات يقمن بعملهن، تلك التحركات التي نقوم بها حين نحاول أن نجد لنا عذرًا للبقاء في المكان. قمت بإخراج بعض الفاكهة، ووضع بعض المناديل، وترتيب بعض المجلات التي أعلم تمامًا أنه لن يقرأها. ثم حان وقت رحيلي. كنت بالقرب من الباب حين قال: «لقد سمعتك».

كانت يدي عند مقبض الباب بالفعل مستعدّة لفتحه. فتركته واستدرت.

«أقصد ليلة أمس، حين كنت أنزف، سمعتك».

التقت عينانا، وفي تلك اللحظة تحول كل شيء. وقد رأيت ما فعلته حقًا. رأيت أنني يمكن أن أكون محور حياة شخصٍ ما، وأن أكون سببًا لبقائه حيًا. رأيت أنني يمكن أن أكون كافية له كما أنا. عدت إلى سام، وأمسكت وجهه بين راحتيّ وقبَّلته بقوة شاعرة بدموعي الساخنة تنهمر فوق وجنتيه، وبذراعه تجذبني نحوه بينما يبادلني القبلات. ضغضت بوجنتي على وجنته، نصف ضاحكة، ونصف باكية، غير آبهة لوجود الممرضات في الغرفة، لا أكترث إلّا لهذا الرجل الذي أمامي. ثم، غادرت الغرفة في النهاية، ماسحة وجهي، ضاحكة على دموعي التي غلبتني، ومتجاهلة النظرات التي يوجِّهها المارّة نحوي في فضول.

كان يومًا جميلًا، ولو أنه كان تحت أضواء ممرات المستشفى. وخارج جدرانها، سمعت صوت الطيور مغردة مع الصباح الجديد، ورأيت الناس

يعيشون حياتهم ويتطلعون إلى غد سيصبحون فيه أكبر عمرًا. اشتريت قهوة وحلوى المافين وبدا مذاقها الأكثر روعة على الإطلاق. بعثت برسالة إلى والديَّ، وإلى ترينا، ثم إلى ريتشارد أخبره فيها أنني سأحضر بعد وقت قصير. ثم بعثت رسالة إلى ليلي قلت لها فيها:

فكرتُ في أنك ربما ترغبين في معرفة أن سام في المستشفى، لقد تعرض لحادث إطلاق نار، ولكنه الآن بخير. أعلم أنك سوف تودِّين إرسال بطاقة له، أو مجرد رسالة نصية إذا كنت مشغولة.

جاءني الرد بسرعة البرق. ابتسمت، متعجبة من قدرة هؤلاء الفتيات على الكتابة سريعًا في حين يفعلن أي شيء آخر ببطء.

أوه يا إلهي، لقد أخبرت الفتيات في المدرسة معي الآن بالأمر، وأصبحت أكثر شخص يعرفونه روعة ويحمل في جعبته حكايات مثيرة. ولكن دعيني أتحدث بجد الآن ولتخبريه بحبي وخالص أسفي لما حدث له. وبالمناسبة إنني آسفة للظهور أمامه وأنا مرتدية ملابسي الداخلية من قبل، ولم أكن أعني ذلك. أعني لم أقصد إثارته أو شيئًا من هذا القبيل. أتمنى أن تكونوا سعداء جميعًا يا رفاق. أحبكم.

لم أنتظر ولم أفكر في الرد، نظرت إلى المستشفى والمرضى السائرين بتثاقل والسماء الزرقاء الساطعة ونقرت أصابعي على أزرار هاتفي تكتب لها قبل أن أعي:

أنا سعيدة.

الفصل الثامن والعشرون

وقف جاك منتظرًا تحت الشرفة حين وصلت إلى مقر مجموعة الدعم النفسي، حيث كانت تمطر بغزارة وتلبدت السماء بالغيوم والسحب الأرجوانية اللون المحملة بالعواصف الرعدية والأمطار المنهمرة التي أغرقت المزاريب، وأغرقتني في العشر ثواني التي اضطررت فيها إلى الركض عبر موقف السيارات.

«ألن تدلف إلى الداخل، إن الجو سيئ للغاية...».

حين وصلت إلى الباب، تقدم خطوة إلى الأمام، ولف ذراعيه الطويلين النحيفين حولي فاحتضنني احتضانًا غير مألوف.

«أوه! ما الأمر؟»، حاولت الابتعاد حتى لا أبلله.

حررني من حضنه متخذًا خطوة إلى الخلف قائلًا: «لقد أخبرتنا دونا بما فعلت، أردت فقط أن أشكرك على ذلك».

كانت عيناه مجهدتين وتحيطهما هالات سوداء وكان بإمكاني من النظر إليهما أن أستشف ما مر به خلال اليومين الماضيين، إنه ذلك الشعور المقارب لفقدانه لأمه. قلت له: «إن سام رجل قوي».

«أجل إنه صلب كآنية «التيفال»». وضحكنا بتلقائية كما لو كنا شخصين بريطانيين يختبران معًا مشاعر رائعة.

وفي تجمّعنا المعهود، تحدث جاك بطلاقة غير معهودة عن صديقته التي لا تفهم معنى الحزن الذي يمرّ به. «إنها لا تستطيع فهم السبب الذي يجعلني في صباح بعض الأيام لا أرغب في مبارحة الفراش وأضع الغطاء

فوق رأسي طيلة الوقت، أو السبب وراء شعوري بالذعر حين يقع أي شيء للأشخاص الذين أحبهم. قد يكون السبب في ذلك هو أنها لم تتعرض لأمر سيئ، على الإطلاق، حتى إن أرنبها الذي تربيه لا يزال على قيد الحياة، منذ ثماني سنوات».

قالت ناتاشا: «أعتقد أن الناس يملُّون من الحزن، كما لو كان مسموحًا لك بوقت غير معلن من الحزن -ربما ستة أشهر- وبعدها يشعرون بالانزعاج، لأنك لم «تتحسن»، يبدو الأمر كما لو كنت أدمنت على تعاستك وانغمست في ملذتها».

سادت تمتمة موافقة بين المجموعة: «أجل! صحيح».

قالت دافني: «أعتقد في بعض الأحيان أنه من الأسهل الاستمرار في ارتداء ملابس الحداد، حتى يعلم الجميع أننا ما زلنا محزونين».

فردَّت ليان: «أو ربما نلجأ إلى فكرة تدرّج الألوان، حتى ندرك أننا لدينا مجموعة مختلفة من الألوان بعد مرور عام، فربما ننتقل من الأسود إلى الأرجواني الداكن بحسب عمق ما نعيشه من حزن».

وابتسمت ناتاشا: «ثم يمكننا العودة إلى اللون الأصفر ثانية حين نشعر بالسعادة مرة أخرى».

ردت دافني بابتسامة حذرة: «أوه كلا، أبدو بشعة في اللون الأصفر، إنه لا يليق ببشرتي.

أصغيت إلى قصصهم المختلفة التي يتداولونها بين جنبات ردهة الكنيسة المعتمة... حول الخطوات الحذرة التي يخطونها إلى الأمام للتغلب على معوقاتهم العاطفية. وكان فريد قد انضم إلى دَوْري البولينج وأصبح لديه سبب آخر للخروج يوم الثلاثاء، سبب لا يتضمن التحدث عن زوجته الراحلة. أما صانيل فقد وافق على أن تقدمه أمه إلى ابنة عم له تسكن في مكان في مدينة إلثام. «أنا لا أشجع زواج الصالونات، إلا أنني لا يحالفني الحظ في أساليب التعارف الأخرى. وأقنع نفسي بأنها أمي، ولن تقدمني إلى فتاة سيئة بأي حال».

قالت دافني: «أعتقد أنها فكرة لطيفة، ربما باستطاعة ماما تتبع الشجرة التي انحدر منها آلان قبل أن أقوم أنا بذلك. كانت تتمتع بقدرة هائلة في الحكم على الأمور».

نظرت إليهم كما لو كنت أنظر إلى شيء من الخارج. أضحك على نكاتهم وينتابني الحزن عند سماع حكاياتهم عن أحزانهم ودموعهم والأحكام الخاطئة عليهم. ولكن ما بدا واضحًا لي وضوح الشمس، بينما أجلس على الكرسي البلاستيكي أحتسي قهوتي برفقتهم، أنني وجدت نفسي على الجانب الآخر منهم، وأنني قد عبرت جسرًا ما، فلم تعد معاناتهم معاناتي. ولا يعني ذلك أن حزني على رحيل ويل قد ذهب، أو أنني قد توقَّفت عن حبه أو عن اشتياقي إليه، ولكن حياتي قد انتقلت بشكل ما إلى الحاضر. وعلى الرغم من وجودي بصحبة أشخاص مثلهم أعرفهم وأثق بهم، فإنني كنت أشعر بالرضا لتلك الرغبة المحددة التي تعتريني الآن في الوجود في مكان آخر: إلى جوار رجل ضخم الجثة يرقد في فراشه في المستشفى، وأعلم أنه الآن ينظر إلى الساعة المعلقة في زاوية الغرفة ويتساءل متى سيحين الوقت الذي سأحضر فيه إليه.

«ألن تحدثينا عن شيء هذه الليلة يا لويزا؟».

سألني مارك رافعًا أحد حاجبيه.

هززت رأسي نافية: «أنا بخير».

ابتسم، وربما أحسّ بشيء ما في نبرة صوتي: «رائع».

«أجل أعتقد، أنني لم أعد في حاجة إلى الوجود هنا بعد الآن أنا... بخير».

قالت ناتاشا وهي تنحني إلى الأمام ناظرة إليّ بتشكك: «كنت أعرف أن هناك شيئًا مختلفًا فيك هذه المرة».

قال فريد: «السر في ممارسة الجنس، أعتقد أنه الدواء لكل داء، أراهن أنني سوف أتغلب على حزني على جيلي مع ممارسة الكثير من الجنس».

قلت موجهة حديثي إلى مارك: «أود فقط الاستمرار في الحضور إلى نهاية

المدة، فأنا أشعر أنكم أصدقائي على أي حال، ربما لا أكون في حاجة إلى ذلك الأمر، ولكنني أود القدوم فترة أطول. للتأكد من أنني بخير، ولرؤية الجميع».

ابتسم جاك ابتسامة صغيرة.

قالت ناتاشا: «ربما يجدر بنا الذهاب إلى الرقص».

رد مارك: «يمكنك القدوم متى تشائين يا لويزا، فهذا هو سبب وجودنا هنا».

ربما كان أصدقائي هنا، مجموعة متنوعة من البشر وشديدة الاختلاف، إلا أنهم كانوا قريبين من قلبي حقًا.

طهوت معكرونة الأوريكتشيتي كما ينبغي أن تكون، مضافًا إليها الصنوبر والجوز، والريحان، والطماطم المزروعة بالمنزل، والزيتون، والتونة مع جبن البارميزان. لقد صنعت سلطة المعكرونة وفقًا للوصفة التي أملتها عليّ ليلي في الهاتف بناءً على توجيهات جدتها.

صاحت كاميلا من مكان ما في المطبخ «إنه طعام جيد، ويسهل هضمه إذا كان يمضي الكثير من الوقت راقدًا في الفراش».

قالت ليلي متمتمة: «لو كنت مكانك لاشتريت له وجبات جاهزة». ثم أضافت ساخرة بصوت خفيض: «فالرجل المسكين قد نال ما يكفيه من العناء، وعلى أي حال أعلم أنك تحبينه، وهو راقد في الفراش هكذا».

مشيت عبر ممر المستشفى في وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، وأنا أشعر بالفخر بعلبة الطعام التي أمسكها بن يدي وما تحتويه من طعام صنع خصيصًا له في المنزل. لقد حضرت له وجبة العشاء، وها أنا أحملها أمامي وكأنها وسام شرف، آملة أن يوقفني أحدهم ويسألني عنها حتى أجيب، أجل إن حبيبي في فترة التعافي الآن، وأنا أحضر له الطعام كل يوم. إنها لفتة صغيرة لكنها رائعة، أتعلمين إنني أزرع هذه الطماطم في المنزل؟

كان سام قد بدأ في التماثل للشفاء بالفعل، واندملت جروحه. كما أنه حاول النهوض عدة مرات متذمرًا من المكوث في الفراش طيلة الوقت، معربًا عن قلقه على حيواناته على الرغم من أنني ودونا وجاك قد وضعنا جدولًا معقولًا للتناوب على رعايتها.

أشار الاستشاريون من الأطباء إلى أن أمامه من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، شريطة أن يلتزم بالتعليمات، مؤكدين أنه شخص محظوظ لنجاته بحياته من إصابة بذلك العمق. لقد دار أمامي حديث أو أكثر من أحد الأطباء الذي كرروا: «لو اتخذت تلك الرصاصة سنتيمترًا واحدًا في الاتجاه الآخر لكان..».

وصلت إلى الممر الذي تقع فيه غرفته، وقمت بتنظيف يدي بالصابون المضاد للبكتيريا الموجود بجانب الباب وأنا أدفع باب غرفته بكتفي.

«مساء الخير». قالتها الممرضة التي ترتدي نظارة قبل أن تضيف: «لقد تأخرتِ!».

«كان لديَّ اجتماع».

«لقد فاتتك مقابلة والدته. أحضرت له ألذ فطير لحم منزلية يمكنك تذوقها على الإطلاق، كانت رائحتها تفوح عبر المبنى وأثارت جنوننا وشهيتنا. ما زلنا نتضوَّر جوعًا حتى الآن بسببها».

أخفضت العلبة التي أحملها وقلت: «هذا لطيف».

«من الرائع رؤيته مرتاحًا في فراشه، سيأتي الطبيب للاطمئنان عليه في غضون نصف ساعة».

كنت على وشك وضع العلبة في حقيبتي حين رن جرس هاتفي. ضغطت على زر الرد بينما لا تزال يدي الأخرى على الحقيبة.

«لويزا؟».

«أجل؟».

«أنا ليونارد جوبنك معك».

استغرق الأمر ثانيتين حتى أستوعب الاسم الذي سمعته لتوي. ثم وقفت صامتة محدِّقة حولي على نحو أحمق، كما لو كان في مكان ما قريب حولي.

«سيد جوبنك!».

«لقد تلقيت رسالتك الإلكترونية».

«آهه».

«كانت قراءتها أمرًا مثيرًا للاهتمام حقًا، فقد اندهشت من رفضك لعرضي، تمامًا كما اندهش ناثان، لقد كنت الشخص المناسب لهذا العمل».

« كما ذكرت لك في رسالتي، لقد أردت الوظيفة بالفعل سيد جوبنك... ولكن... أنا... حسنًا... لقد طرأت ظروف خارجة عن إرادتي».

«وهل الفتاة على ما يرام الآن؟».

«ليلي، أجل، لقد عادت إلى المدرسة، وهي سعيدة. إنها تعيش الآن مع عائلتها. أعني مع عائلتها الجديدة، لقد كانت فترة... ترتيب أوضاع».

«لقد تعاملتِ مع هذا الأمر بجدية بالغة».

«لست من النوع الذي يستطيع التخلي عن أحد هكذا ببساطة».

سادت فترة صمت طويلة. استدرت بعيدًا عن غرفة سام، ونظرت من نافذة تطل على موقف السيارات لأرى سيارة دفع رباعي تحاول من دون فائدة اتخاذ مكان لها داخل الموقف في بقعة صغيرة لا تتناسب مع حجمها. كانت تذهب وتجيء مرة تلو الأخرى، ولكنني رأيت أن المكان لن يستوعبها.

«إذن، إليك الأمر يا لويزا، إن الأمور لا تسير على نحو جيد مع موظفتنا الجديدة. لسبب ما هي وزوجتي لا تشعران بالارتياح والانسجام مع بعضهما بعضًا. وقد اتفقنا معًا على مغادرتها مع نهاية هذا الشهر، وهو الأمر الذي سيضعني في مشكلة».

أصغيت له.

«حسنًا، أود أن أعرض عليك الوظيفة ثانية يا لويزا، ولكنني لا أرغب في مشاكل، خاصة حين يتعلق الأمر بأسرتي والأشخاص المقرَّبينِ منّي. وقد اتصلت بك حتى أحصل منك على تصور واضح لما تريدينه حقًا».

«أوه، إنني أرغب في الحصول عليها حقًا ولكن...».

شعرت بيد على كتفي، واستدرت لأجد سام واقفًا مستندًا على الحائط، «أنا... أنا».

«هل حصلت على وظيفة جديدة؟».

«كلا يا سيدي مجرد ترقية».

«وهل ترغبين في البقاء في المنصب الذي تعملين فيه الآن؟»».

كان سام يراقب وجهي.

«كلا ليس ذلك ضروريًا، ولكن...».

«ولكن من الواضح أن عليك إعادة تقييم الأمور. حسنًا يا لويزا، أتفهم تمامًا أن تلك المكالمة ربما تكون قد أربكتك وفاجأتك. ولكن بناء على ما سطرته لي في رسالتك، إذا كنت ما زلت مهتمة حقًا أود أن أعرض عليك الوظيفة نفسها بالشروط نفسها، لتبدئي في العملِ في أسرع وقت ممكن. هذا إذا كنتِ على ثقة تامة من رغبتك في ذلك حقًا. هل تعتقدين أن ثمانيَ وأربعين ساعة فترة كافية لتخبريني بقرارك؟».

«أجل، أجل يا سيد جوبنك، شكرًا على اتصالك».

أغلقت الهاتف. ثم نظرت إلى سام. كان يرتدي ثوبًا خفيفًا فضفاضًا خاصًا بالمستشفى فوق قميص المستشفى القصير للغاية. لم يتحدث أيٌّ منا لمدة دقيقة.

«استيقظت، يجب أن تكون في فراشك الآن».

«لقد رأيتك عبر النافذة».

«إذا هبّت رياح في غير محلها الآن، ورفعت ذلك الرداء وكشف ما أسفله لن تتوقف ممرضات المستشفى عن الحديث عنك إلى نهاية الكريسماس يا سام».

لم يضحك، بل سألني:

«هل كان ذلك رجل نيويورك؟».

شعرتُ بحالةٍ من الإفلاس. وقمت بوضع هاتفي في حقيبتي وأخرجت علبة الطعام وأنا أقول: «لقد عرض عليَّ الوظيفة مجددًا». وراقبت نظرة سام تحيد عني قليلًا، فأكملت: «ولكنني استعدتك لتوّي لذلك سأرفض العرض. انظر هل يمكنك تناول بعض المعكرونة بعد فطيرتك الملحمية الرائعة؟ أعلم أنك ربما تشعر بالشبع، ولكنها من المرات النادرة التي أطهو فيها شيئًا ويكون صالحًا للأكل حقًا».

«كلا».

«إنها ليست بهذا السوء، يمكنك على الأقل أن تجرّب...».

«لا أقصد المعكرونة، بل أقصد الوظيفة».

حدقنا في بعضنا بعضًا. مشى بيده بين خصلات شعره. «أنت في حاجة إلى القيام بذلك يا لو، وإنك مدركة لتلك الحقيقة، كما أدركها تمامًا. عليك قبول تلك الوظيفة».

«لقد حاولت ترك منزلي من قبل وساءت الأمور كثيرًا يا سام أكثر مما تصورت».

«لأنك غادرته لأسباب أخرى، كنت تهربين. ولكن الأمر هذه المرة مختلف».

حدقت فيه وكرهت نفسي لأنني كنت مدركة تمامًا لما أود فعله. وكرهته لأنه كان يعلم ذلك ويفهمني. وقفنا في ممر المستشفى في صمت مطبق. ثم رأيت أن وجهه بدأ في الشحوب سريعًا: «أنت في حاجة إلى الراحة».

لم يقاومني، أخذت بيده وعدنا أدراجنا إلى فراشه. تألم بينما يستلقي بحرص على وسادته. وانتظرت حتى رأيت وجهه يسترد لونه ثانية، ثم استلقيت إلى جواره محتضنة يده بين يديّ.

شعرت بغصة في حلقي بينما أستريح برأسي فوق كتفه، وقلت: «أشعر أن الأمور بيننا بدأت في اتخاذ مسارها الصحيح. أنا وأنت الآن معًا».

«أجل».

«لا أرغب في أن أكون مع شخص غيرك يا سام».

«لا أشك في ذلك الآن».

«ولكن العلاقات التي تفصلها مسافات بعيدة نادرًا ما تعيش وتستمر».

«هل أفهم من ذلك اعترافًا بأننا في علاقة؟».

بدأت في الاعتراض وابتسم. « تقصدين بعض العلاقات. بعض العلاقات لا تعيش بسبب المسافات، ولكنني أعتقد أن بعضها يستمر. يعتمد ذلك على رغبة الطرفين في المحاولة».

لف ذراعه الضخم حول رقبتي، وجذبني إليه، فأدركت أنني كنت

أبكي. مسح دموعي برفق بإبهامه قائلًا: «لو، لا أدري ماذا سيحدث في المستقبل، ولا يمكن لأحد معرفة ذلك. يمكنك الخروج في صباح أحد الأيام لتعترض طريقك دراجة نارية مسرعة فتتغير حياتك بأسرها. ويمكنك الذهاب إلى العمل في مهمة عادية وتتعرضين لإطلاق النار على يد مراهق يظن أنه على هذا النحو سيصير رجلًا».

«ويمكنك السقوط من فوق سطح مبنى مرتفع».

«أجل، أو يمكنك الذهاب لزيارة رجل ضخم الجثة يرتدي ثوبًا كاشفًا في المستشفى وتتلقين أفضل عرض عمل يمكنك تخيله. تلك هي الحياة. لا نعلم ماذا تخبِّئ لنا. ولذلك ينبغي علينا أن ننفتح على الفرص التي تسنح أمامنا قدر استطاعتنا. وأظن... أن تلك ربما تكون فرصتك».

أغمضتُ عينيّ، غير راغبة في سماعه، رافضة الاعتراف بصحة ما يقول. مسحتُ عينيَّ بباطن يدي. ناولني منديلًا وانتظر حتى مسحت البقع السوداء التي خلَّفتها دموعي حول عينيّ.

«تليق عليك عين دب الباندا».

«أظن أنني واقعة في غرامك قليلًا».

«أراهن أنك تقولين ذلك لكل الرجال الراقدين في العناية المركزة».

استدرت وقبّلته.

قال لي: «سوف أبذل قصارى جهدي، إذا فعلت ذلك يا لو».

الغصة التي استشعرتها في حلقي جعلت صوتي خشنًا: «لا أدري يا سام».

«لا تدرين ماذا؟».

«إن الحياة قصيرة، أليس كذلك؟ كلانا يعلم هذا. ماذا لو كنت أنت الشيء الوحيد الذي سيجعلني أسعد إنسانة حقًا؟».

الفصل التاسع والعشرون

عندما يقول أحدهم إن فصل الخريف هو وقته المفضل من العام، فما يعنيه في اعتقادي هو أيام كهذه: ضباب الفجر، الذي ينقشع مخلفًا ضوء نهار نقيًّا ونضرًا؛ أكوام أوراق الشجر التي تحملها الريح إلى الزوايا؛ الرائحة العتيقة المحببة للنفس للنباتات. يقول البعض إنك لا تلاحظ تغير الفصول داخل المدينة، حيث تصعب ملاحظة أي فروق ضخمة في ظل وجود صفوف المباني الرمادية اللامتناهية والروائح الناجمة عن عوادم السيارات. ولكن فوق السطح كان الإشراق سائدًا، ولم يكن مقتصرًا فحسب على الامتداد الفسيح للسماء، وإنما طال أثره نباتات الطماطم الخاصة بـ ليلي، التي كانت تحمل ثمارًا حمراء منتفخة منذ أسابيع، وطال أصص الفراولة المعلقة كسلسلة متقطعة من الحلوى الموسمية. واستبدلت الثمار الخضراء اليانعة التي تفتحت في بداية الصيف بسويقات تكاد تخلو من أوراقها التي تبعث فيها الحياة. على هذا السطح حيث يمكنك رصد حركة الهواء المحمّلة بإشارات اقتراب الشتاء. رسمت طائرة أثرًا من الضباب عبر السماء، ولاحظت أن أنوار الشارع كانت لا تزال مضاءة منذ الليلة السابقة.

خرجت أمي إلى السطح مرتدية بنطالها الفضفاض، محدِّقة حولها بضيوفها، وماسحة بيدها قطرات الندى التي خلَّفها سلم النجاة من الحريق على بنطالها. قالت: «مكانك هذا مميز حقًا يا لويزا. يمكنك دعوة مائة

شخص إلى هنا». كانت تحمل حقيبة تحوي عدة زجاجات من الشامبانيا، ووضعتها بحرص، «دعيني أخبرك شيئًا، أظنك شجاعة جدًا باستعادتك الثقة والقدرة على الصعود إلى هنا مجددًا».

قالت شقيقتي وهي تعيد ملء الكؤوس: «لا أستطيع أن أصدق أنك سقطت من كل هذا الارتفاع».

قالت أمي أثناء توجهها نحو سلم النجاة من الحريق: «حسنًا، لقد كانت ثملة للغاية يا حبيبتي، أتذكرين هذا؟ من أين جلبت كل هذه الشامبانيا يا لويزا؟ إنها تبدو فخمة حقًا».

«قدّمها لي مديري».

كنا نجمع الأموال أنا وهو طوال بضع ليال قبل ذلك، وندردش (نحن ندردش كثيرًا الآن، خاصة منذ أن رُزق بطفله. فما أعرفه الآن عن مشكلة احتباس البول لدى السيدة بيرسيفال يفوق الحدود التي يمكن أن تقبلها). لقد ذكرت خططي أمامه، فاختفى ريتشارد كما لو أنه لم يكن ينصت لي. كنت على وشك إدراج هذا الأمر بقائمة الأمثلة التي تدلل على حماقة ريتشارد الخالصة، ولكن عندما عاود الظهور من داخل السرداب بعد مضي عدة دقائق، كان يحمل صندوقًا يحوي ست زجاجات شامبانيا. سلمني الصندوق وهو يهز كتفيه ويقول «إليك هذا. حسم 60٪. الطلب الأخير. فقط قومي بتخزينه. هيا خذيها. أنت تستحقينها».

شكرته متلعثمة وتمتم بشيء عن كونها ليست مصنوعة من أفخر أنواع العنب، والوحيدة من نوعها. ولكن تحوَّلت أذناه إلى اللون الوردي دلالة على الكذب.

«ألا يسعك محاولة إبداء قليل من السعادة لأني لم أمت». مرَّرت لـترينا صينية الكؤوس.

«آه، لقد تغلَّبت على أمنية يا ليتني كنت طفلة وحيدة قبل سنوات. حسنًا، ربما قبل عامين أو ما شابه».

اقتربت أمي وهي تحمل مجموعة من المناديل. تحدثت بهمس مبالغ فيه: «هل تعتقدين أنها ملائمة؟».

«وما الذي لن يجعلها كذلك؟».

«إنهم آل ترينر، أليس كذلك؟ إنهم لا يستخدمون مناديل ورقية، فلديهم مناديل كتانية، منسوج عليها شعار النبالة أو شيء من هذا القبيل».

«لقد سافروا إلى هنا يا أمي لحضور حفل على سطح مبنى في شرق لندن. لا أظن أنهم ينتظرون خدمة فاخرة».

قالت ترينا: «آه، وأنا جلبت لحاف ووسادة توم الإضافيين. وفكرت في أننا قد نضطر لجلب بعض أغراضنا في كل مرة نأتي إلى هنا. إن لديَّ موعدًا لتفقد نادي ما بعد المدرسة هذا غدًا».

«أنا سعيدة لأنكما نظَّمتما جميع أموركما يا فتيات. لو ترغبين بذلك يا ترينا، فسوف أهتم أنا لأمر توم بدلًا منكِ. فقط أخبريني بما سيحدث».

أخذنا نعمل وتدور إحدانا حول الأخرى، واضعات الكؤوس والمناديل الورقية، حتى اختفت أمي لتجلب المزيد من المناديل. خفضت صوتي حتى لا تستطيع سماعي. «ألن يأتي أبي يا ترين؟».

تجهَّم وجه شقيقتي، فحاولت ألّا أبدي الفزع الذي انتابني.

«ألم يتحسَّن الوضع أبدًا؟».

«أتمنى أن يشرعا في التحدث بعد رحيلي. آمل أن يضطرا لذلك، الآن كل منهما يتحاشى الآخر ويتحدَّثان فقط إليَّ أو إلى توم معظم الوقت. إن الأمر مثير للجنون. فأمي تتظاهر بأنها لا تبالي بعدم مجيئه معنا، ولكنني واثقة أنها تبالي».

«ظننت حقًا أنه سيأتي».

كنت قد رأيت أمي مرتين منذ حادث إطلاق النار. قامت بالاشتراك في دورة تدريب جديدة- حول الشعر الإنجليزي الحديث- في مركز تعليم الكبار، والآن صارت متلهِّفة للعثور على الرموز في كل مكان. فكل

ورقة شجر متفتحة هي رمز لعجز وشيك، وكل طائر يرفرف في الهواء هو رمز للآمال والأحلام. ذهبنا معًا ذات مرة لجلسة قراءة شعر في ساوث بانك، حيث جلست سابحة في عالم آخر وصفقت مرتين وسط السكون. وذهبنا مرة إلى السينما، ثم إلى دورة المياه بسمارت هوتيل، حيث تشاركت الساندوتشات مع ماريا أثناء جلوسهما على الكراسي المريحة بالمرحاض. وفي كلتا المرتين، حينما نكون بمفردنا، كانت تتسم بضعف غريب. فكانت تقول على نحو متكرر وكأنها تتحداني كي لا أوافقها الرأي، «حسنًا، ألسنا نحظى بوقت رائع؟»، بعد ذلك كانت إما تصمت أو تتعجب من الأسعار الجنونية للساندوتشات في لندن.

فتحت ترينا المقعد الطويل، واضعة فوقه الوسائد التي جلبتها من الأسفل. «ينتابني القلق على جدي. فهو لا يحب كل هذا التوتر. إنه يغير جواربه أربع مرات في اليوم وقد كسر اثنين من أزرار الريموت كنترول بسبب الضغط المبالَغ فيه عليهما».

«يا إلهي... تذكرت شيئًا. من سيتحمَّل أمر رعايته؟».

حدَّقت شقيقتي بي في ذعر.

قلنا معًا في نفس الوقت: «لا تنظري إليّ».

قاطعَنا وصول أول عضوين من مجموعة الدعم النفسي، صانيل وليان، واللذين ظهرا على الدرج المصنوع من حديد الزهر، مبديين ملاحظتهما عن مدى اتساع شرفة السطح، والمشهد الخلَّاب غير المتوقَّع لشرق المدينة.

وصلت ليلي في الثانية عشرة تمامًا، وحوَّطتني بذراعيها مشرقة بسعادتها. «كم أحب هذا الثوب! تبدين رائعة حقًا».كانت مسمرَّة، وكان وجهها مليئًا بالثغرات والنمش، والشعيرات الصغيرة على ذراعيها مُبيضَة، وترتدي ثوبًا أزرق باهت اللون وصندلاً رومانيًا. راقبتها بينما أخذت تتفقّد شرفة السطح، وهي تبدو سعيدة بشكل واضح لقدومها ثانية. صعدت

كاميلا ببطء على سلم النجاة من الحريق وقامت بتسوية معطفها وسارت نحوي بينما يعلو وجهها تعبير تحذيري طفيف.

«كان بإمكانك الانتظار يا ليلي».

«لماذا؟ لستِ شخصًا عجوزًا».

تبادلت أنا وكاميلا نظرات سخرية، ثم- بعفوية- انحنيت إلى الأمام وقبَّلت وجنتها. كانت تفوح منها رائحة عطر باهظ الثمن، وكان شعرها مثاليًا. «أنا سعيدة لأنكِ أتيت».

«لقد اعتنيتِ بنباتاتي». كانت ليلي تتفحَّص كل شيء. «ظننت أنك ستقتلينها جميعًا. آه وهذا أيضًا! كم أحب هذه. هل هي جديدة؟»، أشارت ناحية إصيصين اشتريتهما من سوق الزهور الأسبوع الماضي لتزيين السطح لأجل اليوم.

قالت كاميلا: «إنها من الفصيلة الغرنوقية. لا ينبغي أن تتركيها هنا في الشتاء».

«يمكننا أن تغطيها بالصوف. فأصص الفخار هذه ثقيلة للغاية ويصعب نقلها للأسفل».

قالت كاميلا: «تغطيتها لن تجدي نفعًا، فلن تستطيع النجاة لأنها ستكون مكشوفة للغاية».

قلت: «في الواقع، سيأتي توم ليعيش هنا ولست واثقة إن كان سيكون بأمان على السطح، نظرًا لما حدث لي، لذا سوف نغلقه. إن أردت يمكنك أن تأخذيها معك..».

بعد لحظات من التفكير، قالت ليلي: «لا. دعينا نتركها. فمن الأفضل أن نفكر بها على هذا النحو. كما كانت».

ساعدتني في ترتيب الطاولة المدعّمة بحوامل، وتحدثت قليلًا عن المدرسة، كانت سعيدة هناك ولكنها كانت تعاني بعض الشيء، وتحدثت أيضًا عن والدتها، التي كانت في الأغلب تحاول استمالة مهندس معماري

إسباني يدعى فيليب، اشترى المنزل المجاور في سانت جونز وود. «أشعر بالأسى نوعًا ما على زوجها صاحب الوجه الغبي. فهو غافل تمامًا عما ينتظره».

قلت: «المهم أنك بخير؟».

«أنا بخير. فالحياة جميلة للغاية». وضعت قطعة مقرمشات في فمها ونظرت إليّ نظرة جانبية وأضافت: «جعلتني الجدة أذهب لرؤية المولود الجديد، هل أخبرتك بهذا؟».

لا بد أنني بدوت مذعورة من المفاجأة.»قالت جدتي إن على أحدهم التصرف كراشد. لقد أتت معي في الواقع. كانت لطيفة للغاية. لم يكن من المفترض أن أعرف هذا، ولكنها اشترت معطفًا جلديًا قصيرًا لهذه المناسبة خصيصًا. أعتقد أنها كانت بحاجة إلى أن تبدي مزيدًا من الثقة في النفس». نظرت إلى كاميلا التي كانت تتحدَّث مع سام عند طاولة الطعام. «في الواقع، لقد شعرت بالأسى على جدي. فعندما كان يظن أن ما من أحد يلاحظ، كان يواصل التحديق بها، وكأنه يشعر بالحزن لما آلت إليه الأمور بينهما».

«وكيف بدا؟».

«إنه رضيع. أعني جميعهم يشبه واحدهم الآخر، أليس كذلك؟ لكنني أعتقد أنهم أحسنوا السلوك بأقصى ما استطاعوا من جهد. فكل ما قالوه كان على هذا الغرار: «وكيف حال المدرسة يا ليلي؟ هل تودين الارتباط بأحدهم كي تأتي وتقيمي هنا؟ وهل تودين معانقة خالتك؟»، وكأن مثل هذه العبارات لا تبدو غريبة».

«ستذهبين لرؤيتهم ثانية؟».

«على الأرجح. إنهم بخير كما أفترض».

نظرت إلى جورجينا، التي كانت تتحدَّث بأدب مع والدها. وهو يضحك بصوت عالٍ للغاية. لم يتركها قط تقريبًا منذ أن وصلت. «إنه

يتصل بي مرتين أسبوعيًا ليتحدث عن مختلف الأمور، ولا تتوقَّف ديلا عن التحدث عن رغبتها في توطيد علاقتي مع المولود، وكأن باستطاعته فعل أي شيء سوى تناول الطعام والصراخ والتبرز». علا وجهها تعبير ينم عن الاشمئزاز.

ضحكت.

قالت: «ماذا؟».

قلت: «لا شيء. أنا فقط سعيدة لرؤيتك».

«آه، لقد جلبت لك شيئًا».

انتظرت بينما أخرجت صندوقًا صغيرًا من حقيبتها، وأعطته لي. «رأيت هذا في معرض التحف الممل الذي أجبرتني جدتي على الذهاب إليه وتذكرتك».

فتحت الصندوق بحرص. في داخله، فوق القماش المخملي الأزرق الداكن، كان يوجد سوار آرت ديكو، تتبادل خرزاته الأسطوانية الكهرمان الأحمر والأسود. رفعته وأمسكته براحة يدي.

إنه غير تقليدي، أليس كذلك؟ ولكنه ذكرني بـ...»الجورب الطويل».

«أجل الجورب. إنه تعبير عن الشكر - كما تعلمين- إزاء كل شيء. فأنت الشخص الوحيد الذي أعرفه الذي سيُعجَب بشيء كهذا. وأنا أيضًا يعجبني. ولكنه في الواقع يتماشى تمامًا مع ثوبك».

وضعته على رسغي. وقمت بإدارته بحرص. «أحببته كثيرًا».

ركلت شيئًا على الأرض بينما ارتسمت على وجهها نظرة جادة: «حسنًا، أظنني مدينة لكِ ببعض المجوهرات».

«أنتِ لست مدينة لي بشيء».

نظرتُ إلى ليلي، هذه الثقة الجديدة التي اكتسبتها، وإلى عينيها اللتين تشبهان عيني والدها، وفكرت في كل شيء أعطته لي من دون أن تعرف. بعد ذلك لكمتني بقوة على ذراعي. «حسنًا، لا تكوني غريبة الأطوار

وعاطفية إلى هذا الحد، وإلا ستتلفين مَسْكرتي. دعينا نذهب لنجلب ما تبقى من طعام. هل تعلمين أنني علّقت ملصقًا لفيلم Transformers في غرفة نومي؟ وملصقًا آخر لـ كاتي بيري؟ من بحق السماء رفيق مسكنك الجديد؟».

وصل باقي أعضاء مجموعة الدعم النفسي، صاعدين الدرجات الحديدية بدرجات مختلفة من الذعر أو الضحك، فخطت دافني فوق السطح وهي تصدر تعليقات تنم عن الراحة، بينما يمسك فريد بذراعها، ووثب وليام بلا مبالاة على الدرجة الأخيرة، ووراءه أتت ناتاشا وكانت تدير عينيها استياءً. توقف آخرون للتعليق على مجموعة بالونات الهيليوم البيضاء، التي كانت تتمايل وسط الضوء. قبّل مارك يدي وأخبرني أن هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا طوال الفترة التي أدار بها المجموعة. لاحظت بسعادة أن ناتاشا ووليام أمضيا كثيرًا من الوقت في التحدث بمفردهما.

وضعنا الطعام على الطاولة المدعَّمة بحامل، واضطلع جاك بدور تقديم المشروبات، فكان يصب الشامبانيا، وبدا سعيدًا بهذه المسؤولية. ظل هو وليلي يحوم واحدهما حول الآخر في البداية، متظاهرَين أن الآخر كان غير مرئي، كما يفعل المراهقون عندما يكونون في تجمع صغير، ويدركون أن الجميع ينتظرون منهم تبادل الحديث. وعندما شقت أخيرًا طريقها إليه، مدت له يدها بكياسة مبالغ فيها وظل هو ينظر إلى يدها للحظات قبل أن يبتسم ببطء.

همس سام في أذني: «أتمنى أن يصبحا أصدقاء. ولكنني أخشى حدوث شيء مريع».

دسست يدي داخل جيبه الخلفي وقلت: «إنها سعيدة».

«إنها فتاة رائعة، وهو انفصل لتوِّه عن صديقته».

«ما الذي حدث لمبدأ استمتع بحياتك بأقصى استطاعتك يا سيد سام؟»

أصدر صوتًا خفيضًا يعبّر عن التذمر.

«إنه مأمون. كما أنها عالقة معظم الوقت من العام في أوكسفوردشاير».

«لا أحد يكون بأمان معكما». خفض رأسه وقبّلني وتركت كل شيء آخر يذوي لثانية أو اثنتين ممتعتين. وعلّق: «يروق لي هذا الثوب».

«أليس سخيفًا للغاية؟»، أمسكت طيّات التنورة المقلّمة. هذا الجزء من لندن مليء بمتاجر الملابس الكلاسيكية. كنت قد أمضيت يوم السبت الماضي تائهة وسط حوامل الملابس الحريرية والريشية القديمة.

«أحب السخافة، على الرغم من أنني حزين بعض الشيء لأنكِ لا ترتدين ثوبك المثير ». خطا بعيدًا عني عند اقتراب أمي وهي تحمل مجموعة أخرى من المناديل الورقية.

«كيف حالك يا سام؟ ما زلت تتعافى بشكل جيد؟»، كانت قد زارت سام مرتين في المستشفى. كانت مشغولة البال بشدة بورطة أولئك الذين يضطرون إلى تناول طعام المستشفى، وجلبت له لفائف نقانق منزلية الصنع وساندوتشات بيض بالمايونيز.

«أوشكت على التعافي الكامل، شكرًا لك».

«لا تجهد نفسك اليوم. لا تحمل شيئًا. فالفتاتان وأنا نتولى جميع الأمور بشكل جيد».

قلت: «لقد انتهينا وصار علينا دعوة الضيوف للطعام».

نظرت أمي ثانية إلى ساعتها، ثم مسحت بعينيها سقف الشرفة. «هل ننتظر خمس دقائق أخرى؟ هل تأكدت أن الجميع حصل على مشروب».

كانت ابتسامتها الثابتة والمشرقة للغاية محطِّمة للفؤاد حقًا. رآها سام، فخطا إلى لأمام وأمسك بذراعها. «هل يمكنك أن تخبريني يا جوسي أين وضعتِ السلطة؟ تذكرتُ لتوِّي أنني لم أجلب مرق التوابل من الأسفل».

«أين هي؟».

ظهر تموج عبر الحشد الصغير لدى الطاولة. استدرنا ناحية الصوت

المرتفع. «يا إلهي، هل هو فعلًا هنا، أم أنها مجرد محاولة عقيمة من محاولات تومو؟».

«برنارد!»، ووضعت أمي المناديل.

ظهر وجه أبي فوق الحاجز، وهو يتفحّص أعلى السطح. صعد آخر درجات السلم الحديدي ونفخ خدَّيه وهو يستعرض المشهد. ظهرت طبقة من العرق على جبهته، وقال: « لا أعرف لماذا كان عليك إقامة هذا الحفل اللعين في الأعلى هنا يا لويزا».

«برنارد!».

«نحن لسنا في الكنيسة يا جوسي، ولديّ رسالة مهمة».

حدقت أمي حولها. «برنارد، الوقت ليس مناسبًا لـ...».

«ورسالتي هي... هذه».

انحنى أبي وباهتمام مبالَغ فيه جذب ساقَيْ بنطاله إلى الأعلى. اليسار أولًا ثم اليمين. من موقعي تمكنت من رؤية قصبتَيْ ساقَيْه الشاحبتين والملطختين بعض الشيء. خيم الصمت على السطح. فكان الجميع يحدقون. فرد إحدى ساقيه. «إنها ناعمة كمؤخرة رضيع. هيا يا جوسي، تحسسيها».

أخذت أمي خطوة منفعلة إلى الأمام وانحنت ممررة أصابعها على قصبة ساق أبي وربتت بيدها حولها.

«قلتِ إنك ستأخذينني على محمل الجد إن أزلت شعر ساقيَّ بالشمع. حسنًا، لقد فعلت».

حدقت أمي به غير مصدّقة: «هل أزلت شعر ساقيك بالشمع؟».

«نعم. ولو كان لديّ أدنى فكرة عن الألم الذي تستشعرينه، يا حبيبتي، لأغلقت فمي الأحمق. ما هذا التعذيب البشع؟ من بحق السماء يعتقد أن تلك فكرة جيدة؟».

«برنارد...».

«لا أبالي. كان الأمر بشعًا يا جوسي، ولكني سأفعله ثانية إن كان هذا سيصلح الأمور بيننا. أنا أفتقدك كثيرًا. لا أبالي إن كنت ترغبين في أخذ مائة دورة جامعية - سياسات نسوية، دراسات الشرق الأوسط، نسيج مخرَّم غليظ للكلاب، أي شيء- مادام أننا معًا. وكي أثبت لك أنني قد أفعل أي شيء لأجلك، فقد حجزت ثانية الأسبوع المقبل لكي أزيل شعر ظهري ومؤخرتي و... ما اسم هذه المنطقة الثالثة؟».

قالت شقيقتي بأسلوب بغيض: «اسمها العانة».

«يا إلهي». وضعت أمي يدها على رقبتها التي صارت حمراء داكنة.

وإلى جواري، بدأ سام في الارتعاد بهدوء. وتمتم لي قائلًا: «دعيهما يتوقفان، وإلا ستنفتّق غُرَزي».

«سأفعل أي شيء لأجلك. سأتناول الدجاجة المحمرة بأكملها إن كان هذا سيُظهِر لك ما تعنيه لي».

«يا حبيبي يا برنارد».

«أعني هذا حقًا يا جوسي. إنني بائس بالفعل من دونك».

تمتمت ترينا: «هذا هو السبب في افتقار أسرتنا إلى الرومانسية».

سأل توماس: «ما العانة والظهر والشمع؟».

«كم افتقدتك يا حبيبي». وضعت أمي ذراعيها حول رقبة أبي وقبّلته. كان الشعور بالراحة الذي اعتلى وجهه شبه واضح. دفن رأسها في كتفه ثم قبَّلها ثانية، وقبّل أذنها وشعرها ممسكًا بيديها كصبي صغير.

قال توماس: «رائع».

«إذن أنا لست مضطرًا لـ...».

ربتت أمي على وجنة أبي. «أول شيء سنفعله هو إلغاء موعدك».

بدا الارتياح على أبي.

قلت عندما هدأ الاضطراب، واتضح من بشرة كاميلا ترينر الباهتة أن

ليلي قد أخبرتها لتوِّها ما يخطط أبي لخوضه باسم الحب. «أعتقد أن علينا إجراء تفقد أخير لكؤوس الجميع، وبعد ذلك ربما... نبدأ؟».

بعد هذه البهجة التي أثارتها لفتة أبي العظيمة، وعقب تغيير الحفاض لطفل أسرة ترينر الجديد، وإدراكنا أن توماس كان يلقي ساندوتشات البيض فوق شرفة السيد أنتوني جاردينر (ومقعد الشمس الخيزران الجديد ماركة كونران الخاص به) في الأسفل، مضت عشرون دقيقة أخرى قبل أن يخيم الصمت على السطح. وفي خضم الهمسات السرية لبعض الملحوظات والتنحنح، خطا مارك إلى وسط المكان. كان أطول مما تخيلته، فلم يسبق لي أن رأيته واقفًا.

«مرحبًا بكم جميعًا. أولًا، أود أن أشكر لويزا على دعوتنا إلى هذا المكان الجميل للاحتفال بنهاية ورشة الدعم. ثمة شيء رائع حقًا في كوننا قريبين إلى هذا الحد من السماء..». سكت ليضحك، «إن هذا حفل نهائي استثنائي بالنسبة لنا- حيث إنها المرة الأولى التي يكون لدينا بعض الأشخاص غير المنضمين للمجموعة- ولكنني أعتقد أنها فكرة رائعة حقًا أن ننفتح ونحتفل وسط الأصدقاء. يعلم الجميع هنا ما الذي يعنيه فقدان شخص نحبه. ولهذا أصبحنا جميعًا أعضاء شرفيين للمجموعة اليوم».

وقف جاك إلى جوار والده، صاحب الوجه المنمش، والشعر رمليّ اللون، الذي لا أستطيع، للأسف الشديد، أن أنظر إليه من دون أن أتخيله يبكي بعد الجماع. قام الآن بمد يده وجذب ابنه برفق نحوه. وحين رآني جاك انظر إليه، حرك عينيه كما كان يفعل في سابق عهده. ولكنه ابتسم.

«أحب أن أقول إنه رغم تسميتنا بـمجموعة الدعم النفسي «Moving On Circle»، فإننا لم يتحرك أيٌّ منا من دون النظر إلى الوراء. فنحن نتحرك ونحن نحمل معنا دومًا هؤلاء الذين فقدناهم. وما نهدف لفعله في مجموعتنا الصغيرة هو الحرص على ألّا يتحول هذا الحمل إلى عبء يستحيل التعايش معه، ثِقل يجعلنا عالقين في نفس المكان، فنحن نود أن يكون وجودهم بمثابة الهبة التي منحنا الله إياها.

«وما نتعلمه عبر مشاركة أحدنا الآخر ذكرياتنا وأحزاننا وانتصاراتنا الصغيرة هو أن الشعور بالحزن لا بأس به. وكذلك لا بأس أن تشعر بأنك تائه، أو غاضب. ولا بأس أن تراودك مجموعة كبيرة من المشاعر التي قد لا يتفهمها الآخرون، وربما يستمر هذا لفترة طويلة. كل شخص منا يخوض رحلته الخاصة، ونحن لا ننتقد أحدًا».

قال فريد: «في ما عدا هذا البسكويت. أنا أنتقد بسكويت ريتش تيز هذا. كم كان بشعًا».

«ورغم أن هذا قد يبدو مستحيلًا في البداية، فإننا سنبلغ هذه المرحلة التي نشعر فيها ببهجة حقيقة كون كل شخص تحدثنا عنه وفجعنا بخسارته كان هنا، يسير بيننا، فسواء خسرناهم بعد ستة أشهر أو ستين عامًا، فقد كنا محظوظين لأننا حظينا بهم في حياتنا يومًا ما... أجل، كنا محظوظين لأننا حظينا بهم».

نظرتُ حولي إلى وجوه الأشخاص، الذين صرت مفتونة بهم، فوجدتهم مستغرقين في الانتباه، وفكرت في ويل. أغلقت عينيّ وتذكرت وجهه، وابتسامته وضحكته، وفكرت في ما كلفني حبي له، ولكن أكثر ما تذكرته كان ما منحني إياه.

نظر مارك إلى مجموعتنا الصغيرة. لمست دافني خلسة زاوية عينها. «لذا... ما نفعله في العادة الآن هو ترديد بضع الكلمات التي تعبر عن وضعنا الآن في المكان الذي نعترف بوجودنا فيه. ولا ينبغي أن تكون هذه الكلمات كثيرة بالضرورة، فهي مجرد كلمات ترمز بها إلى إغلاق الباب على هذا الجزء الصغير من رحلتك. ولا أحد مجبر على فعل هذا، ولكن تطوّعكم سيكون لطيفًا حقًا».

تبادلت المجموعة ابتسامات خجل، وبدا لفترة وجيزة أن ما من أحد سيقول أي شيء على الإطلاق. ثم تقدم فريد للأمام. ضبط المنديل في جيب سترته وانتصب قليلًا. «أود أن أتقدم فقط بالشكر لك يا جيلي. فكم

كنت زوجة رائعة وكم كنت محظوظًا طوال الثمانية وثلاثين عامًا الماضية. سأفتقدك كل يوم يا حبيبتي».

عاد إلى الوراء بشكل أخرق بعض الشيء وقالت له دافني: «هذا رائع يا فريد». عدَّلت وشاحها الحريري ثم تقدمت إلى لأمام أيضًا. «فقط أردت أن أقول... أنا آسفة. لـ آلان. لقد كنت رجلًا عطوفًا بحق، وكم كنت أتمنى أن أكون صادقة معه في كل شيء. كم تمنيت لو تمكنت من مساعدتك. أتمنى، حسنًا، أتمنى أن تكون بخير، وأن تكون حصلت على صديق طيب حيث تكون».

ربَّت فريد على ذراع دافني.

فرك جاك مؤخرة رقبته، ثم تقدَّم، وهو محمر الوجه، ومواجهًا أبيه. «نحن الاثنان نفتقدك يا أمي. ولكننا نعتني بنفسَينا جيدًا. لا أريدك أن تقلقي علينا أو شيء من هذا القبيل». وعندما أنهى كلامه، عانقه والده، مقبِّلًا أعلى رأسه، ومغلقًا عينيه. تبادل هو وسام بعض الابتسامات الصغيرة ونظرات التفهّم...

تلاه ليان وصانيل، مردِّدًا كل منهما بضع كلمات وهما يثبتان أعينهما بالسماء لإخفاء الدموع ويومئان بصمت لتشجيع أحدهما الآخر.

تقدَّم وليام ووضع بهدوء وردة بيضاء عند قدميه. بينما كان عاجزًا عن التحدث على غير العادة بالكثير من العبارات. حدَّق في الوردة لفترة وجيزة، وعلا وجهه تعبير فاقد للحس، ثم تراجع إل الوراء عند انتهائه. عانقته ناتاشا وبلع لعابه فجأة، بصوت عالٍ، ثم عقد ذراعيه على صدره.

نظر مارك إليَّ، واستشعرت قرب يد سام من يدي. ابتسمت وهززت رأسي، «أنا لن أفعل هذا. ولكن ليلي ترغب في إلقاء كلمة موجزة، إن كان لا بأس بهذا».

عضَّت ليلي على شفتها وتقدمت خطوات إلى وسط المكان. نظرت في ورقة صغيرة منقوش بها بعض الكلمات ثم بدا أنها غيّرت رأيها، فكرمشتها محوّلة إياها إلى كرة. «آه، سألت لويزا إن كان باستطاعتي فعل هذا على

الرغم من أنني -كما تعرفون- لست عضوة في مجموعتكم. لم يسعني التعرُّف إلى أبي عن كثب، ولم تتح لي فرصة أن أودِّعه في جنازته، وظننت أنه سيكون لطيفًا أن ألقي كلمة بما أنني أشعر نوعًا ما أنني صرت أعرفه أفضل قليلًا». ارتسمت على وجهها ابتسامة عصبية، وأبعدت خصلة شعر من فوق وجهها. «إذن. ويل... أبي. دعني أكون صريحة، عندما اكتشفت أنك أبي الحقيقي، شعرت بالذعر. فكم تمنيت أن يكون أبي الحقيقي هذا الرجل الحكيم الوسيم الذي يرغب في تعليمي مختلف الأمور، ويأخذني في رحلات ليريني أماكن مذهلة يحبها. لكن ما حصلت عليه في الواقع كان رجلًا غاضبًا في مقعد متحرك. وقام، كما تعرفون، بقتل نفسه. لكن بسبب لويزا وأسرتكَ، تمكنت على مدار الشهور القليلة الماضية من فهمك على نحو أفضل.

«سأشعر بالحزن دومًا، وربما بالغضب قليلًا، لأنني لم أقابلك، ولكن الآن أود أن أشكرك. فقد أعطيتني الكثير، من دون أن تعرف ذلك. أعتقد أنني أشبهك ولكن بطرق إيجابية، وربما أشبهك في بعض النواحي السلبية أيضًا. لقد أعطيتني لون عينيَّ وشعري واعتقادي أن المارميت[1] مقزز حقًا، ومنحتني قدرتي على التزلج على الجليد و... حسنًا، لقد أعطيتني أيضًا صفة تقلّب المزاج، وهذا هو ما أخبرني به الآخرون، بالمناسبة. فذلك ليس رأيي أنا».

علا صوت الضحك.

«ولكن الأهم أنك أعطيتني أسرة لم أعرف أنني كنت أملكها. وهذا لطيف، لأنني، وبصراحة، لم تكن أحوالي تسير بشكل جيد هكذا قبل أن يظهروا». تهدّجت ابتسامتها.

صاحت جورجينا: «إننا سعداء للغاية بظهورك في حياتنا».

---

(1) Marmite طعام بريطاني شهير، يصنع من خلاصة الخميرة، ذو قوام يشبه المربى، طعمه مالح ويتم تناوله على الإفطار، مشهور بطعمه السيئ.

شعرت بيد سام وهي تعتصر يدي. لا ينبغي أن يظل واقفًا كل هذه الفترة، ولكنه رفض الجلوس. أنا لست عاجزًا لعينًا. تركت رأسي يلامس رأسه، مقاومةً الكتلة التي تكونت في حلقي.

«شكرًا لك يا جورجينا. لذا، آه، ويل... أبي، لن أسهب في الكلام لأن الخطب مملة وأيضًا سيبدأ هذا الرضيع في النحيب في أي لحظة، وهو الأمر الذي سيتلف الجو العام. ولكنني فقط أردت أن أقول شكرًا لك، من ابنتك، وإنني.. أحبك وسوف أفتقدك دائمًا، وأتمنى أن تشعر بالسعادة إن نظرت إلى الأسفل ورأيتني. لأن وجودي هنا يعني أنك ما زلت هنا، أليس كذلك؟». تصدع صوت ليلي وتغرغرت عيناها بالدموع. وجّهت بصرها ناحية كاميلا، التي أومأت لها إيماءة صغيرة. فتنفَّست ليلي ورفعت ذقنها.

«أعتقد أن الآن هو الوقت المناسب كي يحرِّر الجميع بالوناتهم؟».

بالكاد كانت هناك أي أنفاس مسموعة، لكن علا صوت خطوات الأقدام. وخلفي أخذ أعضاء مجموعة الدعم النفسي المحدودون يتمتمون، ثم جاؤوا إلى مجموعة البالونات المتمايلة برفق لإيجاد الخيط.

كانت ليلي أول من تقدَّم، ممسكة ببالونها الهيليوم الأبيض. رفعت ذراعها ثم، كما لو أن الفكرة خطرت لها لحظتها، التقطت ثمرة زرقاء صغيرة من نبات القنطريون العنبري من أصيصها، وربطتها بحرص بالخيط. وبعد تردد وجيز حرَّرت البالون.

راقبت ستيفن ترينر وهو يفعل الشيء ذاته، بينما تعتصر ديلا ذراعه برفق. حرَّرت كاميلا بالونها، ثم فعل فريد الشيء ذاته، ثم سونيل، ثم جورجينا، بينما تمسك بذراع والدتها. تلاهم أمي، وترينا، وأبي، وهو يتمخط بصوت مزعج داخل منديله، وسام. وقفنا في صمت على السطح وأخذنا نراقب البالونات وهي تبحر للأعلى، واحدًا تلو الآخر في السماء الزرقاء الصافية، ويتضاءلون شيئًا فشيئًا حتى اختفوا وغابوا عن النظر.

وحرَّرت بالوني أنا الأخرى.

الفصل الثلاثون

شرع الرجل الذي يرتدي قميصًا بلون السلمون في تناول الفطيرة الدنماركية الرابعة، مقحمًا بأصابعه السمينة قطعًا كبيرة ضخمة داخل فمه، تساعده جرعات من البيرة الباردة على ابتلاع هذه القضمات. تمتمت فيرا أثناء مرورها أمامي وهي تحمل صينية ملأى بالكؤوس وتصدر ضحكة زائفة «إنه إفطار الأبطال». غمرني شعور زائل بالامتنان لأني لم أعد مسؤولة عن تقديم الخدمة للرجال.

«إذن يا لويزا! ماذا ينبغي على الرجل أن يفعل ليحصل على خدمة هنا؟»، على بعد مسافة صغيرة، جلس أبي فوق أحد المقاعد بينما يتكئ ناحية المشرب، وهو يتفحص مختلف أنواع البيرة. «هل يتعيَّن عليّ أن أقدم لكم بطاقة صعود على متن الطائرة كي أشتري مشروبًا؟».

«أبي...».

«رحلة سريعة إلى أليكانتي؟ ما رأيك يا جوسي؟ أتتخيلين هذا؟».

لكزته أمي، «سوف ندرس هذا الأمر خلال هذا العام. يتحتم علينا ذلك».

«أتعرفين، إنه ليس بالمكان السيئ، بمجرد أن تعتادي على تلك الفكرة السخيفة، وهي السماح لأطفال بالدخول إلى حانات». ارتعد أبي ونظر خلفه حيث يجلس زوجان شابان يبدو أن رحلتهما قد تأجلت، وكانا قد بعثرا مزيجًا من البيرة والزبيب على الطاولة ويتناولان الآن قدحين من القهوة. «إذن ما الذي تزكينه لي يا حبيبتي؟ ما المشروبات الجيدة لديكم؟».

رأيت ريتشارد، وكان يقترب حاملًا لوح كتابته: «كل شيء جيد يا أبي».

قالت أمي وهي ترمق تنورة فيرا اللوريكس الخضراء القصيرة للغاية: «ما عدا هذه الملابس».

قال ريتشارد، الذي كان قد تحمَّل بالفعل جدالين مع أمي بشأن اعتبار النساء مجرد أشياء في أماكن العمل: «إنها تعليمات الإدارة. لا دخل لي بهذا».

«هل لديك أي بيرة قوية هنا يا ريتشارد؟».

«لدينا ميرفيز، مستر كلارك. إنها ليست جيدة كجينيس، على الرغم من أنني لم أكن لأقول ذلك لأحد متعصّب لنوع معين من البيرة».

«أنا لست كذلك يا بني. فيكفيني أن تكون بيرتي باردة ومكتوبًا على زجاجتها كلمة بيرة».

مط أبي شفتيه استحسانًا ووضعت الكأس أمامه. طلبت أمي قدح قهوة بصوتها «الاجتماعي». كانت تستخدمه في كل مكان تقريبًا في لندن الآن، وكأنها أحد أصحاب المقامات الرفيعة التي يعرضٍ عليه خط إنتاج ما: إذن هذا لاتيه، أليس كذلك؟ حسنًا، إنه يبدو جميلًا حقًا. ويا لها من ماكينة قهوة ممتازة.

ربَّت أبي على مقعد البار إلى جواره: «تعالي واجلسي هنا يا لويزا. تعالي. دعيني أشتري لابنتي مشروبًا».

نظرت إلى ريتشارد. وقلت: «سأحتسي القهوة يا أبي، شكرًا لك».

جلسنا عند البار في صمت، بينما قدَّم لنا ريتشارد المشروبات، وتصرَّف أبي على طبيعته وكأنه في بيته، كما كان يفعل في كل حانة لم يسبق أن دخلها، فكان يُومئ بالتحية إلى الأشخاص الجالسين إلى البار، ويجلس على مقعده العالي وكأنه كرسيه المريح المفضَّل. فيبدو أن مجرد وجود زجاجات الخمرة المصطفة على الجدار، وسطح صلب يريح مرفقيه عليه، ولَّد لديه شعورًا بأنه في منزله الروحي. وطوال الوقت، كان لا يفصله عن والدتي سوى بضع بوصات، مربتًا على ساقها تقديرًا أو ممسكًا يدها. فهما لا يتركان أحدهما الآخر تقريبًا، في هذه الأيام، وكان رأساهما متلامسان طوال الوقت ويقهقهان كالمراهقين. كان الأمر مقززًا بشدة، كما

رأت شقيقتي. أخبرتني قبل أن تبدأ عملها أنها تفضِّل أيام كانا لا يتحدَّثان إلى بعضهما بعضًا. «اضطررت أن أنام واضعة سدادات أذن يوم السبت الماضي. هل يمكنك تخيل هذا الذعر؟ وقد بدا جدي شاحبًا للغاية في وقت الإفطار».

في الخارج، هبطت طائرة ركاب صغيرة ببطء على مدرج الطائرات، وشقّت طريقها نحو محطة الوصول، بينما يلوّح رجل يرتدي سترة عاكسة للضوء بالألواح الخشبية لإرشادها. جلست أمي، وحقيبتها على حجرها تنظر إلى الطائرة. وقالت: «كم كان توم ليحب هذا المشهد. ألم يكن ليحبه يا برنارد؟ أظن أنه كان ليقف في هذه النافذة طوال اليوم».

«حسنًا، يستطيع أن يأتي الآن، أليس كذلك، بعد أن صار على مقربة من هنا؟ يمكن لترينا أن تجلبه إلى هنا في عطلة نهاية الأسبوع. يمكنني أن آتي أيضًا إن كانت البيرة من نوع جيد».

كانت أمي تتابع الطائرة وهي تغيب عن مرمى البصر، وقالت: «ما فعلتِه يا لويزا كان لطيفًا حقًا، سماحك لهما بالإتيان والإقامة في شقتك. فأنت تعلمين مدى قيمة ذلك لترينا، في ظل ظروف ضآلة أول راتب لها وكل هذه الأشياء».

«لا بأس. هذا هو المنطقي».

بقدر ما سنفتقدهما، فإننا نعلم أنهما لن يعيشا معنا للأبد. أعرف أنها تقدّر لك صنيعك يا حبيبتي، حتى إن كانت لا تُظهر هذا دومًا».

لم أكن أكترث كونها لا تظهر هذا. فلحظة عبورها هي وتوم باب شقتي وهما يحملان حقائب أغراضهما وملصقاتهما، بينما يقف أبي وراءهما حاملًا الصندوق البلاستيكي لألعاب البريديكونز والأوتوبوتس المفضَّلة لدى توم. في هذه اللحظة بالتحديد شعرت بالرضا عن الشقة التي اشتريتها بنقود ويل.

«هل أخبرتكَ لويزا أن شقيقتها ستنتقل إلى هنا يا ريتشارد؟».

كانت أمي تتصرف الآن على أساس أن كل شخص تلقاه في لندن هو صديقها، وعليه فهو سيكون شديد التوق لسماع كل التطورات التي تحدث

في منزل آل كلارك. فهي أمضت عشر دقائق هذا الصباح وهي تسدي ريتشارد النصح بشأن التهاب الثدي لدى زوجته، ولم تكن ترى أي سبب يمنعها من زيارته ورؤية الطفل. ومرة أخرى، ستأتي ماريا صديقتها من دورة مياه الفندق إلى ستورتفورد في غضون أسبوعين برفقة ابنتها، لذا فهي لم تكن مخطئة في تصرفاتها هذه بشكل كامل. «ابنة كاترينا المذهلة. إنها غاية في الذكاء. فقط إن احتجت أي مساعدة في حساباتك، فهي خير معين».

«سأتذكر هذا». تقابلت أعيننا أنا وريتشارد ثم انفصلت.

نظرت عاليًا إلى الساعة. كانت الثانية عشرة إلا الربع. رفرف شيء ما بداخلي.

«هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

يجب إخبار أمي بكل شيء، فلم يكن هناك شيء يفوت عليها.

«أنا بخير يا أمي».

اعتصرَت يدي، «أنا فخورة جدًا بك. أنت تعلمين هذا، صحيح؟ فخورة بكل شيء فعلته على مدار الشهور القليلة الماضية. أعلم أن الأمر لم يكن سهلًا». ثم أشارت بيدها. «آه، انظري! كنت أعرف أنه سيأتي. هيا يا حبيبتي. هذه فرصتك!».

وها هو قد أتى. كان أطول من الجميع، ويسير بطريقة تجريبية بعض الشيء وسط الحشد، بينما يرفع ذراعه إلى أعلى قليلًا أمامه، وكأنه لا يزال يخشى حتى الآن أن يصطدم به أحد. رأيته قبل أن يراني، وارتسمت ابتسامة تلقائية على وجهي. لوَّحت له بقوة، فرآني، وأومأ لي.

عندما استدرت ناحية أمي ثانية وجدتها تراقبني، بينما تعلو ابتسامة ملتوية صغيرة وجهها. «إنه رجل طيب».

«أعرف هذا».

حدقتْ فيَّ فترة طويلة، وكانت تعبيرات وجهها تمثل مزيجًا من الفخر وشيء آخر أكثر تعقيدًا. ربَّتت على يدي. ثم قالت وهي تتسلق مقعد البار: «حسنًا، حان الوقت لتحظي بمغامراتك».

خاض سام دردشة موجزة مع والديّ- ظل أبي يقاطعه بأصوات تثاؤبه - وسأل ريتشارد عن جروح سام وضحك بتوتر عندما علّق أبي بأن حاله أفضل من حال صديقي السابق. استغرق الأمر ثلاث محاولات من أبي كي يقنع ريتشارد أنه لم يكن يمزح بشأن مؤسسة ديجنتايس بسويسرا، التي لقيَ ويل حتفه فيها بناءً على طلبه، وهذا العمل الحزين الذي تديره. وربما تكون تلك هي اللحظة التي اكتشف فيها ريتشارد أنه في الواقع سعيد لرحيلي.

خلَّصت نفسي من عناق أمي، وسرنا عبر الحشد صامتَيْن، وأنا عاقدة ذراعي بذراع سام، محاولة تجاهل حقيقة كون قلبي يخفق بقوة، وأن والديّ يحدّقان بنا. استدرت ناحية سام وأنا مذعورة بعض الشيء. ظننت أننا سنحظى بمزيد من الوقت. نظر إلى ساعته ثم إلى لوحة مواعيد المغادرة. «إنهم يشغّلون موسيقاك المفضلة». سلمني حقيبتي المدَوْلبة الصغيرة. أخذتها وحاولت أن أبتسم.

«يا لها من ملابس سفر لطيفة».

نظرت إلى قميصي ذي نقشة الفهد ونظارة (جاكي أو) التي دسستها في جيبي العلوي، وقلت: «كنت أحاول تقليد تلك الطبقة الثرية من السبعينات التي تكثر السفر للمتعة وترتدي النظارة مع الثوب المشجر».

«إنه مظهر لطيف بالنسبة لشخص يسافر كثيراً!».

قلت: «إذن. سأراك بعد أربعة أسابيع... تكون الأجواء لطيفة في نيويورك في الخريف».

«ستكون لطيفة مهما يكن الطقس». هز رأسه. «يا إلهي كم أبغض كلمة لطيفة هذه».

نظرتُ إلى أيدينا التي كانت متشابكة. وجدت نفسي أحدِّق بهم، وكأنني أسعى لحفظ شعور ملامسة يديه ليدي، وكأنني أخاف الفشل في اختبار مهم وشيك. تولّد ذعر غريب في داخلي، وأظن أنه استشعره لأنه اعتصر أصابعي.

«هل معك كل أغراضك؟ جواز السفر، بطاقة الصعود؟ العنوان الذي ستذهبين إليه».

«سيقابلني ناثان في مطار جون كينيدي».

لم أرغب في تركه يذهب. شعرت كأنني مغناطيس يتلوّى، من فرط انجذابه لقطبين متعارضين. تنحَّيت جانبًا أثناء توجه الأزواج نحو قاعات المغادرة معًا نحو مغامراتهم، وأثناء تخليص آخرين أنفسهم من بين أذرع أحبائهم ودموعهم تنهمر.

كان يراقبهم أيضًا. خطا خطوة إلى الوراء بع برفق، وقبَّل أصابعي قبل أن يحرر يدي. وقال: «سيمرُّ الوقت سريعًا».

كان لديَّ مليون شيء أريد أن أقوله له ولكنني لم أعرف كيف. أخذت خطوة نحوه وقبَّلته، كما يقبل الناس بعضهم بعضًا في المطارات، وهم مفعمون بالحب والاشتياق البائس، قبلات لا بد أن تطبع على متلقّيها طوال الرحلة والأسابيع والشهور المقبلة. حاولت أن أخبره بهذه القبلة أنه يعني لي الكثير. حاولت أن أريه أنه كان الإجابة عن سؤال لم أكن أعرف أني أطرحه. حاولت أن أشكره لأنه يرغب في أن أكون على سجيتي، أكثر من رغبته أن أبقى. لقد أخبرته فقط أنني احتسيت قدحين كبيرين من القهوة دون أن أغسل أسناني.

قلت: «انتبه لنفسك. لا تتسرع بالعودة إلى العمل. ولا تتولَّ أي أعمال بناء».

«سيأتي أخي لاستلام أعمال البناء غدًا».

«وفي حالة عودتك إلى العمل، لا تصَب بالأذى. وقد تحدثت بما فيه الكفاية عن مسألة عدم التعرض لإطلاق النار».

«سأكون بخير يا لويزا».

«أعني ذلك. سأرسل رسالة لدونا عندما أصل إلى نيويورك وأخبرها أنني سأحمّلها مسؤولية حدوث أي شيء لك. أو ربما سأطلب من مديرك تحويلك إلى أعمال مكتبية، أو إرسالك إلى موقع هادئ حقًا في نورث نورفولك، أو ربما يجعلك ترتدي سترات واقية من الرصاص. هل سبق لهم التفكير في إعطائكم سترات واقية من الرصاص؟ أنا واثقة أنه بمقدوري شراء واحدة جيدة من نيويورك إذا...».

«لويزا». أبعد خصلة شعر عن عيني، فشعرت بتغضن في وجهي. لامست وجهي بوجهه وأطبقت فكي وتنفست رائحته، وحاولت سلب بعض من صلابته. بعد ذلك، وقبل أن أغيّر رأيي، قلت كلمة «وداعًا» مخنوقة، بدت كتنهيدة أو سعال أو نصف ضحكة، أنا لا أعرف حتى كيف بدت. استدرت وسرت بسرعة نحو الأمن، وأنا أجرّ حقيبتي خلفي، قبل أن أعدل عن قراري.

أخرجت جواز السفر الجديد، النظام الإلكتروني للحصول على إذن السفر الذي جسّد وسيلتي للعبور إلى مستقبلي لدى مسؤول يرتدي ملابس رسمية، والذي لا أستطيع تذكر وجهه عبر دموعي. وبعد ذلك، وأثناء توجُّهي إلى الطائرة، عدت أدراجي فجأة. كان يقف هناك عند الحاجز، لا يزال يراقب. تبادلنا النظرات ورفع هو يده فاتحًا راحتها، ورفعت أنا يدي ببطء بدوري. ثبتت هذه الصورة له في مخيلتي- الطريقة التي انحنى بها، الضوء على شعره، الثبات الذي ينظر بي من خلاله دومًا- حتى يمكنني أن أستعين بها في الأيام التي أشعر فيها بالوحدة. والأيام السيئة. والأيام التي أتساءل فيها عما أقحمت نفسي فيه بحق السماء. لأن كل هذا كان جزءًا من المغامرة أيضًا.

حركت شفتيّ قائلة أحبك، وأنا لست واثقة حتى إن كان بوسعه رؤية الكلمة من هنا.

بعد ذلك، وبينما أحمل جواز سفري بقوة في يدي، استدرت مبتعدة.

سوف ينتظر ليشاهد طائرتي وهي تزيد من سرعتها وتعلو في السماء الزرقاء الفسيحة. وببعض الحظ، سيكون هنا مجددًا، ينتظرني، عندما أعود إلى الديار ثانية.

شكر وتقدير

أوجِّه الشكر كما اعتدت دومًا لوكيلة أعمالي، شيلا كراولي، ومحررتي لويزا مور، لإخلاصهما الدؤوب ودعمهما اللامتناهي. أشكر الأشخاص الموهوبين العديدين في Penguin Michael Joseph، الذين ساعدوني على تحويل مسودَّة مبدئية إلى شيء لامع على فيالق أرفف الكتب: وأخص بالذكر ماكسين هيتشكوك، وفرانشيسكا راسل، وهازل أورمي، وهاتي آدم سميث، وصوفي إلتسون، وتوم ويلدون، وكل الأبطال الذين لم يتلقوا الحفاوة الكافية الذين يساعدوننا نحن المؤلفين على بلوغ النجاح. كم أحب كوني جزءًا من فريقكم.

وأقدم امتناني البالغ لكل من عمل إلى جوار شيلا في Curtis Brown، شكرًا لدعمكم، خاصة ريبيكا ريتشي، وكاتي ماكجوان، وصوفي هاريس، ونيك مارتسون، وكات باكل، ورانيت أهوجا، وجيس كوبر، وأيس لوتنز، وسارة جاد، وبالطبع جوني جيللر. وفي الولايات المتحدة، أتوجه بالشكر للرجل الفريد بوب بوكمان.

شكرًا لكم على صداقتكم واجتماعاتنا للغداء المليئة بالنصائح والحكمة حول الأمور المتعلقة بالنشر: كاثي رانسيمان، ومادي ويكهام، وسارة ميليكان، وأول باركر، وبولي سامسون، وداميان بار. أنتم مذهلون. رجوعًا إلى الوطن، أشكرك يا جاكي تيرني (أعدك أني سأطلع على

إيميلاتي أولًا بأول في أحد الأيام!)، وكلاري راوث، وكريس لاكيلي، ودرو هازل، وكل من ساعدني على القيام بما أقوم به.

أشكر أيضًا شخصيات وطاقم Me Before You. فوجودي هناك بينما تتحول شخصياتي إلى لحم ودم كان شرفًا استثنائيًا، وتجربة لن أنساها قط. كنتم جميعًا عباقرة على حد سواء (خاصَّة إيميليا وسام).

شكري وحبي لوالديَّ- جيم مويزس وليزي ساندرز- وعلى الأخص تشارلز وساسكيا وهاري ولوكي. إنكم عالمي.

وشكر أخير للأعداد الغفيرة من الناس ممن كتبوا لي عبر تويتر وفيسبوك أو موقعي الإلكتروني، بينما يريدون معرفة ما حدث لـ لويزا من فرط تعلّقهم بها. لم أكن لأفكر في تأليف هذه الرواية لولا أنها ظلت تعيش بهذا الشكل الحي داخل مخيلاتكم. أنا سعيدة لأنها نجحت في ذلك.

كما في روايتها السابقة (أنا قبلك) تأتي (بعدك) بالروح الفكاهية ذاتها والنَفَس المنعش. كما أنها تتناول موضوعًا أكثر حساسية وصعوبة؛ حالة الفقد والفراغ المصاحب لها وضرورة مواصلة الحياة والاستمرار.

Miami Herald

شكرًا للأعداد الغفيرة من الناس ممن كتبوا لي عبر تويتر وفيسبوك أو عبر موقعي الإلكتروني، يطالبون بمعرفة ما حدث لـ لويزا من فرط تعلّقهم بها. ولم أكن لأفكر في تأليف هذه الرواية لولا أنها ظلت تعيش بهذا الشكل الحي داخل مخيلاتكم. أنا سعيدة لأنها نجحت في ذلك.

جوجو مويس

كيف نستمر في المضي قدمًا في حياتنا بعد أن فقدنا شخصا عزيزًا؟ كيف نستطيع بناء حياة تستحق أن تُعاش؟

لم تعد لويزا كلارك مجرد فتاة عادية تعيش حياة تقليدية، فبعد الشهور الستة التي عاشتها مع ويل ترينر، والتي كان لها أثر كبير في حياتها، تعاني لويزا الآن ألم فقدان ويل.. كيف ستعيش من دونه... حادث غريب يحصل معها ويجبرها على العودة إلى بيت أهلها فتشعر أنها عادت إلى نقطة البداية مرة أخرى.

تصميم الغلاف نجاح طاهر





التوزيع الحصري: دار التنوير

An Imprint of Dar Altanweer